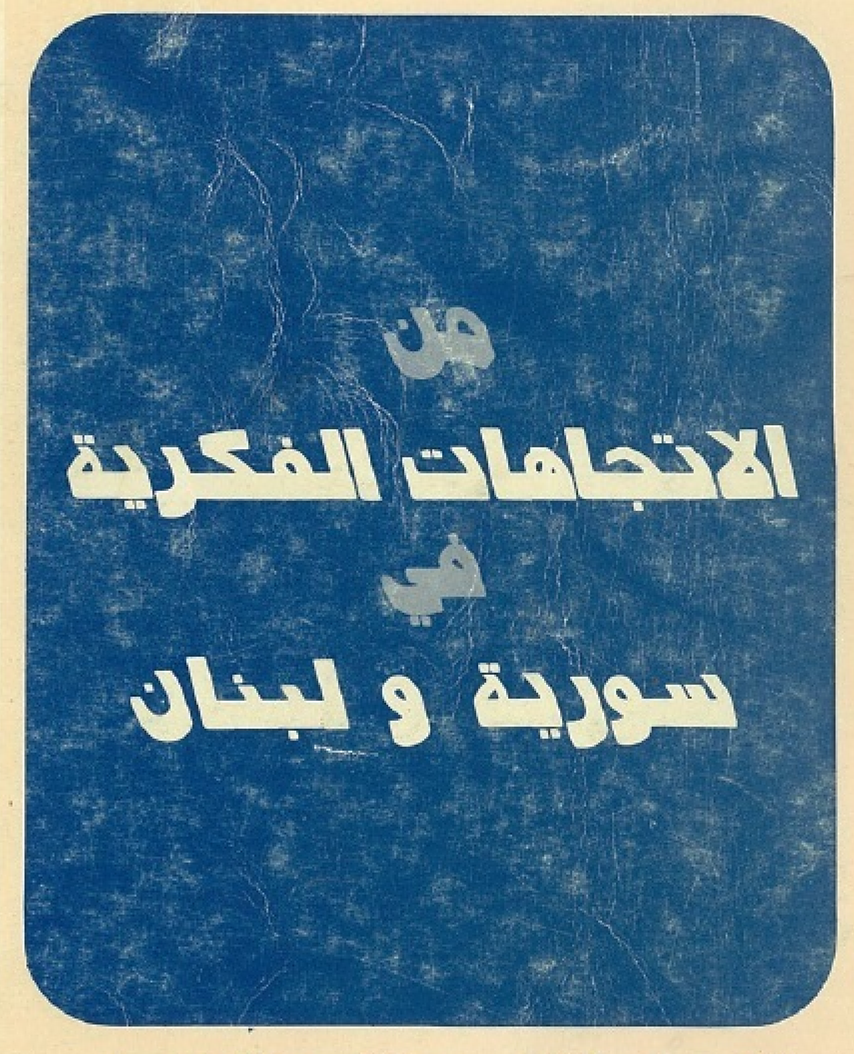
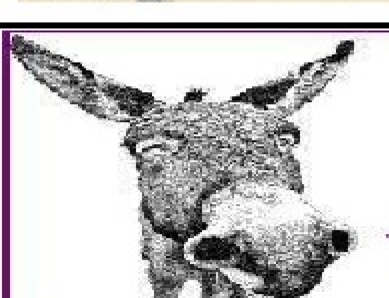
عبد الله حنا
دكتور في التاريخ



من الاتجاهات الفكرية في سورية و لبنان

«النصف الأول من القرن العشرين»





من
الاتجاهات الفكرية
في
سورية ولبنان

الطبعة الأولى ٤/ ٨٧/ ٣٠٠٠

الاهــالــي
للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق ـ هـ ٤٢٠٢٩٩، ص.ب ٩٥٠٣، تلكس ٤١٢٤١٦

من
الاتجاهات الفكرية
في
سورية ولبنان
«النصف الأول من القرن العشرين»

عبد الله حنا
دكتور في التاريخ



المقدّمة

- ١ -

تتميز عصور الانعطافات التاريخية باحتدام الصراع على مختلف المستويات وفي سائر الميادين الاقتصادية والسياسية والايديولوجية. وفي العصر الحالي، عصر الصراع بين الاشتراكية والرأسمالية، وبين الاستعمار وحركة التحرر الوطني، تصبح الحاجة ماسة للوصول إلى تفسير فلسفي للتبدلات العميقة الجارية في الحياة الاجتماعية، التي تتردّد اصداء اصطراعها في النظريات الفكرية المختلفة. وليس الصراع الفكري الحالي بين القوى التقدمية والقوى الرجعية الا امتداداً تاريخياً للصراع القديم بين المادية والمثالية، بين من يسعون لتغيير المجتمع وتطويره، وبين من يعملون لابقاء المجتمع في حالة من الركود والجمود لصالح الطبقة المسيطرة المستثمرة. لقد اتخذ الصراع الفكري بين القوى التقدمية الداعية الى التغيير والقوى الرجعية المدافعة عن الأوضاع المتخلفة أشكالاً وصوراً مختلفة خلال التطور التاريخي، وكانت الافكار الرجعية تقف دائماً سداً منيعاً أمام الافكار التقدمية، التي كانت تشق طريقها عبر صراع يطول أو يقصر تبعاً للظروف المحيطة بها. ومن الأمثلة على ذلك ماجرى في فرنسا على أعتاب الثورة الفرنسية (١٧٨٩)، حين سبق الاستيلاء على الباستيل هجوم على الدعامات الروحية الرجعية للعالم القديم الاقطاعي ولم يكن النصر على طغاة الباستيل نتيجة لنمو العلاقات الرأسمالية الفتية في أحضان النظام الاقطاعي فقط، بل كان أيضاً ثمرة للصراع الفكري بين قوى البرجوازية الناشئة التقدمية آنذاك، وبين قوى الاقطاعية ومن يقف إلى جانبها.

أما بعد أن تحولت الرأسمالية الى رأسمالية احتكارية ثم إلى امبريالية، فإن البرجوازية فقدت صفتها التقدمية السابقة. وبعد أن كانت أفكار برجوازية القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر تنادي بالتطور وتغيير العلاقات الاقطاعية، انقلبت افكار برجوازية الرأسمالية الاحتكارية الى عدو لدود للتطور وتغيير علاقات الاستثمار البرجوازية واخذت تعتمد على كل ماهو رجعي متخلف في التراث الحضاري حفاظاً على السيطرة البرجوازية والامبريالية. وبالمقابل فقد برزت

الافكـار الاشـتراكيـة ، نتيجـة لنمـو الطبقـة العـاملة ، ودخلت في صراع مع الافكار البرجوازية منذ منتصف القرن التاسع عشر ، وماقبله . ولذا فإن العصر الحالي ، وهو عصر أعمق انقلاب اجتماعي في التاريخ ، سيلغي النظام الطبقي القائم على استغلال الانسـان للانسان وسيبني مجتمعاً جديـداً خاليـاً من جميع أشكال الاضطهاد الطبقي وغيره . . .

فالعصر الحالي إذن ، هو ، على هذا الصعيد ، عصر الصراع الفكري الحاد بين المفاهيم البرجوازية الرامية الى الذود عن التيار الرأسمالي وبين نظرة البر وليتاريا الى العالم ، وهو ايضا عصر الصراع الفكري بين حركة التحرر الوطني أو القومي ، وبين الامبر يالية الساعية إلى الحفاظ على مواقعها وإطالة عمر الرأسمالية .

كان كارل ماركس وفردريك انجلز أول من كشف النقاب عن الطابع الطبقي لايـة ايـديـولـوجيـة . لقـد أشـار ماركس وانجلز إلى أن الطبقة المستثمرة تحاول نشر أفكـارهـا مدعيـة أنها أفكار الأمة جمعاء[1] . هذا مايصدق على البرجوازية التي تدعي تمثيلهـا للأمـة وتـرفض وجود أي أفكار أخرى . وهذا حال البرجوازية السورية التي استقت أفكـارهـا بشكـل رئيسي من البرجوازية الفرنسية وادعت أنها الممثل الوحيد للأمـة وقـاومت الايديولوجيات الأخرى داخل المجتمع . وبالمقابل لم تعدم البلاد من ادعى بوجود ايديولوجية ليست برجوازية وليست اشتراكية .

ولكن لينـين كان قد طرح المسألة قبل ذلك على الشكل التالي : أما ايديولوجيا برجـوازيـة وأمـا ايـديـولـوجيـا اشتراكية ، وليس ثمة وسط بينهما ، فالبشرية لم تصنع ايـديـولـوجيـا «ثـالثـة» . ففي مجتمـع تمزقـه التناقضات الطبقية لايمكن أن توجد أية ايـديـولـوجيـا خارج الطبقات وفوق الطبقات . كما أن كل انتقاص من الايديولوجيا الاشتراكية وكل ابتعاد عنها إنما هو في خد ذاته ، بمثابة تمكين للايديولوجيا البرجوازية وتوطيد لها» .

فالصـراع الفكـري في عالم اليـوم يتمـركز أساساً في الصراع بين الايديولوجية البـرجـوازيـة والايـديولوجية الاشتراكية . ولاتتوقف نتيجة هذا الصراع أو بالاحرى

---

(١) ف . كيللي ، م . كوفالزون : «المادية ـ التاريخية» . نقله عن الروسية أحمد داود ـ دمشق ١٩٦٧ . ص ٨١ .

انتصار الايديولوجية الاشتراكية، على تصفية العلاقات المادية التي تولد الايديولوجية البرجوازية فحسب وإنما ترتبط بالكفاح الفكري الحازم ضد الايديولوجية البرجوازية. ومعنى ذلك أن ايديولوجية الطبقة التقدمية تسهم بدور هام وأساسي في تحرير الناس من الافكار البرجوازية الفردية الانانية المعادية للتقدم ورفاه المجتمع. فالايديولوجية الاشتراكية تعرّي جميع تناقضات المجتمع الرأسمالي والاقطاعي وتبرهن على حلول المجتمع الاشتراكي مكان الرأسمالي، وهي خير سلاح في الصراع ضد الايديولوجية البرجوازية وآثارها الضاربة في أعماق الشعب، كما أنها تربي الانسان على حب العمل والنشاط لصالح مجتمعه والانسانية جمعاء.

ـ ٢ ـ

لقد اعتمدت هذه الدراسة في تتبعها للتيارات الفكرية وتطورها على مفهومي القاعدة والبنية الفوقية[٢].

فالقاعدة هي: مجموعة العلاقات الانتاجية، أي مجموع العلاقات القائمة في حقل الانتاج وعمليات التبادل والتوزيع التي تؤلف البنية الاقتصادية التشكيلة الاجتماعية.

والبنية الفوقية هي: مجموعة العلاقات الايديولوجية والنظرات والمؤسسات، التي تنمو وتترعرع على قاعدة معينة ثم لاتلبث أن تؤثر في هذه القاعدة، وهذا مايعرف بالتأثيرات المتبادلة بين القاعدة (السبب) والبنية الفوقية (النتيجة).

ومعنى ذلك أن الافكار ليست وليدة التفكير خلف الجدران، بل هي ثمرة العلاقات الاقتصادية المادية ونتاج للصراع الطبقي المحتدم في المجتمع وانعكاس للمصالح الطبقية لهذه الطبقة أو تلك. ولكن هذه الافكار لاتلبث أن تؤثر تأثيراً ايجابياً أو سلبياً في القاعدة أي في العلاقات الاقتصادية الاجتماعية، التي ولدت هذه الافكار. فالافكار توجد في وعي الناس كانعكاس لواقع محسوس، ثم تقوم بدورها في التأثير في هذا الواقع وتغييره.

---

(٢) المصدر نفسه ص ٧٥ ـ ٧٧.

- ٣ -

ان المجتمع العـربي في بلاد الشام، الذي تتناول هذه الدراسة افكاره في فترة مابين الحربين العالميتين أو بالاحرى في الفترة الواقعة بين ١٩٢٠ ـ ١٩٤٥ تميَّز بجملة ظاهرات معينة وخضع لتأثيرات مختلفة ودخل في اطار تأثيرات (محاور) ثلاث كوّنت أفكاره وهي :

١ ـ القاعدة أو البنية التحتية للمجتمع .
٢ ـ التأثيرات العالمية المختلفة .
٣ ـ التراث القومي وجوانبه المتعددة .

أولاً : تأثير القاعدة

وقد اتصفت هذه القاعدة، أو البنية التحتية للمجتمع، بما يلي :

١ ـ سيطـرة العـلاقـات الاقطـاعيـة على القسم الأكـبر من الريف، ورسوخ العـادات والتقـاليد الاقطاعية البالية في أعماق الجماهير الواسعة . وقد مكن الاستعمار الفـرنسي لهذه العـلاقـات ورسـخ جذورها وجعلها احدى ركائزه الاساسية لاحكام سيطـرتـه على البـلاد بالتعـاون مع الاقطـاعيـة وبـرجـوازيـة الكـومـبرادور، وهي البرجوازية المستوردة للبضائع والمرتبطة بالسوق الرأسمالية الخارجية .

٢ ـ الانتشار النسبي للعلاقات الرأسمالية، التي بدأت في بلاد الشام في أواخر العهد العثماني مع اتساع السوق الرأسمالية العالمية . وقد أدى هذا الانتشار للعلاقات الـرأسـماليـة، على الـرغم من نسبيتـه وانحصـاره في منـاطق معينـة، إلى ازدياد قوة الـبرجـوازية الوطنية ولاسيما البرجوازية التجارية ومن ثم الصناعية، التي اخذت في ترسيخ اقدامها على اعتاب الحرب العالمية الثانية وأثنائها .

٣ ـ احتـلال الطبقـة الـوسطى لمكـانـة مرمـوقـة، متمثلة في الريف بالفلاحين الاغنيـاء وقسم من الفـلاحـين المتـوسطـين، وفي المـدينة بمعلمي الحرف وأصحاب «المانيفاكتورات» والمثقفين بمختلف مهنهم . وهذه الطبقة تشعبت اتجاهاتها، وقامت بأدوار مختلفة بحكم موقفها بين الطبقات «العليا» والطبقات «الدنيا» .

٤ ـ أدت بداية انتشار العلاقات الرأسمالية الى بداية ظهور العمال والى خلق القاعدة اللازمة لتكوّن الطبقة العاملة. التي لم تبرز ملامحها الواضحة الجلية الا بعد الاستقلال (١٩٤٦) وبعد تطور الصناعة السورية المضطرد.

٥ ـ ولم تكن الطبقات المستثمَرة من الفلاحين الفقراء والعمال في وضع يمكنها، في عهد السيطرة الاستعمارية، من الاستقلال الفكري المطلق عن الآخرين، بل كانت هذه الطبقات المسحوقة خاضعة فكرياً إلى مستثمِريها لأسباب مختلفة. وهذا يفسر غياب الايديولوجية الاشتراكية الواضحة ـ في تلك الفترة ـ أو بالاحرى عدم رؤية هذه الايديولوجية بالعين المجردة. ولكن هذه الايديولوجية الموجودة في أعماق الحياة الاجتماعية اتيح لها الظهور على السطح بفضل عوامل خارجية كان في طليعتها تنامي قوة الحركة العمالية العالمية وانتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية في روسيا سنة ١٩١٧. وقد تمّ ظهور الافكار الاشتراكية في سورية ولبنان قبل الحرب العالمية الثانية في الغالب على يد مثقفي البرجوازية الصغيرة الأكثر تقدمية، الذين أعربوا عن آمال ومطامح الطبقات المستثمَرة المُستعبدة.

ثانياً: التأثيرات العالمية المختلفة

ان من يتتبع التيارات الفكرية في سورية، كما في غيرها، عليه الا يقتصر في بحثه على أثر القاعدة في هذه التيارات، بل هو ملزم بتقصي التأثيرات الخارجية بمختلف نواحيها السياسية والاقتصادية والفكرية في قيام التيارات الفكرية وتطورها.

لقد خضعت أفكار المجتمع العربي في سورية ولبنان في فترة مابين الحربين إلى تأثيرات خارجية أهمها:

١ ـ الاحتلال الاستعماري الافرنسي، مما أدى إلى ترسخ الثقافة الافرنسية، التي دخلت البلاد منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ومع أن المستعمرين الافرنسيين حاولوا نشر ثقافتهم الرجعية فقط، إلا أن مختلف تيارات الثقافة الفرنسية تمكنت من ولوج باب الفكر العربي في سورية. وهذه التيارات هي:

أ ـ ثقافة البرجوازية الفرنسية في القرن الثامن عشر الثائرة على الاقطاع والكنسية.

ب ـ ثقافة البرجوازية الفرنسية المستعمِرة، التي تنكرت لمبادىء الثورة الفرنسية وداستها بالاقدام وسحقت كومونة باريس سنة ١٨٧١ وقاومت الحركة العمالية وغزت البلدان الأخرى.

ج ـ ثقافة البرجوازية الصغيرة الافرنسية المتمثلة بشكل رئيسي في «الاشتراكية الديمقراطية» وأمميتها الثانية المتحالفة عملياً مع الاستعمار.

د ـ ثقافة الطبقة العاملة الفرنسية الداعية إلى تحرير المستعمرات والمطالبة باستقلالها والمتمثلة جملة في سياسة الحزب الشيوعي الافرنسي.

٢ ـ خضوع الاقطار العربية المحيطة بسورية للاستعمار البريطاني، الذي أثرت افكار بلاده تأثيراً معيناً ومحدداً على التيارات الفكرية في بلاد الشام.

٣ ـ بعد فشل الرأسمالية الاميركية في أعقاب الحرب العالمية الأولى من الدخول الى بلاد الشام بسبب مقاومة الاستعماريين الافرنسي والبريطاني، حاولت الدبلوماسية الاميركية الدخول مع ثقافتها «كمحرر» للبلاد من النفوذين الفرنسي والانكليزي. وقد قامت الجامعة الاميركية في بيروت بدور هام في هذا الموضوع مخططة لذلك باحتضان العناصر الشابة من البرجوازية العربية بأمل الاستفادة منها في المستقبل.

٤ ـ غزو الافكار الفاشستية للبلاد، وقد ازداد تأثيرها في الثلاثينات بعد انتصار الهتلرية في المانيا سنة ١٩٣٣. لقد اجتاحت هذه الافكار قسماً من العقول، التي كان بعضها مخدوعاً بهذه المبادىء وبعضها مدفوعاً بعدائه للاستعماريين الانكليزي والافرنسي وفق القاعدة القائلة: عدو عدوك صديقك. لقد حاول الاستعمار الالماني وكذلك الايطالي الضرب على وتر تخليص العرب من الاستعماريين الانكليزي والافرنسي من أجل الحلول محلهما.

٥ ـ ظهور الدولة الاشتراكية الأولى في العالم، التي أعطت لحركات التحرر الوطني في العالم زخماً قوياً للنضال ضد الاستعمار، والتي ساعدت الفكر التقدمي في البلدان المستعمرة والتابعة، وغذته بالزاد الفكري الضروري.

ثالثاً: التراث القومي وجوانبه المتعددة

لقد كان تأثير التراث القومي، ولايزال، في نشوء التيارات الفكرية وتطورها

قوياً جداً، ولا يعني تصنيفنا له في المرتبة الثالثة الانتقاص من أهميته بل على العكس فإن تأثير التراث النابع من تاريخ الامة قوي جداً على مختلف التيارات. ولكن نسبة أخذ كل تيار منه أو تأثيره فيه أو ببعض جوانبه مختلف من تيار إلى آخر. فالتيارات المادية الحالية تأخذ من التراث المادي وتنهل من معينه والتيارات المثالية (الميتافيزيكية) الحالية تعتمد على التراث المثالي وتحاول طمس التيارات التقدمية في التاريخ العربي واسدال الستار عليها أو تحريفها.

- ٤ -

في ضوء هذا الثالوث من التأثيرات الاقتصادية - الاجتماعية والخارجية والتراثية نلاحظ بوضوح أن بصمات الايديولوجية ماقبل الرأسمالية لاتزال واضحة المعالم، وإلى جانبها نجد أفكار البرجوازية الليبرالية التي لعبت قبل عدة عقود من السنين دوراً ثورياً تقدمياً، ثم أخذ جانبها الرجعي يبرز أكثر فأكثر مع تعمق الصراع الاجتماعي واحتلال الفئات الدنيا للمواقع السياسية، التي سعت في الستينات لتحطيم البنى الرأسمالية الكبيرة.

وفي الوسط تقف أفكار البرجوازية الصغيرة متأرجحة ومتصارعة بين يمين ويسار، ورجعية وتقدم، ورأسمالية واشتراكية.

وأخيراً نرى فكر الاشتراكية العلمية، الذي أخذ في الستينات يحتل مواقع هامة بعد أن تبنته - بالاضافة إلى الطبقة العاملة وفقراء الفلاحين - أمواج كبيرة من البرجوازية الصغيرة الثورية.

على الرغم من هذا التصنيف الطبقي للتيارات الفكرية، فإن تصنيفاً آخر ينطلق من التصنيف الطبقي، ويفرز التيارات الفكرية إلى ثلاثة اتجاهات هي:

١ - التيارات الدينية التي انتعشت في السبعينات ولاتزال في أوج قوتها.

٢ - التيارات القومية التي احتلت الساحة في الخمسينات.

٣ - التيار الماركسي الذي حاز قصب السبق في الستينات.

إن هذا التقسيم لايعني أن هذه التيارات منعزلة بعضها عن بعض، بل هي تتمازج وتتشابك تشابك الطبقات والفئات التي تفرز هذه التيارات، وثمة نقاط جسور مفتوحة أحياناً ومغلقة أحياناً أخرى بين هذه التيارات.

فداخل التيار الديني توجد تيارات «دينية قومية» و«دينية شبه اشتراكية» وفي قلب التيار القومي نزعة تتطلع إلى التيار الديني وأخرى ترنو بأبصارها إلى التيار الماركسي، وفي مجرى التيار الماركسي نشاهد جداول قومية متنوعة الألوان، وآراء تسعى للتوفيق بين الدين والماركسية.

- ٥ -

يتبين من هذه المقدمة ان نشوء التيارات الفكرية وتطورها في سورية ولبنان في فترة مابين الحربين العالميتين خضع إلى العوامل نفسها التي خضعت لها البلدان الرازخة تحت نير الاستعمار. فالبنيان الاقتصادي - الاجتماعي بتناقضاته المختلفة مارس تأثيراً جوهرياً في تكون وتطور وتشعب الحياة الفكرية. كما أن الثقافة القومية بجوانبها المتعددة اسهمت في وجود التيارات المختلفة. وقامت الثقافة العالمية: البورجوازية والاشتراكية - بدور هام في تطوير وصقل التيارات الفكرية وفي تقديم المادة الفكرية لهذه التيارات وفي توضيح معالمها المختلفة.

لقد عكست أقوال المفكرين ورجال السياسية الذين عاصروا الحياة الفكرية في فترة مابين الحربين هذه المعطيات، ودلّت أقوالهم على مدى تبعثر التيارات الفكرية التي لم تكن إلا انقساماً لاحوال المجتمع. ولعل من المفيد ايراد تقييم بعض هؤلاء المفكرين للوضع الفكري في فترة مابين الحربين، إذ أن ذلك يعطينا صورة قريبة من الحقيقة للحالة الفكرية السائدة في تلك الفترة، ويدلنا على مدى فهم المفكرين البرجوازيين لاسباب تشعب التيارات الفكرية واهمالهم وعدم إدراكهم تأثير البناء التحتي والعلاقات الاقتصادية الاجتماعية، في تكوين وتطور التيارات الفكرية، جاء في أقوال هؤلاء المفكرين مايلي:

■ ان الامة «عندنا مقسمة إلى عناصر متباينة يفكر بعضها تفكيراً لاتينياً، والبعض الآخر تفكيراً أنكلو سكسونيا، ويحيا فريق فيها حياة شرقية محافظة والفريق الآخر حياة غربية متهورة، ويسلك بعض جماعاتها سلوكاً دينياً والجماعات الاخرى سلوكاً علمانياً»[٣] - (من كلام قسطنطين زريق في أواخر الثلاثينات).

---

(٣) زريق قسطنطين: «نظرات في الحياة القومية المتفتحة في الشرق العربي» - طبعة جديدة منقحة - بيروت ١٩٤٠، ص ٧٦ - ٧٧.

■ « . . . فمنّا» ـ أي من رجال الكتلة الوطنية في الثلاثينات ـ «من كانت تربيته تركية ومنا من كانت تربيته فرنسية ومنا من كانت تربيته أميركية» ثم هنالك «ماانحدر فينا من وراثات عائلية ومحلية وقومية[٤]» . (هذا حكم الدكتور عبد الرحمن الكيالي) .

■ واذا أردنا أن نصف الموقف في العالم العربي إجمالاً فهو موقف تفريط وجمود وصفته البارزة هي التمسك بالقديم لقدمه وانقياد الى سنن الآباء والجدود انقياداً أعمى حتى كادت بعض أقطاره تعد من عالم القرون الوسطى . . . والعلاج الذي ينفعنا في طورنا الحاضر هو من حيث الأساس التجديد لأننا لانشكو عدم الاستقرار بل نشكو المرة الساكنة وليس احد منا مصاباً بالسرعة بل كلنا بطيء[٥] . (هذا ماقاله الدكتور عبد الرحمن الشهبندر في أواسط الثلاثينات) .

■ كما أدى وجود البعثات التبشيرية والعلمية المختلفة في بلاد الشام واختلاف أهداف التعليم ومناهجه في هذه المدارس وتنوع الاتصال الثقافي الى ظهور اتجاهات فكرية داخل التيار البورجوازي الكبير والصغير . «فوجد اناس حذقوا الثقافة اللاتينية وتعودوا التفكير النظري المجرد ومنهم ذوو افكار مجردة وفلسفة عقلية . ووجد جماعة تبنوا الثقافة الانكلو سكسونية وتعودوا التفكير العلمي واستمدوا افكارهم من الملاحظة والتجربة التي يعيشوها طبعاً . فعلومهم عملية ، وطريقتهم تجريبية ، وأفكارهم شخصية . وهنالك أناس حذقوا الثقافة العربية وعملوا على اغنائها بما وجدوه في الثقافات الاجنبية المختلفة من لقاح فكري جديد وهم المعتدلون المولعون بالقديم والحديث معاً الراغبون في ثقافة عربية متجددة تستمد من الماضي مايتمشى وحاجات العصر وتقتبس من الثقافة الاجنبية ما يلائم عبقرية العرب ومزاجهم الثقافي»[٦] . (الدكتور جميل صليبا) .

---

(٤) إلكيالي عبد الرحمن : «المراحل في الانتداب الفرنسي وفي نضالنا الوطني» ـ حلب ١٩٥٨ ، ج٤ ، ص ٥٣٥ .

(٥) الشهبندر عبد الرحمن : «القضايا الاجتماعية الكبرى في العالم العربي» ـ القاهرة ١٩٣٦ ، ص ٦ .

(٦) صليبا جميل : «محاضرات في الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام» ـ القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٦٦ ـ ٦٧ .

■ وكتب شاعر العاص سنة ١٩٣٨ في مجلة «الطليعة الدمشقية» التقدمية مقسّماً التيارات الفكرية إلى ثلاث فئات :

- «فئة السلف الصالح تحن بتأثير الشعور القومي إلى عهد الوليد والرشيد» .

- «تعيش بجانبها فئة على نقيضها لا يستهويها الماضي وقد اتجهت نحو اوروبا» .

- «وهناك فئة قد اتحد فيها الشعوران القومي والحديث فهي تمثل اليقظة بأتم معانيها ولكنها قليلة وأثرها ضعيف»[٧] .

- ٦ -

هذه بعض أقوال من عايشوا الحياة الفكرية في الثلاثينات وكتبوا عنها وأدلوا بآرائهم فيها وتعصبوا لهذا المذهب الفكري أو ذاك حسب منشئهم الاجتماعي ومصدر تربيتهم. ويمكننا أن نرد هذه الاتجاهات الفكرية المتباينة الى أربعة تيارات كبرى يتميز بعضها عن بعض أحياناً وتتشابك أحياناً أخرى، نبعت من التناقضات الاقتصادية - الاجتماعية داخل المجتمع المحلي والعربي وتأثرت بالتيارات الفكرية العالمية، وكذلك تأثرت - وهذا هام جداً - بالتراث الفكري العربي والاسلامي بجوانبه المختلفة واتجاهاته المتباينة .

• هذه التيارات الفكرية الكبرى هي :

١ - التيار الاقطاعي .
٢ - التيار البوروجوازي الكبير .
٣ - التيار البورجوازي الصغير .
٤ - التيار الاشتراكي .

وقد ظهرت داخل كل تيار، لاسيما البورجوازي، اتجاهات عديدة مختلفة زاد في انقسامها وتشعبها حالة المجتمع الذي عاشت فيه وعكست تناقضاته المختلفة الداخلية والخارجية، وعبّرت بتفرعاتها وترددداتها عن المجتمع المضطرب الذي ترعرعت في أحضانه، والذي كان يتمخض عن تحولات اقتصادية - اجتماعية ستظهر

---

(٧) العاص شاكر: «سوريا والافق الجديد» في: مجلة «الطليعة» الدمشقية. شباط - آذار ١٩٣٧، ص١١٥ .

• آثارها جلية بعد الحرب العالمية الثانية.

كان لأفكار الثورة البورجوازية الفرنسية تأثير عميق في تطور الحياة الفكرية في الشرق العربي في القرن التاسع عشر. ومع أنَّ هذا التأثير لم يتعد طائفة المثقفين، فإن تأثيره الكيفي كان عظيماً ولاسيما بعد الحرب العالمية الأولى وبعد احتلال فرنسا لسورية ولبنان باسم الانتداب. وقد بيَّن رئيف خوري بوضوح أثر الثورة الفرنسية في الحياة الفكرية والسياسية في كتابه «الفكر العربي الحديث، أثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي»(٨). وبيَّن كيف تمّ لقاح الفكر العربي بمبادىء الثورة الفرنسية.

وبعد انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية في روسيا ١٩١٧ بدأ تأثير الافكار الاشتراكية بالانتشار السريع بين بعض الفئات الليبرالية من البورجوازية الصغيرة وبين الجماهير الكادحة وظهر مثقفون اعتنقوا الماركسية بمجموعها أو تبنوا بعض جوانبها وتركوا الجوانب الأخرى، اما خوفاً وتقيّة أو بسبب عدم فهمهم الكامل للماركسية أو لطبيعة تكونهم الاجتماعي. وهكذا فإن من تبنى الافكار الاشتراكية الماركسية من المثقفين هم أشخاص تحدروا اما من الفئات البورجوازية الصغيرة أو من الفئات الفقيرة المضطهدة المظلومة. وقد شكل الأوائل مانسميهم فيما بعد، «الديمقراطيين الثوريين» في حين تبنى مثقفوا الفئات الفقيرة المضطهدة الماركسية بمجموعها وكانوا رواد التيار الاشتراكي في سورية ولبنان.

ويجب الا يغرب عن بالنا أن التيار الديمقراطي الثورية تأرجح في تأثره بين أفكار الثورة البورجوازية الفرنسية وأفكار الثورة الاشتراكية. كما أن التيار الماركسي الاشتراكي كان تأثره قوياً بمبادىء الثورة الفرنسية لاسيما الاتجاهات الديمقراطية فيها.

ولم نعثر في أثناء بحثنا على أثر ظاهر وقوي لافكار الاشتراكية الديمقراطية ومبادىء الاممية الثانية في المفكرين في سورية ولبنان. ومما لاشك فيه أن تأثير الاصلاحية الاشتراكية قد وجد له صدى في بعض أوساط المثقين ولكنه لم يجد حتى

---

(٨) خوري رئيف: «الفكر العربي الحديث، أثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي» - بيروت ١٩٤٣، ص ١٩٣.

الحـرب العـالميـة الثـانيـة الـتربـة الصالحة لنموّه لاسباب كثيرة يرجع أولها إلى طبيعة الحركة الوطنية المعادية للاستعمار، أولا، وإلى التركيب الاجتماعي للمجتمع، ثانياً، وضعف نفـوذ الفئـات الاجتـماعيـة التي نمت في أحضـانهـا الاشـتراكية الديمقراطية المنـاديـة بالسلم الطبقي والمـوافقـة على استعـمار المتروبول (انكلترا وفرنسا) للبلدان الضعيفـة التطّـور. ومعنى ذلـك أن الاشـتراكية الديمقراطية وأمميتها الثانية لم تجد لها تربة خصبة في سورية ولبنان في فترة مابين الحربين وكان تأثيرها حتى الحرب العالمية الثـانيـة ضعيفـاً. أما بعد الحرب العالمية الثانية وبعد تكوّن فئات اجتماعية تنحدر من الطبقـة الـوسطى مشـابهة إلى حد ما في تكوينها للعناصر التي تكونت منها الاشتراكية الديمقراطية في اوروبا، أخذت الافكار الاشتراكية الديمقراطية بالنمو، ودخلت في صراع مع التيار الماركسي مما أدى إلى اضعاف الفكر التقدمي بمجموعه.

- ٧ -

حتى منتصف القرن التاسع عشر كانت الايديولوجية الدينية الصوفية هي السـائـدة في المشرق العربي، ومع بداية تكوّن البورجوازية كطبقة وبفضل الاتصال بأوروبـا الـرأسمالية أخذت الافكار البورجوازية بالانتشار المحدود في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

لقد مر تكـون الاتجاهات الفكرية (السياسية والاجتماعية) في المشرق العربي بثلاث مراحل رئيسية هي:

١ ـ مرحلة النهضـة منـذ منتصف القـرن التـاسـع عشـر وحتى انهيـار الـدولة العثمانية عام ١٩١٨. وفي هذه المرحلة ظهر تياران رئيسيان:

ـ التيار الديني المناهض للصوفية وطرقها وايديولوجيتها الاقطاعية والراغب في السير بالاسلام نحو الحضارة البورجوازية.

ـ التيار العلماني الليبرالي، الذي اختلف مظهره في كل من مصر وبلاد الشام. ففي مصر الرازحة تحت نير الاحتلال الاستعماري البريطاني منذ عام ١٨٨٢ اتخذ هذا التيار مظهراً وطنياً مصرياً مناهضاً للاستعمار البريطاني، ولم يكن ير في الدولة العثمانية عدواً مباشراً له، بل إن بعض أجنحة هذا التيار سعت تكتيكياً للاستفادة من أفكار

«الجـامعـة الاسـلاميـة» أو «الجـامعة العثمانية» لتسعير النضال في مصر ضد الاحتلال الـبر يطـاني. أمـا في بلاد الشـام وما بين النهرين الخاضعة مباشرة للاحتلال العثماني، فإن التيار الليبرالي كان تياراً قومياً عربياً. مناهضاً بالدرجة الأولى للاحتلال العثماني الذي حكم باسم «الجامعة الاسلامية». ومن هنا يمكن فهم أحد الأسباب التاريخية الرئيسية لطغيان التيار الاسلامي في مصر وانتشار التيار القومي العربي في بلاد الشام والعراق.

٢ ـ مرحلة النضال ضد الاحتلال الاستعماري، وتمتد من نهاية الحرب العالمية الأولى ١٩١٨ حتى نهاية الحرب العالمية الثانية. وامتدت في بعض الأقطار حتى نهاية الخمسينـات. في هذه المـرحلة تراجعت أفكار «الجامعة الاسلامية» بعد انهيار الدولة العثمانية، وإلغاء منصب الخلافة عام ١٩٢٤. وفي الوقت نفسه انتشرت على نطاق واسع الأفكار القومية ذات المحتوى البورجوازي والعلماني، واحتلت مكاناً بارزاً في الحيـاة السيـاسيـة. كما أخـذت الأفكـار الاشتراكية بعد ثورة أكتوبر تشق طريقها في خضم منـاخ اجتـماعي حيث كانت الطبقـة العـاملة في المشرق العربي لاتزال في دور التكـوين، وقـد نشـط المثقفـون الـديمـوقـراطيـون الثـوريـون في التعريف بأفكار الاشتراكية العلمية ونشرها.

٣ ـ مرحلة الاستقـلال الوطني والنضال من أجل توطيده. وتتميّز هذه المرحلة باستمـرار النضـال الوطني وتصاعده من جهة، واحتدام حدة الصراع الاجتماعي من جهـة أخـرى. وقـد كان لإقامة دولة إسرائيل على أرض فلسطين، وقيام هذه الدولة بالغزو والتوسع والعدوان، أثر واضح في صياغة التيارات الفكرية وتبلورها.

وفي هذا الكتاب سنعالج عملية تكون التيارات الفكرية وتطورها في مرحلتي النهضة والنضال ضد الاحتلال الاستعماري ونقف على أبواب مرحلة الاستقلال الوطني.

الباب الأول

بداية تكوّن التيارات الفكرية
في أواخر العهد العثماني

الفصل الأول

العوامل الرئيسية المؤثرة في الحياة الفكرية

تأثر المناخ الفكري والنفسي ومستوى الثقافة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بجملة عوامل رئيسية واخرى ثانوية أهمها :

١ ـ **نظام ملكية الأرض**. التابعة في معظمها للدولة أي للسلطان وولاته والجهاز الاقطاعي الحاكم ، ان نظام الاقطاعية الشرقية هذا ، المتميز بعدم وجود طبقة اقطاعية ترث الاملاك وتورثها ، وخضوع هذه الطبقة الاقطاعية المقيمة في المدن لسيف المصادرة ، الذي يلاحقها بعد اقالتها من مناصبها خلق جواً اخلاقياً معيناً لدى الفئات العليا اتسم بالحذر والرياء والخديعة والكذب والغدر وحبك المؤ امرات . . الخ .

وقد ادى عدم وجود طبقة اقطاعية مستقرة لفترة من الزمن ، كما جرى الامر في أوروبا ، الى انبعاث جملة ظاهرات طبعت المدن العربية العثمانية بطابع خاص واثرت في طبقتي الخاصة والعامة بما فيها القوى العسكرية حامية النظام . وقد كان لوجود القوى الاقطاعية الدائم في المدن الى جانب سكان المدن وفوق رأسهم ، أثرٌ في اسباغ لون خاص على المناخ الفكري للسكان المكتوين يومياً بنار الارهاب العسكري الاقطاعي الشرقي وشروره وآثامه .

٢ ـ **العلاقات التجارية** المتسمة بتبادل المواد الخام ، التي انتزعتها الطبقة الاقطاعية الحاكمة من منتجيها كريع عيني ، بسلع الترف والابهة المستوردة من البلدان الاجنبية لتغذية عجرفة الباشاوات العثمانيين وسد حاجات حرمهم وحشمهم الى البذخ والترف وكل أمر ليس له صلة بالانتاج الحقيقي .

ومع أن التجارة الداخلية وتبادل السلع بين المدن والقرى أخذ يتطور في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، إلا أن تطوره تراوح في مكانه ولم يؤ د حتى نهاية القرن التاسع عشر إلى تطور يخلق البذور الصالحة لنمو الرأسمالية والانتاج الصناعي . أي أن الانتاج البضاعي البسيط تراوح في مكانه ولم يتطور باتجاه الانتاج البضاعي الرأسمالي .

٣ ـ الصناعات الحرفية الطوائفية المبنية على العمل اليدوي وتنظيم الحرفيين في طوائف ذات تسلسل هرمي اسهم إلى حد كبير في بلورة المناخ الفكري للعامة المؤلفة بمعظمها من طوائف الحرفيين، فكان لكل طائفة حرفية تقاليدها وعاداتها الخاصة وسلوكها المعروف. وقد أسهم الوضع الاجتماعي والاقتصادي للحرفيين في دفعهم إلى الانتظام في الطرق الصوفية، التي عرفت ازدهاراً ملحوظاً في هذه الفترة. ولكنه ازدهار بالمعنى التراجعي للكلمة وليس بمعناها التقدمي الثوري. فصوفية القرنين الثامن عشر والتاسع عشر صوفية جامدة مغلقة على نفسها ليس فيها الا الاساطير والخرافات. وكانت كل طائفة حرفية تربط نفسها بولي وطريقة صوفية وتساهم في احياء حفلاتها الدينية. هذا الجو الفكري الصوفي المتزمت المتخلف للحرفيين هو في الواقع نتاج الركود الاقتصادي وبقاء المدن العربية العثمانية تعيش حياة ساكنة راكدة عديمة التطور والحياة بسبب سيطرة النظام الاقطاعي الشرقي العثماني، وعدم تمكن النواة البورجوازية من التطور والانطلاق. ولهذا بقيت الطرق الصوفية مسيطرة على اذهان الجماهير، على الرغم من صيحات حركة الاصلاح الديني الاسلامي في أواخر القرن التاسع عشر، ذات المحتوى البورجوازي.

٤ ـ التراث القومي والديني ومايضم في ثناياه من عناصر ثورية نيرة واخرى رجعية متزمتة. وقد أدّى التخلف الاقتصادي والركود الفكري الى قيام «رجال الثقافة» المتخلفين بالالتجاء إلى الجوانب السلبية الرجعية المتزمتة من التراث والاعتماد عليها لتبرير الاستثمار الاقطاعي العثماني وتخذير العامة وحرفها عن النضال الثوري ضد مستثمريها . ومع أن مسيرات الطرق الصوفية اصطدمت في كثير من الاحيان مع الطبقة الحاكمة عندما كانت مصالح الحرفيين معرضة للخطر الداهم، إلا أن الطرق الصوفية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لم تؤد دوراً ثورياً عارماً، كما كان الأمر عند نشوء بعض هذه الفرق. ولجأت الطبقة الحاكمة العثمانية الى استغلال الطرق الصوفية ووضعها في خدمتها والسيطرة عن طريقها على الجماهير واخضاعها فكرياً لنفوذها. فالصوفية، التي كانت في كثير من الاحيان احتجاجاً على النظام الاقطاعي الشرقي القائم، اخذت تتحول احياناً الى اداة في يد هذا النظام لعرقلة التطور وبقاء التخلف والتحجر سائدين.

٥ ـ **أثّر الفكر البورجوازي الاوروبي** بتياراته المتنوعة تأثيراً واضحاً في العناصر البورجوازية الناشئة في الشرق العثماني. ومع ان تأثيره كان واضحاً وجلياً في المثقفين المستنيرين المسيحيين، إلا أن هؤلاء لم يكن بامكانهم ان يتغلغلوا في قلوب العامة، باكثريتها المسلمة، ويسيطروا على تفكيرها. واقتضى الامر فترة من الزمن إلى ان شرع المثقفون المستنيرون المسلمون في الربع الاخير من القرن التاسع عشر في حمل بعض ألوية التطور البورجوازي مستعينين في مقارعة الرجعية الفكرية والسياسية بالرجوع الى الجوانب الثورية التقدمية من التراث، والدعوة الى نبذ الجوانب السلبية أو الجامدة، التي تكرس التخلف الاقطاعي وتحد من التطور البورجوازي.

وقد اتهم رجال التنوير بدمشق بالوهابية أحياناً[1] وبالماسونية، التي دخلت دمشق سنة ١٨٦٤، أحياناً[2] أخرى. والوهابية من جهة والماسونية من جهة أخرى كانتا الملاذ الامين للمثقفين البورجوازيين في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

وعندما أطل التطور البورجوازي برأسه على المدن العربية الشامية العثمانية كان منذ ولادته مهيض الجناح، لأن جملة لواء هذا التطور تألفوا في البدء من الفئات التجارية المسيحية، التي لم يكن بامكانها التصدي للطرق الصوفية والوقوف أمام سيلها الجارف. اذ ان كل محاولة بورجوازية لمقارعة الاقطاعية ورديفها الفكري الطرق الصوفية بمضمونها المتخلف المتزمت اتهمت بأنها هجوم من المسيحية على الاسلام. ولم تبدأ المقاومة البورجوازية الجدية للفكر الاقطاعي، الا عندما بدأت قوى التنوير الاسلامي المتمثلة بجمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده ورشيد رضا بمقاومة الفكر الديني السائد والدعوة الى الرجوع الى الينابيع الأولى، أي الى القرآن الكريم وعهد الصحابة الأولين.

---

(١) البارودي فخري: «مذكرات البارودي» دمشق ١٩٥١، ج١، ص٨٥.

(٢) قساطلي نعمان: «كتاب الروضة الغناء في دمشق الفيحاء»، بيروت ١٨٧٩، ص ٩٢.

الفصل الثاني
الفكر الصوفي

في العهد العثماني أصاب التخلف والانحطاط الفكر الصوفي، وتحول الى فكر سطحي متزمت، ولكنه أدى حاجة ملحة تتناسب مع ظروف حياة الجماعات وعهد الفوضى والاضطراب والقلق السائد آنذاك. وكان انتشار تيار الصوفية وحلقاتها المتعددة وفرقها الكبيرة، الوجه الآخر لمتطلبات المجتمعات العثمانية الاقطاعية الشرقية والحرفية. وكان انتشار الفرق الصوفية[٣] على نطاق واسع ودخولها إلى أعماق جماهير المدينة صدى للاحتجاج غير المباشر على نظام الحكم السائد آنذاك، ومظهراً من مظاهر الحياة الحرفية وحاجتها الى التكتل والدفاع عن مصالحها المهنية والمعاشية والحياتية. وقد قامت هذه الجماعات الحرفية بتحويل المفاهيم الصوفية العقلية والروحية الى تعبيرات عملية وأسس اخلاقية تسير حياتها الاجتماعية، متبعة في ذلك تقاليد معينة وهي تمارس رياضة نفسية خاصة تحت اشراف شيوخها المحليين[٤].

ويمكن القول إلى حد بعيد، أن فرق المتصوفة كانت لها دويلاتها الخاصة بها في اطار الدولة العثمانية وأحياناً خارج اطارها. فمواكب المتصوفة في الشوارع وولائمهم في البيوت واجتماعاتهم في المساجد والزوايا، وتغلغل نفوذهم في المدن والقرى وامتداد سلطاتهم إلى مختلف فئات الشعب وتسربهم إلى قصور الحكام والاغنياء كانت من الامور المألوفة آنذاك. وقد زادت دويلات الطرق الصوفية من عروشها بالايمان وبما لها

---

(٣) حول الطرق الصوفية راجع الزركلي خير الدين: «الاعلام» عدة مجلدات، كرد علي محمد: «خطط الشام» ج٦، ص٢٧٦. حاضر العالم الاسلامي: تأليف لوثروب ستودار وترجمة عجاج نويهض: القاهرة ١٣٥٢هـ، المجلد ٢، ص ٣٤٩. الشطي محمد جميل: «أعيان دمشق في القرن الثالث عشر ونصف القرن الرابع عشر» دمشق ١٩٤٦. مردم بك خليل: «أعيان القرن الثالث عشر» دمشق. المحبي «خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر» ج١، ص٣٢، ج٣ ص٢٠٨. دائرة المعارف الاسلامية عدة مجلدات.

(٤) صباغ ليلى: «المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني» دمشق ١٩٧٣، ص ١٨٤.

من سلطـان في قلوب العـامـة وقسم كبير من الخاصة . وهذا مادفع توفيق الطويل إلى القـول : «ان دولـة الفقـراء الصوفية كانت اثبت قدماً واعظم نفوذاً وأقوى سلطاناً من دولة بني عثمان»[٥] .

ولاشـك ان نظـام الاقطـاعيـة الشرقية في عصوره الاخيرة ، وماساده من ظلام وجهـل وشـدة وفقـر وفوضى وقهر وظلم وعهر أسهم في ثبات دويلات الطرق الصوفية ورسـوخ قدمهـا وشيـوع تعـاليمهـا بين النـاس . ووصـل الامـر ببعض فرقها وخاصة الدراويش والمجاذيب ـ أو من تظاهر بالجذب لتغطية اهداف اجتماعية أو سياسية ـ الى الضرب بعرض الحائط بأعراف البلاد وتقاليدها وحتى بدينها . ومن هذه الزاوية يمكن فهم بعض جوانب الصـوفية بأنها تعبير عن الاحتجاج على المجتمع الطبقي القائم ، بغض النظر عن الوسائل المتبعة في هذا الاحتجاج .

كانت أهم الطرق الصوفية التي انتشرت بين عامة بلاد الشام هي :

١ ـ البكتاشية ، التي تغلغلت في صفوف الانكشارية .

٢ ـ المـولـويـة ، التي اشتهرت بحفلاتها الدينية في التكايا والزوايا ، حتى اطلق عليهم اسم الدراويش الراقصين .

٣ ـ النقشبنـديـة ، التي تعتبر نفسها أقرب الطرق وأسهلها على المريد للوصول إلى درجات التوحيد .

هذه الطـرق الثـلاث لم يكن معـتـرفـاً بها من قِبَـلِ الطـرق الـرئيسيـة الأربـع للصوفية ، التي نسبت نفسها إلى الامام علي وفاطمة الزهراء ، وهي :

٤ ـ الـرفـاعيـة ، التي لمعت مع وصـول أحـد مشـايخها إلى قصر السلطان عبد الحميد في أواخر القرن التاسع عشر ، وهو محمد أبو الهدي الصيادي من خان شيخون إلى الجنـوب من حلب . وقـد مثـل الصيـادي الجانب الرجعي من الصوفية ووقف في وجه حركة التجديد الاسلامي ، وقام بنشر عدد من الكتب الموضحة والمفسرة للطريقة الرفاعية .

٥ ـ الجيـلانيـة أو القـادريـة ، التي ظهـرت في بغداد واحيط مؤسسها بهالة من التقديس والاساطير .

---

(٥) الطويل توفيق : «التصوف في مصر إبان العصر العثماني» القاهرة ١٩٤٦ ، ص١٠٩ .

٦ ـ البدوية، التي لاقت رواجاً كبيراً في مصر، ولم تنتشر انتشاراً واسعاً في بلاد الشام.

٧ ـ الدسوقية، وظهرت في مصر أيضا، وانتشرت في بلاد الشام وينسب إليها كثير من الخوارق.

٨ ـ بالاضافة إلى هذه الفرق عرفت الشام أيضا السعدية والشاذلية وغيرهما من الفرق، التي كانت في الواقع أحزاباً للعامة وفق مفاهيم ذلك الزمن.

* * *

مع أن الانتاج الفكري للحضارة العربية الاسلامية أخذ في الهبوط منذ القرن الثالث عشر الميلادي، الا أن بعض ومضات هذه الحضارة ظهرت هنا وهناك في القرون التالية. ولكن ومع مجيء القرن الثامن عشر أمست الارض الفكرية العربية في بلاد الشام قاحلة الا من بعض الاشواك الجافة ذات المذاق المر، واستمر الامر على هذا المنوال في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ثم أخذت، بفعل العوامل المذكورة آنفاً، بعض الاعشاب النافعة والازهار اليافعة بالظهور والتفتح في خضم ذلك المحيط القاحل القاتل. وأخذ الصراع يشتد بين القديم المهتم بتوافه الأمور والمعتقد بالخرافات والاساطير وبين الجديد الساعي الى احياء التراث الحي وإلى الاقتباس من الحضارة البورجوازية الناهضة في أوروبا.

أرخ فكرياً لهذه الفترة عدد من الدمشقيين والحلبيين المهتمين بتلك المواضيع، فالشيخ راغب الطباخ أرخ عام ١٩٢٢ «لعلماء» حلب في كتابه «اعلام النبلاء بتاريخ حلب» تناول فيه سائر رجال الدين ومشايخ الطرق وأصحاب الكرامات بتفصيل زائد. وتعليقاً على صدور كتاب الطباخ كتبت مجلة المجمع العلمي العربي ذات الاتجاه المستنير قائلة أن الطباخ «ترجم للمجاذيب ولكرامات المغفلين والمطنبر والعاشق والمعمار ممن عدهم في العوام»[٦]. وتعليق مجلة المجمع العلمي العربي المستنيرة هو احتجاج على نشر فكر متخلف جامد من بقايا عصر الانحطاط.

---

(٦) مجلة المجمع العلمي العربي ١٩٢٣، ص٢٠٦.

من الـرجـوع إلى تراجم أعيـان القرن التاسع عشر يمكن تصنيف هؤلاء الى الفئات التالية:

١ ـ «اعيان» اشتهروا بالخوارق.

٢ ـ «اعيان» عرفوا بالجذب وهم خلفاء الاولياء.

٣ ـ «اعيان» اولياء تُزار قبورهم، والدعاء عند قبورهم مستجاب.

٤ ـ «اعيان» فقراء خدموا السلك (الطريق) بأمانة وصدق.

٥ ـ «اعيان» تجار ومعلمو حرف.

٦ ـ «اعيـان» علماء والمقصـود بالعلم هنـا العلم الـديني، لأن العلوم الاخـرى كانت مجهولة.

٧ ـ «اعيان» على صلة بالسياسة وهؤلاء دخلوا ميدان السياسة في أواخر القرن التـاسـع عشـر بعـد مجيء السلطـان عبـد الحميد الى السلطة وسعيه لكسب قاعدة اجتماعيـة واسعـة عن طريق الـدين وبخـاصـة عن طريق مشـايـخ الطـرق يستطيع بواسطتهم الوقوف أمام التيار الاصلاحي البورجوازي الآخذ في التكون في الدولة العثمانية...

اتى في طليعـة هؤلاء الاعيـان ابـو الهدى الصيادي الرفاعي[٧]، الذي تولى في البدء نقابة الاشراف في حلب ثم قصد «دار الخلافة»، اي استنبول، حيث حاز على ثقة السلطان عبد الحميد وجرى بين الشخصيتين تبادل للمنافع على مستوى رفيع في رجعيتـه. فعبـد الحميـد اغـدق على ابي الهـدى الأموال ومنحه السلطة. وأبو الهدى وصف عبـد الحميـد بأنـه «الخليفـة المعظم ظل الله في العالم، وارث سرير خلافة سيد المخلوقين نبينا وسيدنا محمد ﷺ ناصر الشريعة الغراء، وناشر ألوية الطريقة السمحاء خادم الحرمين الشريفين امام المشرقين والمغربين...».

---

(٧) من كتب ابي الهـدى الصيـادي المطبوعة: «كتاب الطريقة الرفاعية، تأليف الوارث النبوي.. السيـد محمـد ابـو الهدى افندي ثم الرفاعي الصيادي لازال ينسخ سواد الجهل ببيض الايادي آمين» مصـر ١٣٢٥. و«كتـاب العناية الربانية في ملخص الطريقة الرفاعية» تأليف الامام شيخ الطريقة، ومعـدن السلوك والحقيقـة، الجـامـع بين الـرياستين، السالك على سنن جده سيد الكونين...» اسطنبول ١٣٠١.

ولاشك أن صعود أبي الهدى وصلاته القوية بالسلطان عبد الحميد هي حصيلة المناخ الفكري السائد في عصر الاستبداد الحميدي.

وهؤلاء الاعيان، الذين عملوا في السياسة ايام السلطان عبد الحميد مثلوا الاتجاه الرجعي المناهض للتقدم والتطور والعلم واعتبروا تلك الأمور من البدع المخالفة للشريعة. ووصل الامر بالشيخ سعيد الغبرة انه إستصدر ارادة سنية من السلطان عبد الحميد بمنع تمثيل الروايات في دمشق، مما اضطر رائد المسرح السوري ابا خليل القباني من مغادرة دمشق والالتجاء إلى مصر، مأوى جميع الاحرار والمناوئين للاستبداد في اواخر ايام الدولة العثمانية(*).

(*) في منتصف القرن العشرين لم يعد بامكان التيار المتزمت تهجير رجال الفن والمسرح كما كان الأمر في السابق ولكنه كان لايزال يرفع صوته محتجاً على هذه البدع. ويبدو ذلك واضحاً من خلال كتاب شحادة الخوري: «فصول في الادب والاجتماع والتربية والثقافة والحياة العامة» الصادر في دمشق عام ١٩٥٦، جاء في الكتاب:

«.. ونسمع بين حين وآخر جماعات تطالب باغلاق دور العرض للسينما والتمثيل.. ولكن فاتهم ان التمثيل السينمائي مثل غيره من مبتكرات العلم والفن سلاح ذو حدين.. فإذا شاؤوا حماية الآداب وصيانة الاخلاق، فليطالبوا بانتاج سينمائي سليم. ومما يؤسف له ان يتردى الانتاج السينمائي المصري العربي في غالبيته في وهدة سحيقة، إذ فاته الموضوع والشكل معاً. الموضوع معاد مكرر سطحي غث، ينظر الى الماضي لا الى الغد، ويعنى باهل القصور الذين يشكون التخمة ويتذمرون من الراحة وينصرفون إلى الجهالات والحماقات، أكثر مما يعنى بجمهرة الشعب الذي يئن من النكبات والويلات».

الفصل الثالث
تصدع العلاقات القديمة وظهور الأفكار الجديدة

صدّعتْ حملة ابراهيم باشا في اربعينات القرن التاسع عشر اوصال المجتمع الاقطاعي الحرفي وخلخلت جذوره واسهمت في بداية نقله من مجتمع تسوده علاقات الاقطاعية الشرقية إلى مجتمع يحمل بعض البذور البورجوازية.

وجاءت الاصلاحات الفوقية الصادرة عن السلطة العثمانية والمتمثلة بخط شريف كلخانة ١٨٣٩ أولاً، والخط الهمايوني ١٨٥٦ ثانياً، لتنسف الغطاء الشرعي القانوني للاستبداد الشرقي ولتفسح المجال أمام القوى الجديدة المستنيرة لكي تنطلق وتتحرر معتمدة على هذا الاساس الشرعي للتصدي لبعض اسباب التخلف والتأخر.

كان من نتائج «خط همايون» صدور قانون الأراضي في نيسان ١٨٥٨[٨]، الذي الغى بصورة شرعية نظام الاقطاعيات العسكرية. واختفى نتيجة لذلك الباشوات الاقطاعيون في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ودخلت مع حركة الاصلاح مفاهيم بورجوازية محدودة في الادارة والحكم. ودخل الغزو الامبريالي للرأسمال الاوروبي عاملاً جديداً في تحول الدولة العثمانية إلى دولة نصف مستعمرة خاضعة للنفوذ الانكليزي والافرنسي أولاً ثم الألماني ثانياً.

بعد صدور قانون الأراضي العثماني لعام ١٨٥٨، الذي اضفى الصفة الشرعية على الملكية الخاصة الفردية، بعد ان كانت ملكية الدولة للأرض هي القاعدة العامة السائدة، صدر في سنة ١٨٦١ قانون تسجيل الأراضي العثماني «الطابو» لضبط حدود الأراضي وتنظيم جباية العشر، وعندها ازداد الصراع العنيف بين القوى الاجتماعية على امتلاك الأرض. وكانت الغلبة طبعاً لاصحاب النفوذ السياسي والديني والعسكري. ففي ظل ظروف سيطرة الدولة العثمانية الاقطاعية

---

(٨) انظر النص الكامل لقانون الاراضي العثماني في: الدستور، المجلد الأول ترجمه عن اللغة التركية، نوفل افندي نعمة نوفل، بيروت ١٣٠١. ص١٤٠ - ١٦١.

الشرقية فُسِّرَ قانون الأراضي وطُبق في صالح «اولي الامر»، ومن في يدهم مفاتيح تسجيل هذه الأراضي في دوائر الدولة العقارية، أو من يملكون الثروة مقدماً، وبإمكانهم رشوة الحكام وتسجيل الأرض او شراؤها اسماً بأسعار بخسمة لتسجيلها.

هذا التملك الجديد للأراضي وما تُدِّرُه من ارباح وثروة احدث خللاً في نسبة التوازنات الاجتماعية والسياسية والاسرية، وخلق قوى جديدة صعدت في السلم الاجتماعي من الطبقات الوسطى، مع ترسخ أقدام الأسر القديمة ذات النفوذ الديني.

إن «أرباب الوجاهة» حسب تعبير محمد كرد علي ـ هؤلاء أمست لهم طباع واخلاق خاصة أشار إليها فخري البارودي في مذكراته واصفاً المحيط الارستقراطي في دمشق بأنه «محيط نفاق وجهل»، «وكان أكثرهم ينظرون إلى الناس نظرتهم إلى العبيد والخدم. والخدم والعامة كانت تتزلف من الخاصة هؤلاء».

وقد أيّد يمين طبقة الخاصة (الأسر المرتبطة بالمؤسسة الدينية والاسر شبه العسكرية) الدولة العثمانية الاقطاعية ودعمها وكان جزءاً منها. أمّا يسار طبقة الخاصة (العائلات التجارية) فهو الذي بث الحياة في حركة النهضة العربية وحركة التنوير الديني، وقاد حركة الاصلاح واللامركزية، وتطلع بأبصاره إلى الاستقلال عن الدولة العثمانية وسعى لتوثيق صلاته مع العامة.

تاريخياً كانت فئة التجار أكثر تحضراً وتحمل بذور التطور داخل الطبقة الغنية الثرية. ولم تكن ذات جذور ارستقراطية. وبسبب احترافها التجارة فقد كانت ذات عقل ديناميكي متحرك نسبياً. ولم تكن تتمتع، في البدء، بامتيازات الفئات القديمة صاحبة الثراء والسلطة والجاه. وهذا مما حتّم ظهور فوارق واضحة احياناً وخفية احياناً اخرى بين الفئات التجارية والفئات غير التجارية داخل الطبقة الغنية الثرية المسيطرة. وهؤلاء شكلوا البذور المنتشة للبورجوازية الوطنية الناشئة. هذه البورجوازية التجارية الناشئة لم تكن بورجوازية تجارية خالصة، بل كانت بورجوازية تجارية، مالكة للأراضي الزراعية. ولهذا فان طبيعتها كانت مزدوجة فهي، من جهة، تحمل بذور الثورة والتحرر من القديم الاقطاعي، ومن جهة اخرى تتعاطف، بسبب ملكيتها للأرض مع العلاقات الاقطاعية السائدة. وهذا الطابع المزدوج انعكس على سياستها المترددة وخطها المتعرج المناوىء للحكم العثماني والساعي للتفاهم معه في آن واحد. ومن هذه العائلات تحدرت، على الغالب، البورجوازية الوطنية، التي سعت

بعد الحرب العالمية الأولى إلى اقامة صناعة وطنية واقتصاد مستقل ونظمت نفسها سياسياً في أواخر العشرينات في «الكتلة الوطنية»، التي تزعمت النضال الوطني المناهض للانتداب ووصلت إلى جزء من السلطة في أواخر الثلاثينات وقطفت الثمار اليانعة بعد الاستقلال (١٩٤٣).

كانت عامة المدن منتظمة في الطرق الصوفية المتعددة ذات السمات الايجابية والسلبية، الثورية والخاملة الخانعة. وكان للجوانب الثورية من الصوفية دور بارز في تحركات عامة مدن دمشق وحلب وغيرها في القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر. وجاء السلطان عبد الحميد ١٨٧٨ وسعى لاحتضان الصوفية وطرقها وخنق الجوانب الثورية فيها وترجيح جانبها السلبي الخامل المؤدي إلى الخضوع للحاكم والابتعاد عن المشكلات الاجتماعية. وقد نجح عبد الحميد نجاحاً باهراً في كسب معظم الطرق الصوفية إلى جانبه وتوجيهها توجيهاً ينسجم مع سياسته كسلطان ممثل للسلطة الاقطاعية العثمانية في عصر الغزو الامبريالي والصراع بين قوى الرأسمال الاوروبي على تقاسم الدولة العثمانية. ولهذا فإن عامة المدن، أو على الاقل اقسامها الرئيسية، خضعت خضوعاً شبه تام للسلطان عبد الحميد وخُدعت بسياسته المعروفة بالجامعة الاسلامية. وامسينا نرى العامة تقف في أواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين ضد حركة التنوير والتجديد الاسلامي والنهضة العربية. وذلك بسبب اعتقادها الخاطىء أن حركة النهضة العربية هي ضد الدين الاسلامي، كما اوحى لها بذلك رجال الدين الموالين للسلطان عبد الحميد والمطبلين له.

ولم يكن من المعقول في ظل الجو الارهابي الاستبدادي، وفي ظل الارهاب السياسي والفكري وفي الهواء المشبع بالمواد المخدرة للعامة، ظهور اية حركة شعبية او ولادة أية حركة ثقافية. وعاشت البلاد في ظلام دامس. واستمر اهتمام الناس «بالقشور دون اللباب» واستمر الجمود والتخلف حتى زوال السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٨. وعندها تمكنت حركة الاصلاح المقهورة ان تسترد انفاسها وتبدأ في التحرك على اعتاب الحرب العالمية الأولى.

الفصل الرابع

اعلام رجال التنوير

إن أهم من أسهم في حركـة التنـويـر وحمل مشعل النهضة في تلك الفترة الشيخ طاهر الجزائري وعبد الرحمن الكواكبي وعدد من المتنورين المسيحيين.

١ ـ **الشيخ طاهر الجزائري**[٩]: ولد في دمشق سنة ١٢٦٨ هـ، ونشأ في حجر والده مفتي السـادة المـالكيـة، وتلقى مبـادىء العلوم المعـروفة في ذلك العصر من استاذه الخاص الشيخ عبد الغني الغنيمي الشهير بالميداني (١٢٢٢ ـ ١٢٩٨هـ). وكان الغنيمي كما روى الشيـخ طاهـر: «من العلماء المحققـين الـواقفين على لباب الشريعة واسرارها، البعيـدين عن البـدع والخـرافـات». ومن الغنيمي اخـذ الجـزائري بذرة التمرد على الجمـود. والغنيمي هي احـدى الطـرق الصـوفيـة المتشعبـة عن الشـاذلية. وقد ترك الغنيمي طريقـة أجـداده الصـوفيـة، وسلك طريق الكتـاب والسنـة[١٠]. ولا نعلم المؤثرات التي دفعته إلى سلوك هذا السبيل. هل هو التأثير الوهابي، أم طريق خاص اختطه لنفسه اخذ في الظهور في معظم المدن الشرقية في خضم التيارات الصوفية المائجة؟

والمـلاحـظ ان الشيخ طاهر كان صوفياً ثم أخذ في الابتعاد عن التصوف، وفتح طريقـاً جديـداً في دمشق كان له أثـره العميق في مسـار التطـور الفكـري الـلاحق في النصف الاول من القـرن العشـرين. فمن حلقتـه تخرج عدد من قادة الحركة الوطنية ـ العربية في الربع الاول من القرن العشرين[١١].

---

(٩) استقينا معظم المعلومات غير المشار إليها عن الجزائري من: الباني محمد سعيد: «تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر» مطبعة الحكومة العربية السورية، دمشق ١٩٢٠، ص٧٣ ـ ٧٥.

(١٠) هذا ما رواه حفيده يوسف الغنيمي في لقاء معه في ٢٠/ ١٢/ ١٩٧٨.

(١١) من أمثـال رفيق العظم، محمـد كرد علي، فارس الخـوري، عبد الرحمن الزهراوي، شكري العسـلي، عبـد الـوهـاب الانكليـزي، عبد الرحمن الشهبندر، وسليم الجزائري، وغيرهم. راجع القاسمي ظافر: «جمال الدين القاسمي» دمشق ١٩٦٥، ص ٤٤١، وهذا ماأكده محمد كرد علي في كتابه «كنوز الاجداد» دمشق ١٩٥٠، ص ٥ ـ ٤٦.

اضطر الشيخ طاهر وبسبب سياسته المستنيرة هذه إلى مغادرة سورية والالتجاء إلى مصر سنة ١٣٢٥هـ، شأن معظم الوطنيين المعادين للاستبداد العثماني. وبقي في مصر حتى قيام الحكومة العربية (الفيصلية) في دمشق، فعاد إليها وعين اكراماً له في أوائل ١٩٢٠ مديراً لدار الكتب الظاهرية، التي كان قد أسسها. ولكنه توفي بعد ثلاثة أشهر من عودته. وقام تلميذه محمد سعيد الباني بنشر تراثه الفكري في كتاب مطبوع أيام الحكم الفيصلي، ومنه سنأخذ أهمّ أفكار الجزائري، التي كان لها الريادة في حركة التنوير الدمشقية وهي:

١ ـ الوقوف ضد المؤلفين، الذين يضيعون الوقت بالمؤلفات الفارغة، إذ يتناولون كتاباً قد شرحه من سلفهم شروحاً عديدة على أساليب مختلفة فيعيدون شرحه بنفس الفاظ الشراح السالفين بدون ادخال اصلاح أو تجديد أو اختراع في الأسلوب.

٢ ـ توحيد المكتبات الموجودة في دمشق وجمع الكتب النفيسة المخطوطة فيها.

٣ ـ سعيه لاحياء اللغة العربية واستثارة دفائنها، والعناية باحياء التاريخ ونبش الآثار.

٤ ـ السعي وراء التوفيق بين الدين والعلم والعمران. فقام اولاً بنسخ واستنساخ كتب ابن تيمية وابن القيم الجوزية وأبي شامة المقدسي وأمثالهم ممن لهم اليد الطولى في مكافحة البدع. فكان يدعو إلى العودة إلى روح الشريعة وحكمتها والعمل على تنقيحها مما ألصق بها من الحشو والبدع وجميع ما لم يثبت به نقل ولا يقبله عقل. وجاهد للبرهنة على أن الدين يسير مع العلم والعمران والرقي الاجتماعي واقامة الادلة الشرعية على أن الدين لا ينافي العلوم الكونية. وهكذا يتقلص جمود اعداء التجدد ويتضح ان علة انحطاط المسلمين ليست منبثقة عن دينهم بل ناشئة عن انحرافهم عن منهج دينهم القويم.

ويرى الجزائري أن جمود المعلمين السطحيين المنكرين للخسوف والكسوف والقائلين بتسطح الأرض وارتكازها على قرن الثور. (هذا في أواخر القرن التاسع عشر) يبعد خريجي المدارس العصرية عن الدين. ولهذا تجب الحرب ضد جمود

الجامدين من أدعياء نصرة الدين الذين يحاولون الحيلولة بينه وبين العلم والعمران ويضعون العقبات في سبيل التعبيد والرقي.

٥ ـ دعا إلى مطالعة الصحف والمجلات. وكان له شغف بالاطلاع على ما تنشره الصحف من الترجمة عن الغرب واقتطاف ثمرات علومه اليافعة. وكان يدعو إلى الأخذ بالنافع من التمدن الحديث مادياً كان أو أدبياً ونبذ الضار منه. ولهذا حث على تعلم لغات الأمم الحية ليتسنى فهم معنى الحياة.

٢ ـ عبد الرحمن الكواكبي: ولد سنة ١٨٤٨ في حلب. في محيط ديني ينتمي إلى الطبقة الوسطى. وبعد ان أصاب حظاً من العلوم العصرية والدينية عمل في الصحافة الرسمية، ثم أصدر جريدة «الشهباء» أول جريدة تصدر باللغة العربية في حلب. ولكن السلطات العثمانية سرعان ما أغلقتها لانتقادها الأوضاع الفاسدة. ثم عمل الكواكبي في التجارة واتصل عن هذا الطريق بالاجانب من تجار وقناصل وسياح وأعجب بالحضارة الغربية (البورجوازية) وكان في الوقت نفسه على اتصال مع العامة عارفاً بهمومها ولهذا أمست مكانته عظيمة وتقلب في وظائف حكومية كان آخرها رئاسة غرفة التجارة فرئاسة المصرف الزراعي. ثم اضطر في سنة ١٨٩٨ إلى الرحيل إلى مصر هرباً من الاستبداد الحميدي[١٢]. وهناك نشر كتابيه «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد»، و«أم القرى».

وكان واضحاً ان الكواكبي متأثر تأثراً عميقاً بالفكر البورجوازي وبمعاناته الشخصية في حلب وبالارث الحضاري العربي الاسلامي.

يرى الكواكبي ان بين الاستبداد والعلم حرباً دائمة، والطرفان يتجاذبان العوام. ولكن من هم العوام؟ «هم أولئك الذين اذا جهلوا خافوا، وإذا خافوا استسلموا. وهم الذين متى علموا قالوا، ومتى قالوا فعلوا»[١٣] وفي رأي الكواكبي أن

---

(١٢) حول حياة الكواكبي راجع: قلعجي قدري: «عبد الرحمن الكواكبي» بيروت ١٩٦٣. عمارة محمد: «مسلمون ثوار» القاهرة ١٩٧٢. موسى منير «الفكر العربي في العصر الحديث» بيروت ١٩٧٣.

(١٣) الكواكبي عبد الرحمن طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» مصر ١٩٣١، ص ٤٠.

جهل العامة هو سبب شقائهم، «فإذا ارتفع الجهل زال الخوف، وانقلب الوضع، أي انقلب المستبد»[١٤].

وهنا يورد الكواكبي معاناته مع السلطان عبد الحميد وخضوع العامة لهذا السلطان وخوف هذا المستبد من العامة. ثم يلح الكواكبي على ما يسميه بالمسليات، فالفقراء يشعرون بآلامهم ولكنه يجهلون أسبابها، وقد يعيدونها إلى السعد أو الحظ أو الطالع أو القدر. والعوام تسيء فهم ما ورد في التوراة والانجيل والقرآن حول الخضوع للحكام خلفاء الله في الأرض[١٥].

ويختتم الكواكبي كتابه «طبائع الاستبداد» بالدعوة إلى الوحدة الوطنية بين الناطقين بالضاد من المسلمين وغير المسلمين وتناسي الاساءات والاحقاد. ومع هذه النزعة القومية نرى عند الكواكبي نزعة شرقية وانسانية واضحة.

وهو، شأن سائر المستنيرين المسلمين، يدعو إلى العودة إلى المنابع الأولى للإسلام وتنقيته مما غشاه من البدع والاساطير. ومع ان كتب الكواكبي احدثت ضجة لا تزال اصداؤها تتردد إلى الآن، إذ أن تأثيره في العامة الحلبية في زمانه لم يكن قوياً. ولم يخلق تياراً فكرياً واضحاً في الداخل، كما فعل الشيخ طاهر الجزائري، الذي عرف داخلياً وكان مغموراً خارجياً، بعكس الكواكبي.

مثل الشيخ طاهر الجزائري في دمشق وعبد الرحمن الكواكبي في حلب الاتجاه المستنير داخل الأكثرية السنية، وعبرا عن بعض آمال الطبقة الوسطى ذات التفكير البورجوازي، وساهما مساهمة واضحة، وبخاصة الجزائري، في خلق تيار فكري سياسي كانت له آثاره البعيدة في أعقاب الحرب العالمية الأولى وبعدها. وقد واجه هذا التيار مقاومة ضارية من التيار الرجعي. والحادثة التالية تقدم صورة عن ذلك الصراع:

في رمضان ١٣٢٦ هـ ١٩٠٨ م بعد الاطاحة بالسلطان عبد الحميد اثر ثورة الاتراك الاتحاديين البورجوازية المشارب. وقف الشيخ رشيد رضا، احد زعماء التجديد الاسلامي والمؤيد للانقلاب الجديد، خطيباً في الجامع الأموي بدمشق وأخذ

---

(١٤) المصدر نفسه.

(١٥) المصدر نفسه.

يشـرح الآيـات والاحاديث بمنظار التجديد الاسلامي ، ويطلب إلى الناس الرجوع إلى سيرة الصحـابـة ، واتبـاع أوامـر النبي والعمـل بها ، وإذا بالشيخ صالح الشريف التـونسي يشق طريقـاً بين الـواقفـين حتى وصل إلى وسط الحلقة وصاح بصوته : ايها المسلمون اسمعوا لي كلمتين . فالتفت الناس جميعهم إليه وسكت الشيخ رشيد ، فراح الشيخ صالح يحذر من الوهابية ومن هذا الشيخ الذي يحرم زيارة قبور الانبياء والاولياء الصـالحـين ، ويمنع التوسل بهم ولايعتقد بكراماتهم ، وحذّرهم منه . ولم يمهل معظم الحـاضـرين الشيـخ رشيـد رضا للرد عليه فهاجوا وماجوا وكادوا يفتكون بالشيخ رشيد لولا أن حَمَاهْ بعض الشبـان المنـورين ، وخـرج النـاس من المسجـد إلى الشارع بهياج عظيم . وازداد هيـاجهم بعـد اعتقال الشيخ صالح من قبل السلطة الجديدة فخرجت المظـاهـرات المسلحـة من الاحيـاء باتجـاه سراي الحكـومـة وهي تسقط جمعية الاتحاد والترقي ، التي نظمت الانقلاب ضد السلطان عبد الحميد . مما اضطر السلطات إلى اخـراج الشيـخ صالـح حالاً . وكـانت هذه الفتنـة المبيتـة من الرجعيين ذات ذيول في دمشق لم تنقطـع لفـترة من الـزمن.(١٦) ودلت على أن حركـة التجديد الاسلامي لم يكن لها ، حتى في مستهل القرن العشرين ، جذور بين العامة الخاضعة للرجعية .

٣ ـ التيـار المسيحي المستنـير : تأخر ظهور مثقفين مستنيرين من المسلمين حتى نهايـة القـرن التـاسـع عشـر . وبقي تيـار التجـديد حتى نهاية الدولة العثمانية ضعيفاً مهيض الجناح ، ثم اخذ في الصمود والتغلب على تيار الجمود والتزمت .

أمـا في الأوسـاط المسيحيـة فان حركة التجديد ظهرت فيها منذ منتصف القرن التـاسـع عشـر . وقـد عبر عدد من المثقفين المستنيرين المسيحيين ، بصورة أوضح من رفـاقهم المسلمـين عن تطلعـات الفكـر البـورجـوازي النـامي في أوساط البورجوازية التجارية المسيحية وبخاصة في مدينة حلب .

دعـا التيـار المسيحي المستنـير إلى حكم ديمـوقـراطي يتسـاوى فيـه الجميع ، ويعطي لكـل حسب كفـاءتـه وجهـده (لاحسب دينـه) ، ويفصـل فيـه الـدين عن السيـاسـة ، ويقـوم على العلم الحـديث . كما نادى انصار هذا التيار بالوطنية والقومية

---

(١٦) هذه روايـة شاهـد العيـان فخري البارودي في مذكراته الآنفة الذكر ص ١٧ . كما ايد الرواية الحصني محمد أديب : «منتخبات التواريخ بدمشق» ج٣ ، دمشق ١٩٢٧ .

التي نشأت وترعرعت في البدء في الأوساط المسيحية ثم انتقلت في مستهل القرن العشرين إلى الأوساط المسلمة المتأثرة اقتصادياً أو فكرياً بالتطور البورجوازي.

اتى في طليعة هذا التيار رزق الله حسون[١٧] (١٨٢٥ - ١٨٨٠) الحلبي، الذي عاش في الوسط التجاري، وفرنسيس المراش (١٨٣٥ - ١٨٧٤) الحلبي، الذي عاش في جو أدبي، ومزج في مؤلفاته الفلسفة بالشعر. وتنم بعض كتاباته عن روح ديموقراطية ثورية. فهو في كتابه «غابة الحق» المؤلف في باريس والمنشور بعد مماته في بيروت ١٨٨١ يقول: «فلولا يد الصغير لم يطل ساعد الكبير، ولولا تعب ذوي الفاقة لم تسهل متاجر ارباب الغني، ولم تحرس أموالهم ولم تقم قصورهم وسرادقهم المشيدة».

ولكن هذه النزعة التقدمية لا تظهر في كتاب المراش «مشهد الأحوال» المؤلف في حلب والمطبوع في بيروت ١٨٨٣ ويعود سبب ذلك إلى تَقِيَته وخوفه وهو في حلب من بطش الحكام وأعوانهم، فغلف افكاره التقدمية الجريئة بالأفكار المألوفة مازجاً الشعر بالنثر معالجاً نظرية أصل الانواع والاجناس مروراً بالمجتمع والسياسة والغزل.

المفكر الحلبي الثالث المشهور هو جبرائيل دلال (١٨٣٦ - ١٨٩٢) صاحب القصيدة المشهورة «العرش والهيكل» التي هاجم فيها رجال الدين المتزمتين والحكم الاستبدادي، ودعا الناس إلى الثورة عليه وتأسيس الحكم الجمهوري. ولهذا القي به في السجن حيث مات فيه بعد سنتين، دون ان تشفع له قصائد المديح بالسلطان عبد الحميد[١٨].

---

(١٧) موسى منير: «الفكر العربي في العصر الحديث» ص ٣٤، وراجع ايضا: الكيالي سامي «الادب العربي المعاصر في سورية» مصر ١٩٦٨. ص ٥٦.

(١٨) المصدر السابق.

الفصل الخامس

برامج الجمعيات والأحزاب السياسية (١٩٠٨ - ١٩١٤)

١ - جمعية الاخاء العربي العثماني

كانت جمعية الاخاء العربي العثماني أول منظمة سياسية عربية بعد اعلان الدستور، اسست في استنبول سنة ١٩٠٨ من كبار الموظفين السوريين وبعض كبار الملاك. حددت المادة الأولى من قانون هذه الجمعية اهدافها بـ « . . . السعي لاعلاء شأن الامة العربية واتخاذ جميع الوسائط والتدابير والارشادات اللازمة لتأسيس معامل وشركات زراعية وصناعية وتجارية . . . ». ويبدو واضحاً من هذه المادة اهتمام القائمين على هذه الجمعية بتأسيس المعامل والشركات ووضع البذور الأولى للتطور الرأسمالي.

استطاع قادة هذه الجمعية أن يكسبوا في البدء الطلاب العرب في استنبول إلى جانبهم. ولكن الطلاب، الذين رفعوا شعارات وطنية راديكالية انفصلوا عن هذه الجمعية لأن قادتها لم يسعوا - كما ذكر امين السعيد - إلا إى تحقيق مصالحهم الشخصية وعلى رأسها بلوغ المناصب الرفيعة في دوائر الدولة.

أما الاتراك الاتحاديون، الذين اعلنوا في البدء تأييدهم لجمعية الاخاء وحضروا حفل افتتاحها بأمل الاستفادة منها لتدعيم مواقعهم، اغتنموا فرصة انعزال هذه الجمعية عن الطلبة العرب المقيمين في استنبول وقاموا عام ١٩١٠ بحلها. ودل هذا على ان الاتحاديين كانوا يضيقون ذرعاً بكل نشاط غير تركي مهما كان معتدلاً، كما حاولوا القضاء على كل صوت ارتفع منادياً ببعض الاصلاحات مهماً كانت هذه المطالب معتدلة كما هو الحال في جمعية الاخاء.

٢ - المنتدى الادبي

اضطرت الظروف الداخلية والخارجية الحكومة المركزية، حكومة حزب الاتحاد والترقي، بالسماح عام ١٩٠٩ بتأسيس المنتدى الأدبي. ومع أن عدداً من النواب

العرب في مجلس المبعوثان وبعض الكتاب وأدباء العرب دخلوا في المنتدى الأدبي، فإنّ القوة الرئيسية في المنتدى تكونت من الطلاب العرب الذين يدرسون في استنبول. وكان هؤلاء الطلاب الممتلؤون حماساً واندفاعاً والمتأثرون بالأفكار القومية البرجوازية الأوروبية العناصر القائدة في المنتدى الأدبي.

لقد كانت شخصيات ابطال الوحدة الايطالية مثل كافور وغاريبلدي النجم الهادي والنموذج المحتذى لأعضاء المنتدى الأدبي، الذين طمحوا إلى تحقيق وحدة عربية وفق النموذج الايطالي والالماني.

لقد زاول المنتدى الأدبي نشاطه السياسي تحت شعار الدعوة لاستقلال آسيا العربية من وراء اقنعة النشاط الادبي والفني. وعلى الرغم من انتشار فروع المنتدى الأدبي في كثير من المدن السورية والعراقية. فإن نشاطه السياسي الأساسي والفعال تمركز في استنبول. وفي الوقت نفسه قام قادة المنتدى بعقد الصلات الوثيقة مع كثير من المنظمات السياسية والشخصيات السورية المعروفة في سورية ومصر.

تصدرت أقوال أمين الريحاني وعبد الحميد الزهراوي وافلاطون وسنكاونيتشه والامام الشافعي والامام علي صفحات مجلة المنتدى الأدبي. ولا حاجة إلى القول بأن ايراد أقوال هؤلاء المفكرين دليل على اتجاه مجلة المنتدى الأدبي وتبنيها أفكار هؤلاء أو بعضاً منها.

أما البرنامج السياسي للمنتدى الادبي فقد لخصه رئيسه عبد الكريم الخليل في افتتاحية مجلة المنتدى الادبي بما يلي:

أولاً ـ احياء الجامعة العربية وبث روح التعارف واحياء عاطفة الإخاء والتعاضد بين افرادها وجماعاتها بلا تفريق في الدين والمذهب بحيث يكون الوطن العربي للعرب جميعاً.

ثانياً ـ حث الناشئة على ان يكون كل منهم متمسكاً بصحيح دينه غير منكر على غيره ذلك ممن خالفه في الدين والمذهب.

ثالثاً ـ السعي في تعيين أصح وأقدم قواعد التربية والتعليم القائمة على أساس العلم الصحيح.

رابعاً ـ ارشاد الزراع وحثهم على استعمال الآلات الزراعية الحديثة والاستفادة من المكتشفات العلمية والتجارب الفنية وتأسيس النقابات الزراعية.

خامساً - ترغيب المواطنين في استعمال المصنوعات الوطنية وحماية الصناعة المحلية وتأليف النقابات الصناعية.

سادساً - الأخذ بيد العمال وتنوير اذهانهم وارشادهم إلى ما فيه صحتهم وحثهم على تأليف نقابات من أنفسهم».

يبدو واضحاً من هذا البرنامج ان قادة المنتدى الأدبي لم يفكروا بتوزيع الأراضي على الفلاحين، حتى انهم تجنبوا كلمة «فلاحين» واستخدموا كلمة «الزراع» المطاطة التي تشمل الفلاحين والمالكين في آن واحد. والمادة الرابعة من هذا البرنامج تدل بوضوح على تطلع قادة الحركة الوطنية آنذاك في ادخال الرأسمالية إلى الزراعة. وهذا الاتجاه سيبقى محور تفكير عدد كبير من الوطنيين في سنوات ما بعد الحرب العالمية الأولى.

إن الحالة النفسية السائدة بين الشعراء العرب القوميين قبل الحرب العالمية الأولى والوضع الذي عاشه العرب مضطهدين من غيرهم تبدو واضحة على صفحات مجلة «المنتدى الادبي» فالتذكير بالماضي التليد والحنين إلى استعادة الامجاد السالفة واثارة المشاعر القومية نجدها واضحة جلية في الانتاج الادبي لمجلة المنتدى الادبي الصادرة قبل الحرب العالمية الاولى.

ولكن «المنتدى الأدبي» لم يستطع المحافظة على وحدته، ففي عام ١٩١٢ حدث خلاف في قلب المنتدى الأدبي بسبب الموقف من الاتراك الاتحاديين القابضين على زمام السلطة، والذين استطاعوا ان يستميلوا بعض اعضاء المنتدى بمختلف الوسائل والحيل والمغريات. ومما يسترعي الانتباه ان اعضاء المنتدى الادبي، الذين تحدروا من أصل برجوازي (تجاري) كانوا على الغالب ضد سياسة المساومة مع الأتراك الاتحاديين، بينما مال الاعضاء من ذوي المنشأ الاقطاعي إلى سياسة التفاهم والمصالحة. ان الدافع الرئيسي لموقفهم هذا يعود في الاصل إلى موقف الطبقة الاقطاعية العربية في سورية، ذلك الموقف المؤيد للحكم التركي والسائر في ركابه. علاوة على ذلك فإن الاعضاء الذين مالوا للمصالحة والعمل مع الحكومة المركزية الاتحادية حلموا - كما يذكر امين السعيد - بتقلد المناصب الرفيعة في الدولة العثمانية.

أما الاتراك الاتحاديون فإنهم ايدوا، بل سعوا لخلق هذا التيار المسالم للحكم التركي من أجل ان يستطيعوا شق القوى الوطنية العربية وضربها من الداخل و

الخارج. وعلى الرغم من تصدع المنتدى الادبي فقد بقي على قيد الحياة حتى آذار ١٩١٥، عندما اغلق الاتراك الاتحاديون المنتدى الأدبي وقلبوا للعرب ظهر المجن واتخذوا في ربيع ١٩١٥ موقف العداء السافر للحركة العربية بجميع اجنحتها المعتدلة والمتطرفة.

٣ ـ الجمعية القحطانية وجمعية العهد

في نهاية عام ١٩٠٩ أسست الجمعية القحطانية السرية من بعض الضباط العرب في الجيش العثماني ومن بعض أفراد العائلات الاقطاعية المعروفة ذات الطابع الاقطاعي. هدفت هذه الجمعية إلى تحويل الدولة العثمانية إلى مملكة ذات تاجين تؤلف الولايات العربية فيها مملكة واحدة لها برلمانها وحكومتها المحلية وتكون اللغة العربية لغتها الرسمية، وأن تكون هذه المملكة جزءاً من امبراطورية تركية ـ عربية على غرار مملكة النمسا والمجر. وبعد عدة سنوات اضطرت الجمعية القحطانية إلى تغيير اسمها امعاناً في السرية واطلقت على نفسها في سنة ١٩١٣ اسم جمعية العهد، التي اقتصرت عضويتها على العسكريين دون المدنيين. وهؤلاء العسكريون كانوا على الغالب من القطر العراقي بسبب كثرة العراقيين في الجيش العثماني.

احتوى برنامج العهد على اربع نقاط رئيسية: ١ ـ قيام اتحاد تركي ـ عربي يشبه الاتحاد القائم في دولة النمسا والمجر، وتحقيق الاستقلال الداخلي للولايات العربية ضمن هذا الاتحاد. . ٢ الموافقة على بقاء الخلافة في العائلة العثمانية. . ٣ ـ الموافقة على بقاء استنبول رأس الشرق. . ٤ ـ لقد أقام الاتراك خلال ستمئة سنة خط الدفاع الأول عن الشرق ضد الغرب، وعلى العرب ان يكونوا قوة احتياطية مستعدة دائماً لمساعدة خط الدفاع هذا.

عكس البند الرابع من هذا البرنامج المحتوى المعادي للاستعمار لدى جمعية العهد، ودل على طموح العهد في رفع العرب إلى المقام الأول في الدولة العثمانية. كما حلم رجال العهد ـ تحت ستار قيام خط الدفاع الثاني ضد الغرب إلى انشاء دولة عربية ذات استقلال داخلي. وعلى العموم فإن رجال العهد اهتموا في «القضايا القومية» واهملوا القضايا الاجتماعية.

٤ ـ جمعية العربية الفتاة

لم تأخذ المطالب المنشورة والمعلنة للوطنيين العرب السوريين المقيمين في الدولة العثمانية أي طابع صريح معاد للأتراك بشكل واضح المعالم. ولكن الحركة الوطنية والقومية العربية لم تعدم من يفصح عن استراتيجيتها الحقة في الدعوة للانفصال عن الدولة العثمانية واقامة دولة عربية مستقلة. وتجلى ذلك بوضوح في تأسيس جمعية العربية الفتاة عام ١٩١١ في مدينة باريز من عدد من الطلاب السوريين المتحدرين من عائلات معروفة ذات وجاهة ومكانة في المدينة والريف. ويمكن القول ان الطابع القومي العربي لمؤسسي الفتاة كان واضحاً وجلياً ومتأثراً بالبيئة الاجتماعية التي نبت فيها المؤسسون وبالثقافة القومية البرجوازية في النصف الأول من القرن التاسع عشر، أي قبل ان تستغل الاحتكارات الرأسمالية الامبريالية مشاعر الناس القومية من أجل السيطرة والاستعمار، بعد أن تحولت الرأسمالية إلى امبريالية تستولي على البلدان الأخرى الضعيفة وتستثمرها باسم الأمة جمعاء. نقول لقد جرى تأثر مؤسسي الفتاة بالأفكار القومية التي تبلورت قبل مرحلة تحول الرأسمالية إلى امبريالية، أي في المرحلة التي كانت لاتزال فيها القومية البرجوازية تقوم بدور ايجابي في خلق سوق موحدة على نطاق الأمة.

تجلّى الهدف الحقيقي لمؤسسي جمعية العربية الفتاة سنة ١٩١١ في باريز ـ المركز الثاني للحركة الوطنية العربية ـ في العمل لتحرير الأراضي العربية من السيطرة التركية وايجاد دولة عربية مستقلة. ولكن هؤلاء المؤسسين الممتلئين حماساً للمبادىء البرجوازية الديموقراطية والمندفعين باخلاص لبناء دولة عربية مستقلة لم يتجاسروا على إعلان موقفهم هذا بصراحة خوفاً من بطش السلطة التركية أولاً، وتجنباً لغضبة السذج من الناس المؤمنين بشرعية خلافة السلطان العثماني ثانياً.

تميزت جمعية العربية الفتاة عن غيرها من الجمعيات السياسية العربية القائمة قبل الحرب العالمية الأولى بضيق دائرة عضويتها ووضوح معالم الانتساب لها ووجود حدود واضحة المعالم لكل عضو يريد الانتساب للجمعية، حيث كان يجري الاستفسار بدقة عن المرشح ولا يعطى «سر» الجمعية إلا بعد التأكد من اخلاصه. وكان لا بد من ان يمر المرشح لعضوية الفتاة بفترة طويلة من الاختبار قبل قبوله عضواً

أصيلاً. ويظهر هدف الجمعية العربية الفتاة واضحاً من نص اليمين الذي كان على الاعضاء تلاوته عند قبولهم في الجمعية. جاء في هذا القسم: «بذل كل جهد لايصال الامة العربية إلى مصاف الأمم الراقية الحرة والمستقلة الكبرى».

بعد أن انهى مؤسسو الفتاة دراستهم في باريس، نقلت الجمعية مركزها الرئيسي في سنة ١٩١٣ من باريز إلى بيروت. وبعد ذلك بعام واحد استقر مركزها في دمشق. ومع ان عدد اعضاء الفتاة لم يتجاوز مئتي عضو بعد اربع سنوات من تأسيسها، فإن هذا العدد الضئيل استطاع بفضل تنظيمه وحيويته النابعين من الطاقات الثورية للبرجوازية الوطنية السائرة في طريق التكوين، ان يمارس تأثيراً قوياً وعميقاً في مختلف الجمعيات السياسية العربية الأخرى، وان يلقح الحركة العربية بفكر جديد ديناميكي وثوري بالنسبة لفترة ماقبل الحرب العالمية الأولى. دعمت البرجوازية التجارية الوطنية في كل من دمشق وبيروت اتجاه هذه الجمعية الممتلىء نشاطاً وحيوية وتنظيماً وروحاً قومية ساعية إلى انشاء دولة عربية مستقلة وسبوقاً عربية موحدة تدفع بالتطور الاجتماعي خطوات إلى الامام.

كانت الصحافة من أهم المجالات التي برزت فيها جمعية الفتاة واستطاعت من خلالها نشر اولى بذور الثورة العربية وفق مفاهيم ذلك العصر. وبرز في هذا الميدان احد مؤسسي الفتاة خريج كلية الحقوق في باريز عبد الغني العريسي، الذي اصدر عدة صحف في بيروت سرعان ما كانت تمنع من قبل السلطان التركية، التي شعرت بخطر الافكار، التي نادى بها عضو جمعية الفتاة العريسي.

قاومت السلطات التركية في بيروت ودمشق نشاط العريسي الصحفي المعبر عن رأي جمعية الفتاة السرية. وعلى الرغم من تأكيد العريسي على شعار «اننا عرب عثمانيون» فإن الحكم التركي في سورية لم يكن مرتاح البال لهذا النشاط الجديد في شكله ومحتواه. ولا يخفى ان رفع العريسي وبالتالي جميعة الفتاة لشعار: «اننا عرب عثمانيون» يتضمن هدفين احدهما: استراتيجي والآخر تاكتيكي... فالقسم الأول من الشعار «اننا عرب» تضمن هدفاً استراتيجياً والقسم الثاني «اننا عثمانيون» تضمن هدفاً تاكتيكياً رمى إلى تحاشي بطش السلطة المركزية في استنبول ودفع تهمة الانفصال عن جسم الدولة العثمانية وتجنب عداء المخدوعين بشعارات خلافة آل عثمان.

تميزت «العربية الفتاة» عن غيرها من الجمعيات السياسية العربية بوضوح اتجاهها القومي العربي ودفاعها عنه والدعوة له بحميّة وحماس. فتحت عنوان «باسم العرب نحيا وباسم العرب نموت» كتب عبد الغني العريسي سنة ١٩١٣ افتتاحية في جريدته «لسان العرب» جاء فيها «ان العواطف القومية مجار حيوية في الشعوب لا تستنزف الا باستئصال الشعوب فنحن عرب عثمانيون مهما حاول الغلاة الاتحاديون نقض هذه الجنسية لأننا خلقنا عرباً بالرغم من انفسنا». ويبدو رأي العريس ازاء القضية القومية واضحاً ايضاً من رسالته التي كتبها بعد هربه من جحيم ارهاب جمال باشا إلى الصحراء، وذلك قبل اعتقاله في السنة الثانية للحرب العالمية الأولى. جاء في الرسالة: «يا بني يعرب ويا سلالة قحطان. . . الذين دوخوا العالم» وهنا يبدو جلياً اعتزاز العريسي بقوميته واستعداده للتضحية في سبيلها بكل غال ونفيس إذ يقول: «ولست بالفدائي الأول الذي يموت اليوم في سبيل القومية العربية».

انطلاقاً من العمل لاستقلال الولايات العربية العثمانية أيد رجال الفتاة تكتيكياً - مثل غيرهم من رجال الحركة الوطنية العربية - حزبَ «الحرية والائتلاف» المنادي بمبدأ اللامركزية وحاولوا عن طريق الترويج لمبدأ «احترام السمات الوطنية للشعوب الاخرى غير التركية» وكما ذكرنا قبل قليل فقد كان اعضاء «العربية الفتاة» اكثر المتحمسين لمبادىء القومية العربية واكثر تحمساً بالمشاعر القومية من غيرهم من الوطنيين العرب الذين تشابكت عندهم مفاهيم «الاسلامية» و«العثمانية» و «القومية.

قبل الحرب العالمية الأولى خطب العريسي في المؤتمر العربي الاول في باريس مبرزاً مقومات القومية العربية، مؤكداً حق العرب في الاستقلال ومما قال:

«هل للعرب حق جماعة؟

إن الجماعات في نظر علماء السياسة لا تستحق هذا الحق إلّا إذا جمعت على رأي علماء الألمان وحدةَ اللغة ووحدة العنصر. وعلى رأي علماء الطليان وحدة التاريخ ووحدة العادات. وعلى مذهب ساسة الفرنسيين وحدة المطمح السياسي، فإذا نظرنا إلى العرب من هذه الوجوه السياسية علمنا أن العرب تجمعهم وحدة لغة، ووحدة عنصر، ووحدة تاريخ، ووحدة عادات، ووحدة مطمح سياسي.

فحقُّ العـــرب أن يكـون لهم على رأي علماء السيـاســة من دون استثنـاء حقُّ جماعة، حق شعب، حق أمّة».

طرأ على تركيب «العـربيـة الفتـاة» ذات الادبـولـوجية البرجوازية تغيير جزئي لصالح القوى الاقطاعية الليبرالية، التي دخلت في الفتاة وحاولت توجيه هذه الجمعية وفق مصالحها واهوائها وان المتتبع لتطور الفتاة، التي لعبت، فترة طويلة من الزمن بعد الحرب العالمية الأولى، دوراً اساسياً في الحياة السياسية في سورية وغيرها من الأقطار العربية الآسيوية، يلاحظ الصراع المحتدم بين التيارين البرجوازي والاقطاعي داخل صفـوف «الفتـاة». ومـع ان هذا الصـراع لم يكن واضـح المعـالم في بعض الأحيان كما صعبت رؤيتـه بالعـين المجردة احياناً أخرى إلا أن وجوده يبدو واضحاً للمؤرخ النافذ البصـيرة الـذي يدرس ما يكمن تحت السطـح دون أن تغشـه أو تشغله الاحـداث الجـانبيـة أو السطحية، التي تحدث ضجيجاً يظنه المرء من جوهر الاحداث التاريخية، بينما هو في الواقع مظهر للصراع الرئيسي وثمرة لتطور الحياة الاجتماعية وتداخلها وتشابكها.

بعـد انـدلاع الحـرب العـالميـة الاستعـمارية الأولى أقامت جمعية العربية الفتاة علاقـات حسنـة مع أمـير مكـة الشـريف حسين بهدف التهيئة للثورة العربية المعادية للحكم التركي. وعندما يممَّ الامير فيصل بن الشريف حسين شطر دمشق في بداية الحرب سرعان ما انضم إلى جمعية العربية الفتاة واصبح من اعضائها البارزين. كان دخول الامير فيصل الممثل لارستقراطية الحجاز في العربية الفتاة، وكذلك تبني عائلة البكري الدمشقية الاقطاعية ذات الميول الليبرالية لجمعية الفتاة نقطة تحول في تركيب بنية الفتاة. ومع ان دخول هذه العناصر الاقطاعية الليبرالية في الفتاة اكسبها منعة وقوة ومهد الطريق لقيام الثورة العربية في الحجاز سنة ١٩١٦ المعادية للحكم التركي، إلا ان دخول هذه العناصر الاقطاعية في جسم «جمعية العربية الفتاة» كان عنصر ضعف إذ افسح المجال رحباً للمساومة، واضعف من تأثير العنصر البرجوازي، الذي تميز في ذلك الحين بتقدميته وثوريته واندفاعه وتمثيله للقوى الاجتماعية الأكثر تقدمية من أجل تطـويـر المجتمـع والقضـاء على النظـام الاقطـاعي، نظام العصور الوسطى. كما ان دخـول العنـاصـر الاقطـاعيـة اسهم في تشعب الآراء داخل الجمعية، في وقت كانت

احوج ما تكون فيه إلى وضوح الهدف والرؤية أيام المعارك الحاسمة على أعتاب ميسلون.

٥ ـ حزب اللا مركزية الادارية العثماني

كانت مصر المركز الثالث ـ بعد استنبول وباريس ـ للحركة الوطنية القومية العربية قبل الحرب العالمية الأولى. لقد أمَّ ارض الكنانة عدد كبير من السياسيين والمفكرين الفارين من الارهاب والجمود الفكري المحافظ، كما عاش فيها عدد كبير من السوريين واللبنانيين العاملين في التجارة والصحافة وغيرها من الاعمال الاقتصادية الفكرية. ومع ان القطر المصري وقع منذ سنة ١٨٨٢ في قبضة الاستعمار الانكليزي، إلا أن الوطنيين العرب من بلاد الشام استطاعوا ممارسة نشاطهم المعادي للحكم التركي في بلاد الشام دون ازعاج او مضايقة تذكر من قبل السلطات البريطانية صاحبة الامر والنهي في مصر آنذاك. فما سبب افساح السلطات البريطانية مجال العمل اما الوطنيين السوريين في مصر؟ يكمن سبب ذلك في رغبة السلطات البريطانية في مصر في كسب ود الحركة الوطنية العربية وتوثيق الصلات معها لكي يسهل عليها تحقيق اغراضها ومطامعها في البلدان العربية، ولكي تتمكن فوق ذلك من مجابهة حكومة الاتحاديين الأتراك الموالية لألمانيا القيصرية المنافس الاستعماري الرئيسي لبريطانيا قبل الحرب العالمية الأولى. وهذا ما يفسر موقف الوطنيين المصريين العدائي ازاء الحركة الوطنية السورية، ونظرة الوطنيين المصريين إلى اشقائهم السوريين نظرة مملوءة بالريب والحذر.

ومما لا شك فيه ان ظروف نضال كل من الحركتين العربيتين المصرية والسورية كانت مختلفة قبل الحرب العالمية الأولى. فالحركة الوطنية المصرية ناضلت ضد المحتلين البريطانيين وسعت لطردهم من مصر بمختلف الوسائل والسبل. وقد رأى قادة الحركة الوطنية المصرية من امثال مصطفى كامل ومحمد فريد ان خير وسيلة لمقاومة الاحتلال الاجنبي البريطاني وحشد طاقات الشعب للنضال ضده، هو في الدعوة إلى الخلافة العثمانية والمطالبة بوضع مصر مرة ثانية ضمن دائرة الدولة العثمانية. ولم تكن هذه السياسة هدفاً استراتيجياً للحركة الوطنية المصرية بل كانت

تكتيكاً بارعاً للنضال ضد الاحتلال الانكليزي . أما وضع الحركة الوطنية السورية فكان مختلفاً تماماً . فقد خضعت بلاد الشام لنير الحكم الاقطاعي العثماني المباشر ولم يكن هنالك احتلال اوروبي استعماري لسورية ، كما هو الحال في مصر . وهذا ما اضطر الوطنيين السوريين إلى مهادنة الحكم الانكليزي في مصر والسودان والحكم الافرنسي في المغرب العربي ، لكي يتمكنوا من صب كل طاقاتهم ضد الاحتلال الاقطاعي التركي المباشر.

وهذا يعني ان علينا ألا نطلق الاحكام العامة المجردة البعيدة عن واقع الحياة ونصل إلى الاستنتاج القائل : ان الحركة الوطنية العربية السورية سارت وفق اهواء ومصالح الاستعماريين الافرنسي والانكليزي . فالحركة الوطنية العربية كانت مضطرة للبحث عن حلفاء لها للنضال ضد الاحتلال التركي وحليفه الاستعمار الالماني . وهكذا فإن ظروف نضال الحركة العربية في بلاد الشام واستراتيجيتها وتاكتيكها وتعدد اجنحتها جعلت عملية التحرر العربي معقدة جداً ولا يمكن فهمها إلا بمعرفة نسبة القوى الاجتماعية الداخلية في البلاد العربية ، وكذلك اتجاهات القوى الامبريالية المتصارعة ، التي اشعلت نيران الحرب العالمية الأولى من أجل اعادة تقسيم مناطق النفوذ بين الدول الاستعمارية من جديد .

بعد ثورة ١٩٠٨ ازداد بأس الاتجاهات الداعية إلى اللامركزية داخل الدولة العثمانية المتعددة القوميات . ومع ان الدعوة إلى اللا مركزية في الولايات العربية «العثمانية» كانت ثمرة منطقية للتطور الداخلي في الدولة العثمانية ، إلا أن العوامل الخارجية مثل الحرب الطرابلسية سنة ١٩١١ واعتداء ايطاليا على طرابلس ، وحرب البلقان سنة ١٩١٢ وما أدت إليه من انفصال مقاطعات متعددة عن جسم الدولة العثمانية أسهمت في تصاعد موجة المطالبة بالادارة اللامركزية .

كان حزب اللا مركزية الادارية العثماني المؤسس في القاهرة سنة ١٩١٢ ، والذي أنشأ فروعاً مختلفة له في عدد من المدن والمناطق في سورية والعراق ، ثمرة التفاعلات الداخلية والعوامل الخارجية . فقد تألف حزب اللا مركزية من التجار السوريين المقيمين في مصر والخاضعين فكرياً للمثقفين المهاجرين ، كما دعم بشكل قوي من ملاك الأراضي الليبراليين .

لقد عكس برنامج حزب اللا مركزية طموح التجار السوريين والاقطاعيين

الليبراليين في الحصول على الاستقلال الذاتي الاقتصادي والسياسي. فالمادة الأولى من البرنامج طالبت بان تكون «الدولة العلية العثمانية دولة دستورية نيابية. وكل ولاية من ولاياتها تعد جزءاً من السلطنة لا ينفك عنها بحال من الأحوال، وانما تبنى ادارة هذه الولايات على اساس اللا مركزية الادارية. والسلطان الأعظم هو الذي يعين الوالي وقاضي القضاة».

وتبدو رغبة جماعة «اللامركزية» في الحكم الذاتي من خلال دعوتهم في المادة الرابعة إلى مراقبة سلطة الوالي عن طريق عدد من المجالس المحلية مثل: المجلس العمومي، مجلس الادارة، مجلس المعارف ومجلس الاوقاف، التي تتشكل عن طريق الانتخاب عدا مجلس الادارة فإن نصف اعضائه ينتخبهم الشعب والنصف الآخر من رؤساء المصالح «كما حددت المادة الخامسة من برنامج حزب اللا مركزية حقوق المجلس العمومي للولاية في مراقبة الحكومة». و«النظر في جميع شؤون الادارة المحلية من تقرير ميزانية الولاية وأمور الأمن العام والمعارف والنافعة والاوقاف والبلدية وتقرير ما يراه فيها وسن الأنظمة لها. وما كان من أمور النافعة يتعلق من بعض الوجوه بالأمور العسكرية أو السياسية الخارجية كسكك الحديد فيرفعه بعد ابداء رأيه فيه إلى العاصمة». ثم دعا البرنامج في مادته الرابعة عشر إلى الاعتراف باللغة المحلية كلغة رسمية إلى جانب اللغة التركية. وطالب ان يؤدي أهل كل ولاية الخدمة العسكرية في مركز ولايتهم.

لقد حدد هذا البرنامج الموقف الرسمي لقسم هام من الحركة الوطنية العربية ازاء الحكومة المركزية التركية في استنبول ونال موافقة معظم الجمعيات السياسية العربية الناشطة على اعتاب الحرب العالمية الأولى.

وثمة امر يسترعي الانتباه في برنامج حزب اللا مركزية وهو عدم اهتمامه بالمشكلات الاقتصادية - الاجتماعية. إلا في مادة واحدة يتيمة اشارت إلى أن الحزب «ينظر في تعديل قانون الأراضي على الوجه الذي ينمي الثروة العامة وفي تحضير القبائل البدوية لأجل تنمية الثروة وترقية الأمة».

تتصف هذه المادة الوحيدة التي تتعرض للمشكلات الاقتصادية - الاجتماعية في برنامج حزب اللا مركزية بالشمول والعمومية وعدم الوضوح فهي لم تبين مثلاً في أي اتجاه سيجري «النظر في تعديل قانون الأراضي»؟ . . . هل سيجري في صالح

«الكبـار» من «الـذوات» و«الأغـوات» و«البكـوات»؟ أم أنـه سيجـري في صالـح الفـلاحـين؟ أي انـه سيجـري في صالـح الأكثـريـة السـاحقة من سكان بلاد الشام الخاضعين لنير الاستثمار الاقطاعي بشتى انواعه وأشكاله.

وهنا لا حاجة بنا إلى كبير عناء للإجابة على هذا السؤ ال ومعرفة من المستفيد من تعـديـل قانـون الأراضي . . . فاستنـادا إلى البنيـة الاجتماعية لحزب اللا مركزية المؤ لف من التجـار والاقطـاعيـين الليـبر اليـين والمثقفين المرتبطين بهم، واعتماداً على سياسة هذا الحزب، وانطلاقاً من ظروف ذلك العصر يمكن القول بأن تعديل قانون الأراضي المقـترح كان سيجـري فيـها لو تم في ضوء مصلحـة «الـذوات» من ملاك الأراضي الاقطـاعيـين ومصلحـة «الافنـديـة» من التجار الطامحين في الاستيلاء على أراضي املاك الدولة وغيرها من الأراضي.

فبرنـامـج حزب الـلا مركـزيـة لم يكن يشبـه من هذه النـاحية منهاج الاحزاب البرجوازية في اوروبا، التي اسهم معظمها في ضرب الاقطاعية وتوزيع الأراضي على الفلاحين. ولم يكن يخطر ببال «الفئة العليا» من حزب اللا مركزية اجراء أي اصلاح زراعي في الريف السوري يهز مواقع الاقطاعية في ذلك الحين.

أمـا دعـوة برنـامـج حزب اللا مركزية إلى «تحضير القبائل البدوية لاجل تنمية الثـروة وتـرقيـة الامـة»، فهي فكـرة ايجابية تسعى إلى نقل قسم من الشعب من حياة بائسـة متخلفـة إلى حيـاة متطورة تتضاءل فيها نسبة البؤس والشقاء. ولكن يجب ألا يغرب عن بالنا أن الطبقة العليا من المجتمع الشامي قبل الحرب العالمية الأولى لم تكن تطالب بتحضير البدو حباً بهم أو لتحقيق هدف انساني، بل ان غاية هذه الفئة العليا من تحضـير البـدو ـ بالـرغم مما في ذلك من ترقية للأمة ـ تركزت في «تنمية الثروة» ثروة التجـار والاقطـاعيـين الطـامعـين إلى السيطرة على ثروة البلاد والحلول مكان الطبقة التركية الاقطاعية او مشاركتها في استثمار الفلاحين العرب والقبائل البدوية. ولكن مع ذلـك وبغض النظـر عن هذا الهـدف الاستثـماري فان ترقيـة البـدو تُعـدُّ عملية تقدمية وخطوة إلى الأمام لا ينتقص من أهميتها شيء مهما كانت الدوافع والأهواء.

هذه الأمور قلّما تطرّق لها المؤ رخون البورجوازيون، الذين صرفوا جل اهتمامهم إلى بحث المواقف السياسية لدى حزب اللا مركزية، الذي قام بدور اساسي في الحياة السياسية في سورية على اعتاب الحرب العالمية الأولى. وهذا الحزب هو الذي تزعم

المؤتمر العربي الأول في سنة ١٩١٣ في باريز، وسار في طريق المساومة مع حكومة الاتراك الاتحاديين، وكان على استعداد للتنازل عن كثير من مبادئه، فيما إذا افسح المجال امام قيادته للمشاركة في الحكم ونهب الشعب مع الطبقة الحاكمة التركية.

ان المتتبع للأمور والمستقصي اوضاع الحركة العربية في بلاد الشام لا يحتاج إلى جهد كبير حتى يكتشف بأن قادة حزب اللا مركزية شكلوا الجناح اليميني داخل حركة التحرر العربية قبل الحرب العالمية الأولى. وعندما احتل المستعمرون الانكليز والافرنسيون بلاد الشام والعراق سار القسم الأكبر من قادة حزب اللا مركزية في ركاب المستعمرين وانتقلوا بعد سنة ١٩١٨ من صفوف الحركة الوطنية إلى مواقع وموائد المستعمرين.

وعلى الرغم من الطابع اليميني لحزب اللا مركزية فانه لم يعدم بين صفوفه بعض العناصر اليسارية مثل الوطني الديمقراطي الدكتور شبلي شميل، الذي نادى منذ سنة ١٩٠٨ بتطبيق المبادىء الاشتراكية والقى الاضواء على الصراعات الطبقية داخل المجتمع ـ ولكن هذه العناصر كانت ضعيفة ولم تكن ذات تأثير حاسم في وضع سياسة حزب اللا مركزية.

٦ ـ الجمعية الاصلاحية البيروتية، والجمعية الاصلاحية الدمشقية:

لم تكن الجمعيات السياسية المذكورة سابقاً المؤسسة في استنبول وباريز والقاهرة منظمات جماهيرية على اتصال واسع مع اكثرية السكان السوريين، بل كانت منظمات معزولة عن الجماهير الشعبية الواسعة إلى حد كبير. فقد تألف اعضاؤها من القسم الليبرالي للإقطاعيين العرب ومن المثقفين والطلاب ابناء التجار والموظفين الكبار والضباط والاقطاعيين الليبراليين. ولكن على الرغم من عزلة هذه المنظمات السياسية القائمة بعيداً عن تربة الوطن فإنها مهدت الطريق وهيأت الأفكار لقيام الحركات الاصلاحية ذات الاتصال الواسع نسبياً ببعض فئات السكان لا سيما في دمشق وبيروت.

بعد مرور اربع سنوات على ثورة ١٩٠٨ ضد الحكم الاستبدادي الحميدي تحسنت اوضاع الحركة القومية العربية في بلاد الشام وسارت الأمور في طريق النضج

من أجل المطالبة بالاصلاح بشكل علني وواضح وعن طريق وسائل جماهيرية واسعة نسبياً. جرى ذلك في الوقت الذي تطورت فيه البرجوازيتان البيروتية والدمشقية وسعتا لتوسيع سوقهما الاقتصادية وتقرير مصيرهما، كما تم نشوء الحركات الاصلاحية بعد تعاظم شأن الحركات المنادية بالاستقلال بين القوميات الخاضعة للدولة العثمانية، وبعد ازدياد حدة الصراع بين الدول الامبريالية من أجل اقتسام تركة «الرجل المريض»، اللقب الذي اطلق على الدولة العثمانية المتخلفة.

في خريف سنة ١٩١٢ تأسست اللجنة الاصلاحية في بيروت من التجار وأصحاب البنوك وبعض ملاك الأراضي والأطباء والمحامين والصحفيين. وقد اضطرت السلطات التركية في بيروت نظراً لقوة التيار الاصلاحي واندفاع العناصر المؤيدة له، وبسبب تقلبات الحكومة المركزية وازدياد قوة حزب الائتلاف في العاصمة المنادي باللامركزية، إلى الاعتراف بشرعية اللجنة الاصلاحية في ٣١ كانون الثاني عام ١٩١٣، التي تقدمت ببرنامج واسع مطالبة بتحقيقه.

اعترفت المادة الأولى من برنامج الجمعية الاصلاحية البيروتية بحق الحكومة المركزية في ادارة الشؤون الخارجية والعسكرية وماله صلة بهذه الأمور كالبريد والبرق والجمارك والسكك الحديدية واما ما تبقى من الأمور فهو من اختصاصات المجلس العمومي المنتخب من الولاية.

ان طموح البرجوازية البيروتية إلى الاستقلال الاقتصادي وتقرير امورها بنفسها دون الرجوع إلى حكومة استنبول عبرت عنه بوضوح المادة الثالثة من البرنامج، التي اعطت للمجلس العمومي في الولاية الحق في ادارة كل الأمور الداخلية، «وعقد القروض التي لا تتجاوز قيمتها نصف الواردات المختصة بالولاية. أما القروض التي تتجاوز قيمتها هذا المبلغ فيلزم لها مصادقة الحكومة المركزية». كما ان المادة الرابعة من برنامج الجمعية الاصلاحية البيروتية اعطت ايضاً المجلس العمومي الحق في «اعطاء رخص لتأليف شركات مساهمة (أنونيم) عثمانية للمشاريع العمومية كالنافعة والتجارة والصناعة والزراعة وسائر الشؤون العمرانية داخل الولاية، شريطة ألا تتضمن امتيازاً. أما المشاريع التي تتضمن امتيازاً فيجب مصادقة الحكومة المركزية عليها...»، كما ان البرنامج الاصلاحي لم يسمح للحكومة المركزية إلا بتعيين الموظفين الكبار على شرط معرفتهم باللغة العربية، أما بقية الموظفين فيجب ان يكونوا

من الأهلين». علاوة على ذلـك فإن المنهـاج طالب بجعـل اللغـة العربية لغة رسمية وبتأديـة الخـدمـة العسكـريـة لأهـل الـولاية في مركز ولايتهم، إذ أن معظم المجندين العرب أيام الدولة العثمانية كانوا يساقون إلى الأناضول والمناطق النائية الأخرى لتأدية الخدمة الاجبارية.

انتعشت الحـركـة المطـالبة بالاصلاح في كل من بيروت ودمشق على أثر ازدياد قوة حزب الحرية والائتلاف المؤيد للحركات الاصلاحية ولتطبيق اللا مركزية. ولكن الانقـلاب الـذي دبـره الاتـراك الاتحـاديون في نيسان ١٩١٣. ضد وزارة كامل باشا وبـالتـالي ضد حزب «الحـرية والائتلاف» كان ضربة للحركات المطالبة بالاصلاح في الـولايـات العـربيـة «العثـمانيـة». وبعـد أن قبضت جمعيـة الاتحـاد والترقي في ١٠ نيسان سنة ١٩١٣ على زمام السلطة للمرة الثانية حلت للتوّ الجمعية الاصلاحية البيروتية وبدا واضحاً ان الاتراك الاتحاديين عازمون على القضاء على كل حركة منادية بالاصلاح أو الـلامـركـزيـة. كما بدا واضحـاً أن الحكومة المركزية، حكومة الاتراك الاتحاديين، تسعى أكثـر فأكثـر من أجـل تركيـز جميـع السلطـات في يدها وقمع حركات الشعوب المطالبة بحريتها واستقلالها أو بجزء منها داخل حدود الدولة العثمانية المترامية الأطراف.

بعـد حل الجمعيـة الإصـلاحية البيروتية في نيسان من سنة ١٩١٣ ارتفعت في بيروت وفي معظم المـدن الـسـوريـة أصوات الاحتجاج ضد سياسة الحكومة «التركية الاتحادية». وكان الاضراب الشامل الذي قام به تجار بيروت، الذين اغلقوا متاجرهم لمدة ثلاثة أيام نقطة الأوج في حركة الاحتجاج ضد سياسة التتريك والمركزية، كما كان هذا الاضراب وحركة الاحتجاج بشكل عام أكبر دليل على أن الجمعية الاصلاحية البيروتية تمتعت بثقة الفئات التجارية ليس في بيروت وحدها بل في سائر المدن السورية.

دلت حركـة الاحتجـاج الـواسعة ضد سياسة التتريك واضراب تجار بيروت، الـذين لاقـوا الـدعم من مختلف فئـات السكان على أن حركة التحرر الوطني العربية بدأت تدخـل مرحلة جديـدة من مراحـل تطـورها، مرحلة الانتقال من حركة أفراد أو مجمـوعـات ضيقـة مغلقة على ذاتها إلى حركة جماهيرية نسبياً بامكانها ان تحرك فئات شعبية جماهيرية واسعة. وهذه هي المرة الأولى، التي استخدمت فيها الحركة العربية

في بلاد الشام، الاضراب العام من أجل تحقيق اهداف قومية ومطالب وطنية.

وجدت الحركة «الاصلاحية»، التي انبثقت من بيروت، المركز التجاري المشهور، صدى واسعاً لها في دمشق. ولكن هذا لا يعني أن الحركة المطالبة بالاصلاح في دمشق لم تكن إلا صدى لحركة بيروت. فالحركة الاصلاحية في دمشق كانت أيضاً وليدة التطور الاجتماعي الاقتصادي داخل المدينة وفي ريفها وثمرة نمو الوعي الوطني والقومي في صفوف المتنورين.

في أواسط كانون الثاني عام ١٩١٣ عُقِدَ في مركز حزب الحرية والائتلاف بدمشق اجتماع ضم «طليعة رجال الاصلاح» الذين ناقشوا اللائحة الاصلاحية المقترحة والتي لم تختلف في جوهرها عن برنامج الجمعية الاصلاحية البيروتية. ويتبين من استعراض اسماء المشتركين في الاجتماع أن الجمعية الاصلاحية الدمشقية تألفت من تجار ورجال دين ليبراليين ومن مثقفين. ولكن الجمعية الاصلاحية الدمشقية لم تبلغ درجة من القوة تفوق قوة زميلتها الجمعية البيروتية الاصلاحية لأسباب سنتعرض لها في فصول أخرى.

بعد تخمر طويل وتفاعل داخل المجتمع العربي في الدولة العثمانية انتشرت في سنة ١٩١٣ الافكار المنادية بالإصلاح بين الفئات البرجوازية بمختلف أنواعها في كل من بيروت ودمشق. وشمال فلسطين وأواسط سورية. في هذا الجو الحيوي الممتلىء نشاطاً سياسياً وقومياً طرحت على بساط البحث فكرة ايجاد «جمعية اقتصادية وطنية» تستطيع جمع شمل القوى المعادية للحكم التركي في سورية. وقد رددت الصحافة العربية الوطنية في أوائل كانون الثاني عام ١٩١٣ اصداء الدعوة من أجل عقد مؤتمر عربي لتوحيد الكلمة والمطالبة بالاصلاح.

عقد هذا المؤتمر فعلاً في باريز من ١٨ إلى ٢٣ حزيران ١٩١٣ باسم «المؤتمر العربي الاول» وتمثلت فيه «لجنة الاصلاح» البيروتية و«حزب اللا مركزية» و«المنتدى الادبي» و«جمعية العربية الفتاة» ووفود من العراق والمهاجرين العرب في الولايات المتحدة والمكسيك. وجاءت القرارات مطابقة لما طالب به حزب اللا مركزية ولجنة الاصلاح البيروتية. وقد دعت قرارات مؤتمر باريز إلى ضرورة اجراء الاصلاح، واحترام حقوق العرب العثمانيين لا سيما في المسائل السياسية، وإقامة ادارة لا مركزية في كل ولاية عربية، والسماح بعمل الخبراء الأجانب في بعض فروع الادارة، وتوسيع

سلطة المجالس العمومية.

لقد كانت قرارات مؤتمر باريز وسياسته اللاحقة انعكاساً واضحاً للتيارات المتواجدة داخل الحركة الوطنية العربية. ولهذا سرعان ما دب الخلاف بين تيارات المؤتمر في أمرين رئيسيين: الموقف من الحكومة المركزية التركية أولاً والموقف من الدول «الغربية» الاستعمارية (انكلترا، فرنسا، المانيا) الطامحة في السيطرة الكلية على الولايات العربية العثمانية. أما القضايا الاجتماعية فلم تكن ظاهرياً أو آنياً موضع خلاف بين قادة الحركة الوطنية العربية آنذاك. هذا في الظاهر، أما في الواقع فإن الموقف من الاتراك والدول الاستعمارية امتد بجذوره إل الأرضية الطبقية لهذا التيار أو ذاك، لا سيّما وان المشكلات الاجتماعية بين المستثمرين والمستمرَين وبخاصة بين الفلاحين والسلطة الاقطاعية العثمانية كانت تزداد تفاقماً وحدَّةً في السنوات الأولى من العقد الثاني.

لقد كان من المقدر ان تأخذ الحركة الوطنية العربية في بلاد الشام ابعادها القومية مع الخلفيات الاجتماعية لو لم تنشب الحرب العالمية الأولى في صيف ١٩١٤، حيث عاشت الحركة الوطنية في ظل ظروف جديدة سنتكلم عنها فيما بعد.

الفصل السادس

التيار الديموقراطي الثوري

قبل الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) بدأت الطبقة العاملة في الاقطار العربية بالتكوّن في مؤسسات الرأسمال الاجنبي، الذي اجتاح الاقطار العربية في أواخر القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين. كما تناثرت مجموعات عمالية اخرى في الورشات الحرفية المتطورة نسبياً إلى المانيفاكتورات. وبما ان مصر كانت القطر العربي الاكثر تطوراً فإن الحركة العمالية اخذت جذورها تترسخ على ضفتي النيل وفي دلتاه. وقد اتسمت بداية تكون الطبقة العاملة بالقهر الاقطاعي من جهة وبالاستغلال الرأسمالي الكولونيالي من جهة اخرى.

وعرفت مصر أول اضراب عمالي في آذار ١٨٨٢ قام به عمال تفريغ الفحم في بور سعيد للمطالبة بزيادة الأجور. وقد سجل عام ١٨٩٩ بداية تحركات عمالية استمرت حتى عام ١٩٠٧. وظهرت تنظيمات نقابية اطلق عليها اسم «جمعية»، لم تكن امتداداً لنظام الحرف والطوائف الملغى رسمياً عام ١٨٩٠[١/١٨].

إن قوة الحركة العمالية المصرية دفعت بالحزب الوطني الذي تأسَّسَ عام ١٩٠٧ إلى الاهتمام بالعمال وبخاصة بعد أن تسلَّم محمد فريد، المعروف بتأثره بالأفكار الاشتراكية في أوروبا، قيادة الحزب. وفي عام تأسيس الحزب الوطني ١٩٠٧ وزع شبابه في القاهرة منشوراً يدعو المصريين إلى دراسة الاشتراكية.

سار الحزب الوطني في سياسته العمالية في اتجاهين: الاتجاه نحو انشاء مدارس الشعب ليتعلم العمال والاتجاه نحو انشاء «نقابة الصنائع اليدوية» وفروعها.

في أول تموز ١٩١١ كتبت «اللواء» جريدة الحزب الوطني مقالة عن الاشتراكية في مصر جاء فيها: ان المصري كان لا يعرف شيئاً عن الاشتراكية قبل عهد اسماعيل

(١/١٨) حول هذا الموضوع راجع الغزالي عبد المنعم: «تاريخ الحركة النقابية المصرية ١٨٩٩ - ١٩٥٢». القاهرة ١٩٦٨.

من الموظف الصغير إلى العامل الحقير . إلا ان تطور النظام الاجتماعي ادى إلى ظهور الاشتراكية ونظراً لأن الاموال المستثمرة اجنبية وان هناك الدين المصري الرسمي والاهلي، فإن نظرية ادخال مبدأ الاشتراكية في الحكم لا يمكن تطبيقها على حالنا في مصر بدون خطر يهدد كياننا، أما الاشتراكية من حيث تعاليمها الاجتماعية فإننا في مقدمة من يدعو إليها ويبشر لها لأننا نرى فيها الضمان لحفظ التوازن مابيّن غنيّنا الجاهل المتكبر وفقيرنا المجد البائس».

ولا يخفى ان الحزب الوطني اراد كسب القاعدة العمالية العريضة في مصر في الكفاح ضد الاستعمار الانكليزي والاستبداد الاقطاعي.

ولكن الرجعية المصرية (الاقطاعية) سرعان ما قابلت موجة الاضرابات المندلعة بين عامي ١٩٠٨ و ١٩١٤ بسلسلة من التشريعات الرجعية الارهابية وقادت حملة شعواء ضد العمال وتحركاتهم وضد النهوض الوطني عامة مما ادى إلى نفي محمد فريد خارج مصر.

في فترة ما قبل الحرب العالمية الاولى لمع في مصر عدد من الديموقراطيين الثوريين ذوي الاصل الشامي، الذين بشروا بالاشتراكية وفي مقدمتهم الدكتور شبلي شميل، الذي حكمت عليه محاكم جمال باشا بالاعدام بسبب نشاطه المعادي للحكم العثماني وكان شميل قد كتب في عام ١٩٠٨ أن «الاشتراكية» نتيجة لازمة لمقدمات ثابتة لا بد من الوصول إليها، ولو بعد تذبذب طويل». وفي عام ١٩١٣ صدر كتاب سلامة موسى باسم «الاشتراكية»، وكان سلامة موسى متأثراً تأثراً واضحاً بالفابية البريطانية وحاول ان ينفي الثورية عن الاشتراكية، التي تصل إلى مبتغاها بالوسائل الشرعية دون مصادرة الاملاك ومطاردة الاغنياء. وهذا التيار استمر في مصر بعد الحرب العالمية الأولى وتمثل في الحزب الاشتراكي المصري، الذي شارك سلامة موسى في تأسيسه[(٢/١٨)].

وإلى جانب الفابية تسربت إلى مصر بعض افكار الاشتراكية الديموقراطية (الأممية الثانية)، التي تعرف عليها محمد فريد خليفة مصطفى كامل في قيادة الحزب

(٢/١٨) رفعت السعيد: «تاريخ الحركة الاشتراكية في مصر، ١٩٠٠ ـ ١٩٢٥» بيروت ١٩٧٢، ص ١٠٢.

الوطني المصري . وفي عام ١٩١٥ صدر أيضاً في القاهرة «تاريخ التيارات الاشتراكية» لمصطفى المنصوري تحدث فيه مطولاً عن ماركس وعن الملكية الرأسمالية والامبريالية والحروب وأكد على حتمية انتصار الاشتراكية في العالم .

لقد أخذ الفكر الاشتراكي بالتفتح في سنوات ما قبل الحرب العالمية الأولى .وفي هذه الفترة ارتفعت اصوات العمال مطالبة بسن تشريع للعمال .

عموماً لم تكن الايديولوجية البورجوازية العربية المُبكِّرة معادية عداء صريحاً واضحاً للحركة العمالية العربية . وكانت سياسة مثقفي البورجوازية الناشئة ترمي إلى تجميع القوى المعادية للحكم الاقطاعي التركي في بلاد الشام أو للحكم الاستعماري في مصر. ولا شك ان ضعف الحركة العمالية وعدم تهديدها مواقع البورجوازية ، التي كانت أيضاً لا تزال في طور النمو، اسهم في هذا الموقف للبورجوازية المبكرة .

وقد عبر عن رأي الطبقة العاملة ، التي كانت لا تزال في الطور الجنيني عدد من المثقفين الثوريين الديموراطيين المتأثرين بالتناقضات الاجتماعية الداخلية وبالحركات العمالية والاشتراكية الاوروبية . وقد كتب فرح انطون اللبناني الأصل والمقيم في مصر في كتابه «الدين والعلم والمال» عام ١٩٠٣ ما يلي :

«ان معامل الأمة ومصانعها ومتاجرها وأراضيها هي من مرافقها ومنافعها كالأنهر والابحر والهواء ، ولذلك لا يجوز ان تكون ملكاً لفرد أياً كان بل هي ملك لجميع الامة ، فعلى الامة إذا ان تتولى ادارتها بنفسها وتوزع ارباحها بين ابنائها . . . أي أن الحكومة تجعل نفسها التاجر الوحيد الذي تنحصر في يده تلك المتاجر والمصانع والمزارع» .

وكان فرح انطون قد صَدَّر كتابه هذا بعبارة «فليحذر العالم من يوم يصير فيه الضعفاء اقوياء ، والاقوياء ضعفاء» .

وعندما نشبت ثورة اكتوبر الاشتراكية عام ١٩١٧ حيّاها فرح انطون ، ولكنه كان خائفاً في البدء من فشلها . وكان يقول «ان الحركة البلشفية قد تفشل لقلة استعداد اهلها لها . وهي كتجربة اذا فشلت اخرت الحركة الاشتراكية امداً مديداً»[١٨/٣] . ولكنه عاش حتى ١٩٢٢ ومات وهو قرير العين بانتصار الثورة

(١٨/٣) مجلة «العروس» ايلول ١٩٢٢ . ص ٣٢٩ .

الاشتراكية في سدس الكرة الأرضية.

* * *

إن مؤرخي البورجوازية وسدنتها حاولوا ويحاولون طمس معالم الفكر الاشتراكي النامي على أرض الحركة القومية العربية، والتزموا الصمت المطبق على أعمال الجناح اليساري داخل الحركة الوطنية، وفرضوا الواناً من الارهاب الفكري على كل من يحاول ابراز منجزات القسم التقدمي من الحركة الوطنية. ومع أن مؤرخي البورجوازية والمتربعين على موائدها لاقوا حتى الآن نجاحاً على الصعيد الرسمي في تحريف التاريخ، وفي طمس الحقائق التاريخية واقامة جدار من الصمت أمام كل ما هو تقدمي وكل ما يعبر عن مصالح المستضعفين المستَغَلين سواء في تاريخنا العربي أو في التاريخ العالمي، إلا أن احلام وتطلعات وكتابات مفكري التيار الديمقراطي الثوري والدور الذي قام به الجناح اليساري داخل الحركة الوطنية، أخذت تتردد أصداؤه على صفحات الجرائد والمجلات التقدمية العربية.

إن دراسة الحركة الوطنية العربية، في سنوات نموها الأولى، وفي الوقت الذي لم تكن فيه الطبقة العاملة قد تكونت بعد، تبين ان هذه الحركة عكست منذ اوائل القرن الحالي، في خضم نموها وتطورها وكفاحها، ومن خلال مفاهيمها المختلفة، طبيعة المجتمع الاقطاعي المتصدع، كما اشارت إلى جوهر المعركة المحتدمة ضد الهجوم الامبريالي بوجهيه الاقتصادي والثقافي. كما ان الحركة الوطنية العربية قبل الحرب العالمية الأولى تشير أيضاً إلى الدور التقدمي لمفاهيم الطبقة البورجوازية الناشئة، وهي تلقي الاضواء على الدور التاريخي الذي قام به ممثلوا القسم الاكثر تقدمية داخل الحركة الوطنية والقومية، ذلك القسم المعبر عن آلام وآمال الجماهير الشعبية المتطلعة إلى حياة سعيدة.

ومع اعترافنا بأن التيار اليساري داخل الحركة الوطنية العربية وهو ما اطلقنا عليه اسم التيار الديمقراطي الثوري لم يكن قوياً إلى درجة كبيرة، إلا أن تأثيره على مجموع الحركة القومية وعلى آفاق تطورها المستقبلي كان قوياً جداً، وعبر عن تطلعات الفئات الاجتماعية المستغلة المسحوقة، التي أخذ دورها يتنامى رويداً بعد الحرب

العالمية الأولى واحتل مكان الصدارة بعد الحرب العالمية الثانية .

إن الدور التاريخي الهام الذي قام به التيار الديموقراطي الثوري هو انه استطاع ان يلقح الحركة الوطنية والقومية العربية بمفاهيم جديدة واضفى عليها طابعاً ديموقراطياً عاماً ، أخذت سماته تظهر بشكل واضح مع الزمن ، في الوقت الذي كانت فيه عملية التمايز داخل الحركة الوطنية تأخذ أبعادها المنطقية بين مختلف التيارات البورجوازية الصغيرة والعمالية .

وقد أسهم في هذا التمايز النموُّ المضطردُ لكل من البورجوازية والطبقة العاملة ، بالإضافة إلى ازدياد دور الفلاحين في الكفاح الوطني ، الأمر الذي أدى بدوره إلى تبلور المواقف الايديولوجية ، التي أخذت تياراتها الفكرية تتوضح وتشق طريقها في خضم المجتمعات العربية :

الفصل السابع
حركة التحرر العربي بين اليمين واليسار

انتعشت حركة التحرر الوطني والقومي في بلاد الشام بعد ثورة الاتحاديين سنة ١٩٠٨ ضد السلطان عبد الحميد. وعلى الرغم من مشاركة التيار الاقطاعي الليبرالي المتحرر في الحركة القومية، الا ان الطابع العام للحركة كان بورجوازياً. وبتعبير آخر كانت الحركة الوطنية، حركة بورجوازية متشابكة مع بعض التيارات الاقطاعية. ودليلنا على ذلك المطالب التي رفعتها الحركة الوطنية وارتفاع نسبة عدد من يمتون الى البورجوازية بصلة نسب داخل الحركة القومية، وكون المثقفين البورجوازيين والتجار القوة الدافعة والمحركة للعمل الوطني والقومي. ولم يؤلف العمال آنذاك قوة حاسمة في النضال رغم بدء تحرك تجمعاتهم الجنينية[١٨/٤]، في حين دعم الحرفيون الحركة الوطنية دون ان يساهموا في قيادتها أو نشاطها اليومي. وقد أدرك الجناح الراديكالي البورجوازي داخل الحركة الوطنية والقومية أهمية العمال والحرفيين الذين ألفوا حوالي ١٠٪ من السكان[١٩] ووقف إلى جانبهم ضد الشركات الاجنبية، كما حاول هذا الجناح أن يتخذ موقف المصالحة بين العمال والمالكين لادوات الانتاج الصناعية والحرفية من أجل مجابهة العدو الاساسي، أي الحاكم الاقطاعي التركي[٢٠].

في ظروف انتعاش الحركة الوطنية العربية بعد ثورة الاتراك الاتحاديين والقضاء على الاستبداد الحميدي، ظهرت الاحزاب والتجمعات السياسية[٢١] كثمرة من ثمار

(١٨/ ٤) مثل اضراب عمال السكك الحديدية عام ١٩٠٩. واضراب عمال (صناع) النسيج في حلب في حزيران ١٩١٣. وحول الحديث عن موقف البورجوازية الناشئة من القضايا العمالية يمكن مراجعة كتاب رفيق رزق سلوم «حياة البلاد في علم الاقتصاد» المطبوع في حمص عام ١٩١٢ ويتضمن فصلاً عن «العملة والاغتصاب». ومن الطريف مراجعة رأي سلوم ايضاً «حول المسألة الزراعية وامتلاك الاراضي وتقسيمها».

(١٩) روبين ارثور: «سورية كمنطقة اقتصادية» برلين - فيينا ١٩٢٠، ص ١٧٢ «بالالمانية».

(٢٠) حنا عبد الله: «الحركة العمالية في سورية ولبنان ١٩٠٠ - ١٩٤٥»، الفصل الثالث.

(٢١) حول البرامج الاجتماعية للاحزاب راجع ما كتب في مؤلفنا: «المسألة الزراعية والحركات الفلاحية في سورية ولبنان» ج ١، بيروت ١٩٧٥.

حركـة النهضـة العـربيـة، التي بدأت في منتصف القـرن التـاسـع عشـر، من جهة، وكصدى من أصداء التيارات العالمية، التي غزت الدولة العثمانية وولاياتها من جهة أخرى.

تميـزت جمعيـة العـربيـة الفتـاة المؤسسة عام ١٩١١ عن غيرها من الجمعيات السيـاسيـة العـربيـة بوضـوح اتجـاهها القومي العربي ودفاعها عنه والدعوة له بحمية وحمـاس. وبعـد الحـرب العـالميـة الأولى طرأ على تركيب «العـربيـة الفتـاة» ذات الايديولوجية البورجوازية تغيير جزئي لصالح القوى الاقطاعية الليبرالية.

اما برنامج حزب اللامركزية الادارية العثمانية المؤسس في القاهرة عام ١٩١٢ فقـد عكس طمـوح التجـار السـوريـين والاقطـاعيـين الليـبراليين في الحصول على الاستقـلال الـذاتي الاقتصادي والسياسي. وقد شكل قادة حزب اللامركزية الجناح اليميني داخـل حركـة التحـرر العـربية قبل الحرب العالمية الأولى. وبعد عام ١٩١٨ غادر معظم اعضاء اللامركزية صفوف الحركة الوطنية واخذوا يتسكعون على أبواب المستعمرين.

ويدل برنامج الجمعية الاصلاحية البيروتية على طموح البورجوازية البيروتية في الاستقـلال الاقتصـادي وتقرير أمورها بنفسها دون الرجوع الى حكومة استنبول. وفي بيروت كانت كفـة بورجـوازيـة الكـومـبرادور هي الـراجحـة. ولهـذا فإن هذه البـورجـوازيـة المـرتبطـة مصـالحهـا بالسوق الرأسمالية الغربية سرعان ماانضمت الى الاحتلال الافرنسي ودعمته بعد ١٩١٨.

امـا الحـركـة الاصـلاحيـة في دمشق المؤلفة من تجار ورجال دين ليبراليين ومن مثقفـين فكـانت في اعـماقهـا ترغب في الانفصـال عن الـدولـة العثـمانية. ولاشك ان مشاعرها هذه كانت ستتبلور لو أن الحرب العالمية الأولى تأخرت عدة سنوات عن عام ١٩١٤. وقـوى هذه الحـركـة هي التي قادت النضـال الـوطني أيـام الحكم الفيصـلي (١٩١٨ ـ ١٩٢٠) ورفعت راية النضال ضد الاحتلال الاستعماري الافرنسي.

امـا في حلب فكـانت الحـركة الاصلاحية ضعيفة فيها. وقد اشارت الى ذلك جريدة «المقتبس» الدمشقية في ٨/ ٤/ ١٩١٣ و١٧/ ٥/ ١٩١٣ معللة ذلك بوجود عناصر تزعم ان الاصلاح معاد للدين، الذي يؤيد الدولة العلية. والواقع يكمن في مصلحـة الفئـات البورجوازية التجارية في حلب المرتبطة اقتصادياً بتجارة الاناضول.

وكانت مصالحها الطبقية تتطلب بقاء الدولة العثمانية بعكس بورجوازيتي دمشق وبيروت.

في تلك الاجواء عقد في باريز في حزيران ١٩١٣ «المؤتمر العربي الأول». وقد كانت قرارات المؤتمر وسياسته اللاحقة انعكاساً واضحاً للتيارات المتواجدة داخل الحركة الوطنية العربية، كما رأينا من قبل.

الفصل الثامن
الثورة العربية في الحجاز

لم تؤد محاولة «المؤتمر العربي الأول» المنعقد في باريس عام ١٩١٣ إلى الغاية المرجوة في توحيد القوى الوطنية، بل جرى العكس إذ اتسعت شقة الخلاف في الرأي حول الموقف من الحكم التركي والاستعمار الاوروبي ومستقبل البلاد. وفي هذا الجو المشبع بالانقسامات داخل الحركة العربية والمتميز بالجزر والانحسار الوطني، اندلعت في صيف ١٩١٤ نيران الحرب العالمية الامبريالية الأولى. هذه الحرب التي وضعت الحركة الوطنية والقومية في بلاد الشام امام ظروف ومهمات جديدة.

كانت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) نتيجة الصراع الدائر بين القوى الامبريالية من أجل اعادة تقسيم مناطق النفوذ في العالم. وقد اتسم النضال بين الكتلتين العسكريتين الامبرياليتين من أجل السيطرة على شرق الوطن العربي بأهمية استراتيجية خاصة. وبعد نجاح الدبلوماسية الالمانية في كسب تركيا إلى جانبها، وقع الحلفاء (بريطانيا، فرنسا، روسيا القيصرية) اتفاقية سايكس - بيكو الاستعمارية السرية، التي قَسِمت بموجبها البلاد العربية الخاضعة للدولة العثمانية بين الاستعمارين الافرنسي والانكليزي. وفي الوقت نفسه كانت المفاوضات تجري بين الشريف حسين الهاشمي في مكة وسلطات الاحتلال البريطاني في مصر. وعلى أثر هذه المفاوضات أعلن الشريف حسين في حزيران ١٩١٦ الثورة على الاتراك. وكان لابد لوطنيي بلاد الشام الرازحين تحت نير الاستعباد العثماني، العدو الأول للحركة الوطنية العربية من تأييد الثورة العربية في الحجاز والاسهام العملي في عملياتها قدر المستطاع.

كانت الثورة العربية في الحجاز «ثورة» الارستقراطية الحجازية ضد التسلط التركي. وهذه الارستقراطية طمحت إلى استبدال النير الاقطاعي التركي بالنير الارستقراطي الهاشمي (الحجازي) وحتى يكسب الشريف حسين فقراء الحجاز الى جانبه اضطر إلى اصدار تشريع يُحدد العلاقة بين الدائنين والمدينين. ومن جهة اخرى سعتْ الارستقراطية الهاشمية الطامحة إلى بسط نفوذها على اسيا العربية، الى

التقـرب من الحـركـة الـوطنيـة العـربيـة المتطـورة في بلاد الشـام ذات التطلعـات البـورجـوازية . وهذا اللقاء بين الحركة الوطنية العربية المعادية للحكم التركي في بلاد الشـام وبـين الارستقـراطيـة الحجازية ذات المشارب الاوتوقراطية ، اسبغ على الثورة العـربيـة مظهـراً جديـداً ، واكسبهـا طابعـاً مزدوجاً : طابع تقدمي بسبب عداء الثورة للحكم الاقطـاعي الـتركي وتحالفها مع الحركة الوطنية العربية في بلاد الشام ، وطابع رجعي بسبب سيطرة الاوتوقراطية الحجازية المتخلفة على الثورة وعلاقتها بالامبريالية الانكليزية ، هذا الطابع المزدوج للثورة العربية في الحجاز اوقع عدداً من المؤرخين في تنـاقض لم يكن بإمكـانهم حله . فبعضهم لم ير في الثـورة الا جانبهـا الايجـابي واطلق عليهـا اسم «الثـورة العـربيـة الكـبرى» والآخـرون اسدلوا الستار على هذا الجانب وضخمـوا علاقـة الثـورة بالاستعـار الانكليزي متجاهلين الظروف ، التي قامت منها الثورة ووضع الحجاز البشري والمادي والسياسي .

لقد تجاذبت الثورة العربية في الحجاز ثلاثة محاور هي :

أول : العقليـة الامـبريـاليـة الـبريطـانية الساعية لتوجيه رياح الثورة بما يخدم مخططاتها ويصالحها .

ثانيـاً : العقليـة الاوتـوقراطية الهاشمية المتخلفة الحالمة في السيطرة على مشرق الوطن العربي واقامة مملكة عربية .

ثالثـاً : العقليـة المتفتحـة المتنورة نسبياً للوطنيين السوريين والعراقيين الطامحين إلى بناء دولة عربية مستقلة متطورة تسودها العلاقات نصف الاقطاعية البورجوازية .

وبما أن الارستقراطية الهاشمية كانت ضعيفة مادياً وعسكرياً وسياسياً ومتخلفة فكـريـاً ، فإنهـا لجأت بالـدرجـة الأولى ، للاستعانة بالمستعمرين البريطانيين لتحقيق مآربهـا . ولكنهـا كانت بحـاجـة إلى سند شعبي في العراق والشام ولهذا اضطرت الى الاستعـانـة بالحـركـة الوطنية العربية النامية في بلاد الشام بعد ثورة الاتراك الاتحاديين عام ١٩٠٨ . والارستقـراطيـة الهاشمية لم تعمل على التعاون مع سائر فصائل الحركة الـوطنيـة العـربيـة ، بل اتجهت بالـدرجـة الأولى لتوثيق صلاتها مع الجناح الاقطاعي الليبرالي داخل الحركة الوطنية . فعبّرت بذلك عن طبيعتها الطبقية وعن خشيتها من العنـاصـر البـورجـوازيـة المعادية للاوتوقراطية الحجازية وسلوكها وممارساتها . ومع ان الامير فيصـل بن الشـريـف حسـين الـذي يُمثِّـلُ الجنـاح الليـبرالي من الاوتـوقراطية

الحجازية، سعى لعقد صلات حسنة مع العناصر البورجوازية الشامية، الا ان الطابع العام لحركته بقي طابعاً يخدم التخلف الاقطاعي ويناهض التطور البورجوازي.

وثمة أمر آخر لم يكن في صالح التقدم داخل الثورة العربية في الحجاز، هذا الامر هو تخلف القوى المنتجة في الحجاز وانحطاط مستوى التطور الاجتماعي. فلم يكن امام الثورة في باديء الامر، أية قوة اجتماعية سوى قوة البدو الخاضعين كلياً لرؤسائهم وامرائهم. وقد استطاع الجاسوس الانكليزي الشهير لورانس ان يشتري رؤساء العشائر وأن يسيرّ البدو بقوة الأصفر الرنان، في صالح الاستعمار البريطاني.

ومع هذا، وعلى الرغم من الطابع المتخلف لقيادة الثورة العربية في الحجاز ولقواها الضاربة البدوية ولعلاقتها الوثيقة بالاستعمار البريطاني، فإن الثورة العربية في الحجاز حملت بين طياتها محتوى تاريخياً هاماً، اذ اسهمت في الحاق الهزيمة العسكرية بالجيوش التركية ـ الالمانية، واججت الكره والحقد ضد الاستبداد التركي في صفوف المجندين العرب من الفلاحين وفقراء المدن، وشجعتهم على الفرار الجماعي من الجيش العثماني وبث الفوضى في صفوفه.

لقد كان لقيام الثورة العربية في الحجاز ونجاحها النسبي أثرٌ في بعث الثقة في نفوس الوطنيين العرب المثخنين من جراح الارهاب، واسهم في انتفاضات الفلاحين المستعبدين من الحكم التركي وضرائبه غير المحدودة والواقع ان تمردات الفلاحين بدأت قبل قيام الثورة بقليل. ففي صيف ١٩١٦ تمرد الفلاحون في حوران ضد جمع محاصيل الحبوب منهم وسرقة لقمة عيشهم واستمرت اضطرابات الفلاحين في حوران حتى خريف ١٩١٦. وفي بعض قرى حوران امتد التمرد على دفع الضرائب فترة زمنية اطول حتى عام ١٩١٧ كما جرى في نوى وطفس. ومع تقدم الجيوش البريطانية في فلسطين وجيش الثورة العربية في شرق الأردن اتسع نطاق تمردات فلاحي حوران وهجماتهم على مؤخرة الجيوش التركية الالمانية. وفي آذار عام ١٩١٧ نهض للنضال ضد الاتراك قسم من فلاحي جبال الساحل بقيادة صالح العلي. وفي ٢٥ ايلول ١٩١٨ هاجم.. ٣٠٠ فارس بقيادة سلطان باشا الاطرش المعسكر التركي في بصرى وبدا واضحاً أن الحكم التركي في بلاد الشام أخذ يلفظ انفاسه الاخيرة.

الفصل التاسع
الاتجاهات السائدة في الدولة الوطنية العربية بدمشق (١٩١٨ - ١٩٢٠)

في خريف عام ١٩١٨ انتهى الى غير رجعة كابوس الحكم العثماني الاقطاعي البغيض واحتلت الجيوش الانكليزية والفرنسية بالتعاون مع قوات الامير فيصل سورية. ولكن القضاء على الدولة العثمانية وانتصار الحلفاء لم يؤد إلا إلى استبدال النير الاقطاعي التركي بالنيرين الاستعماريين البريطاني والفرنسي. ومع هذا فإن انهيار الدولة العثمانية وزوال الحكم الاقطاعي التركي كان حدثاً تاريخياً هاماً وخطوة اجتماعية إلى الامام، حررت قوى وطنية جبارة من الفلاحين وجماهير المدن الفقيرة المضللة بشعارات الطبقة الحاكمة العثمانية. لقد نشّطَ انهيار الدولة العثمانية الحركة الجماهيرية واكسب حركة الاستقلال العربي صفاء وقوّة لم تعهدهما من قبل، كما قلب تدريجياً ميزان القوى داخل حركة التحرر الوطني العربي لصالح الجماهير الكادحة، اي أن حركة التحرر العربي اخذت نتيجة اشتراك الجماهير النشيط فيها، تتجه رويداً رويداً نحو اليسار في حين اخذ يمين الحركة يساوم الاستعمار أو يعقد الصفقات معه وفي كثير من الأحيان يرتمي في أحضانه مستسلماً هانئاً بدفء التربع على كرسي الحكم المزيفة المحروسة بحراب جنود الاحتلال.

بعد انهيار الدولة العثمانية في خريف ١٩١٨ قامت في سورية الداخلية حكومة وطنية عربية (اقطاعية ذات نزعات بورجوازية) بقيادة الشريف فيصل بن الحسين قائد جيش الشمال للثورة العربيةفي الحجاز.

اتبع فيصل سياسة غامضة متأرجحة بين القوى المتصارعة في الداخل والخارج ترمي إلى المحافظة على العرش بأي ثمن. وكان خوفه من ازدياد قوة الحركة الشعبية سبباً في تقوية روح المساومة لديه. وادى ذلك كله إلى عرقلة نمو الكفاح الشعبي واخماد نيران الحماس الوطني الثوري.

لقد كان فيصل بنزعته الفردية يمثل الاتجاه الأقل رجعية والاكثر وطنية داخل الارستقراطية الحجازية. وتميزت سياسته بالتعاون مع الاقطاعية السورية وبعدم

معارضة المثقفين ذوي النزعة البورجوازية وبالخوف من الجماهير الشعبية وكبح جماحها والحصول على التاج من فوق.

وبسبب عوامل كثيرة ـ داخلية وخارجية ـ لم تستطع الدولة العربية الوطنية من الحياة أكثر من سنتين. وبالاتفاق مع المستعمرين الانكليز احتل المستعمرون الفرنسيون سورية الداخلية واقاموا نظام الانتداب الاستعماري في فترة مابين الحربين العالميتين.

الباب الثاني

التيارات الفكرية
في عهد النضال ضد الاحتلال الأجنبي
١٩٢٠ ـ ١٩٤٥

لانريد هنا تكرار ماكتبناه في المقدمة وإنما نريد التأكيد على أن نشوء التيارات الفكرية وتطورها في سورية ولبنان في فترة ما بين الحربين العالميتين خضع إلى العوامل نفسها التي خضعت لها البلدان الرازحة تحت نير الاستعمار. فالبنيان الاقتصادي ـ الاجتماعي بتناقضاته المختلفة مارس تأثيراً جوهرياً في تكون وتطور وتشعب الحياة الفكرية. كما ان الثقافة القومية بجوانبها المتعددة وبخاصة ثقافة عصر النهضة أسهمت في وجود التيارات المختلفة. وقامت الثقافة العالمية ـ البورجوازية، والاشتراكية ـ بدور هام في تطوير وصقل التيارات الفكرية وفي تقديم المادة الفكرية لهذه التيارات وفي توضيح معالمها المختلفة.

هذه التيارات الفكرية الكبرى هي:

١ ـ التيار الاقطاعي (العثملي).

٢ ـ التيار البورجوازي الكبير (نسبياً).

٣ ـ التيار البورجوازي الصغير.

٤ ـ التيار الاشتراكي.

وعلى الرغم من صحة هذا التقسيم الطبقي للتيارات الفكرية، فإن تصنيفاً آخر ينطلق من التصنيف الطبقي ويفرز التيارات الفكرية إلى ثلاثة اتجاهات هي:

١ ـ التيارات الدينية.

٢ ـ التيارات القومية.

٣ ـ التيار الماركسي.

وسواء اتبعنا التصنيف الأول أم الثاني فإن ذلك لايعني ان ثمة حدوداً وسدوداً تفصل بين هذه التيارات بعضها عن بعض بل هي تتداخل وتتشابك تشابك الطبقات والفئات الاجتماعية التي تفرز هذه التيارات، وتتمازج تمازج العوامل الداخلية (الاقتصادية ـ الاجتماعية) والعوامل الخارجية (التأثيرات البورجوازية والاشتراكية) والتراثية بجوانبها المتعددة والمتناقضة.

فداخل التيار الديني توجد تيارات «دينية قومية» و«دينية شبه اشتراكية». وفي قلب التيار القومي نزعة تتطلع إلى التيار الديني وأخرى ترنو بأبصارها إلى التيار

الماركسي. وفي مجرى التيار الماركسي نشاهد جداول قومية متنوعة الألوان وآراء تسعى للتوفيق بين القومية والماركسية.

ويسترعي الانتباه الأثر الواضح والعميق لأفكار البورجوازية الصغيرة في سائر التيارات وتأرجحها وتصارعها بين يمين ويسار ورجعية وتقدمية ورأسمالية واشتراكية، ومرد ذلك إلى غياب التخوم التي تفصل طبقات المجتمع العربي بعضها عن بعض، والكثرة العددية للفئات الوسطى في مجتمع أخذت تتصدع فيه العلاقات الاقطاعية ولكنها بقيت تحتفظ بوجودها وتعرقل نمو العلاقات الرأسمالية، التي لم تصل في انتشارها، حتى منتصف القرن العشرين، إلى أعماق المجتمع ولم تتمكن من خلخلت بنيانه التحتي والفوقي القائم على العلاقات ماقبل الرأسمالية.

الفصل الأول

التيار الفكري الاقطاعي «العثملي» وردود الفعل

تمسّك هذا التيار بشكل جامد بالقديم، ودعا الى الانقياد إلى سنن الآباء والأجداد انقياداً أعمى والاقتداء بأعمال وأفكار القرون الوسطى اقتداء حرفياً. وبذل هذا التيار جهوداً محمومة من أجل المحافظة على كل ماهو قديم في جميع الأمور السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية، أي المحافظة على منشآت النظام الاقطاعي وبنائه الفوقي والتحتي. وقام بنشر الخرافات والاساطير، ونشر روح الخنوع والاستسلام بهدف قتل الروح النضالية ضد الجماهير المضطهدة المستعبدة والفئات البورجوازية الراغبة في التجديد والتغير والقضاء على القديم البالي. ولابد من القول أن السياسة الاستعمارية الفرنسية شجعت هذا الاتجاه ودعمته لأنه يساعد على استمرار بقائها في البلاد. فدعت، كما ورد مثلا في كتاب صادر عن المفوضية الافرنسية في بيروت، «فتيان سوريا.. أن يبثوا روح السكينة والسلام فالبلاد عطشى الى الهدوء»[٢٢].

وقد وصف أحمد شاكر الكرمي حالة التيار الفكري الاقطاعي سنة **١٩٣٣** في مجلة «الثقافة» بما يلي: «في المدينة (أي في دمشق) دعوة ترمي إلى الرجوع للقديم ونبذ كل البدع العصرية في المأكل والملبس وفي التعليم والسلوك. يقول أهل هذه الدعوة للناس صلوا صلواتكم الخمس جماعة وارجعوا الى السنّة في ملابسكم، وافعلوا الخير واتركوا الشر، ثم اهملوا كل ماعدا ذلك، وهذه أمور سهلة يستطيع كل انسان أن يقوم بها، ولكن هل تكفي هذه الامور في عصر كعصرنا أو في أحوال كأحوالنا المعروفة؟. ان انصراف الامة الى العبادة وحدها في مثل هذه الأيام أمر لايقبله ولا يرضى به مخلص. فإذا كان رجال تلك الدعوة مخلصين حقاً فإنهم ولاشك بسطاء يريدون أن يقودوا الأمة الى الموت من حيث لايشعرون... وكثيراً ماكان الاخلاص وحده جالباً

---

(٢٢) «سوريا للسوريين، كتاب سياسي اجتماعي تاريخي» بقلم مسلم ـ طبع بيروت سنة ١٣٢٩ هـ، ص ٥٦.

لاكثر الاخطاء وأعظم الشرور. **اللهم نجنا من شر كل اخلاص لا يصاحبه علم** وخبرة ومعرفة بتصاريف الدهر وأحوال الحياة»[٢٣].

عكس صاحب هذا الرأي موقف كل من التيارين الاقطاعي والبورجوازي من مشكلة العمل والمعرفة في أوائل الثلاثينات. ويبدو واضحاً أن العناصر الاقطاعية ارادت من وراء الدعوة إلى «السَلفِيّة» المحافظة على العلاقات الاقتصادية ـ الاجتماعية القائمة ومقاومة كل تطور مهما كان نوعه. وهذه الجماعة ذات المشارب الاقطاعية الداعية الى الرجوع الى القديم، لم تر في القديم، أولم تشأ أن ترى في القديم، إلا جانباً واحداً فقط واهملت عن عمد الجانب الآخر. الثوري، الداعي الى الثورة على الاضطهاء والى العمل واكتساب المعارف.

والواقع ان الصراع بين أنصار التمسّك بالمظاهر الخارجية للدين واهمال ماهو جوهري وأساسي، وبين أنصار من يأخذون من الدين جانبه الثوري، والصراع بين أنصار الجبرية وأنصار القائلين بحرية الاختيار، كان السِّمة المميزة لمعظم عصور التاريخ العربي. وأحد مظاهر الصراع بين التقدم والرجعية، هذا الصراع الذي حدد الصعيد «الايديولوجي» الذي وقف عليه أو انطلق منه هذا المفكر العربي أو ذاك.

وكان أحمد شاكر الكرمي قد اصدر عام ١٩٢٣ مجلة «الميزان» الاسبوعية، التي اهتمت بالنقد والادب والتف حول محررها طائفة من الشباب المجددين الذين اخذوا على عاتقهم مجاراة التيارات الفكرية الحديثة وتحطيم أصنام الادب.. وقد ساروا على نهج طه حسين والعقاد والمازني.[١/٢٣].

تعكس كتابات الدكتور عبد الرحمن الشهبندر في معرض نقده للفكر المحافظ انحياز البورجوازية في فجر تكونها الى جانب مبدأ حرية الاختيار ومهاجمة مبدأ الجبرية والخنوع بشكل جريء سافر.

فقد عرّى الدكتور **الشهبندر** في كتابه المشهور «**القضايا الاجتماعية في العالم**

---

(٢٣) نقلا عن: جميل صليبا: «محاضرات في الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام» ـ القاهرة ١٩٥٨، ص ١٣٤.

(١/٢٣) انظر سامي الكيالي: «الادب العربي المعاصر في سوريا ١٨٥٠ ـ ١٩٥٠» مصر ١٩٦٨. ص ٣١.

العربي» المطبوع سنة **١٩٣٦**، دعوة التيار السلفي الى القديم قائلاً: «أن النفخ في أبواق المحافظة في مثل هذه الحال ليس إلا تشجيعاً على اطفاء جذوة الحياة وروح التقدم والقضاء المبرم على فكرة الاصلاح»[٢٤]. ثم بيّن دور العلم في الخلاص من الجهل ومعرفة «أن فكرة الجبر التي كانت مستولية على هذا السلف هي فكرة بالية تليق بالاقوام الابتدائية وان مصيرنا مربوط بعزمنا»[٢٥].

وفي مقال آخر نشره **الشهبندر** في «**مجلة الرابطة العربية**» سنة **١٩٣٦** رد على التيار الفكري الخانع المستسلم قائلاً: «ويجب أن يرسخ في الاذهان ان الضعف لم يعد ينظر إليه عاهة «سماوية» لا طاقة للضعيف ان ينجو منه، بل هو مرض اخلاقي ينبغي للضعيف أن يعالجه بكل ممكن للنجاة» واستطرد قائلاً: «فمدفع ذو فوهة كبيرة قد ينفع بهذا المعنى أكثر من جميع الآيات الاخلاقية والعظات الدينية التي تُتلى في المعابد لرفع الحَيف والظلم»[٢٦].

وهذا الاتجاه الداعي إلى الثورة على الخنوع والسكينة نجده في «رد الكتلة الوطنية على بيان المفوض السامي سنة **١٩٣٣**» المنشور باسم عبد الرحمن الكيالي.

وكان ذاك التيار القديم مضطراً أحياناً، مقتنعاً أو مناوراً، إلى الأخذ ببعض مناحي التطور، وكما يقول صليبا، فقد زعم انصار التيار المحافظ. وما يزالون يزعمون. أن الثقافة يجب أن تقسم قسمين: أحدهما يمثل الجانب العلمي والآخر يمثل العلوم المعنوية كالآداب والفلسفة وما إليها. وأنه ينبغي لنا في نهضتنا الفكرة الحديثة أن نأخذ عن الغربيين علومهم المادية فحسب، وأن نقيم ثقافتنا الأدبية والفلسفية على مقوماتنا الروحية وعلى مانستمده من ماضينا ومن أعماق شخصيتنا المتمثلة في تاريخنا وعقائدنا وتقاليدنا[٢٧].

---

(٢٤) الشهبندر .... ص ٦

(٢٥) المصدر نفسه ص ٨.

(٢٦) الشهبندر عبد الرحمن: «هل يزول الاستعمار» ـ في مجلة «الرابطة العربية» (القاهرية)، العدد ١٥٦، تموز ١٩٣٦، ص ١٢.

(٢٧) صليبا. . ص ٣٨. .

وقد مثل هذا التيار الداعي إلى الجمع بين القديم والحديث بشكل جيد تلك الفئة ذات الارتباطات الاقطاعية الليبرالية وذات التطلعات البورجوازية، أي تلك الفئات المرتبطة فكرياً أو اقتصادياً بالاقطاعية والبورجوازية (الاقطاعيين المتبرجزين) وهم من أطلق عليهم لقب «المعتدلين ذوي العقول المزدوجة أو ذوي العقل الواحد ذي الوجهين»[28] احدهما متجه الى الشرق (الاقطاعي) والثاني إلى الغرب (البورجوازي).

كتب الامير شكيب ارسلان سنة **١٩٣٧** في مجلة المجمع العلمي العربي:
«بقي علينا أن ننظر كيف يكون اتجاه الامة العربية في المستقبل من جهة الثقافة. أتأخذ بالثقافة الغربية ولوازمها ومتمماتها الى النهاية أم تبقى معتصمة بثقافتها الشرقية الاصيلة لاتبغي بها بدلا ولاعنها حولاً أم تأخذ من الثقافتين معاً، وتجعل من ذلك ثقافة خاصة لا شرقية ولا غربية.. والحق أن ثقافة العرب المستقبلة ستكون عصرية آخذة من التجدد بأدنى نصيب لكن مع الاحتفاظ التام بالطابع العربي»[29].

وتظهر آراء **الامير شكيب أرسلان** واضحة من خلال رسالته لمجلة (المنار) القاهرية في سنة **١٩٣٠** رداً على استفسار أحد تلامذة **الشيخ رشيد رضا** وهو **محمد** بسيوني عمران امام مهراجا جزيرة سميس يرنيو (جاوة) حول أسباب تأخر المسلمين وهي:[30]

- العلم الناقص.
- فساد الاخلاق ولاسيما... الضاربون بالملاعق في خلواتهم، والذين أباحوا لانفسهم بأسم الدين خرق حدود الدين، هذا والعامة والمساكين مخدوعون بعظمة عمائم هؤلاء العلماء.
- الجبن والهلع واليأس والقنوط من رحمة الله.

ويستطرد الامير شكيب ارسلان قائلاً:

«.... فقد أضاع الاسلام جاحد وجامد.

---

(٢٨) هذا تعبير صليبا... ص٣٢..

(٢٩) صليبا... ص ١٣٦..

(٣٠) ارسلان شكيب: «لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم» ـ ط ٢، مصر ١٣٥١. ص ٤٢.

أما الجامد فهو الذي يأبى إلا أن يفرنج المسلمين وسائر الشرقيين . والمسلم الجامد، هو الذي مهد لاعداء المدنية الاسلامية الطريق لمحاربة هذه المدنية محتجين بأن التأخر الذي عليه العالم الاسلامي هو ثمرة تعاليمه. والجامد هو سبب الفقر الذي ابتلي به المسلمون لأنه جعل الاسلام دين الآخرة فقط . . . والجامد هو الذي شهر الحرب على العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية . . . .

وهذا الخلق بعينه هو الذي جعل الافرنج يقولون أن الاسلام جبري لا يأمر بالعمل. لأن ماهو كائن هو كائن، عمل المخلوق أم لم يعمل، لا شيء أدل على فساد هذا الزعم الافرنجي من القرآن الملآن بالحث على العمل وباستنهاض الهمم».

وقد أورد أرسلان عشرات الآيات الناطقة بأن الاسلام دين السعي والعمل، لا دين الخمول والكسل.

كان الامير شكيب أرسلان يتمتع باحترام لابأس به في بعض الاوساط في مختلف البلدان العربية. إلا أن تأثيره أخذ في الزوال في الثلاثينات لاسيما بعد أن أيد ايطاليا الموسولينية في احتلال الحبشة، ناهيك عن وقوفه الى جانب المانيا النازية أثناء الحرب العالمية الثانية.

كانت عروبة أرسلان شبيهة برابطة الافغاني الاسلامية. وهذا مما عرّضه للانتقاد من الجيل الناشيء. وكانت زيارته القصيرة الى سورية أثر توقيع المعاهدة سنة ١٩٣٦ امتحاناً قاسياً لتياره. فقد أثارت خطبه كثيراً من الانتقاد لتشديدها على الطابع الاسلامي للقومية العربية(٣١)، باسلوب لم يعد مقبولاً في سورية ذات الافكار القومية الخالصة.

وكان ممن تبنى الدعوة الى الاصلاح محمد كرد علي الذي دعا الى :

١) احياء تراث العرب والمسلمين.

٢) محاربة الجمود عند المشايخ وتنقية الدين من البدع والقشور.

٣) تهذيب الاخلاق والعادات.

٤) اتباع العقل والاهتمام بالامور العملية.

---

(٣١) حوراني البرت: «الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨ - ١٩٢٩» - بيروت بلا تاريخ، ص ٣٦٦.

٥) اقتباس كل ماينفع عن المدنية الغربية الحديثة[٣٢].

وغني عن البيان أن هذه الدعوة ترجع بأصولها الى تعاليم الشيخ محمد عبده وطاهر الجزائري.

وتبدو آراء كرد علي واضحة في كتابه «غرائب الغرب»[٣٣] وكذلك في كتابه «أقوالنا وأفعالنا» هذا مع العلم أن كرد علي هو ابن الطبقة الوسطى، وهي كما يصفها «تتمثل الامة فيها حقيقة لامجازاً ويكثر فيها الخير ويقل الشر. وهي التي تفكر»، أما السواد الاعظم فمن عيوبه حسب رأي كرد علي «ان الهزل يغلب عليهم والجد قليل فيهم، يحبون المداعبة والهزل واللهو»[٣٤]. وهنا يريد أن يبين لنا كرد علي، وهو على حق، بأن الفئة الاقطاعية لاتملك من الزاد الفكري شيئاً وان الطبقة البورجوازية هي التي قادت معارك الفكر وتميزت بالحيوية والنشاط الفكريين في فترة مابين الحربين. وقد تأرجح كرد علي في مواقفه الفكرية بين الايديولوجية البورجوازية معبّراً بذلك أحسن تعبير عن نفسية، ومفاهيم الطبقة الاقطاعية المتبرجزة أو الطبقة البورجوازية الحالمة في امتلاك الاراضي والعقارات.

ان مانريد التأكيد عليه هو تَمَيُّزُ سورية ولبنان، بسبب واقع بنيتهما الاقتصادية الاجتماعية، بوجود صلة القربى وجسور الاتصال بين بعض الفئات الاقطاعية والبورجوازية كما وجدت نقاط اختلاف متعددة. وقد عكس هذا الواقع نفسه على سائر مناحي الحياة في فترة مابين الحربين. ففي المجال السياسي مثلاً تجمعت عناصر اقطاعية وبورجوازية داخل الكتلة الوطنية التي تزعمت النضال الوطني في عهد الانتداب. وكان ذلك من العوامل التي أدت إلى اتجاه الكتلة الوطنية في طريق المساومة والتراجع وعدم قيادة المعركة الوطنية حتى نهايتها الظافرة. كما عبَّر عن هذا الواقع وجود تيار فكري «اقطاعي - بورجوازي» شكل همزة الوصل بين الاقطاعية المنهارة والبورجوازية الناهضة.

---

(٣٢) انظر الخطابين اللذين القيا خلال الجلسة التي عقدها المجمع العربي لاستقبال الدكتور كامل عياد في ٢٠ كانون الاول ١٩٥٨. أصدار المجمع العلمي العربي.

(٣٣) كرد علي محمد: «غرائب الغرب» - دمشق ١٩٢٣، ص ٤٢ - ٦٦.

(٣٤) كرد علي محمد: «خطط الشام» - ج ٦، دمشق ١٩٢٨، ص ٣١٧.

الفصل الثاني

التيار الفكري للبورجوازية

مع ان الصنـاعـة كانت لاتزال في المراحل الأولى من تطورها ومع ان التجارة، على الرغم من توسعها، لم تؤدِّ حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية الى تراكم رؤوس الأموال على نطاق واسع، فإن الفكر البورجوازي أخذت بصماته تظهر واضحة جلية على الرغم من عدم تشكل الطبقة البورجوازية بالمفهوم الكلاسيكي للكلمة. ويبدو واضحاً أن الفكـر البـورجـوازي سبق ظهور الطبقة البورجوازية العربية. فعن طريق أوروبـا الـرأسـمالية دخلت الأفكـار البـورجوازية إلى المشرق العربي في وقت كانت علاقـات الانتـاج الـرأسـمالية لاتزال في اطوارها الأولى. وجرى الشيء نفسه بالنسبة للأفكار الاشتراكية، التي ظهرت قبل تكون الطبقة العاملة أو مع الارهاصات الأولى لتكونها.

أما أهم تيارات الفكر البورجوازي فهي:

١ ـ الفكر الماسوني

إن المـاسـونيـة التي نشأت في أوروبـا في خضم الصراع بين الاقطاعية المتخلفة والبـورجـوازية الناهضة، تحوّلت فيما بعد إلى أداة رئيسية في يد الامبريالية العالمية من أجل فرض سيطرتها، وقد أستغلت الماسونية صفتها التقدمية في عصور نشأتها الأولى وحجبت ببراعـة أهـدافهـا الطبقيـة الامبريالية وراء شعارات براقة. من أجل كسب أكبر عدد ممكن من أفراد البورجوازية الوطنية الكبيرة والصغيرة، وقد نجحت في ذلك واستمر عملها التضليلي مكللاً بالنجاح حتى الحرب العالمية الثانية ومابعدها.

بدأت الماسونية تغزو قلوب المثقفين البورجوازيين منذ أواخر القرن التاسع

عشر[١/٣٤]، ولاسيما بعد الحرب العالمية الأولى والاحتلال الافرنسي لبلاد الشام، حيث انتشرت الحركات الماسونية بشكل واسع بين مثقفي البورجوازية والبورجوازية الصغيرة. وقد انخدع قسم من المثقفين المحليين بأفكار الماسونية وشعاراتها الكاذبة الداعية الى الحرية والمساواة وتبنّى أفكار الثورة الفرنسية، ولم يدرك الاهداف الرأسمالية والاستعمارية لهذه الحركة. كما أن قسماً آخر دخل الماسونية من أجل الوصول إلى الوظائف والمراتب العالية[٣٥]. وقد أشار محمد كرد علي في مذكراته إلى الدور الكبير للماسونية في تعيين الوزراء وكبار الموظفين وصغارهم[٣٦].

وهكذا فأصناف المثقفين التي دخلت في المحافل الماسونية كانت على ثلاثة أنواع:

أولاً - المثقفون المتحدرون من البوَرجوازية الكبيرة أو الكومبرادور.

ثانياً - المثقفون المخدعون والمضللون بالمبادىء الماسونية.

ثالثاً - العناصر الانتهازية الباحثة عن المناصب والمغانم عن طريق الماسونية.

٢ - فكر البورجوازية الوطنية

على الرغم من أن عناصر مختلفة من البورجوازية الوطنية دخلت في الماسونية،

(١/٣٤) يذكر الغـ ي في كتابه نهر الذهب في تاريخ حلب (الجزء الأول صفحة ٢٢١) أن احد الثقاة اخبره «انه رأى في حلب سنة ١٨٤٨م ١٢٦٥هـ ختماً مكتوباً عليه (هذا ختم جمعية الماسون في حلب). وكان وجودهم في البدء سرياً. وفي سنة ١٨٨٥م قدم إلى حلب مقدم منهم ونزل في محلة العزيزية ودعا اليه بعض الناس علنا فتبعه عدد عظيم من شبان الملك الثلاث وصاروا يجتمعون عند بعضهم تارة جهرة وتارة سراً.

(٣٥) جاء في جريدة «الانسانية» الماسونية الدمشقية في أيار ١٩٣١: «ان الماسونية قوى متحدة وادمغة مفكرة وحكومة فوق الحكومات لها ملوكها وجيوشها وعددها المنظمة».

(٣٦) كرد علي محمد: «المذكرات» - دمشق ١٩٤٩. ص ١٠٩. وبلغ من قوة الماسونية ان «دليل الجمهورية السورية» الصادر عام ١٩٣٩ أشار إلى انتشار «الحركة الماسونية في العاصمة الشامية في الاعوام الاخيرة انتشاراً كبيراً وانتسب الالوف من ابنائها المعروفين في الهيئة الاجتماعية الى العشيرة الحرة». وقد أدرج الدليل أسماء المحافل الماسونية في دمشق والمدن الأخرى (ص٥٤٤ ومايليها).

الا ان الطابع الغالب على الحركة الفكرية للبورجوازية الوطنية هو معارضة فكرة الخنوع ومبدأ الجبرية. كما اتصف الفكر البورجوازي في مراحله الأولى بالدعوة الى التطور والتمرد على الأوضاع المعرقلة للتطور الرأسمالي.

تطلع هذا التيار الى السيطرة الاقتصادية والسياسية وسعى إلى تقوية مواقع البورجوازية التجارية والصناعية. وكانت مثله العليا تتمثل في السير على هدى «الأمم الغربية الراقية»[٣٧]. واعتبر ان الامة مقسمة الى «طبقات اقتصادية ثلاث.. التجار والصناع والزراع»[١/٣٧]. وتجاهل وجود عالمين مختلفين متناقضين داخل كل طبقة من الطبقات التي حددها. ونادى هذا التيار باتباع النظام الضريبي الافرنسي[٢/٣٧]. كما وقف ضد الاستعمار والرأسمال الاجنبي[٣/٣٧] في الأحوال التي تحد من مصالحه.

اقتبس مثقفو البورجوازية الوطنية اقتباساً مباشراً من أفكار البورجوازية الاوروبية، ورأوا في أفكار البورجوازية الفرنسية الافكار الصحيحة، فاستشهدوا بها ونقلوا عنها في كل مناسبة.

ونُذَكِّر هنا بما كتبه المفكر البورجوازي الوطني والسياسي البارز فارس الخوري في مؤلفاته لمعهد الحقوق حول علم المالية.

وفي مجال موقف الايديولوجية البورجوازية من القضايا الاجتماعية والاقتصادية يمكن الرجوع أيضاً إلى كتاب «**علم الاقتصاد**» الجزء الثالث **لجامعة عبد القادر العظم** رئيس الجامعة السورية ومعهد الحقوق سابقاً.

والعظم يكرر في فصل «تنظيم العمال»[٣٧ ٤] مايدعيه علماء الاقتصاد البورجوازيون «فالنقابات التي كانت حسب رأيه «مجردة من تأثير النزعات السياسية خدمت منافع العمل خدمات جلى ودافعت عنهم فحمتهم من استبداد المستحدثين

---

(٣٧) النشرة الاقتصادية لغرفة تجارة دمشق. تموز ١٩٢٢.

(٣٧/ ١) المصدر نفسه، ايلول ١٩٢٢.

(٣٧/ ٢) سلامة فائز: «اعلام العرب في السياسة والادب» ج٢، دمشق ١٩٣٦.

(٣٧/ ٣) النشرة الاقتصادية... ايلول ١٩٢٢.

(٣٧/ ٤) العظم عبد القادر: «علم الاقتصاد» ـ ج ٣، دمشق ١٩٤٠، ص ٢٨٠.

(الرأسماليين) وكانت توصيهم بانتهاج مناهج الحكمة والسداد وتوصيهم بسلوك خطة الانصاف والاحتياط. أما النقابات التي كانت مسرحاً للنفوذ السياسي فإنها كانت تسيء إلى العمال بما تلقنهم من الافكار الضارة، وقد كان أكثر النقابات من هذا النوع». إن هذا الكلام عكس بصدق تخوف البورجوازية من بدء ظهور الطبقة العاملة ومطالبتها بحقوقها المشروعة، تلك الحقوق التي ترددت اصداؤ ها في مظاهرات العمال واحتجاجاتهم على صفحات الجرائد تحت قبة البرلمان في أواخر الثلاثينات. ويتجلى حذر البورجوازية من الحركة العمالية في المقطع الذي نشره عبد القادر العظم عن «الاعتصاب» أي الاضراب، إذ فقد كل اتزانه وعبرّ عن طبيعته الطبقية أوضح تعبير، حين يقول: «.... ففي اليوم الذي يعلن فيه الاضراب ينتشر العمال في الشوارع والأزقة كأسراب الوحوش الضارية، فينشأ عن حركاتهم هذه شغب كبير يخل بحرية السير في الطرقات»(٥/٣٧) ولانريد هنا التعليق على وصف العمال المطالبين بقوة عملهم «بالوحوش الضارية» ولا على انزعاج هذا المؤلف البورجوازي من «الاخلال بحرية السير» فانفعالاته أكبر برهان على انعكاس الصراع الطبقي في تعابيره.

ان الصفة الطبقية البورجوازية لعميد معهد الحقوق بدمشق في سنة ١٩٤٠ تبدو بارزة بأجلى معانيها في الدعوة الى عزل العمال عن النشاط السياسي، وبالتظاهر بالغيرة على العمال والدفاع عن مصالحهم أكثر من العمال أنفسهم.

ولكن عميد معهد الحقوق خرج في كتاب «علم الاقتصاد» أكثر من مرة عن طوره، عندما شبه العمال بـ «الوحوش الضاربة» حافرة قبر الرأسمالية. كما دلّ هذا الكتاب على أن «الموضوعية» التي تشدّق ويتشدق دائماً بها أساتذة الجامعات البورجوازية، ليست إلا قناعاً اختفي ويختفي وراءه الفكر البورجوازي الداعي الى استثمار الانسان للانسان وإلى اضطهاد شعب لشعب في سبيل مصلحة حفنة من الاحتكاريين الرأسماليين المستبدين.

في فترة مابين الحربين نرى أن الفكر البورجوازي دخل في معارك فكرية على ثلاث جبهات:

(٥/٣٧) المصدر نفسه، ص ٢٨٧.

١ ـ العـداء للفكـر السلفي الخـانـع الجـامـد والدعوة إلى التطور والتمرد على الاوضاع المعرقلة للتطور الرأسمالي .

٢ ـ العداء المعتدل للفكر الامبريالي المبشر بالسيطرة على الشعوب واضطهادها والتَحَسُّرْ على ما أصاب الفكر البورجوازي في الغرب في عهد الاستعمار، والحنين إلى فكر الثورة الفرنسية .

٣ ـ العـداء للأفكـار الإشـتراكية وتكرار موضوعة أن بلادنا لم تصل إلى مرحلة من التطـور عاليـة تستلزم العمـل من أجـل الاشـتراكية . ولابد من الملاحظة ان فكر البـورجـوازيـة قبـل الحـرب العـالميـة الثانية لم يقف مواقف عدائية صارخة ضد الفكر الاشتراكي كما جرى فيما بعد وبخاصة بعد أن صَلُبَ عود الافكار الاشتراكية واخذت تهدد بما تطرحه من شعارات اسس البنيان الرأسمالي .

الفصل الثالث

التيارات الفكرية للبورجوازية الصغيرة

١ ـ اتجاه الشهبندر

مثل الدكتور عبد الرحمن الشهبدر، خريج الجامعة الاميركية سنة ١٩٠٨ والقائد البارز في حركة التحرر الوطني بين الحربين تياراً عبر عنه كتابه «القضايا الاجتماعية الكبرى في العالم العربي» المطبوع عام ١٩٣٦ . وفي هذا الكتاب ينصح الشهبندر الصين ان تتناول المنبهات وروسيا ان تجرع المسكنات . والواقع أن الشهبندر قبل عشر سنوات كان أكثر راديكالية . ويبدو ذلك واضحاً في خطابه في ٥ حزيران ١٩٢٥ في بهو الأوبرا العباسية بدمشق[٣٨]، حيث يولي الشهبندر الاهمية الأولى للعامل الاقتصادي في تحليل التاريخ ويشير إلى صراع الطبقات في اوروبا وإلى استثمار المتروبول للمستعمرات والى الطبيعة الاستعمارية للحرب العالمية الأولى وانها حرب بين الرأسماليين ولامصلحة للشعوب فيها. وهو يدعو أخيراً إلى «الاشتراكية المعقولة» .

ويرجع سبب تراجع الشهبندر في عام ١٩٣٦ عن الدعوة إلى «الاشتراكية المعقولة» وصمته عن الصراع داخل المجتمع وانتقاله من المواقع اليسارية (النسبية) الى المواقع الوسطية، يعود السبب الى نزوح البورجوازية الوطنية بمختلف فئاتها من مواقع اليسار إلى مواقع الوسط واليمين، بعد ازدياد حدة الصراع الطبقي وبروز الحركة العمالية والاشتراكية في الوطن العربي التي جعلت البورجوازية الوطنية تخشى من تصلب عود الحركة الاشتراكية ودخولها النسبي حلبة الصراع السياسي .

ويرى الشهبندر عام ١٩٣٦ أن «تأليف دولة عربية مركزية ديموقراطية أمر بعيد التحقق» فدعا الى اتحاد عربي و«جامعة عربية» مهاجماً السياسة الاقليمية وطالباً

---

(٣٨) راجع نص الخطاب في جريدة «الايام» ٢٢ نيسان ١٩٣٦ .

تنظيم الشعوب العربية وتقريبها بعضها من بعض مع ترك مجال لتظهر فيه ميزاته الخاصة.

تبدو آراء الشهبندر في الأمور السياسية مثل الجامعة الشرقية والاسلامية والعربية والوحدة السورية واضحة في خطابه في حفلة وداع الصحفيين السوريين في القاهرة في أوائل نيسان سنة ١٩٣٦، اذ جاء فيها: [١/٣٨]

«.. أما الجامعة الشرقية فهي كلمة لامعنى لها من الوجهة الجنسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية».

«وأما الجامعة الاسلامية فهي رابطة روحية معنوية يقصد بها تطهير الاخلاق واصلاح المجتمع، وكلما أبعدناها عن السياسة ومخارجها والدسائس التي تحوم حولها نكون قد أحسنا حسناً وخدمناها وخدمنا المسلمين بها...»

«والوحدة السورية تشمل بلاد العلويين وجبل الدروز وميناء طرابس الشام، وأما الاقضية الاربعة فيستفتى في مصيرها... وقد أرتأينا أبان الثورة الا نتعرض للبنان وأن نتركه على حالته التي كان عليها سنة ١٩١٥ إلى أن يأتي الزمن الذي يرى فيه اخواننا الموارنة فائدة الوحدة الشاملة وهذا آت لاشك فيه.. اننا لانخاف من لبنان الكبير ومن لبنان الصغير اذا كان مستقلاً.. أما فلسطين فهي سورية الجنوبية وهي الجزء الذي لايتجزأ من بلادنا...»

«بقيت الجامعة العربية، الغرض الأسمى الذي ذهب من أجله شهداؤ نا الى المشانق في أوائل الحرب العالمية.. اذا بقينا مقسمين كما نحن الآن فلا أمل لنا أن تكون لنا كلمة مسموعة في الاحداث العالمية».

ورأى الشهبندر أن العوامل المعنوية هامة لوحدة الأمم[٢/٣٨]، ونوه بالمجد وأهميته في تذكير الامم بمجدها الغابر بصورة معقولة كما اعطى أهمية للالم في بعث الوطنية وهي في رأيه «تعصب للوطن»[٣/٣٨].

(١/٣٨) الايام (الدمشقية)، ٥ نيسان ١٩٣٦.

(٢/٣٨) الجزيرة (الدمشقية) ١٥ ك ١ ١٩٣٤.

(٣/٣٨) الجزيرة، ٢٢ ك ١ ١٩٣٤.

٢ ـ عصبة العمل القومي :

كانت عصبة العمل القومي بالرغم من وجود عناصر اقطاعية في داخلها، احدى الاتجاهات الفكرية الرئيسية للبورجوازية الصغيرة التي دعت الى الوحدة العربية الشاملة والى سيادة العرب واستقلالهم المطلقين. وبالرغم من اعلانها عن عدم التقيد بمذهب من المذاهب الاقتصادية المعروفة الا بقدر مافيه من خير لمصلحة العرب الاقتصادية نراها تدعو الى ضم رؤوس الاموال للقيام بالمشاريع الكبيرة، وقد حاربت نظرياً الاقطاعية الكبيرة فقط وضمن شروط معينة، كما أنها دعت نظرياً ايضاً إلى تأميم الرأسمال الاجنبي في الوطن العربي، وعبرت العصبة بذلك عن آفاق تفكير البورجوازية الصغيرة في الثلاثينات[٣٩].

انبثق عن اتجاه عصبة العمل القومي ثلاثة اتجاهات هي :

ـ التيار الذي انضم الى البورجوازية الكبيرة وكشف عن طموح البورجوازية الصغيرة في الثراء والوصول الى مستوى البورجوازية الكبيرة.

ـ التيار الذي أخذ مع الزمن وبتأثير عوامل داخلية وخارجية يتجه أكثر فأكثر نحو الفكر الاشتراكي وعبر بموقفه هذا عن الخراب الاقتصادي، الذي لحق بقسم من البورجوازية الصغيرة المنضمة الى صفوف الكادحين. وعن هذا التيار تفرعت تيارات عدة.

ـ التيار الذي خفق فؤاده للافكار القومية ذات الصبغة الشوفينية.

٣ ـ قسطنطين زريق (القوميون العرب) :

عبر قسطنطين زريق في كتابه الوعي القومي عن التيار القومي. الذي كان له بعض مبرراته قبل الحرب العالمية الثانية، وبعض محاسنه في إثارة شعور الامة ورفع هممها وتنشيطها. وهذا الشعور القومي لايحمل عندما يُثار في أمة ضعيفة اخطاراً مثل

(٣٩) انظر النداء الموجه من عصبة العمل القومي الى العرب، في «الاحزاب السياسية في سورية» ـ دمشق ١٩٥٤، ص ١٢٦ ـ ١٤٧.

أخطار اثارته في أمة قوية، وبشكل خاص رأسمالية، تسعى عن طريقه الى استعباد الشعوب الاخرى، في حين هو هنا يستهدف انهاض الامة ومقاومة المستعمر الدخيل. أي أن الشعور القومي هنا، شعور شعب خاضع للاحتلال الاجنبي، لايحمل بين جنباته شعوراً شوفينياً، طالما انه يسعى للتحرير ولايسعى للاستعباد والاستعلاء على الامم الاخرى.

جاء في كتاب قسطنطين زريق مايلي[40]: «وخليق بالامة العربية ان يكون لها رسالة رفيعة بين الامم. وخليق بكل عربي ان يشعر بأن محيط أمته الطبيعي وتاريخها الخاص قد أهّلاها لمهة لم تتوافر شروطها لأية أمة أخرى، وأن القوة المدبرة وراء هذا الكون قد أعدت العرب لأمر لايستطيع أي شعب آخر أن يقوم به دونهم».

حمل كتاب زريق تناقضات مختلفة أدت إلى الغموض في تفكيره مما حمل المفكر الديموقراطي الثوري رئيف خوري على مناقشة كتاب زريق «الوعي القومي» في كتابه «معالم الوعي القومي» المطبوع عام ١٩٤١ بهدف توضيح «مسائل لم تزل مختلفة غامضة في أذهان بارزي رجال الثقافة».

انكر رئيف خوري على زريق تعبير «الفلسفة القومية» التي لم يفسرها الدكتور، أي زريق. فقال: «والدكتور، بعد ذلك كله يذكر ضرورة فلسفة للبلاد العربية، ثم لايكاد يقول شيئاً محدوداً عن ماهية هذه الفلسفة».

ثم انتقد رئيف خوري قسطنطين زريق لرده الاصل القومي الى الجنس «وهكذا فالعربي الواعي قومياً ينبغي له ان يضع يده على أصل الجنس العربي». ويتساءل رئيف: «هل يعني الدكتور جدنا آدم مثلاً، أم سام؟» ويقول رئيف: «ان قضية الأمة ليست قضية أصل جنسي، بل أنها، بصورة عامة قضية سير تاريخي، وظروف ونتائج وموجبات تاريخية».

لقد اسهم قسطنطين زريق من خلال نشاطه الفكري في الجامعة الاميركية في بيروت في قيام «حركة القوميين العرب» التي نمت في أوائل الخمسينات، وكانت آنذاك تعتبر القومية العربية مفهوماً مجرداً منعزلاً عن الظواهر الاجتماعية. وعند

---

(٤٠) زريق قسطنطين «نظرات في الحياة القومية المتفتحة في الشرق العربي» طبعة جديدة منقحة - بيروت ١٩٤٠، ص ٥٢.

تشكلها لم تعترف حركة القوميين العرب بوجود الطبقات داخل المجتمع العربي وكانت معروفة في البدء بعدائها بكل ما يمت إلى الماركسية بصلة. وبعد أن ارتبطت الحركة لمدة من الزمن بالناصرية وبجماهيرها اسهمت عدة عوامل في تحول اقسام منها نحو اليسار وبرزت في داخلها في الستينات اجنحة ماركسية حققت أخيراً انتصارها المعروف في اليمن الديموقراطية.

٤ - زكي الارسوزي:

في سنة ١٩٢٦ اوفد الارسوزي لمدة أربع سنوات إلى باريس ليدرس الفلسفة في جامعة السوربون. وهناك تأثر بالفيلسوف برغسون[٤١].

تظهر قومية الارسوزي من خلال موقفه أمام لجنة الاستفتاء الممثلة لعصبة الامم إذ قال: «نحن عرب قبل أن نكن مسلمين أو مسيحيين، فلنتقدم لنعلن قوميتنا العربية وحسب»[٤٢].

ومن انطاكية ارتفع صوت الارسوزي منادياً: «ان العرب امة واحدة». ويروي أنصاره أنه هو أول من أعطى اللفظ الرسمي لكلمة «البعث» معناه في أوائل عام ١٩٤٠ في دمشق واسس في شتاء ١٩٤٠ حزباً باسم حزب «البعث العربي»[٤٣]. والتدقيق في هذا الامر خارج عن نطاق هذا الكتاب.

وحسب رأي انطون المقدسي فإن الارسوزي نقطة تقاطع لثلاث مدارس كبيرة هي: المدرسة الافلاطونية، والصوفية الفلسفية، والمثالية الالمانية الرومنتيكية (فخته، شلنج)[٤٤].

---

(٤١) برغسون فيلسوف افرنسي توفي عام ١٩٤١، وهو مؤسس لامع لفلسفة الحياة الرجعية الحديثة المثالية. وقد اثرت فلسفة برغسون في ايديولوجية التيارات الفاشستية. ويبدو ان الارسوزي تأثر - كما يقول صليبا - بآراء برغسون دون ان يأخذ بها اخذا تاما.

(٤٢) انظر مجلة المعرفة (عدد خاص عن زكي الارسوزي). العدد ١١٣ تموز ١٩٧١.

(٤٣) مقابلة مع الاستاذ سليمان العيسى في ١٦ آذار ١٩٧١.

(٤٤) انظر مجلة المعرفة، وكذلك صليبا جميل: «الانتاج الفلسفي، خلال المائة سنة الاخيرة في العالم العربي». مطبعة الترقي بلا تاريخ. ص ١٧٩.

وفي دمشق قام بترجمة فلسفة فخته ونيتشه والقاها على تلامذته بعد اقامته في دمشق سنة ١٩٤٠ . وكان يصرح بأن «العرب هم المجموعة البشرية الوحيدة الباقية أمينة على القيم الروحية التي اورثنا اياها أبو البشر، آدم»[٤٥].

وفي الثلاثينات كان الارسوزي من الاعضاء البارزين في عصبة العمل القومي . وبسبب خسارة لواء اسكندرون وهجرته منها والاحداث المتلاحقة آنذاك وتجربته الشخصية الاليمة فإن الارسوزي اعتبر آنذاك «حكام العرب كلهم خونة، ملوثين، متآمرين . . هكذا بلا تحفظ . . ولا استثناء» «لابد أن يتغير كل شيء . . ونحن البداية . . ونحن الطريق»[٤٦].

٥ ـ ميشيل عفلق :

أثناء دراسة ميشيل عفلق وزميله صلاح البيطار في فرنسا (١٩٢٩ ـ ١٩٣٣) نما تكوينهما الفكري ووعيهما السياسي . وفي باريز لاحظا ان التعاطف مع قضية بلدهما، لم تكن تأتي الا من جانب الشيوعيين وبعض النواب الاشتراكيين في البرلمان الفرنسي . وهناك تتبعا ماينشره المفكرون الاشتراكيون، واسترعى انتباههما بشكل خاص اندريه جيد (شيوعي من ١٩٣١ إلى ١٩٣٦) وروما ن رولان (قريب من الشيوعية) . وعندما ترك اندريه جيد الشيوعية ونشر كتابه «العودة من الاتجاه السوفياتي» تأثر به عفلق والبيطار، وكانت فلسفة نيشته وفيخته وهيجل تؤثر فيهما تأثيراً عميقاً ووجهت تفكيرهما «نحو ماهو أعمق من الظواهر المادية والعلاقات الاقتصادية في تفسير سير التاريخ ونمو المجتمع . وانها كانت معدلة لأثر الفلسفة المادية فينا» ـ الكلام لصلاح البيطار ـ «وواقية لنا من الانخداع بالنظرة المجردة التي تقوم الاشتراكية عليها والتي هي نفي للقومية من اساسها»[٤٧].

---

(٤٥) نقلا عن دندشلي مصطفى: «حزب البعث العربي الاشتراكي». ج١ بيروت ١٩٧٩، ص ١٠٧ .

(٤٦) المصدر نفسه .

(٤٧) نقلا عن دندشلي . . . ص ٢٩ .

بعد رجوع عفلق من فرنسا لم يتخذ موقف الحذر والريبة من العالم الخارجي . ولم يناد كما فعل في سنة ١٩٤٣ «بإهمال ذكر الانسانية الى ان نصبح في مستواها والى ان نسترجع شخصيتنا وقوميتنا»[٤٨] . بل أنه كتب في مقالته «عهد البطولة» سنة ١٩٣٥ بأنه «لم يعد يرضينا أن نسمع ان ذلك الشخص وطني اذا لم يكن في الوقت نفسه انسانياً، عفيف النفس، كريم الخلق، فالعاطفة الوطنية اذا لم تكن مصحوبة بهذه الصفات قد لاتكون غير مجرد كره للاجنبي أو تعصب لمذهب دون آخر»[٤٩] .

في السنوات الأولى لصدور مجلة الطليعة الدمشقية التقدمية (١٩٣٥ - ١٩٣٩) كان ميشيل عفلق من هيئة تحريرها وكتابها البارزين. ثم انقطع عن الكتابة في تلك المجلة بعد أن سارت خطوة متقدمة باتجاه اليسار والماركسية .

في مقاله المنشور في الطليعة (حزيران ١٩٣٦) بعنوان «ثروة الحياة» يكتب عن الاشتراكية مايلي :[٥٠]

«واذا كنت ادعو الى الاشتراكية فلكي لاتحرم الحياة من مواهب هذه النفوس وقواها الدفينة وجهودها الحرة الخصبة» .

«اذا سئلت عن تعريف للاشتراكية فلن انشده في كتب ماركس ولينين وإنما أجيب : «انها دين الحياة، وظفر الحياة على الموت، فهي بفتحها باب العمل أمام الجميع وسماحها لكل مواهب البشر وفضائلهم ان تتفتح وتستخدم، تحفظ ملك الحياة للحياة، ولاتبقي للموت الا اللحم الجاف والعظام النخرة» .

منذ سنة ١٩٤١ بدأ يتردد في كتابات عفلق تعبير «الرسالة العربية الخالدة»، كما أخذ يتردد ايضا في مقالاته اسم «البعث» .

ومع أن حركة البعث هي حركة علمانية - كمعظم الحركات القومية في العالم -، إلا أن ميشيل عفلق سعى في خطابه على مدرج الجامعة السورية في نيسان ١٩٤٣ بعنوان «ذكرى الرسول العربي» أن يلقي الاضواء على خيوط اللقاء بين القومية والدين . وفي هذا الخطاب تعرض الى جملة قضايا مثل : الشخصية العربية بين الماضي

---

(٤٨) عفلق ميشال : «في سبيل البعث» - بيروت ١٩٦٣، ص ٢٣ .

(٤٩) المصدر نفسه .

(٥٠) مجلة «الطليعة» حزيران ١٩٣٦، ص ٣٤٨ - ٣٥٠ .

والحاضر، حياة الرسول خلاصة لحياة العرب، الاسلام تجدُّدُ العروبة وتكاملها، انسانية الاسلام، العرب والغرب، شرف العروبة، الانسانية المجردة، الجيل العربي الجديد.

في هذا الخطاب اعلن عفلق بأن أي شاب عربي لايستطيع «الاستغناء عن الإيمان بالله، أي الإيمان بالحق، وبضرورة ظفر الحق، وبضرورة السعي كيما يظفر الحق».

يعتبر البيان الانتخابي لميشيل عفلق مرشح دمشق في تموز ١٩٤٣ المحاولة الاولى لبلورة اتجاهاته الاساسية وايديولوجية التيار الذي تزعمه. جاء في البيان:[٥١]

«ندخل الانتخابات، لا باسم طائفة، ولا مدينة، ولا مصالح قريبة أو ظروف سياسية عاجلة، بل باسم فلسفة قومية تريد ان تكون افصاحا صادقا عن الحياة العربية في حقيقتها الخالدة.

- نمثل الروح العربية ضد الشيوعية المادية.
- نمثل التاريخ العربي الحي ضد الرجعية الميتة والتقدم المصطنع.
- نمثل القومية التامة المعبرة عن حاصل الشخصية ضد القومية اللفظية التي لاتتعدى اللسان ويناقضها مجموع السلوك.
- نمثل رسالة العروبة ضد حرفة السياسة.
- نمثل الجيل العربي الجديد».

وكانت المساجلات الفكرية حامية بين عفلق والشيوعيين في الاربعينات وأوائل الخمسينات. وفي هذا الصدد صرح عفلق في تصريح لمجلة الصياد منشور في كتابه (نقطة البداية - بيروت ١٩٧١) بما يلي: «اننا انتبهنا لضرورة تعديل موقفنا من الشيوعية والشيوعيين منذ عام ١٩٥٣ عندما لجأنا الى لبنان في عهد اديب الشيشكلي. وعلى أي حال فنحن قصّرنا في اخراج تفكيرنا في موضوع العلاقة مع الشيوعيين الى حيز التنفيذ الجدي....»[٥٢] ومن المعروف ان حزب البعث العربي

---

(٥١) «نضال البعث» ج ١، ص ٣٣.

(٥٢) عفلق ميشيل: «نقطة البداية»، بيروت ١٩٧١، ص ٥٢.

الاشتراكي والحزب الشيوعي السوري دخلا في جبهة ـ غير مكتوبة ـ في الفترة الواقعة بين ١٩٥٤ ـ ١٩٥٨ .

وفي مقالة عفلق الشهيرة «معالم الاشتراكية العربية» جرى تحديد لمفهومه عن الاشتراكية الملبية للحاجات والموضوعة في خدمة «بعث الامة العربية»(٥٢/١) وبقيت مقولات «الاشتراكية العربية» سائدة بتفسيراتها المتنوعة والمتناقضة حتى انعقاد المؤتمر القومي السادس في تشرين الأول ١٩٦٣ . فقد اشار المؤتمر ان الحزب اطلق على الاشتراكية التي ينادي بها اسم «الاشتراكية العربية» في مواجهة سلبية للتحدي الشيوعي المحلي وفي محاولة لتأكيد القضية القومية .

والتقرير العقائدي المصادق عليه من أكثرية اعضاء المؤتمر القومي السادس لم يتبن ـ مفهوم «الاشتراكية العربية» . وقال ان التأكيد على الصفة القومية للاشتراكية دون توضيح الاسس النظرية ، أدى إلى نوع من العصبية السلبية تجاه الفكر الاشتراكي العالمي وبقيت اشتراكية الحزب التي سميت بـ «العربية» مجرد كلمة خالية من أي مضمون علمي ، وفصلت عن لحمتها الاجتماعية والطبقية ، وقد رفض غالبية اعضاء المؤتمر الشعارات العامة والمسميات العاطفية حول «الخصائص العربية» للاشتراكية ومزاياها الاصيلة ، وتبنوا تعبير «الطريق العربي الى الاشتراكية» محل الاشتراكية العربية» . ذلك ان مضمون الاشتراكية واحد لكن الطريق الذي يوصل إليها يختلف بين بلد وآخر ، حسب ظروفه واوضاعه الاجتماعية والتاريخية .

٦ ـ حركة الشباب الحموية المناهضة للاقطاعية :

من خلال ماذكر يبدو واضحاً أن نشأة البعث تعود إلى أواخر الثلاثينات وبداية الاربعينات ، في الوقت الذي تصدعت فيه «الكتلة الوطنية» البورجوازية ذات النزعة الاقطاعية واشتعلت النيران داخل «عصبة العمل القومي» ، التي انقسمت على نفسها بين يمين يؤيد البورجوازية الكبيرة ويهادن الاقطاعية ويسار متمرد على القيادة يعبر عن مطامع الفئات البورجوازية الصغيرة والمتوسطة . ومن هذا اليسار العصبوي

(٥٢/ ١) المصدر السابق .

خرجت جماعـات انضمت الى الحـزب الشيـوعي السـوري أوعاشت حوله ، في حين قامت جماعـات أخـرى أكثـر عدداً بالاسهـام في تشييـد دعـائم «البعث» مع عنـاصر بورجوازية صغيرة أخرى لم تكن داخلة في تنظيم العصبة .

في مطلع الاربعينـات ظهـرت ثلاث تجمعـات سيـاسية للبورجوازية الصغيرة المثقفة (علي الغالب من المعلمين والطلاب) ، نادت بشعارات متشابهة إلى حد بعيد وكانت منذ نشوئها متداخلة مع بعضها وانتهت اخيراً إلى الاتحاد فيما بينها في «حزب البعث العربي الاشتراكي» . هذه المجموعات هي :

- مجموعة زكي الارسوزي ووهيب الغانم .
- مجموعة ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار .
- مجموعة عثمان الحوراني وأكرم الحوراني .

وقد اتحدت المجموعة الأولى (فيما عدا زكي الارسوزي) في المجموعة الثانية في السنـوات الأخـيرة من الحـرب وكـونت «حزب البعث العربي» ، أما المجموعة الثالثة التي أسست «الحزب العربي الاشتراكي عام ١٩٥٠ فلم تتحد مع الحزب الا في سنة ١٩٥٣ حيث اضيف على الحزب صفة الاشتراكية وغدا اسمه «حزب البعث العربي الاشتراكي» .

وقد تكلمنا عن بعض افكار عفلق والارسوزي وننتقل الآن لالقاء الضوء على المجموعة الثالثة مجموعة عثمان وأكرم الحوراني.

كانت هذه المجمـوعـة حصاد حركة وطنية نشأت في مدينة حماة كتعبير عن تمرد البورجوازية الصغيرة والجماهير الكادحة في المدينة وريفها ضد العائلات الاقطاعية في المـدينـة (آل العظم والبرازي والكيلاني) . والواقع أن العلاقات الطبقية في مدينة حماة وريفهـا تقـدم نمـوذجاً كلاسيكياً عن التحالف بين بورجوازية المدينة الثورية والريف الفـلاحي المضطهـد ضد الاقطـاعية المسيطرة اقتصادياً في الريف وسياسياً في المدينة . ولهذا فإن الحركة الاجتماعية في حماة كانت في طور بارز منذ مطلع هذا القرن وازدادت معـالمهـا وضوحاً بعد الاحتلال الافرنسي وتحالف الاقطاعية في أواسط سوريا مع هذا الاحتلال وسيرها في ركابه . وفي الوقت نفسه رفعت الاقسام المتقدمة من البورجوازية الصغيرة علم النضال ضد الاحتلال الاستعماري واخذت تصطدم تدريجياً بالاقطاعية حليفـة الاستعـمار. وبلغ الامـر ذروتـه في انتخـابـات ١٩٣٣ عنـدما هتفت الجماهير

الشعبية الحموية السائرة وراء بورجوازيتها في «العراضات» المقامة آنذاك شعار:

هات المجـرفـة والكـريـك لأنش الآغـا والبيـك

والـواقـع ان أول من حمل لواء النضـال المنـاهض للاقطـاعية هم المثقفون ابناء العـوائـل من الـدرجة الثانية والثالثة في المدينة احتجاجاً على عائلات الوجاهة من آل العظم والبرازي والكيلاني. فمنذ مطلع القرن العشرين عمل الاستاذ علي الارمنازي ضد الاقطـاع. وبعـده جاء الـدكتور صالح قنباز، الذي سقط شهيداً برصاص جنود الاستعمار الافرنسي أثناء قيامه بواجبه الانساني والوطني في معالجة الجرحى أيام الثورة السورية ١٩٢٦. وبعد الدكتور صالح قنباز برز الدكتور توفيق الشيشكلي، الذي قاد الكتلة الـوطنيـة في حماة. ولم يكن على وفـاق تام مع العـائـلات الاقطـاعية في حماة. وكـانت له مواقف جريئـة نسبيـاً ضد الاستعـمار الافـرنسي في المجلس النيـابي في الثـلاثينـات. ومـع اضطـراب الـوضـع السيـاسي في عام ١٩٣٩ وهجـوم القـوى الاستعمارية الافرنسية المغرقة في الرجعية على حكومة الكتلة الوطنية وكل شيء يمت الى معـاداة الاستعـمار بصلة، دب الخـلاف داخـل الكتلة الوطنية في حماة وانفصلت مجمـوعـة من الشبـاب المثقف بقيـادة مدرس التـاريخ عثمان الحوراني والفت في أواخر شبـاط ١٩٣٩ حزبـاً باسم «الشبـاب الحمـوي»، أو«الشبـاب الـوطني» الـذي اتخذ «النـادي العـربي» مركـزاً له. وسرعان مااحتدم الصراع بين زعيم الكتلة الوطنية في حماة توفيق الشيشكلي الذي ايده المحامي رئيف الملقي (امين عصبة العمل القومي سابقا)، وبين «الشبـاب الـوطني»، بزعـامة عثمان الحوراني. وتطور الصراع حول المواقف السياسية الى «مشادة في تجهيز حماة بين طلاب الكتلة الوطنية وطلاب الشباب الوطني ادت إلى تدخـل من يوالي الفـريقـين من الاهلين. ويبـدو ان قادة الكتلة الوطنية في حماة كانت مسيطرة على الشارع وحاولت بقوة السلاح والارهاب منع الشباب الوطني من التحرك ضد الكتلة الوطنية التي تراجعت سياسيا وتصدعت تنظيمياً وانهارت سمعتها شعبياً.

وفي عام ١٩٤٣ عقـد «الشبـاب الـوطني» مؤتمـراً في حماة برئـاسة عثمان الحوراني ضم حوالي ٥٠ عضواً معظمهم من المثقفين والطلاب وبينهم بعض العمال وصغار الكسبة، واطلق المؤتمـرون على انفسهم اسم «حـزب الشبـاب». ومن هذا الحـزب برز أكـرم الحوراني مرشحاً للحزب في انتخابات ١٩٤٣. وكان نجاحه في الانتخابات دليلاً قويا على تصـاعـد قوة الحـركـة الفـلاحيـة في ريف حماة، التي دعمت بقـوة مرشـح قوى

البورجوازية الصغيرة الثورية الحموية تعبيراً عن عدائها للعائلات الاقطاعية المستغلة.

اصـدر اكـرم الحـوراني من عام ١٩٤٣ إلى ١٩٤٨ جريـدة اليقظـة ووقف في المجلس النيـابي موقف المعـارض المـتربص. وعنـدمـا اقـر المجلس النيـابي «قـانون العمل» في أواخر ايار ١٩٤٦ وقف اكرم الحوراني محتجاً على خلو «قانون العمل» من مواد تصون حقوق العمال الزراعيين وطالب بأن «تضع الحكومة في أقرب فرصة ممكنة قانونـاً للفـلاحـين الـذي يشكلون في هذه البلاد مالا يقل عن ٧٥٪ من سكانها وهم اتعس الطبقات على الاطلاق».

وكـانت هذه من الحـالات النـادرة التي وقف فيهـا أحـد النـواب ودافـع عن الفـلاحـين. وقـد دل ذلـك على ان الحـركـة الفلاحية أخذت تشق طريقها الى عالم الوجود الرسمي، وأخذت اصداء تحركاتها تتجاوب تحت قبة البرلمان ومن ثم في سرايا الحكومة وأروقتها.

ان الحركة المعادية للاقطاعية، التي انبعثت من مدينة حماة ومنطقتها، حيث بلغ الصراع الطبقي ذروته، حملت اكرم الحوراني الى مصاف الزعماء الشعبيين في أواسط سورية وجعلته على رأس الحركة المطالبة بتوزيع اراضي املاك الدولة وكذلك املاك الاقطاعيين على الفلاحين.

ولهذا فإن الحركة الفلاحية، في اقسامها الرئيسية، لم تسر وراء قيادة ماركسية كما جرى في كوريـا والصـين وفيتنـام، بل سارت وراء قيادة البورجوازية الصغيرة الثورية وكان لذلك آثاره الواضحة على تطور سورية السياسي فيما بعد الاستقلال[٥٣].

٧ ـ الاتجاهات المعادية للعروبة:

إلى جانب التيـار القـومي العـربي برز تيـاران قوميـان محليـان بشـرا بالقـومية السورية أو اللبنانية. وكان الأب لامانسن اليسوعي من أوائل من روج لهذه الافكار في كتابه «سورية».

---

(٥٣) راجـع: عبـد الله حنـا: «تـاريـخ الفـلاحـين في الـوطن العـربي»، المجلد الرابع: «المرحلة المعـاصـرة»، «المسألـة الـزراعية والحركة الفلاحية في مرحلة الحكم البورجوازي الوطني»، نشرة: «الاتحاد العام للفلاحين». دمشق ١٩٨٦.

وقـد راجت هذه الافكـار مع انتشـار الاراء الفاشستية ، التي كان لها ايضا تأثير ضعيف أو قوي على بعض التيارات القومية العربية .

في أوائل سنة ١٩٣٦ فرغ انطون سعادة من تأليف كتابه المشهور «نشوء الامم» المطبـوع سنـة ١٩٣٧ . ولم يكن كتـاب سعـادة الا جمعـاً وتنسيقاً وتبويباً مضطرباً غائماً ضبـابيـاً لمصـادر اجنبيـة (انجليـزية والمانية وافرنسية) ذكرها سعادة في حواشي كتابه . وتظهر على الكتاب بوضوح مسحة التفرنج المتمثلة برجحان الاسماء الاجنبية وسياق الحـوادث الاجنبيـة ، ووصـل به امر التفرنج الى درجة الاعتماد على اقوال المستشرقين فيما يتعلق بالتاريخ العربي ، الذي يسميه التاريخ السوري . وهو لايكلف نفسه عناء الرجوع ـ فيما عدا الاشارة الى كتاب المسعودي ، إلى المصادر والمراجع العربية والاخذ منها .

لم يكتب لافكار القومية السورية النجاح لاسيما بعد انهيار امها الفاشستية . وقد كانت العـروبـة المتأصلة في وجـدان الشعب احـد العـوامـل الرئيسية في انحسار هذه الافكـار وزوالهـا التـدريجي . كما أن القـوى الـديمـوقـراطية قامت بدور هام في فضح الافكار القومية السورية واهدافها .

إلى جانب الافكـار القـوميـة السـوريـة ظهـرت فئـات اعتنقت «الفينيقيـة أوحضـارة البحـر المتـوسـط» ، وقالت ان اللبنانيين ليسوا من حيث الجنس عرباً بل فينيقيين ، اما حضارتهم فحضارة البحر المتوسط ، وهم لايمتون للعرب بصلة قربى الا باللغة ، وقد أسهم الانتـداب الافـرنسي من جهة ومناداة موسوليني بحضارة المتوسط من جهة ثانية في انتعاش محدود جداً في الثلاثينات والاربعينات لدعاة الفينيقية في بعض الاوساط اللبنانية[٥٣/١] .

وفي منتصف الثلاثينات ظهرت منظمة الكتائب اللبنانية التي قالت عام ١٩٣٦ «ان لبنان وحدة سياسية وتاريخية وجغرافية ، وان اللبنانيين امة» .

ويرد عمر فروخ ومصطفى خالدي على هذا الرأي قائلين : «اننا نأبى التسليم بنظـريـة سوريـة الجغـرافيـة لأنهـا لاتقـر بحقيقـة لبنان الطبيعية ، فضلاً عن ان هذه

(٥٣/١) نبيه امين فارس ، محمد توفيق حسين : «هذا العالم العربي» بيروت ١٩٥٣ ، ص ١٩٢ .

«النظرية» هي من صنع المستشرقين»[٢/٥٣].

٨ ـ حركة الجامعة الاسلامية:

تلقت حركة الجامعة الاسلاية ضربة أليمة كادت تكون مميته على أثر انهيار الدولة العثمانية الاقطاعية حاملة علم هذه الحركة. ومع أن رشيد رضا الطرابلسي الأصل والمقيم في مصر استمر يدعو إلى الجامعة الاسلامية على صفحات جريدته المنار، إلا أن حركة الجامعة الاسلامية لم تبلغ أوج أزدهارها مرة ثانية إلا بعد الحرب العالمية الثانية. وقد تميز الوطن العربي بين الحربين بضعف هذه الحركة وتضاءل نفوذها، في وقت كانت تزدهر فيه الدعوة الى العلمانية والليبرالية والحداثة في أوساط البورجوازية الصاعدة. وقد استطاعت البورجوازية في البلدان العربية، التي تزعمت قيادة الحركة الوطنية. استخدام الشعور الديني لتأجيج النضال ضد المستعمرين الأوروبيين وتوجيه هذا الشعور وجهة وطنية، بمعنى ان شكل الشعور كان دينياً وجوهره العام كان وطنياً معادياً للاستعمار. وقد عرقل ذلك من نشاط انصار الجامعة الاسلامية على النمط العثماني، وحَدَّ من نفوذهم بين الجماهير المؤمنة.

ومع هذا فإن بذور حركة الجامعة الإسلامية اخذت في الظهور منذ أواخر العقد الثالث في مصر وفي أواسط العقد الرابع في سورية. ومع ان هذه الحركة اتخذت في سورية طابعاً ممالئاً للاقطاعية قبل الحرب الاولى. فإنها اتخذت فيها بعد الحرب الأولى طابعاً بورجوازياً صغيراً جذب اليه بعض مثقفي الطبقة الوسطى في المدن. فتأسست جمعية الشبان المسلمين في القاهرة في تشرين الثاني ١٩٢٧ ووضعت نواة جمعية الاخوان في الاسماعيلية في آذار ١٩٢٨؛ وفي نيسان ١٩٢٩ تأسست رسمياً بقيادة حسن البنا الذي انتقل الى القاهرة سنة ١٩٣٣. وقد حدد حسن البنا في احدى خطبه دستور الاخوان المسلمين بما يلي: تستطيع أن تقول ولا حرج عليك، أن الاخوان المسلمين دعوة سلفية، وطريقة سنية، وحقيقة صوفية، وهيئة سياسية،

(٢/٥٣) مصطفى خالدي، عمر فروخ: «التبشير والاستعمار في البلاد العربية» صيدا ـ بيروت ١٩٥٧. ص ٩٠.

وجماعة رياضية ورابطة علمية ثقافية، وشركة اقتصادية وفكرة اجتماعية[٥٤].

• انتقلت الدعوة الى الجامعة الاسلامية بشكلها الحديث من مصر الى سورية عن طريق قسم من الطلاب السوريين الذين كانوا يدرسون في مصر ولاسيما في الازهر واتخذت هذه الحركة اسماء مختلفة باختلاف المدن فتأسس اول مركز لها في حلب باسم «دار الارقم» سنة ١٩٣٥ ثم توالى تأسيس المركز في المدن السورية كل مركز باسم خاص ورخصة خاصة[٥٥] فتأسست بعد دار الارقم في حلب جمعية الشبان المسلمين في دمشق وجمعية الرابطة في حمص وجمعية المكارم في القدس فجمعية الاخوان المسلمين في حماه وغيرها. وكانت مع تعدد الاسماء تشكل جماعة واحدة وتعارفت فيما بينها على التسمي (بشباب محمد). فعقدت أول مؤتمر لها في حمص ثم عقدت المؤتمر الثاني سنة ١٩٣٧ والمؤتمر الثالث في دمشق سنة ١٩٣٨، وقررت فيه اتخاذ دار الارقم في حلب كمركز رئيسي لسائر الجمعيات. واتخذت قرارات باحداث منظمات السرايا والفتوة في كل مركز[٥٦] متأثر داخلياً بتشكيلات القمصان الحديدية التابعة للشباب الوطني وتاريخياً بنظام الفتوة وخارجياً بقيام المنظمات الفاشستية، التي تمتعت بشعبية في تلك الأيام.

لقد كانت ظاهرة الاهتمام بالشباب احدى الخصائص المميزة للثلاثينيات، وهي تشبه الى حد ما مع مراعاة اختلاف الظروف والاحوال، حركات الشباب في النصف الثاني من العقد السابع. لقد كان عنوان المحاضرة التي القاها مصطفى السباعي في حمص في صيف ١٩٣٦: «أثر الشباب في نهضات الامم» ذات مدلول خاص. وطلب السباعي، الذي أصبح سنة ١٩٤٤ المراقب العام للاخوان المسلمين، من الشباب التحلي بالصفات الآتية:[٥٧]

---

(٥٤) الحسيني اسحق موسى: «الاخوان المسلمون، كبرى الحركات الاسلامية الحديثة. بيروت ١٩٥٥، ص ١١٠.

(٥٥) الاحزاب السياسية في سورية. دمشق ١٩٥٤، ص ١٠.

(٥٦) الحسيني. . . . ص ١٣٥ - ١٣٧.

(٥٧) انظر نص الخطاب في: الايام ١٥ آب ١٩٣٦.

ـ التـدين، وهـو يقـول «لعـابـد صنم أفضـل عنـدي من ملحد لايعترف بالله ولابدين. . . . والملحد لايجد ما يمنعه عن ارتكاب الفواحش التي تهدد مجموعة الامة». . . .

ويرد السباعي على من يقول بأن الغرب لم يسد إلا بنبذ الدين وأن الشرق لن يسود كذلك الا بنبذ الدين. ويعتبر أن هذا من خطل الرأي. فأوروبا في رأيه لم تزل متدينة. ومن الامثلة التي ساقها للبرهان على «تدين» أوربا «أن دول الغرب امتنعت عن الاعتراف بدولة روسيا الشيوعية لانها تسعى الى هدم الاديان». . .

ولكن من المعـروف ان دول الغـرب الرأسمالية الاستعمارية لم تعترف بأول دولة اشـتراكيـة في العـالم لاسبـاب طبقيـة وليس بسبب تديـن دول الغـرب. ولأن «روسيا الشيوعية تسعى الى هدم الاديان»، وهذا غير صحيح ودعاية صدّقها كثير من الناس بعد أن روج لها الاستعمار وانصار الرأسمالية والاقطاعية والاستثمار من كل شاكلة ولون لصرف الجماهير الشعبية الفقيرة المؤمنة عن اعتناق الاشتراكية والكفاح للخلاص من النظام الرأسمالي الامبريالي.

ومن الامثلة التي ساقهـا أيضـاً الشيـخ مصطفى السباعي سنة ١٩٣٦ للبرهنة على «تـدين» أوروبـا هو أنهم «اغلقـوا في برلين معرض الدعاية اللادينية الذي فتحه الحـزب الشيـوعي» ولكن هل هذا هو السبب الحقيقي لاغـلاق المعـرض؟ ومن الذي أغلق هذا المعـرض؟ اليس النـازيـون، الـذين يدعـون الى اخضـاع كل الشعـوب والسيطـرة على العـالم وسيـادة العنصر الجرماني وتقوية وحدة استثمار الرأسمالية الالمانية للطبقـة العـاملة الالمـانية ولسائر شعوب العالم، هم الذي اغلقوه!! والحزب الشيوعي الالمـاني الـذي ناضـل ضد هذه السياسة النازية المجرمة ودعا الى السلام والاخاء بين الشعـوب وكـافـح من أجـل منـع نشـوب الحرب العالمية الثانية وضد اجتياح الجيوش الهتلرية لدول أوربا، هدف من وراء اقامة معرضه الى هذه الغاية النبيلة، ولا علاقة لهذا المعـرض بالـدين من قريب أو بعيـد. والمعـرض المقـام هدف لفضـح السيـاسـة العدوانية للرأسمالية الالمانية والحزب النازي.

وهنـا لابـد من الاشـارة إلى ماكتبتـه مجلة «رسالة العمال» الكاثوليكية في حلب نقلاً عن مجلة «البشير» التبشيرية البيروتية الاستعمارية حول طرق مكافحة الشيوعية

التي انتشرت في كل قرية ومزرعة[٥٨] وقد دعت هذه المجلة في كانون الثاني ١٩٣٧ الى مكافحة «الشيوعية بلاء الانسانية الاعظم وأكبر آفات المجتمع في هذا العصر» وقالت المجلة «ان الدواء لرد شرورها وصد رسلها هو في يد الحكومة وفي يد الأغنياء وفي يد رجال الدين، في يد كل سوري مخلص»[٥٩].

نعود إلى الصفات الاخرى التي يجب أن يتحلى بها الشباب حسب رأي السباعي:

١ ـ الرجولة. ٢ ـ الاخلاص. ٣ ـ الثبات أي ثبات الشباب على العهد وثباته على المبدأ. ٤ ـ التضحية. ٥ ـ الترفع عن الوقوع في حمأة الرذائل. ٦ ـ الاخاء والمحبة بين الشباب العامي منهم والمتعلم وابن المدرسة والغني والفقير وخاصة بين المسلم والمسيحي.

واخيراً ختم السباعي محاضرته مخاطباً الشباب قائلا: «أيها الشباب حاربوا أهواءكم قبل أن تحاربوا أعداءكم وتخلصوا من استعمار الشهوة لقلوبكم قبل أن تتخلصوا من احتلال الاجنبي لبلدانكم وقبل أن تتحرروا من احتلال العدو لاوطانكم»[٦٠].

ذكرنا سابقاً ان الشعور الديني الاسلامي كان من أحد العوامل التي زادت في أزكاء شعلة النضال الوطني وحشد طاقة الجماهير المؤمنة لطرد المحتلين الاجانب. وادى ذلك إلى ضعف حركة الجامعة الاسلامية التي لم تضع حلولا واضحة لطرد المحتلين وحل مشكلات الجماهير الاجتماعية وقد اتصفت افكارها وشعاراتها بالصوفية والغموض، مما سبب اعراض الجماهير المحتدمة حماساً وطنياً عنها، كما أن مرور هذه الحركة في مرحلة الانتقال من تأييد الاقطاعية والاعتماد عليها (قبل الحرب العالمية الأولى الى تأييد بعض أجنحة البورجوازية الصغيرة في المدن. وتأرجحها بين الفكر الاقطاعي والبورجوازية الصغيرة في فترة مابين الحربين أسهم ببطء نمو هذه الحركة.

---

(٥٨) مجلة «رسالة العمال» مديرها المسؤول القس ميخائيل أجبا. السنة السابعة حلب ١٩٣٦، ص ٣.

(٥٩) المصدر نفسه، كانون الثاني ١٩٣٧، العدد ٨٥.

(٦٠) الايام ١٥ آب ١٩٣٦.

ولم تحظ بنصيب نسبي من النجاح الا في فترة مابعد الحرب العالمية الثانية، بعد أن برزت كتيار فكري من تيارات البورجوازية الصغيرة في المدن، وبعد أن حاولت التلاؤم مع التيارات العالمية السائدة، وبعد أن سعت لعدم الاصطدام العنيف مع التيارات القومية وأخذت تنادي بالاشتراكية الاسلامية أو اشتراكية الاسلام.

٩ ـ عبد الله العلايلي (دستور العرب القومي):

دخل في عداد تيارات البورجوازية الصغيرة ذات الصبغة القومية تيار مزج بين الاندفاعات القومية العربية للبورجوازية الصغيرة وبين الآراء القومية للبورجوازية في أوروبا. وقد مثّل هذا التيار[٦١] في أواخر الثلاثينات وأوائل الاربعينات عبد الله العلايلي، الذي ألف كتاباً باسم «دستور العرب القومي» نشره في بيروت سنة ١٩٤١.

ارجع العلايلي اسباب التفريق بين القضية الاسلامية والقضية العربية، ذلك التفريق الذي بدأ قبل الحرب العالمية الاولى ظهر واضحاً بعد الحرب، الى: الاستعمار الاوروبي المشفوع بالتبشير والحركات القومية الاستقلالية واتصال العرب بالثقافة الاوروبية واعتناقهم للنزعة القومية الجديدة حيث اصبح التنبه القومي «عربياً يدور على قطب قومي في صلة رمزية بالاسلام»، وبعد مجيء الانتداب واتصال العرب السياسي بأوروبا اصبح التنبه القومي «عربيا يدور على قطب القومية العربية فقط».

اعتمد العلايلي من أجل اثبات عروبة الارض العربية والرد على دعاة النظرية الاقليمية على نهج ديكارت القائل: انا افكر فإذا أنا موجود. وبما أن اللغة، أحد

---

(٦١) كان من المفروض تخصيص فقرة لاتجاه ساطع الحصري. ولكن آثرنا متابعة تأثيره في الكتاب القادم حول التيارات الفكرية بعد ١٩٤٥ حيث كان تأثير الحصري واضحاً. ومن المعروف ان الحصري حلبي الاصل يمني المولد عام ١٨٨٠. وعندما جاء الى دمشق عام ١٩١٩ كان لايحسن العربية ويكتبها بصعوبة ثم حسن بيانه وامسى يعبر عن آرائه بسهولة. وقد اصدر خلال حياته الفكرية اكثر من عشرين كتاباً تدور حول اتجاهات التعليم وتوحيد المناهج في البلاد العربية، أو حول القضايا القومية بمفهومها الشامل المتأثر بالغرب الاوروبي.

وجهي الفكر، في العربية فإن في وسع كل قاطن في سورية والعراق ومصر والحجاز واليمن والمغرب أن يقول في منطق صحيح وليس أصح منه (أنا افكر بفكر عربي فإذا انا موجود عربي). واشار العلايلي الى أن العرب في أية بقعة من الارض التي يوجدون الآن فيها يرجعون إلى ماقبل ألف سنة أي أن الصفة القومية العربية في كل بقعة أقدم من كل صفة قومية حية في العالم.

ثم ردَّ العلايلي على أصحاب النظرية الاقليمية ونفى منطقهم ولا سيما منطق كبير منهم، منطق انطون سعادة صاحب كتاب «نشوء الامم». واعتمد العلايلي على قانون الانتخاب الطبيعي الذي ينتهي بغلبة الارجح والاصلح، والمميزات العربية على الارجح والاصلح في ميزان الطبيعة والعدل. فالاقطار العربية تشكل مجتمعاً لا بالقوة الخارجية ولا بالاستبداد ولا بأي شكل من الأشكال الصناعية بل بالطبيعة فقط.

ويبدي العلايلي رأيه في أحقية العرب في الأرض التي يسكنون عليها وهي «ليست الا من أجساد العرب في ثلاثمائة وألف من السنين عدّا». وقد نادى العلايلي «بعربية جميع الاقاليم التي يسكنها العرب». كما حدد الوطن العربي «بكل أرض سيطرت عليها لغتهم سيطرة تاريخية وحالية وضمّت من رفاتهم ما يكاد يشكل طبقة رابية من تراب قشرتهم التي يسعون فوقها».

يتعرض العلايلي في فصل كامل الى موقف القومية من الدين فيعترف بأهمية الدين أحياناً في تأجج الحماسة وبعث القومية. ولكنه كرر القول أن لادين في القومية. ومع ذلك فإن العلايلي رأى ضرورة بقاء مثل سامية رفيعة لإفساح اسمى محل للدين في القومية.

فما الدين الذي تبناه العلايلي؟

انه نفى المذهب الاخلاقي والدين الالهي كرمز مثالي للقومية. وساق لتوضيح رأية عدة أمثلة وبراهين. ورأى بأن اختيار الاسلام بالفعل ليكون رمز القومية أو دينها يهيج بلا ريب وبصورة حتمية عنعنات الاديان الاخرى فتنكفىء الآية... فالاسلم عاقبة أن ننتقل الى مانسميه الدين الطبيعي». وقد قصد بالدين الطبيعي «مجموع القضايا التي اتفقت الاديان الالهية الثلاثة على تقريرها».

أن ما يلاحظ دون عناء في كتاب العلايلي «دستور العرب القومي» ان المؤلف استقى افكاره من «علماء القوميات» البورجوازيين، وسار على منوالهم، وحصر نظره مثلهم في «الطبقة المتوسطة التي تقدم المثال الوسط للامة أي المثال القومي الخالي من الشوائب، وهي الخليقة بأن تقدم رجل البعث والنهضة، والرجال الاكفاء بتصريف مقدرات الوطن وحملها». وقد أفاض العلايلي في مدح الطبقة المتوسطة واسباغ شتى النعوت الحسنة عليها، فهي «التي تحمل الضمير الخصب الذي لا يفرط صاحبه ولا يتلاعب ولا يتدنس وهو أبدا شريف».

ان النظرة الى «الطبقة المتوسطة» كنموذج مثالي للامة لا يرقى اليه الشك لا **نجدها عند العلايلي فحسب**، بل نجدها عند سائر مثقفي الطبقة الوسطى، تلك الطبقة، التي كانت في الواقع في عهد مابين الحربين الطبقة الأكثر ثقافة من غيرها. فالطبقات «العليا» كانت تنظر إلى الثقافة باحتقار وتعال، والطبقات «الدنيا» الفقيرة لم يكن بامكانها الحصول على العلم، إذ كانت سبله مسدودة في وجوه ابنائها. ولهذا فان التعليم انحصر في تلك الايام في بعض فئات الطبقة الوسطى. ولا يخفى ان الطبقة الوسطى كانت، نتيجة للتطورات الاجتماعية الاقتصادية بعد الحرب الأولى في تطور صاعد كمياً وكيفياً، مما حمل مفكريها على الاعتقاد بأنها الطبقة المؤهلة لقيادة البلاد في الوقت الذي لم تكن الطبقة العاملة قد تكونت بعد والفلاحون لا يزالون يرزحون تحت النير الاقطاعي.

ومما يلاحظ ان العلايلي عندما رفع الطبقة الوسطى إلى الاوج أشار، بعكس كثير من المفكرين القوميين الذين نادوا بالاصالة، الى المصادر التي استقى منها افكاره من علماء القوميات، الذين تكون لديهم ماأسموه بالمثال الوسط وجعلوه عنوان الامة المتكونة، وهذا ماعمل له «ريشليو العظيم» و«بسمارك الخالد» و«غاريبالدي».

ثم ينتقل العلايلي الى قضية طالما شغلت تفكير البورجوازية الاوروبية ونالت رضى الاشتراكيين الديمقراطيين وهي قضية القضاء على النضال الطبقي. فالعلايلي دعا الى اقامة كيان قومي راسخ عن طريق «فرض التعاون الطبقي واحلاله بمنزلة اقدس التعاليم.. والا فنحن نعمل بطريق اللاشعور على تحطيم الكيان القومي وتمزيق وجودنا كأمة تشعر طبقاتها بشعور الحب والعطف والافتداء». فـ«التعاون الطبقي» في رأي العلايلي ضروري من أجل أن «نضمن ابدا وجودا قومياً صحيحاً»

وتجنب «حرب طبقية حادة».

ومن أجل تحقيق التعاون الطبقي يرى العلايلي ضرورة اتخاذ تشريعين:

١ ـ وجوب تمليك كل عربي عقاراً أو أرضا في الوطن العربي، أو على الاقل ايجاد الوسائل وتسهيلها على كل شعبي للامتلاك. والهدف من ذلك في رأي العلايلي مقاومة «كل نزعة ترمي إلى حل الملكية» فلا يكون العرب ابدا بيئة صالحة لنمو الافكار الهدامة المتطرفة.

٢ ـ تحريم الملك على الدخيل والجاليات. فأرض العرب، كما كتب العلايلي، للعرب فنحن لانبيحها للغير بغلبة ولا بشراء.

ومع ان العلايلي لم يبين السبل الواجب اتباعها لتصفية ملكية الاجنبي في الوطن العربي. إلا أن دعوته لتحريم الملك على الاجنبي دلت على ان قسماً من التيار البورجوازي الصغير دخل منذ زمن بعيد في صراع مع الرأسمال الاجنبي. ولكن العلايلي المفكر البورجوازي الصغير في أوائل الاربعينات، الذي أوجب تمليك كل عربي عقاراً، لم يضع سقفاً للملكية الرأسمالية أو الاقطاعية وبذلك فهو لم يناد بالغاء استثمار العربي للعربي. وكان جل هدفه من تمليك العربي مكافحة «الافكار الهدامة المتطرفة»، التي أخذت تغزو القلوب، وخلق «صفة الافتداء للوطن» لانه يعتقد بأنه لايدافع عنه بمجرد السخرة أو التغرير الحماسي لمنفعة الغير من الرأسماليين.

انطلاقاً من هذه المفاهيم يميل العلايلي الى رأي «الاشتراكيين المعتدلين، الذين لايحاولون «قلب النظام الفردي . . بثورة، لئلا يكن شر الثورة أعظم من شر النظام الحالي» بل أن «قلب النظام بالطريقة الانتخابية افضل عاقبة من الثورة».

وقع العلايلي، شأن عدد كبير من مفكري البورجوازية الصغيرة، أسير عقدة النقص من «تيقظ المجتمع العربي للثورة الاجتماعية بتسرب الافكار الهدامة». ولذلك فهو ينادي «البنائين القوميين أن يحتاطوا للامر قبل وقوعه بتصحيح العيب الاقتصادي»، دون أن يضع الحلول لتصحيح هذا العيب، مع أنه أشار اليه ووصفه بلغة «طبقية» واضحة دون أن يصف العلاج «الطبقي» لازالة هذا «العيب» على حد تعبيره.

كتب العلايلي:

«ونحن اذا تدبرنا طويلاً في وضعية اقاليم العرب نجد أن بعض هذه الاقاليم

مملوكة لعدة أفراد فقط، ومعنى ذلك أن الشعب المنتج مملوك لبضعة أفراد يتصرفون بحقه في الحياة الاقدس كيف شاؤ وا».

«إن تقدم الاقتصاديات افضى إلى الاستقطاب المالي أي جعل فريقاً من الناس يقبضون على ناصية المال وجعل فريقاً آخر تحت إمرة المتمولين وتحت رحمتهم، ولذلك اختل التوازن في المجتمع وأُلغيَ مبدأ المساواة أومبدأ العدالة في الحقوق والواجبات، وتلاشى الرق شكلا ولكنه تجدد جوهراً وأصبح الرق الاقتصادي أفظع من الرق الشخصي. فالعامل الذي كان يشتغل وهو حر الارادة أصبح عبداً للمتمول القابض على ناصية المشروعات العملية، وغدا عرضة للهلاك جوعاً مع ان الرفيق القديم كان أقل تعرضاً منه للفناء لأن سيده كان ضامناً معيشته».

وهذا ما دفع العلايلي الى المطالبة بـ «تعديل الانظمة الاقتصادية تعديلاً كبيراً لكي يعود المثل الاعلى والتكافؤ بين الحقوق والواجبات ـ إلى مقامه الأول». ورأى العلايلي وجوب استتباب «الديموقراطية الاقتصادية في المجتمع كما استتبت قبلها الديمقراطية السياسية بعض الاستتباب، حتى لاينقلب المجتمع العربي «مجتمعاً طائشاً فوضوياً».

عكست أفكار العلايلي وتحليلاته، التي اقتبسها عن غيره أو اكتشفها بنفسه عن تناقض البورجوازية الصغيرة ووقوعها بين فكي كماشة. فهي من جهة عدوة «الارستقراطية المالية» و«الاستقطاب المالي» و«الرق الاقتصادي» على حد تعبير العلايلي، الذي تمارسه الاقطاعية والبورجوازية الكبيرة وتمنع البورجوازية الصغيرة من الصعود إلى أعلى مراتب السلم الاجتماعي، وهي من جهة ثانية تخشى الحركة الشعبية التي أسماها بـ«الافكار الهدامة» أو «المجتمع الطائش الفوضوي»، والتي تطالب بإزالة الاستثمار «صغيره» و «كبيره».

لقد كانت افكار العلايلي سنة ١٩٤٠ في كتابه «دستور العرب القومي» تعبيراً صادقاً عن وقوع البورجوازية الصغيرة بين نارين: نار الطبقات «الاعلى» منها ونار الطبقات «الادنى» منها. لقد رددت آراء العلايلي اصداء سعي البورجوازية الصغيرة لاحتلال مراكز الطبقات «الأعلى» منها ولمنع الطبقات الدنيا من الوصول إلى مراتبها الحقة. فالبورجوازية الصغيرة بهذا الشكل ديمقراطية عندما تطالب بالقضاء على

استعباد الطبقات «العليا» ودكتاتورية عندما تضطهد الطبقات «الدنيا» وتعرقل سيرها الصاعد وتحررها من الاستثمار.

كتب العلايلي في فصل «نظام الحكم» مايلي: «فالديمقراطية حتى اليوم ليس لها الا اسم الديمقراطية والا فهي في حقيقتها شيء فظيع من الاستبداد الطبقي، وقد وجد الاعيان والاشراف في ظلها ما يحفظهم ويضمن رغائبهم معاً». ومن أجل «تصحيح عملية الديمقراطية» رأى العلايلي من الضروري منع الاغنياء من الدخول في المجالس النيابية.

أما نظام الحكم الذي نادى به العلايلي فهو «الملكية الجمهورية» لأنها «أصلح للمجتمع وأقدر على القيام بالاعباء وتحقيق البرامج». والملكية التي نادى العلايلي بها «ملكية مقيدة بنظام جمهورية محض يبعد بها عن كل ماكنا نعرفه في الماضي العتيق من نظام الملك».

ان الدعوة الى «الملكية الجمهورية» عند العلايلي ترجع الى رأيه بحاجة الجمهور الى زعيم «حتى لنجد أن تاريخ البشرية عبارة عن تاريخ نفر من الزعماء استهووا الجماعة وقادوها الى حيث شاءت أغراضهم». وهنا يعدد العلايلي الشروط اللازمة لقيام الزعيم ونجاحه وسعى بلباقة إلى الاشادة بـ «الزعيم العربي الكبير رياض بك الصلح»، «هو زعيم لا أقول فيه انه من أكبر زعماء سوريا بل من أكبر زعماء العرب» بسبب «صحة تفكيره القومي.. وخلقه القومي الصحيح... وآلامه التي قدمت منه زعيماً ثائراً». ويبدو العلايلي القومي البورجوازي الصغيرة متأثراً بالاجواء العالمية والمحلية أيام ازدهار الهتلرية والموسيلينية.

هذه اهم الآراء الواردة في كتاب «دستور العرب القومي» القسم النظري للعلايلي، ولكنها لاتمثل الا جزءاً من آرائه اذ اضطر إلى اسقاط ابحاث كثيرة نظراً لتحديد حجم الكتاب من قبل الناشر مثل بحوث: التربية القومية والسياسية والادبية واللغوية والتاريخية والاخلاقية والمسلكية والثقافية وطرقها والتراث الثقافي العربي، والينابيع التشريعية في القانون القومي والانعاش الاجتماعي والغد والجديد القوميان والامراض الاجتماعية ومذهب الحرية ومقام المرأة ومشكلة الشعوب الطارئة كاليهود والآشوريين والارمن والصحافة القومية المخلصة كأداة للتثقيف العام.

ويتسم بحث هذه الأمور بالجرأة. فالعلايلي يقول بأن «القوانين التي ندعوها

شريعـة كثيـراً ماتكون رجعية وتكون مبنية على اعتبارات فاسدة». وقد سرد العلايلي عدة أمثلة على ذلك منها:

«مقـدار تأثـر الشـريعـة حتى اليوم بفكرة الملكية المقدسة رغم تطور الفكرة من وجهة الاجتماع. وهو أن الشريعة تحمي الملكية وتعاقب من يعتدي على ملك غيره، ولكنها لاتوجب على صاحب الملك ان يستعمل ملكه بحكمة بحيث يؤول الى نفع المجتمع».

كما أن «الفكرة الفردية السحيقة ـ رغم اننا في عصور اجتماعية جديدة ـ لاتزال تصبـغ القـانـون والاخـلاق وقواعد السلوك والاجتماع. فالتحجير على المرأة بعد أن تقـرر نظـام الآبـوة في وضع الاسرة، والنظر إلى الزانية بنوع أشد من النظر الى الزاني والانتصار للدائن بأكثر من المديون».

وينطلق العلايلي من إيـمانه بأن على «القومية العربية» أن «تنبثق انبثاقاً جديداً لاأثر فيه للرجعية الفكرية».

هذا هو العـلايـلي في كتـابـه «دستـور العـرب القومي»، دستور قومبي «الطبقة المتوسطة» الطامحة في الصعود إلى الاعلى وازاحة الطبقات العليا واضطهاء الطبقات الدنيا. وتيار العلايلي كان أحد تيارات القومية البورجوازية الصغيرة، التي ظهرت في الثـلاثينـات وعـبرت عن واقـع موضوعي لفئة معينة في مرحلة معينة من مراحل تطور المجتمـع العـربي. ولابـد من التنـويـه أن فكر العلايلي اللاحق حول القضية القومية والقضايا الاجتـماعيـة قد تجاوز بكثـير المـرحلة الاولى موضوع كتاب «دستور العرب القومي»، وصـار لابـد، من أجـل فهـم العـلايـلي، من رؤية حركة تطور فكره الى مرحلة الربط الواضح بين مسألة التحرر القومي والتحرر الاجتماعي معاً.

١٠ ـ الاشتراكية الديموقراطية:

لم تحرز أفكار «الاشتراكية الديمقراطية» قبولاً واسعاً لدى جمهور المثقفين ولم تجد الـتربـة الاجتـماعيـة الصـالحـة لنمـوهـا في فترة ما قبـل الحـرب العـالمية الثانية اذ ان «ارستقـراطيـة» العـمال لم يكن لها جذور في سوريـة آنـذاك، والفئـات البـورجـوازيـة الصغيرة، التي تجد فيها «الاشتراكية الديمقراطية» مرتعا خصباً لم تتبنى «الاشتراكية

الـديمقـراطية» الا بعد الحرب العالمية الثانية . ويرجع سبب ذلك إلى ظروف النضال ضد الاستعمار، حيث كافحت البورجوازية الصغيرة ضد الحكم الاستعماري ، ولم تكن تنظر بعين الرضى الى موقف «الاشتراكية الديمقراطية الاوروبية الممالئة للاستعمار» . كما أن الصراع الطبقي لم يكن قد بلغ مرحلة حاسمة تضطر معها البورجوازية الى انشاء أو مساعدة حركة او اتجاه يبشر بالسلم الطبقي و«بتعاون الطبقات» ولم تنتشر أفكار «الاشتراكية الديمقراطية» في المشرق العربي ، الا بعد الحرب العالمية الثانية . وكنا اشرنا فيما مضى في بحثنا عن الشهبندر الى هذه الناحية ، وإلى الدور الذي لعبته هذه الحركة سلبا أو ايجابا .

ومع هذا فإن أفكار الاشتراكية الديمقراطية انتشرت عن عدة سبل وكان من أبرزها ماكتبه ابراهيم حداد في بيروت سنة ١٩٣٨ حول «الاشتراكية العملية» ، نشوءها وتطورها خلال القرنين الثامن والتاسع عشر) ومع ان صورة ماركس تصدرت غلاف الكتاب ، فإن مجمل الكتاب لم يكن في صالح الماركسية بل في صالح خصومها . ولا غرابة في ذلك ، فالمؤلف يكتب عن تاريخ الاشتراكية اعتماداً على المصادر التاريخية ولاسيما ماكتبه العلامة «برتلو» في دائرة المعارف الفرنسية الكبرى . لقد كتب عن تاريخ الاشتراكية اذن من وجهة نظر المؤرخين البورجوازيين الافرنسيين . ولا تحتل الاشتراكية العلمية في الكتاب اكثر من ثلاث صفحات ، في حين احتلت مفاهيم بعيدة عن الماركسية بل معادية لها صفحات مطولة ، على سبيل المثال رأى المؤلف (المترجم) حول وضع نصوص صريحة في صلب دستور الدولة الالمانية ، (الدستور البروسياني) تقضي بالمحافظة على حقوق العمال والفقراء «فوزاً للاشتراكية» . . أين؟ . . . في الدولة الالمانية القيصرية الاقطاعية ـ البورجوازية ! ! يزعم المؤلف بأن الاشتراكية قد انتصرت . كما ان المؤلف ـ المترجم يعطي أهمية كبيرة تفوق أهمية ماركس الى صاحب الاملاك الواسعة في بروسيا رودبارتوس (١٨٠٥ ـ ١٧٨٥) الذي دعا الى اشتراكية جديدة اطلق عليها اسم «اشتراكية الدولة» .

كتب ابراهيم حداد عن مبادىء الماركسية وزعم ان نظرات ماركس مأخوذة فقط من سابقيه ، كما زعم ان ماركس لم يبدع من عنده سوى جمع النظرات الصحيحة في علم الاقتصاد السياسي . . وكذلك الامر بالنسبة إلى «مادية التاريخ» التي أطلع عليها ماركس في مؤلفات المؤرخين الفرنسيين الاحرار والمؤرخين الاقتصاديين

الانكليز.

ان الافكار التي أتى بها ابراهيم حداد ليست، في الواقع، وكما اعترف نفسه، الا نقلا عن المؤرخين البورجوازيين واقتباساً لما ردده دعاة الاممية الثانية، كما أن هذه الافكار في الوطن العربي كانت حلقة وصل بين أفكار الاممية الثانية والمحرفين المعاصرين، الذين أكدوا بكل الوسائل المزاعم القائلة بأن الماركسية لا فلسفة لها، وحاولوا ان ينسبوا تعاليم ماركس إلى النظريات الاقتصادية والتاريخية التي يمكن أن تضم إلى اي نظام فلسفي.

ومع الاشارة مرة ثانية الى ان الماركسية اطلعت على ما سبقها ودرسته دراسة عميقة، إلا أن الاشتراكية العلمية هي في نهاية المطاف نتيجة لتحليل الرأسمالية وقوانين تطورها تحليلاً عميقاً.

فأفكار ابراهيم حداد، في كتابه «الاشتراكية العملية» الصادر في بيروت سنة ١٩٣٨، التي تنفي تقسيم الفلسفة الى اتجاهين مادي ومثالي، تستقي مبادئها من محرفي الماركسية القدامى أمثال بيرنشتين وبوغدانوف وكاوتسكي وماكس ادلر وغيرهم، وتقدم هذه الأفكار زاداً فكرياً، لما يسميهم الماركسيون، بالمحرفين المعاصرين الزاحفين إلى مواقع الفلسفة البرجوازية بسبب تنكرهم للمادية الديالكتيكية.

١١ ـ مجلة الدهور (١٩٣٠ ـ ١٩٣٥)

في تشرين الأول ١٩٣٠ صدر في بيروت العدد الأول من الدهور، «مجلة انتقادية في العلم والفلسفة والأدب» لصاحبها ومحررها ابراهيم حداد، الذي الف فيها بعد عام ١٩٣٧ كتاب «الاشتراكية العملية» وكان من انصار «الاشتراكية الديمقراطية»، التي لم تجد لها قبل الحرب العالمية الثانية تربة ملائمة في بلاد الشام.

ان خط المجلة والجو الفكري السائد تعبر عنهما كلمة الافتتاح لابراهيم حداد، التي جاء فيها:

«عندما عزمت على اصدار هذه المجلة استشرت الكثيرين من الخلصاء فاشار علي قسم منهم بالتحول عن عزمي لأن بلاداً كبلادنا هذه يباع فيها سنوياً مئات الالوف من نسخ قصص الزير وحمزة البهلوان وعلي الزيبق وغيرها لاتنفع المجلات

العلميــة فيهــا شيئــاً، واشــار علي قسم ثانٍ بالـتريث في الامـر حتى تنفـرج الأزمـة المستحكمــة في اقتصــاديــات البـلاد لأن النــاس المتعلمـين على اختـلاف طبقـاتهم ووظـائفهم في المجتمـع لايهتمـون بالعمـل الا بعـدمـا يطمئنون الى امور معيشتهم، واشار علي قسم ثالث بالمضي في العمل لأن بلادنا مفتقرة الى مجلة علمية تعمم الثقافة الحديثة المؤسسة على هذه النزعة التي تعم العالمين الاميركي والاوروبي. . وانا واثق من ان هذه الـوريقـة ستنتشـر عاجلاً حتى تعم كافة الطبقات وتقضي على الخرافات والاوهام المتأصلة في العقول. . .».

مجلة الـدهـور اعتـبرت نفسهـا النـاطقـة بلسـان حال «جمعيـة التضامن الأدبي». وهي جمعيـة تأسست عام ١٩٢٤ ولكنهـا سرعـان ماتوقفت عن النشاط حتى اواخر ١٩٢٩ حيث بعثت من جديد. والمادة الاولى من قانونها الاساسي تحدد ان «غاية الجمعية لمّ شعث الشبيبـة وتعـزيـز اللغة العربية وتعليم الأطفال الفقراء والنهي عن ارتياد اماكن اللهـو والفسـاد والمضرة بالاخلاق»، التي طغت مع الاحتلال وجرت أكثر الشبيبة الى حيث لايدرون.

والملفت للنظـر ان جمعيـة التضـامن الادبي اتخـذت قراراً «بتحبيـذ المصنوعات الوطنية ووجوب ارتدائها».

في العـدد الأول من «الـدهـور» مقـالة لابراهيم حداد بعنوان «نشوء الجماعات وتطـورهـا» يتعـرض فيهـا الى المجتمعات الشرقية و«يرى ان النظام الاقطاعي مازال مرعي الاجـراء فيهـا. ونظـام الاقطـاع هذا افسد نظام بشري موروث عن الحيوانية» و«نرى اليوم القويّ بنفوذه وبقية نواحيه يمتلك الأرض والمتاجر». .

وهنا لانجد الوضوح التام لدى ابراهيم حداد في شرح التشكيلات الاجتماعية (رق ـ اقطاعية ـ رأسمالية ـ اشتراكية) ويبقى غارقاً في العموميات.

العـدد الـرابـع من مجلة «التدهور» (كانون الثاني ١٩٣١) يتصدر غلافه فقرتان تحددان سياسة الدهور بشكل أوضح:

الفقرة الأولى من انشاء ابراهيم حداد (صاحب الدهور) وهي: «اشعر بوجود ذاتك فالشعور بوجود الذات شرط اول في الرقي والتحضر وضرورة قصوى لنمو الفكر وتقدمه».

والفقـرة الثـانيـة لمنشىء مجلة «العصـور» ومحـررهـا في القطر المصري إسماعيل مظهـر، المترجم والكـاتب المصـري المعـروف آنـذاك، وهي: «حـرر فكرك من كل التقاليد والاساطير الموروثة حتى لاتجد صعوبة في رفض رأي من الآراء أو مذهب من المذاهب اطمأنت إليه نفسك وسكن إليه عقلك اذا انكشف لك من الحقائق مايناقضه».

في ربيع ١٩٣١ تولى صاحب الدهور (ابراهيم حداد) وعدد من «رفاقه اعضاء اللجنـة» حركـة مقـاطعة شركة الجرو التنوير في بيروت ذات الرأسمال الاجنبي، وكان من نتـائجهـا كما يقـول حداد في عدد كانـون الثـاني ١٩٣٢ «الفـوز والغلبـة للشعب والعذاب والاضطهاء والسجن لصاحب هذه المجلة ورفاقه اعضاء اللجنة».

ان تزعم ابـراهيم حداد لحركـة مقـاطعة شركة اجنبية هي تطبيق للشعار الذي رفعتـه «جمعيـة التضـامن الادبي». هذه الجمعيـة، التي نعتقـد انهـا أولى ارهاصات تأسيس حزب اشتراكي ديمقراطي كان ابراهيم حداد يسعى إليه.

نرجح ان ابراهيم حداد سعى من وراء تحريره لمجلة الدهور نشر البذور الفكرية للاشـتراكيـة الـديمقـراطيـة في بلاد المشرق من جهة والاستمرار في نشر أفكار التنوير ومنجـزات التقـدم الحضـاري للغـرب من جهـة اخـرى. ولكن مجلة الـدهور في عام ١٩٣٤ امست تحت تأثـير المـاركسي العـربي اللبناني سليم خياطة واتخذت خطاً اكثر وضوحاً منذ بداية عام ١٩٣٤ وحتى كانون الأول منه. ومن كتاب العدد الاخير هذا كل من سليم خياطة، ميشيل عفلق، ميشال كرم، فؤاد الشايب، ابراهيم الكيلاني وغيرهم.

«ولا أغـالي» ـ هذا ماكتبـه رجـا حوراني ـ «اذا قلت ان الشـرارة التي اشعلهـا المـرحـوم سليم خياطة في مجلة «الدهور» وكتاباته التي تنم عن عبقرية وإيمان لايتزعزع بحتميـة انتصـار المـاركسيـة في خضم الصـراعات المادية في القرن العشرين، أقول: نفثات سليم خياطة كان لها صدى كبير في صفحات «الطليعة» التي خلفت الدهور[٦٢].

---

(٦٢) راجـع مقـالـة رجـال الحوراني (رئيس تحرير الطليعة في سنواتها الاخيرة) في «صوت الشعب اقوى» بيروت ١٩٧٤، ص ١٩٣.

الفصل الرابع

التيار الديموقراطي الثوري *
«البـورجـوازي الصغير» السائر في اتجاه مواقع الطبقات المستثمَرة من العَمال والفلاحين

★ إن مفهوم «الديموقراطية الثورية» الوارد في هذا الفصل تختلف حدوده بعض الشيء عن مفهوم «الديموقراطية الثورية»، الذي دخل ميدان التداول في السنوات الأخيرة. ويرجع هذا الاختلاف في مفهوم «الديموقراطية الثورية»، إلى اختلاف الظروف والاحوال قبل ثلاثين عاماً. فالتطورات الاجتماعيـة الاقتصـاديـة العميقـة والسطحيـة، التي هزّت أسس البنيـان الاجتـماعي في البلدان المستعمـرة سابقـاً، غيرت، ولاتـزال، أوضـاع ومـواقف الطبقـات ازاء بعضهـا البعض وبـدّلت أوضاعها ونظرتها الى الحياة كما طورت هذه التغيرات آراء مختلف الفئات الاجتماعية، مما أدى بدوره إلى التأثير في عملية التطور الاقتصادي الاجتماعي الآنفة الذكر.

ولهذا فإن مفهوم «الديموقراطية الثورية» في سنوات مابين الحربين العالميتين، عهد النهوض الثاني لحركـة التحـرر الـوطني العربية، لابد أن يختلف عن مفهوم «الديموقراطية الثورية» في عهد النهوض الـرابـع (بعد ١٩٦٠) لحركة التحرر المتميز باندماج وتشابك المهمات الوطنية والقومية مع المهـمات الاجتـماعيـة، في عهـد انتقال البشرية من الرأسمالية إلى الاشتراكية. (مرت حركة التحرر العـربيـة بأربـع مراحل: ١ ـ مرحلة ماقبل الحرب العالمية الأولى. ٢ ـ مرحلة مابين الحربين. ٣ ـ مرحلة مابعد الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥ ـ ١٩٦٠. ٤ ـ مرحلة اندماج النضال الوطني والقومي مع الاجتماعي بعد ١٩٦٠).

ولـذلـك فإن الـديمـوقراطية الثورية في الوقت الحالي تضم حسب المنطلقات الجديدة فئات اجتـماعيـة أكثـر اتسـاعـاً مما كانت عليـه الاوضـاع قبـل ١٩٤٥. فقـد كانت القـاعـدة الاجتماعية للديمـوقـراطيـة الثـورية قبل عام ١٩٤٠ ضيقة جدا ضمت فقط العناصر الثورية من البورجوازية الصغـيرة المتأثـرة بالماركسية، أو التي ليست على عداء معها. في حين تضم الديموقراطية الثورية، حسب المفـاهيم المطـروحـة حالياً، ممثلي الفلاحين وفئات البورجوازية الصغيرة وأشباه البر وليتاريا بين سكان المدن وقسم من المثقفين التقدميين. ويطرح هؤلاء برنامجاً معادياً للامبريالية والاقطاع، وترفض الاكثرية الساحقة منهم الرأسمالية كأفق حسن للتطور، ويدعون إلى بناء مجتمع اشتراكي. ومهما يكن من أمر فمفهوم «الديموقراطية الثورية» قبل ١٩٤٥ يختلف عن مفهومها الحالي.

١ ـ مرحلة يزبك او الصحافي التائه (١٩٢٢ ـ ١٩٣٠)

نشأ يوسف ابـراهيم يزبـك في بيت موسر من الطبقة الوسطى في لبنان. واطلع عن طريق معـرفتـه بالافـرنسيـة على الافكـار الاشتراكية وكان من ابرز كتاب جريدة «الصحافي التائه» الصادرة في زحلة. ثم اصدر مجلة الانسانية سنة ١٩٢٥ واسس مع النقـابي فؤاد الشمـالي حزب الشعب اللبنـاني ليكـون الوجه العلني للحزب الماركسي السـري. وفي عام ١٩٢٩ اصـدر كتـاب «مأسـاة المواشي البشرية». ومهد في نشاطه الفكري في اواخر العشرينات إلى المرحلة التالية الممثلة في مجلة الطليعة.

حول يوسف ابراهيم يزبك كتب محمد دكروب في إلطريق (شباط ١٩٨٢ ص ١٢٦) ما يلي: «يوسف ابراهيم يزبك واحد من المغامرين المقدامين الأوائل مؤسسي الحزب الشيوعي اللبناني، رئيس تحرير اول صحيفة للشيوعيين في العالم العربي، التي صدرت عام ١٩٢٥ باسم «الانسـانيـة». قدّم اسهـامـاً اسـاسيـاً في «الـدهـور» وفي «الطليعة» وفي «صوت الشعب» لاحقاً. وإلى هذا الدور الريادي، كان رائداً كذلك في مجالات اخرى: كتابه الطليعي «النفط مستعبد الشعوب، (١٩٣٤) كان رائداً في طرح مسألـة الـدور الكبـير للنفـط في السيـاسـة الدولية، ومسألة ان هذه الثروة يجب تحريرها واعادتها لاصحابها، لتصير واحداً من اسلحة الحرية والتقدم. وكان رائداً في كشف الحقيقـة عن ثورة طانيـوس شاهـين الجمهورية الفلاحية. وفي العديد من كتبه وكتاباته شق الطريق إمام النهج الجديد في كتابة التايخ، من موقع التفسير والتعليل، ورؤ يـة الصـراعـات الاجتماعية الكامنة في عمق الصراع السياسي، ومن موقع كشف دور الجمـاهـير ونضـالاتهـا وكونها هي الاساس في صناعة التاريخ. يوسف يزبك قدم اسمه وجهده للطريق في عامها التأسيسي الاول...».

٢ ـ مرحلة مجلة الطليعة (١٩٣٥ ـ ١٩٣٩)

صدر العدد الأول من «الطليعة ـ رسالة التحرر الفكري» في دمشق يوم الجمعة في ١٦ آب ١٩٣٥. تألفت هيئـة التحـريـر من: فؤاد الشايب، كامل عياد، صلاح

الدين المحايري، ميشال عفلق.

في هذا العدد أفصحت الطليعة عن اتجاه أدبها بالفقرة التالية: «تبرىء المجلة نفسها من أي التحاق إلى طائفة دون طائفة وجماعة دون جماعة وفي هذا البلد أم في سواه. وقد تجمع في وجه واحد بين متناقض الآراء ومتباين النزعات لأن هدفها الوحيد خلق جو التفكير ونشر المعرفة ما استطاعت».

وضمن اطار نقرأ العبارة التالية: «تقدم الطليعة لقرائها كل اسبوع ارقى نماذج الادب العربي الجديد وتمثل في ادبها النزعة الاجتماعية التي تسيطر اليوم على مقدرات الانتاج العالمي مهما كان نوعه».

وتحت عنوان «هم ارسلوني» كتب فؤاد الشايب: «كم تمخض هذا المشروع الادبي المتواضع في ضمير الزمن... اؤلئك الرجال آباؤنا رعايا الدولة العثمانية، وعبيد الطرة الهمايونية الذين ربونا وسياط «السفر برلك تأكل من جماجمهم».

محررو العدد الثاني من الطليعة هم سليم خياطة رئيف خوري ميشيل عفلق علي ناصر كامل عياد فؤاد الشايب. وفي زاوية «آراء حرة» كتب سليم خياطة بحثاً بعنوان «نظرات إلى الأمام». وسنفرد لسليم خياطة بحثاً كاملاً في فصل التيار الماركسي. ومعلوم ان سليم خياطة - حسبما يكتب يوسف خطار الحلو - هو صاحب المبادرة لعقد اول مؤتمر يعقده عدد من المثقفين الديموقراطيين من سوريا ولبنان للبحث في موضوع الوحدة العربية. وقد عقد هذا المؤتمر في منزل يوسف الهراوي في حوش الامراء قرب زحلة وكان من جملة الحضور عدا الماركسي سليم خياطة كامل عياد، ميشال عفلق، صلاح البيطار، مصطفى العريس، يوسف خطار الحلو احمد سري (مندوب اسكندرون) وكان المؤتمر شبه سري.

حول هذا المؤتمر كتبت الطليعة في عددها الثاني وصفحتها الاولى مقالاً بعنوان: «حول مؤتمر الكتاب ايضاً لتعزيز الثقافة العربية» جاء فيه: «... هذا الشباب المبعثر في كل قطر من الاقطار العربية، والذي يجهز على خنقه المحيط الجاحد يساعده كبار كتابه. هذا الشباب الذي لم يعد بوسعه أن يبلد شعوره ويقتل تفكيره هو بحاجة إلى الاجتماع والتعاون وتبادل الآراء وفتح طريق البحث واسعاً واضحاً حول مشروع عملية التهديم ثم البناء على اسس صحيحة... في مصر شباب متحرر لا

يؤمن بتهاويل الالقاب وخرافات الاحقاب، وفي العراق شباب لا يؤمن بالقوة إذا لم يحررها الفكر من بطشها، وفي سوريا وفي لبنان شباب لا ينفك يعض الاصابع ويعد الوقت بالثواني. . . والابعاد والصحراء بيننا وبينهم. . .».

وفي مقال آخر في الصفحة العاشرة مقال آخر «حول مؤتمر الكتاب ايضاً للدفاع عن الثقافة والفكر جاء فيه «. . . فالدفاع عن الثقافة هو الاحتفاظ بكل قوانا بالاشتراكية وايقاف الفاشستية. فالفاشستية تمنع الكفاءة وتحطرها. . . والاشتراكية هي عاطفة التقارب وارادة الاشتراك التي تنتج عنها».

العدد الثالث (أيلول ١٩٣٥) من «الطليعة - رسالة التحرير الفكري» فيه تحديد للطليعة بأنها «مجلة اسبوعية تبحث في العلم والأدب والاجتماع» مدير الادارة المسؤول رشوان العيسى.

المقال الافتتاحي للمحرر بعنوان «في سبيل الانعتاق» فيه اشارة إلى مؤتمر المثقفين ودعوة إلى عقد مؤتمر عربي عام يمثل ادب التحرير الفكري»، جاء فيه:

«. . . نحن اثنان لا ثالث لهما: غني يمشي على هياكلنا المخلوعة ليبني مجده، وفقير يخلع رقبته ويتملق سيده ليبني نسيج بطنه ويفري طفيليات فضوله. الأول لا يحب الثاني والثاني لا يحب الاول. . . قلت سابقاً واعود فأقول ان لدينا شباباً عربياً متحرراً يستطيع ان يجتمع ويتفاهم ويتكتل من مصر وفلسطين والعراق وسوريا ولبنان. . . في هذه الأقطار ورغم ما هي عليه هذه الاقطار - شباب جديد بامكانه ان يبحث معنا فكرة عقد مؤتمر عربي عام يمثل ادب التحرير الفكري».

اختفى في العدد الرابع (٩ أيلول ١٩٣٥) اسم فؤاد الشايب، الذي اضطر لاسباب خاصة ترك ادارة المجلة وبقي في التحرير حسب التسلسل: كامل عباد، صلاح الدين المحايري، ميشال عفلق[٦٣]، ومدير الادارة رشوان عيسى. وكان واضحاً ان الطليعة تباع في سوريا ولبنان والعراق وفلسطين والمهجر. وهذا نابع من ان

---

(٦٣) وبعد قليل سيترك ميشيل عفلق العمل في تحرير الطليعة. وحول هذا الموضوع كتب سامي الكيالي ان خلافاً وقع بين مؤسسي الطليعة «فقد ارادها البعض» - والكلام للكيالي - «ان تكون صوت الشيوعيين في عاصمة الامويين فانفصل عفلق والشايب عن كامل عياد وسليم خياطة». . الكيالي. . ص ٣٨٨.

تطلعـاتهـا لم تكن اقليمية او قطرية بل كانت عربية. والاديب حسب رأي الطليعة اما ان يكون بورجوازياً فيبتعد عن الشعب او ان يكون انسانياً فيندمج في الشعب وعلى «الادبـاء العـرب المعاصرين» «توحيد صفوف الادباء الشعبيين ووصل الأدب العربي الحديث بالنضال القائم للتحرير. . .».

وفي العـدد السـابـع يدعـو سليم خيـاطـة الأديب لكي يجعـل مكتبتـه للناس يستفيدون منها. ولم يعد من المستطاع ان يشتغل المرء في القضايا العامة بين كأس من الخمـر وقبلة من غادة جميلة. . . ان على الشبـاب الثـوري ان يضحي، فكـل دين جديد يغذيه دم حار فتي شهيد.

الملفت للنظـر وجـود عدد من الكتـاب العـرب غير السـوريـين واللبنانيين ممن تصدرت مقالاتهم الطليعة فالدكتور خليل البديري من القدس يتساءل في مقال تحت عنوان «هل الفاشستية وطنية»؟ ويجيب بانها وطنية زائفة وشتان ما بينها وبين الوطنية الصحيحة».

وتحت عنوان «بين الثورة والحرب» كتب ميشيل عفلق في العدد ١٧ (٢٧ كانون الاول ١٩٣٥ ص ٤) مقالاً فيما يلي اهم فقراته:

ما اسهل حيـاة المحـارب الفاشستي في ايطاليا ازاء الثوري الشيوعي. حسب الاول ان يرتدي قميصاً اسود ويمد ذراعه إلى الأمام حتى يكفي نفسه مؤونة التفكير ويحسب انه ادى كل واجبه؛ ثم يمشي اذا ما زعق بوق الحرب إلى الحبشة اوسواها، فامـا ان يمـوت فلا يخسـر شيئـاً، وامـا ان يكسب قطعـة ارض وبضـع نساء. ينطلق الفـاشستي الايطـالي إلى الحبشـة مهللاً لأنهـا تمثـل له الخـلاص، هي ظفـر له على الحالين: إذا مات خلص من حياته الجوفاء، وإذا لم يمت فهو يطمع في تحسين حياته من وراء الحرب، او على الأقل في قتل الوقت فيها، في تناسي نفسه. ولكن الثوري الشيـوعي على عكسـه، باختيـاره الثـورة فضـل التفكير على الاستسلام. لم يدخل الثورة لينسى فيها نفسه بل ليجدها. إذا طلب الموت فليس تخلصاً من حياته بل تمهيداً لحياة اجمل واسمى للآخرين اخوانه.

تلك هي الفـروق بين الحـرب والثـورة. الاولى تقتضي تخـذيـر الفكـر وتهييج الغـرائـز الحيـوانية. . . أما الثانية فتتطلب يقظة نادرة في الفكر، الفكر المبدع المنظم.

. . . هي الثورة المنظمة التي تجعل من كسلهم نشاطاً، وتبدل يأسهم من الحاضر املاً بمستقبل غير محدود، وتحول احقادهم المريرة إلى حب مثمر خصب للإنسانية المقبلة.

* * *

وهكذا نرى ان مجلة الطليعة مثلت الفكر البورجوازي الصغير التقدمي الثوري، الذي كان ينتقل تدريجياً إلى مواقع الطبقات الشعبية الكادحة، طبقتي العمال والفلاحين، ويتبنى اكثر فأكثر الفلسفة الماركسية.

وقبل ان نبدأ في شرح الجوانب المتعددة لهذا التيار ومواقفه المختلفة لا بد من الاشارة إلى ان التيارات البرجوازية الصغيرة الأخرى التي كان في عداد أضحابها امثال ميشيل عفلق وقسطنطين زريق وفؤاد الشايب شاركت في الكتابة في هذه المجلة في سنتيها الأولتين ١٩٣٥ ـ ١٩٣٦. ومعنى ذلك ان مجلة الطليعة ـ لاسيما في مرحلتها الأولى ـ كانت الصدى العملي للجبهة الفكرية التقدمية في أواسط الثلاثينات قبل بدء تصدع هذه الجبهة. ودل ذلك على ان الخطوط الفاصلة بين تيارات البرجوازية الصغيرة الاخرى التي نوهنا بها وبين التيار التقدمي السائر نحو مواقع أكثر الطبقات بؤساً واستثماراً لم تكن واضحة تماماً في الثلاثينات، مع ان عملية التمييز والفرز بدأت قبل أواسط الثلاثينات واستمرت بعد هذا التاريخ وبرزت معالمها واضحة جلية في أواسط الاربعينات بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية والقضاء على الفاشستية والنازية وبروز القوة الجبارة لأول دولة اشتراكية للعمال والفلاحين، وبعد ان بلغ تطور المجتمع حداً من النضج لا بأس به وأصبحت الطبقات والفئات الاجتماعية ولاسيما فئات البرجوازية الصغيرة واضحة المعالم بمفاهيمها واهدافها وخططها.

كشفت الطليعة في صيف ١٩٣٧ عن هدفها في خدمة الثقافة العربية بما يلي[٦٤]:

---

(٦٤) مجلة «الطليعة» (الدمشقية) ـ حزيران (٦٥) حكيم، جورج: «التنظيم الاقتصادي لسوريا» في: الطليعة، العدد الأول آذار ١٩٣٦، ص ٣.

١ - بعث كل ما هو تقدمي وجميل في أدب العرب وتاريخهم وتراثهم الفكري القديم .

٢ - لم شعث الادباء الشباب المتحررين وتشجيع الناشئين ذوي المواهب وتوجيههم في طريق الادب القومي الشعبي .

٣ - اطلاع العالم العربي على الانتاج الثقافي الاجنبي - الانساني منه ، ، المشبع بروح الديمقراطية والعطف على قضايا الشعوب الضعيفة .

ان الروح الطبقية واضحة في هذا البرنامج ، فالدعوة إلى بعث التراث العربي القديم لم تشمل إلا الجانب التقدمي منه . والادب الذي دعت إليه المجلة ليس أدباً قومياً فحسب بل شعبياً أيضاً ، أرادت المجلة ان تطلع القارىء العربي على الثقافة الاجنبية المشبعة بروح الديموقراطية والعطف على الشعوب الضعيفة ، أي انها رفضت الادب البرجوازي الاستعماري . وهكذا فاتجاه مجلة الطليعة لم يدع كما فعلت الاتجاهات الاخرى إلى أخذ كل شيء من التراث العربي القديم أو الأجنبي بل اصطفت منه كل ما هو تقدمي وانساني معاد للاستثمار والاضطهاد . وهذا ما قامت به الطليعة فعلاً عند بحثها عن التفكير المادي عند ابن خلدون مثلاً .

* * *

وسنقدم فيما يلي مواقف الطليعة من أهم القضايا المطروحة في الثلاثينات :

١ - الموقف من القضايا الاقتصادية والاجتماعية :

لم تكن مجلة الطليعة هي الوحيدة التي عبرت عما يجيش في نفوس الديموقراطيين الثوريين بل أن جرائداً أخرى ساهمت في هذا المضمار ومنها مجلة المكشوف البيروتية التي رددت أصداء الآلام الاجتماعية والاحلام التي تدغدغ صدور المعذبين .

ولكن المكشوف وغيرها من المجلات لم تقم بالدور الذي قامت به الطليعة ، فقد بدأت مجلة الطليعة منذ العدد الأول لصدورها بهجوم على «مبدأ الحرية الاقتصادية» «ومبدأ المنافسة الحرة» فقد كتب **جورج حكيم** مقالاً بعنوان **«التنظيم الاقتصادي لسوريا»** لمجلة انكليزية اخذته عنها الطليعة . ان أول قضية أراد المؤلف

ان يبرهن على صحتها «هي أن الشعب السوري لا يقدر أن يحصل على أكبر مردود لسد حاجاته أو أن يستغل موارد البلاد الاقتصادية بأحسن طريقة إلا عن طريق التنظيم الاقتصادي تنظيماً مزدوجاً (بين الاشتراكية ـ والفردية)[٦٥].

وبعد ان وصف الصناعة السورية بأنها تمر في طور انتقالي من طرق الانتاج اليدوي إلى طريقة الانتاج الآلي تحت ظل النظام الرأسمالي، بين أن هذا الانتقال لن يتم بنجاح يشبه النجاح الذي رافق الرأسمالية في البلدان الغنية بمواردها المالية.

إن الاقتصاد المنظم فقط المبني على أساس اشتراكي يضمن ـ حسب رأي المؤلف ـ نمواً مضطرداً للبلدان ذات الموارد المحدودة. أما كيفية الحصول على رأس المال لانماء الصناعة السورية فيتم عن طريق الاقتصاد المنظم الذي يستطيع ان يخلق كميات من الرساميل أكبر مما يخلق الاقتصاد الفردي. ويمكن الحصول على الرساميل من البلدان الصغيرة أو البلدان غير الاستعمارية[٦٦].

وبعد ذلك عدد مقال الطليعة مزايا التنظيم الاقتصادي بما يلي[٦٧]:

١ ـ تنظيم الصناعة يزيل التبذير الذي تفرضه المنافسة.

٢ ـ التنظيم يضطرنا لاستخدام المصانع المربحة.

٣ ـ منافسة المصنوعات الاجنبية في أسواق البلدان القريبة.

٤ ـ يتجمع رأسمال البلاد وتتطور فروع أخرى.

٥ ـ تنمو امكانية الشراء عند الجماهير.

أما كيفية تحقيق هذا التنظيم؟... فإن كاتب المقال يتخيل السبيل إليه على الشكل الآتي: سيكون هنالك فرع اشتراكي، وهذا الفرع يشمل كل المشاريع المختصة بالملكية العامة، كمصانع القوة المحركة والمنافع العامة والصناعات الكبيرة... كما ان الملكية العامة للبترول بعد ان تشتريه الحكومة وتُصفيه يخدم الصناعات الاخرى، ووضع المصارف في يد الحكومة، وإيجاد مصرف للمشاريع

---

(٦٥) حكيم جورج: «التنظيم الاقتصادي لسوريا»، في الطليعة، العدد الأولى آذار ١٩٣٦، ص ٣.

(٦٦) المصدر نفسه، ص ٦.

(٦٧) المصدر نفسه، ص ٨.

الصناعية يخدم غاية بناء قطاع اشتراكي صناعي.

هذه دعوة صريحة واضحة لتجاوز النظام الرأسمالي أو القفز من فوقه واقامة النظام الاشتراكي دون المرور بمرحلة التطور الرأسمالي أو بجزء من هذه المرحلة والسبيل إلى ذلك هو «الاقتصاد المنظم»، القائم على البرمجة والتخطيط. وفي هذا المقال دعوة إلى تأميم المنافع العامة وإلى اقامة صناعة حديثة قائمة على أساس ملكية المجتمع لهذه الصناعة. ومع أن هذا البرنامج الاقتصادي لاقامة الاشتراكية واضح ومتكامل، بالرغم من عدم تعرضه لمشكلة السلطة داخل الدولة، فإن ظروف تطبيقه في سورية والمشرق العربي في أواسط الثلاثينات مسألة فيها نظر، بسبب ضعف القوى المنتجة، التي يمكنها تحقيق هذه الآمال، وبسبب ضعف الحزب، الذي كان بامكانه قيادة هذه العملية المعقدة، هذا الحزب الذي لم يكن بالامكان تطوره إلا في ظل تطور القوى المنتجة، التي لها مصلحة في قيام الثورة الاشتراكية. ولكن وبالرغم من كل شيء فإن طرح هذه الأفكار الاشتراكية بشكل علني على صفحات مجلة الطليعة كان له دلالته الكبيرة وأثره العميق، ان سلباً أو ايجاباً ولا بد أن قسماً كبيراً من القراء اعتبره مشروعاً خيالياً وصنف صاحب المقال في عداد الحالمين كما ان العناصر الرأسمالية في ذلك الوقت أطلقت ضحكة استهزاء على هذا المقال «الخيالي» المخالف لسنة الكون حسب رأيها... ولكن... وبعد عشرين سنة من كتابة هذا المقال برهنت الوقائع صحة ما ورد فيه وبدأت البلاد تسير، وفق ما ورد فيه، شاقة الطريق للانتقال إلى الاشتراكية دون أن تعيش البلاد مختلف مراحل الرأسمالية فعلاً، بالرغم من العقبات والتراجعات الموقتة.

بعد شهرين من نشر مقال جورج حكيم نشرت الطليعة في أيار **١٩٣٦** مقالاً للاستاذ شاكر العاص بعنوان: **«نحن والثورة الصناعية»**، اعتبر متمماً للمقال السابق وموضحاً لبعض جوانبه، لاسيما مسألة الثورة الصناعية، التي يمكن ان تحدث في ظل الرأسمالية، كما يمكن أن تتم في ظل الاشتراكية. وأشار الكاتب موضحاً سبل الحصول على الاموال اللازمة لبناء الاشتراكية ووسيلة قيامها عن طريق دولة ذات محتوى جديد. ومع انه لم يذكر صراحة ما هي الطبقة التي ستقود هذه الدولة الجديدة، إلا أن القارىء يستطيع ان يفهم بسهولة ان الطبقات المستثمرة (بفتح الميم)

هي التي ستقود هذه العملية. وقد رأى المؤلف «أن القيام بثورة صناعية بأوسع معانيها تكفل وحدها الاساس المادي الذي لا بد منه لتهيئة قوى الدفاع ولرفع مستوى المعيشة». وقد سلط العاص الاضواء على الثورة الصناعية التي تختلف عن الرأسمالية ولا تمت إليها بصلة أكبر من الصلة العرضية لظهورهما معاً في زمن واحد من أزمنة التاريخ. أي ان الثورة الصناعية يمكن ان ترافق الرأسمالية كما ترافق الاشتراكية[٦٨].

ثم يتساءل العاص «هل الاحتفاظ بالنظم والعلاقات الاقتصادية القائمة في سوريا هو أسرع الطرق لأجل تحقيق الثورة الصناعية؟ . . . وأجاب عن هذا السؤال بالنفي. لأن ضآلة الرأسمال الذي تملكه الفئة، التي سيعهد إليها القيام بالثورة الصناعية لا يساعد على ذلك. كما ان الشعب السوري لم يألف في غير المدن «الاقتصاد النقدي» ولا يحسن بعد استعمال المال، أي ان الاقتصاد الطبيعي القائم على المبادلة لا يزال سائداً في بعض أقسام الريف. «الدولة وحدها هي التي تستطيع أن تستخدم مالدينا من قوى العمل وثروة طبيعية على طريقة علمية فتحقق في أقصر زمن ممكن ما تقدر ان تبلغ اليه قوانا من التقدم الصناعي. أما رأس المال اللازم لتحقيق الثورة الصناعية فيمكن في رأي المؤلف استدانته من الخارج في ظروف خاصة، تقوم به الدولة إذا أمنت العواقب. وهذه الدول يجب ألا تكون كالحكومات السابقة «حكومات موظفين»، وانما يجب «انشاء دولة حديثة من الشعب وإلى الشعب يقوم بشؤونها فئة لا تعمل بدافع الأثرة وحب الذات».

ولكن عدم افساح المجال أمام الرأسمالية، للنمو والتطور لم يكن هو الرأي الوحيد السائد ضمن التيار الديموقراطي الثوري، كما ان التيار الماركسي بالرغم من موافقته عليه لم يتبناه لاسباب تكتيكية، ولم يكن إلا عبارة عن تمنيات للمستقبل وتعبير عن شعور مبدئي وهدف استراتيجي تجاه الرأسمالية. أما الموقف الحقيقي للتيار الديموقراطي الثوري من الرأسمال الوطني، وكذلك الموقف الماركسي، فيتجلى في الحاشية التي كتبها رئيف الخوري في كتابه «حقوق الانسان» سنة ١٩٣٧ كما يلي[٦٩]

---

(٦٨) العاص، شاكر: «نحن والثورة الصناعية» - في: الطليعة، أيار ١٩٣٦، ص ٢٣٥.

(٦٩) خوري، رئيف: «حقوق الانسان، من أين والى أين المصير» - منشورات الطليعة، دمشق ١٩٣٧، ص ١٣٣.

«قد يعجب القارىء من اننا ندعو الآن إلى فسح المجال لذوي الأموال منا كي يقوموا بالمشاريع مع ما عرفه خلال الكتاب من معارضة شديدة للرأسمالية، ولا مجال للعجب. فنحن اذا عارضنا الرأسمالية، فانما نعارض الرأسمالية الاجنبية الاستعمارية القوية، التي تتمتع عندنا بالامتيازات والاحتكارات، وتستبد بنا وتنهبنا ولسنا نعارض رأسماليتنا المستغِلة الناشئة الضعيفة، لأننا في مرحلة تستوجب تعزيز رأسماليتنا وحمايتها إذ بذلك ينهض وطننا ويكتسب مناعة لكيانه ضد هجوم الاستعمار وتأسيس الدعايات المادية لتحرره الناجز في المستقبل».

كما أن بيانات الحزب الشيوعي وتصريحات قادته في سنوات ما قبل الحرب العالمية الثانية دعت إلى دعم الرأسمال الوطني وافساح المجال أمامه للنمو والتطور حتى تستطيع البلاد أن تقف على رجليها وتتمكن من نيل استقلالها[٧٠]. فقد هدف الحزب الشيوعي، رغم معارضته المبدئية للرأسمالية، إلى مشاركة الرأسمالية الوطنية اقتصادياً وسياسياً، في تشييد صرح الاستقلال، الذي لم يكن بالامكان اقامته دون جبهة وطنية تضم جميع العناصر المعادية للاستعمار. هذا بالإضافة إلى أن نسبة القوى داخل البلاد والوضع الذي عاشت فيه لم يكن يسمح برفع شعار القضاء على الرأسمالية الوطنية في ظروف ما قبل الحرب العالمية الثانية وفي ظروف الانتداب الافرنسي وسيادة العلاقات الاقطاعية.

ولكن ذلك لم يكن يعني اهمال مصالح ومطالب الفئات الشعبية بل أن العكس هو الصحيح فقد وقف التيار الديموقراطي الثوري إلى جانب الطبقات المضطهدة المستعبدة متبعاً مختلف الوسائل.

قومت الطليعة نشاط لجنة «مشروع انعاش القرى»[٧١] وهي جمعية اصلاحية للبرجوازية الصغيرة المثقفة شعارها «من الشباب المثقف إلى الفلاح» لم تدع إلى القضاء على الاقطاعية وانما دعت إلى تحسين أحوال الفلاح دون التعرض للعلاقات الاجتماعية الاقطاعية في الريف. ومع ذلك فقد أعلنت الطليعة عن تأييدها لهذا

---

(٧٠) انظر بيانات الحزب الشيوعي، وعلى سبيل المثال البيان الصادر في حزيران ١٩٣٩ بعنوان: «لتحي الجمهورية السورية العربية».

(٧١) الطليعة، نيسان ١٩٣٧، ص ٣١٠.

المشروع محاولة ابراز جوانبه الايجابية. قالت الطليعة: «ان عملاً من هذا النوع عدا ما فيه من فائدة كبرى للفلاح فهو يزرع بالقائمين فيه من الشباب روح الديموقراطية الصحيحة والوطنية الصادقة بل هو رياضة نفسية وجسدية فان احتكاك ابن المدينة ببؤس الفلاح وشقائه وهو أخوه في الوطنية والانسانية يصقل نفسه ويهذبها..».
«فالفلاح الذي لم يعتد أن يرى من أبناء المدينة غير الجابي يهينه والدركي الذي يضطهده والمرابي الذي يمتص دمه فضعفت ثقته بالمدينة ورغب عن المدينة يجب ان يرى بعد اليوم وقد بدأت الأمة نهضتها الفعلية - شباباً قطرت قلوبهم على الرحمة به والشفقة عليه لا يستغلونه ولا يحتقرونه ويفهمونه انه عنصر أساسي من عناصر الأمة لا تتحقق نهضتها الا بنهوضه ولا تتم سعادتها إلا بسعادته»[٧٢].

ولئن كانت حركة لجنة «مشروع انعاش القرى» لا تتعدى اعمالها وامكانياتها اجراء بعض التغييرات الطفيفة البسيطة دون المساس بالعلاقات الاجتماعية القائمة، فإن هذه الحركة رغم اصلاحيتها، كانت حدثاً هاماً للاتصال بين الطبقة الوسطى في المدينة والفلاحين بمختلف انواعهم. وهذا ما حدا بالطليعة إلى ابراز الجانب الايجابي لنشاط لجنة «مشروع انعاش القرى». ولكن عدم التعرض لجوهر النظام الاقطاعي دلّ على أن أقساماً من البرجوازية الصغيرة كانت لا تريد الدخول في صراع مكشوف مع الاقطاعية نظراً لضعف هذه البرجوازية ولخوفها من الارهاب الاقطاعي. ومع ان الاتجاه الفكري العام لمجلة الطليعة لم يقف بصراحة ضد العلاقات الاقطاعية في سوريا إلا انه حاول الاستفادة من كل مناسبة لفضح النظام الاستثماري بشكل عام والاشارة بين السطور إلى فساد النظام الاقطاعي.

من أمثلة وقوف التيار الديموقراطي الثوري إلى جانب الطبقات المضطهدة المستثمرة ماكتبته الطليعة في آذار سنة **١٩٣٦** معلقة على مسرحية شعرية للاستاذ رئيف خوري بعنوان: «ثورة بيدبا» بما يلي[٧٣]: «وهي جديدة خصوصاً بالنفس الذي يتمشى فيها وهو نفس الثورة الملتهب، وبالنطاق الذي تدور فيه نطاق الطبقة الفقيرة المعذبة من المجتمع. هذه المسرحية ستكون كما نرجو لها يداً حديدية من جملة الأيدي

(٧٢) المصدر نفسه.

(٧٣) الطليعة، آذار ١٩٣٦، ص ٣٩.

التي تمسك بنواصي الفقراء المعذبين أبناء **الطبقات المضطهدة** المداسة وترفع رؤوسهم من حضيض الثرى إلى سماء الحرية وهوائها الطيب».

أما كاتب المسرحية فقد أورد في مقدمته كلمة كارل ماركس المعروفة «كان هم الفلاسفة حتى اليوم أن يفسروا التاريخ، ويجب عليهم بعد اليوم أن يعملوا التاريخ» وما علينا إلا أن نأخذ كلمة ماركس هذه فنقولها عن الادباء أيضاً. فـ «ثورة بيدبا» المنتزعة من كتاب كليلة ودمنة كانت المحاولة الاولى من نوعها في الأدب العربي محاولة جريئة موفقة في الأدب، تعطينا قطعة قوية من حياة شعب مظلوم مضطهد، عرف أن يزيح عن كتفيه كابوس الظلم والاضطهاد[٧٤].

إن هذه المسرحية الشعرية التي وقفت بصراحة إلى جانب الطبقات المضطهدة دلت بوضوح على موقف «الديموقراطية الثورية» من المشكلات الاجتماعية، فيما إذا كان الامر يتعلق بقضايا تاريخية لا تمس مباشرة الطبقات المضطهدة المحلية، إذ أن معظم اقسام «الديموقراطية الثورية» كانت تتحاشى الهجوم المباشر على الاقطاعية المحلية خوفاً منها وخشية من بطشها.

ولعل من المفيد، من أجل اعطاء صورة كاملة عن مدى ادراك العناصر الواعية من التيار الديموقراطي الثوري للقضايا الاجتماعية، الاشارة إلى مقال **احسان الجابري** المنشور في الطليعة في أواخر ١٩٧٣ بعنوان: **«من أين يعيش الشعب السوري»**[٧٥] الذي دلّ على عمق في فهم العلاقات الاجتماعية. وسننشر فيما يلي اللائحة المرافقة للمقال حول تصنيف الدخل القومي لسورية ولبنان لنرى مدى عمق التفكير العلمي لصاحب المقال وكيفية فهمه لتوزع الطبقات الاجتماعية. ومع أن الجابري يصنف كثيراً من الفئات الاجتماعية في طبقة واحدة أو يمزج أحياناً أخرى بين فئة وأخرى بحيث تتداخل الفئات الاجتماعية مع بعضها، فإن تصنيفه هذا للفئات المنتجة وغير المنتجة ونسبة ما تحصل عليه من الدخل القومي يعتبر عملاً فريداً من نوعه في تلك الفترة. وهو دليل على مدى النضج الذي وصل إليه بعض ممثلي «الديموقراطية الثورية».

---

(٧٤) خوري، رئيف: «ثورة بيدبا» مسرحية شعرية ـ دمشق ١٩٣٦، ص ٤

(٧٥) الجابري، احسان: «من أين يعيش الشعب السوري» ـ في: الطليعة، كانون الأول، ١٩٣٧، ص ٨٥٤.

النسبة المئوية من مجموع السكان	عائلات الفئة المنتجة باعتبار العائلة مؤلفة من خمسة أفراد	دخل الفئة من مجموع الدخل العام بملايين الليرات الذهبية	النسبة المئوية من الدخل القومي العام
١ ـ مداخيل الفئات المنتجة			
٪٤٠	الفلاحون الذين يعيشون في ظل النظام الاقطاعي ويبلغ عدد عائلاتهم (٢٤٠) ألف عائلة ودخل العائلة السنوية (٢٠) ليرة ذهبية وسطياً .	٤,٨٠	٪١٤,١٢
٪١٤,٥	الفلاحون الاحرار الذين يتمتعون بملكية صغيرة من الاراضي وعدد عائلاتهم (٨٧) ألف عائلة ودخل العائلة الوسطي في السنة (٢٠) ليرة ذهبية	٢,٦٢	٪٧,٧٠
٪١٠	المتعلمون من أرباب الحرف والصناعات والمهن الحرة وقسم من موظفي الدولة والكتاب والمحررين ويبلغ عدد عائلاتهم (٦٠) ألف عائلة ، ومتوسط دخل العائلة السنوي (٦٠) ليرة ذهبية	٣,٦٠	٪١٠,٥٦
٪٠,٥	كبار المنتجين من مديري الاعمال ورؤساء المصالح الشعبية والحكومية الذين يتناولون دخلا باستحقاق لقاء عمل منتج ويبلغ عدد عائلاتهم (٣) آلاف عائلة متوسط دخل العائلة السنوي (٣٥٠) ليرة ذهبية .	١,٠٥	٪٣,٠٦
٪٨٥,٠	المجموع	١٥,٦٧	٪٤٦,٠٠
٢ ـ مداخيل الفئات غير المنتجة			
٪١٥	وتتألف من كبار وصغار الطفيليين من اقطاعيين ومستعمرين وأصحاب المحسوبيات والسماسرة وأصحاب الارباح المجانية الاخرى .	١٨,٣٣	٪٥٤
٪١٠٠	المجموع	٣٤,٠٠	٪١٠٠

إن **احسـان بهاء الـدين الجـابـري** صاحب مقـال «من أين يعيش الشعب السـوري» نشـر في دمشق سنـة **١٩٣٩** كراساً بعنوان : «**مسألة عمال المدن في سوريا**» تنـاول فيـه القضـايـا التـاليـة : «مسألة العمال على ضوء المعضلة الاجتماعية ـ التنظيم النقابي ـ أوضاع اليد العاملة والحركة العمالية في سوريا ـ واجباتنا حيال العمال»[٧٦].

بعـد أن عالـج الجـابري «معضلة الاستثمار»، انتقل إلى المعضلة الثانية طارحاً اياهـا بصيغة التساؤ ل : «وكيف يتسنى لشعب متأخر ان يدرك «معضلته الاجتماعية» ما دام يعيش بفكـرة «يـوم جديـد رزق جديـد» ويعـزو فقـره وبؤ س طبقته إلى تقدير ربـاني، ومـا دام مستسلماً في حل مشـاكله الاجتـماعية والسياسية لاسياده الاقطاعيين وفلولهم «المثقفين» الانتهـازيـين، الذين لا يتمتعون بالادراك الاجتماعي الصحيح ولا يتصفون بالاخلاص اللازم لقيادته؟ أليست معضلة اجتماعية ثانية للشعوب المتأخرة! (بعد الاستثمار وهو المعضلة الأولى).

صدَّر احسـان بهاء الجـابـري غلاف كتـابـه بجملة وضعهـا ضمن اطـار بارز عكست موقف التيـار الـديمـوقـراطي الثوري، في ذلك الحين، من مسألة الربط بين التحـرر القـومي والتحـرر الاجتماعي، ذلك الموقف، الذي لم يكن عابراً أو وقفاً على الجابري، بل كان تياراً قوياً يظهر هنا وهناك في فترة الثلاثينات. كتب الجابري :

«**قضيـة تحريـر الطبقـة العـاملة هي الـدعامة الرئيسية التي ترتكز عليها قضيتنا** الوطنية واهتمامنا بالطبقة العاملة هو مقياس لصدق وطنيتنا وايماننا بالعدالة الاجتماعية التي نستمد منها حجتنا بالاستقلال والسيادة القومية».

٢ ـ الموقف من المشكلات العالمية :

صدرت الطليعة في ظروف تفاقم خطر الفاشستية، عدوة الانسانية الأول، وفي زمن تهديـدهـا للبشرية باشعال نار حرب ثانية، وفي ظروف انتصار الجبهة الشعبية في

---

(٧٦) الجابري احسان بهاء الدين : «مسألة عمال المدن في سوريا» ـ نشرات متسلسلة في الاقتصاد الاجتماعي ٤ ـ ٥. دمشق ١٩٣٩، ص ٣.

فرنسا واسبانيا ومن ثم اندلاع الحرب الأهلية في اسبانيا. لهذا السبب فان الطليعة لم تأخذ أي موقف من السياسة الفرنسية والانكليزية، التي أخذت في التراجع أمام الحركات الوطنية العربية. يضاف إلى ذلك ان الطليعة مجلة شهرية ثقافية لا يمكنها اعطاء الرأي في القضايا اليومية السياسية. ويبدو من مقالات الطليعة ان كتابها لم يكونوا في ذلك الوقت معادين للولايات المتحدة، بل على العكس فهناك احترام للولايات المتحدة وتقدير للجامعة الاميركية وأعمالها، في وقت لم تكن الامبريالية الاميركية قد تجلت واضحة في الشرق العربي، كما حدث بعد الحرب العالمية الثانية.

رأت الطليعة أن العدو الأول للحركة الوطنية العربية وللإنسانية هو النازية في المانيا والفاشستية في إيطاليا، فوجهت نار انتقاداتها اليهما وفتحت صدرها لكل نقد يتعلق بالفاشستية، فتحت عنوان «وحوش النازي يغتالون خصومهم»[٧٧] نشرت الطليعة في أواخر ١٩٣٥ مقالاً لعامل المعادن الألماني جون شير الذي اغتاله النازي في السجن، لأنه هاجم سياسة العداء للسوفييت والسامية وانتقد نظرية الاجناس. كما عربت الطليعة في العدد نفسه مقالاً حول «النازي والعمال».

وبعد ذلك بشهرين نشرت الطليعة في آذار ١٩٣٦ مقالاً بعنوان «العرقية الهتلرية في مبادئها»[٧٨] ردت فيه على العنصرية النازية وعلى كتاب «كفاحي» لهتلر الذي جاء فيه «أن العنصر الأعلى يسود العنصر الاسفل، وان الفروق بين العناصر السفلى وبين عناصرنا العليا هي أعظم مما بين الانسان الذي لا يزال في أسفل السلم البشري وبين القرد في الطور الأعلى من تطوره». وتضيف الطليعة قائلة «ومن المعلوم أن هتلر وضع العرب في الدرجة الزابعة عشرة أي في أسفل السلم بين القرود».

ثم ترد الطليعة على جريدة «لونكشير بيوباختر» «التي يحررها روزنبرغ الفيلسوف المزيف وبوق الدعاية النازية الاستعمارية» والتي «تعتز علنا في أحد اعدادها في ٢٧ أيلول سنة ١٩٣٧ بانتشار النازية في الاقطار العربية وبتأليف فرقة قمصان خضراء فاشستية»، ترد قائلة: «إباؤنا واعتزازنا القومي لا يعنيان مطلقاً اننا غير

---

(٧٧) الطليعة، ٢٠ كانون الأول ١٩٣٥ ص ٢٢ ومايليها.

(٧٨) الطليعة، آذار ١٩٣٦ ص ٣٨ ومايليها.

مستعدين للتعاون على حل مشاكلنا ومشاكل العالم مع الأمم الديموقراطية الحقة أي الأمم التي تعترف بحريتنا وتعاملنا على أساس الانصاف»[79].

تعرض الديمقراطي الثوري الماركسي رئيف خوري في كتابه «حقوق الانسان» سنة ١٩٣٧ للفاشستية واعتبر طريقها يعني الموت بينما يعني طريق الاشتراكية الحياة. وبين ان المخدوعين بالدكتاتورية في بلادنا فئتان: (فئة المغشوشين وفئة مأجوري الديكتاتورية الاستعمارية الاجنبية - فئة مأجوري الفاشستية الايطالية والنازية الالمانية الذين يريدون تسليمنا إلى أوحش ضرب من ضروب الاستعمار»[80] ولم ينس المؤلف رغم هجومه على الفاشستية وهي أشد أنواع البرجوازية فتكاً، وشراسة «البرجوازية» التي «تعيث فساداً في مستعمراتها ولاتعرف فيها الديمقراطية» وأضاف أن «علاجنا هو الديمقراطية الصحيحة».

يتبين من ذلك أن الديمقراطي الثوري الماركسي رئيف خوري وجه نار نقده في الدرجة الأولى للفاشستية، دون أن ينسى أو يهمل مظالم الاستعماريين الانكليزي والافرنسي، وقطع بذلك الطريق على من كانوا يدعون عن جهل أو عمالة، إلى محالفة الفاشستية عدوة الشعوب بحجة «مقاومتها» أو بالأصح تنافسها مع الاستعماريين الانكليزي والفرنسي للحلول مكانها والاستمرار في نهب الشعوب بصورة أشرس وأكثر بربرية. ولكن ازدياد حدة الهجوم الفاشستي عل الشعوب اضطر انصار الاتجاه الديمقراطي الثوري إلى تشديد النضال بحزم أشد ضد الفاشستية مع غض الطرف عن المستعمرين الانكليز والفرنسيين وتجريحهم بشكل لا يؤد إلى افساد قيام الجبهة المعادية للفاشستية.

خصصت الطليعة عدداً خاصاً لنشر وثائق مؤتمر مكافحة الفاشستية السوري اللبناني الأول المنعقد في بيروت في ٦ و٧ أيار ١٩٣٩. «فالفاشستية»، كما قالت الطليعة، «لم تعد نظرية أو مبدأ يمكن للعربي النقاش فيه - فيحبذه أو يقبحه، حسب اهوائه أو معلوماته - كلا بل الفاشستية تعني خطراً محدقاً بالبلاد العربية بعد ان ظهرت

---

(٧٩) الطليعة، تشرين الأول ١٩٣٧. ص ٦٣٨.

(٨٠) خوري رئيف، حقوق الانسان . . . ، ص ١٢٦.

مطامع الدوتشي والفوهرر. **فهما يتطلعان إلى الشرق** العربي بعيون محملقة تريد ابتلاعه»[٨١].

ثم حددت افتتاحية الطليعة الموقف من فرنسا وانكلترا على الوجه التالي: «**إذا** نحن دعونا إلى توحيد الصفوف ومقاومة الخطر الفاشستي الذي يلوح لنا في الأفق القريب فهذا لا يعني اننا راضون عن أعمال الحكومتين الفرنسية والانكليزية في البلاد العربية كلا فان الديموقراطيين الحقيقيين في كل من فرنسا وانكلترا غير راضين عن سياسة حكومتهما في الشرق العربي وهم دائماً يرفعون أصواتهم مطالبين بإنصاف الشعوب العربية، رغم ان هذه الاصوات لم تنلنا حقوقنا وكل ما نصبو إليه وما ذلك إلا لأن من **يديرون دفة السياسة الاستعمارية** هم بعيدون عن الديموقراطية كل البعد ويخدمون مآرب الفاشستية». «ان الديموقراطية الصحيحة التي ندعو اليها ونسعى في سبيل توطيدها لتتبرأ من سياسة الاستعمار الغاشمة، سياسة البطش والقوة والافقار كما هي الحالة في فلسطين الذبيحة منذ اندلاع لهب الثورة عام **١٩٣٦** للآن». «ان الطليعة كانت وما تزال تكافح كل ألوان العسف والضغط والارهاق وهي انها تدعو الادباء وحملة الأقلام أكثر من كل يوم مضى إلى مكافحة الظلم والاستعمار ومكافحة الفاشستية أعظم انواعه».

يتجلى موقف التيار الديموقراطي الثوري من القضايا الدولية ومن الصراع الدائر على اعتاب الحرب العالمية الثانية من تقرير اللجنة التحضيرية لمؤتمر مكافحة الفاشستية في أيار **١٩٣٩**. جاء في تقرير اللجنة «يظهر لنا لأول وهلة في العالم اليوم جبهتان كبيرتان متقابلتان:

جبهة الشعوب الواقعة في قبضة الاستعمار - الشعوب المستضعفة التي تسعى إلى طرح قيودها والتحرر.

وجبهة الدول الاستعمارية التي تتحكم بمقدرات الشعوب المغلوبة على أمرها.

ولكن يظهر لنا أيضا (وهذا ما ينساه بعضنا) ان جبهة الدول الاستعمارية نفسها تقع في جانبين.

---

(٨١) الطليعة، أيار ١٩٣٩، ص ٢٤٧.

فهنـاك جانب الـدول **الاستعـارية التي** يسـود في داخلها النظام الديموقراطي وجـانب الـدول الاستعارية التي تسودها الدكتاتورية الفاشستية ونستعمل الفاشستية لنعني بها النـازيـة أيضـاً». ثم يؤكـد التقرير ان الحيـاد في الصـراع بين الفـاشستيـة والديموقراطية مهزلة و«نحن في جبهة الديوقراطية».

ويلاحظ بوضوح اهمال التقرير ـ عن عمد ولاسباب تاكتيكية ـ جبهة الاتحاد السوفياتي.

ويجب ألا يتبادر إلى الذهن ان التيار الديموقراطي الثوري في سورية ولبنان هو تيار ذو صبغة محلية لا ينظر إلى أرجاء الوطن العربي الكبير. فالعكس هو الصحيح. فالكلمات والمقالات التي ألقيت في المؤتمر لا تقصر ابحاثها على سورية ولبنان فحسب بل تتعـداهما إلى سائـر الأقطـار العربية. ففي كلمة الافتتاح التي ألقاها رئيس عصبة مكـافحـة الفـاشستيـة انطـون ثابت اشـارة واضحة إلى ذلك: «انني إذا أحيي البلاد العربية الشقيقة وفلسطين العربية المناضلة، أعلن أسف مؤتمرنا الذي لم تمثل فيه بقية الاقطـار الشقيقـة، فنحن واثقـون من مشاطرتهم ايانا الرأي، لأننا نسعى إلى هدف واحد: الاستقلال والحرية...».

وتمنى الخطيب، أن يرى في المؤتمر القادم بين ممثلي الاقطار العربية الشقيقة، ممثلي فلسطين العربية الظافرة. وهذا المؤتمر هو الخطوة الأولى في سبيل تفاهم وتعاون أوسع وأعم بين جميع البلاد العربية.

وقفت الطليعة أيضاً إلى جانب اسبانيا الجمهورية دون تحفظ. ففضحت كتيباً مزيفـاً بالصـور الفتـوغرافية عن الأعمال الوحشية التي يقوم بها الجمهوريون في اسبانيا الحمراء. وعلقت الطليعة بسخرية على اصدار هذا الكتاب قائلة: «فهو كما يبدو نفثة من سموم الدعاية الفاشستية التي تعمل وكالاتها في الشرق بنشاط باهر فالكتيب صادر من مدينة حلب وقد وزع في البلاد العربية مجاناً ـ إيماناً واحتساباً لوجه الله»[٨٢].

وفي العـدد نفسـه دعت الطليعـة إلى قراءة كتـاب «خمسـة أشهـر في اسبـانيـا الجمهـوريـة» من «مـذكـرات عربي ناضـل في الجيش الاممي في سبيـل الـدفـاع عن

(٨٢) الطليعة، تشرين الثاني ١٩٣٧، ص ٧٤٦.

الديموراطية وحرية الشعب الاسباني بل «حرية العرب، المهددة من الطغيان الفاشستي» وجاء في كتاب صاحب المذكرات العربي قوله «انني دافعت عن حرية العرب في جبهة مدريد»[83] ودل ذلك على اتساع الآفاق الأممية لهذا العربي وعلى مدى فهمه العميق لطبيعة المعركة الدائرة بين الاشتراكية والتقدم من جهة وبين الامبريالية الممثلة في الفاشستية من جهة أخرى، كما دل ذلك على فهمه لوحدة كفاح الشعوب في سائر انحاء المعمورة وان أي نصر يحرزه شعب ما في نضاله ضد الاستعباد هو في الوقت نفسه نصر لشعب آخر يبعد عنه مئات بل آلاف الكيلومترات.

وهكذا فقد شنت الطليعة والاتجاه الديموقراطي الثوري حرباً ضروساً لا هوادة فيها ضد الفاشستية، بلغت أوجها اثناء انعقاد «مؤتمر مكافحة الفاشستية السوري اللبناني الأول» في بيروت أيار ١٩٣٩ وكانت هذه الحملة ضرورية وصعبة في وقت اعتقد فيه، خطأ، قسم من المثقفين العرب، بأن انتصار الفاشستية سيجلب الحرية للأقطار العربية، متناسين طبيعة الفاشستية العدوانية، وغير مدركين بأنها أشد اشكال الامبريالية شراسة ووحشية ولم تكن المهمة الملقاة على عاتق القوى التقدمية العالمية بإقامة جبهة موحدة عالمية معادية للفاشستية، سهلة التحقيق في الأقطار العربية، الرازحة بمعظمها تحت نير الاستعمارين الانكليزي والافرنسي، والتي لم تذق مرارة الاستعباد النازي او الاضطهاد الفاشستي. وكانت ظروف المعركة الناشبة على أعتاب الحرب العالمية الثانية، ومحاولة شق المعسكر الامبريالي العالمي، والدفاع عن أول دولة اشتراكية للعمال والفلاحين، واقامة جبهة موحدة عالمية معادية للفاشستية، هي التي أملت هذه السياسة.

في ظل هذه الظروف الصعبة المعقدة استطاع التيار الديموقراطي الثوري، وحليفه التيار الماركسي، من تجاوز المشكلة بسلام ومن تحقيق انتصارات ملحوظة على الفاشستية ومن كسب قسم كبير من الرأي العام العربي وتوضيح طبيعة الفاشستية امامه وشرح ظروف المعركة العالمية بين الفاشستية واعدائها وهذا النصر على النطاق

---

(٨٣) المصدر نفسه، ٧٩٣. وثمة كتاب آخر لمؤلف آخر هو خالد بكداش صدر في دمشق سنة ١٩٣٧ بعنوان: «العرب والحرب الاهلية في اسبانيا».

الشعبي لم يتم الحصول عليه إلا بعد معركة ضارية مع العناصر الفاشستية الداخلية والخارجية.

وقد ادى النضال ضد الفاشستية وفضح جرائمها في ألمانيا وايطاليا واسبانيا وفي كل مكان وجدت فيه إلى ترسيخ جذور الحركة الديموقراطية العامة في سورية ولبنان وإلى اكتساب هذه الحركة اصالة جديدة، نشأت وترعرعت في معمعان النضال ضد العنصرية والفاشستية وفي خضم الكفاح في سبيل الحصول على الاستقلال الوطني.

هذه العملية بمجموعها ساهمت أيضاً في دفع اعداد كبيرة من انصار التيار الديموقراطي الثوري ومن عناصر شعبية أخرى، نحو مواقع الماركسية، حيث تصلب عود هذه العناصر في نار الصراع ضد الفاشستية، لاسيما اثناء الحرب العالمية الثانية. كما اثرت هذه العملة بدورها في الحركة الوطنية بمجموعها وأضفت عليها طابعاً ديموقراطياً عاماً، وزادت من أصالة هذا الطابع الذي ترسخت جذوره أيام النضال ضد الانتداب الافرنسي.

ولعل من المفيد اجراء مقارنة بين التيار اليساري داخل الحركة الوطنية في سورية ولبنان ومثيله في مصر. فهنا في سورية ولبنان رسخت جذور هذا التيار وأثر بشكل فعال في مجموع الحركة الوطنية وأضفى عليها طابعاً ديموراطياً. في حين لم يستطع التيار اليساري داخل الحركة الوطنية المصرية أن يقوم، لأسباب لا مجال لذكرها هنا بالدور نفسه، الذي قام به التيار اليساري في سوريا. وبالإضافة إلى قوة الاصوات الداعية للتفاهم مع الفاشستية في مصر، فإنها لم تواجه المقاومة العنيفة التي لاقتها في سورية ولبنان. وهذا ما أضعف من ديموقراطية الحركة الوطنية في مصر بسبب ضعف جناحها اليساري قبل الحرب الثانية. وكان ذلك أحد الخصائص المميزة لكل من الحركتين الوطنيتين في القطرين السوري والمصري.

٣ ـ الموقف من التراث الثوري العربي والعالمي

كان من الطبيعي ان يتفاعل التيار الديموقراطي الثوري مع الاتجاهات التقدمية العربية والعالمية، وكان ذلك أحد اسباب قوة هذا التيار ومصدراً من مصادر حيويته وفاعليته.

آ ـ **الاعتماد على الفكر الثوري الاسلامي**:

أورد الديموقراطي الثوري رئيف خوري، اثناء تقديم روايته «مسرحية بيدبا» عدة آيات قرآنية من سورة القصص[٨٤] عبرت عن مضمون مسرحيته وهدفها.

«إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين، ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين. ونمكن لهم في الأرض ونُري فرعون وهمان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون».

«ان هذه الآيات البينات ـ والكلام لرئيف خوري ـ دليل قوي على ظلم المستثمرين المتجبرين وهي في الوقت نفسه تنبىء المستضعفين المضطهدين بالخلاص من الظلم ورفع نير الاضطهاد وباستلامهمَ للسلطة. وهنا اراد الديموقراطي الثوري الماركسي رئيف خوري أن يصل بين تراثنا الثوري القديم وبين الفكر الثوري الحديث المنادي بالقضاء على استغلال الانسان للإنسان وتطهير البشرية من رجس المستغلين واعلاء كلمة المستثمَرين.

وقد أشار رئيف خوري فيما بعد في كتابه «الفكر العربي الحديث» إلى التفاعل بين التيارين البرجوازي التقدمي الحديث والعربي الثوري القديم وإلى رجوع «هؤلاء الافذاذ من آبائنا (أي من الأدباء البرجوازيين التقدميين ـ المؤلف) إلى قديمنا وتعلموا منه، وأطلوا على العالم وتفقهوا، ونظروا في أحوالنا وشؤوننا»[٨٥].

وعلى هذا المنوال سار التيار الديموقراطي الثوري في محاولة تحقيق التفاعل بين التيار الثوري العربي القديم والتيار الثوري الديموقراطي الحديث. انهم كانوا يقتبسون من القرآن الكريم الآيات النارية التي تتوقد غضباً على العتاة الجبارين وترن بالنداء إلى الثورة. كما رجعوا إلى سيرة الرسول وإلى الحياة في عهد الخلفاء الراشدين الاوائل، التي تكره الملكية الوراثية المطلقة ويستشم منها روح الملكية الجماعية للأرض وبذور بعض المبادىء الاشتراكية. ـ وهذا الحكم ينطبق على التيارين البرجوازي التقدمي والديموقراطي الثوري الماركسي ـ.

---

(٨٤) خوري... **ثورة بيدبا**....، ص٢.

(٨٥) خوري... الفكر العربي الحديث...، ص ١٥٤.

ب ـ الأخذ من معين الفكر البورجوازي التقدمي :

لم يقتصر التيار الديموقراطي الثوري في سياسته على اجراء التفاعل بين التيارين العربي الثوري والاشتراكي ، بل اعتمد ايضاً ، مثل التيار الماركسي النقي ، على الفكر البرجوازي العالمي التقدمي ووصله بالفكر العربي التقدمي القديم والحديث وبالفكر الاشتراكي .

فيوسف ابراهيم يزبك يقدم كتابه « ١٤ تموز ـ مدرسة لكل شعب يطلب الحرية وعبرة لكل حكومة تريد العدل »(٨٦) في حزيران ١٩٣٦ ، تكريماً لذكرى الابطال الذين عملوا أو سعوا وفكروا وكتبوا لتجديد ١٤ تموز، وهم :

طانيوس شاهين في جبل لبنان

ابراهيم هنانو في سوريا

مكسيم غوركي في العالم.

وكذلك لجنود ١٤ تموز في مختلف اقطارهم ، الذين سقطوا في ميادين الشرف مجهولين ومنسيين .

وفي كتاب حقوق الانسان لرئيف الخوري أقوال بارزة لعمر ابن الخطاب ولامارتين وغوركي تدعو إلى حقوق الانسان ، وان تسلسل الفصول في شرح حقوق الانسان تعبّر عن وجهة نظر التيار الديموقراطي الثوري ومدى فهمه العميق لتطور تاريخ البشرية .

فهناك فصل عن «الانسان بلا حقوق» في عهد «طغيان اسياد الكهنوت والاقطاع والملوك» باسم المجتمع العبودي والاقطاعي . ثم يأتي فصل «الانسان بحقوق سياسية ومدنية» في زمن «الثورات البورجوازية» . وبعد لك فصل «الانسان بأوسع حقوقه» في «عصر الاشتراكية» . وفي حين تهمل الديموقراطية البرجوازية حق الانسان الاقتصادي توليه الديموقراطية الاشتراكية اهمية كبيرة . والبرجوازية ترمي أولاً إلى فرض ديكتاتوريتها الطبقية المطلقة . أما البروليتاريا فهي في نضالها نصيرة

---

(٨٦) يزبك ، يوسف ابراهيم : «١٤ تموز ، مدرسة لكل شعب يطلب الحرية ، وعبرة لكل حكومة تريد العدل» ـ منشورات مجلة الطليعة . بيروت ١٩٣٦ . . . والمقصود بمدرسة ١٤ تموز الثورة الفرنسية لعام ١٧٨٩ ، التي دكت حصون الاقطاعية .

الشعوب المستعمرة وحاملة **لواء أعظم ديموقراطية**، الديموقراطية البروليتارية في سدس الكرة الأرضية.

ان التفصيل في هذه الامور هام وقيّم لتبيان الفرق الجوهري بين كل من الديموقراطيتين البرجوازية والاشتراكية، في وقت حاول فيه المؤلفون البرجوازيون الحديث عن حقوق الانسان بدون تحديد وبدون اظهار محتواها الطبقي. وكتاب رئيف بمجموعه يعتمد في الواقع على هذه المعطية محاولاً شرحها وتوضيحها.

ورغم نظرة المؤلف البعيدة الشاملة إلى العالم وما يتمخض عنه من حركات بركانية وفهم دقيق لتلك الحركات ونتائجها فقد وضع، كما ذكر مقدم الكتاب رئيس تحرير الطليعة، نصب عينيه البلاد العربية ومصيرها واشار إلى أفضل الطرق الممكن اتباعها كي تعيش هذه الاقطار العربية مستقلة موفورة الكرامة تدير شؤونها بنفسها ويستطرد رئيس تحرير الطليعة خاتماً مقدمة كتاب حقوق الانسان بما يلي: «وفي بعض اجزاء بلادنا العزيزة يعامل العربي معاملة تخجل منها القرون الوسطى» ثم نادى الأدباء قائلاً: «عليكم أيها الادباء تقع مسؤولية كبرى - مسؤولية مجابهة الحقائق والدفاع عن الثقافة العربية الديمقراطية، الدفاع عن الانسان العربي الذي يعيش في بلادنا بلا حقوق...».

بمناسبة الذكرى المئة والخمسين لنشوب الثورة الفرنسية اصدرت الطليعة في **١٩٣٩ عدداً خاصاً عن الثورة الافرنسية**[٨٧] هدفت من وراء اصداره الوصول إلى غايتين:

١ - الهجوم على الفاشية وتبيان تناقضها الجوهري مع مبادىء الثورة الفرنسية وتذكير القارىء بالتقاليد الثورية الفرنسية بهدف تحقيق الجبهة المعادية للفاشستية وتقريب الجماهير من فرنسا ثورة ١٧٨٩ وابعادها عن المانيا الهتلرية.

٢ - ترسيخ اسس الديموقراطية وشرح حوادث الثورة الافرنسية من وجهة نظر ماركسية قلما تعرض لها، حتى الآن أي مؤرخ عربي، وابراز الصراع داخل القوى المحركة للثورة الفرنسية، والوقوف إلى جانب القوى الديموراطية الشعبية والقاء الاضواء على دور الجماهير الشعبية في الثورة ثم اجراء المقارنة بين الثورة البرجوازية الافرنسية والثورة الاشتراكية الروسية.

---

(٨٧) الطليعة، تموز ١٩٣٩.

جـ ـ الاخذ من الفكر الماركسي :

بالرغم من ان التيار الديموقراطي الثوري الذي وجد مجالاً لنشر افكاره على صفحات مجلة الطليعة، لم يتبنَّ الماركسية ـ اللينينية بشكل صريح سافر، بل تبناها بشكل غير مباشر وبالتلميح دون التصريح او بالتصريح الحذر، فان الاتجاه الماركسي كان واضحاً عند القسم الأكبر من انصار هذا التيار. وقد نشرت ابحاث كثيرة عن المادية الديالكتيكية والتاريخية، وعن الحياة في الاتحاد السوفياتي. ان احد اسباب عدم تبني التيار الديموقراطي الثوري للماركسية بشكل علني صريح لا غموض فيه، هو نقص المصادر الماركسية المترجمة إلى العربية في ذلك الحين، وهذا ما حرم عدداً كبيراً ممن لا يجيدون لغة اجنبية من الاطلاع على التراث الماركسي. وثمة سبب آخر هام ألا وهو خوف هذه الفئة البرجوازية الصغيرة التقدمية من تبني الاشتراكية بشكل صريح علني امام الجماهير الواقعة تحت تأثيرات مختلفة للقوى الامبريالية والرجعية الداخلية، ومثالنا على ذلك ما ذكره الكاتب الاجتماعي التقدمي المعروف سلامة موسى سنة ١٩٥٧ من الخوف الذي استحوذ على افئدة قسم من التقدميين البرجوازيين الصغار حتى بعد الحرب العالمية الثانية، هذا ما أعلنه بصراحة سلامة موسى الذي قال[٨٨]:

«ومع اني في كتابي «هؤلاء علموني» قد ذكرت عشرين من الأدباء والعلماء والمفكرين الذين وجهوا نشاطي الذهني وربوا نفسي فإني لم اذكر معهم كارل ماركس داعية الاشتراكية. والآن (١٩٥٧) احب ان اعترف انه ليس في العالم من تأثرت به وتربيت عليه مثل كارل ماركس، وانما كنت اتفادى ذكر اسمه خشية الاتهام بالشيوعية».

ومع ذلك فإن قسماً من التيار الديموقراطي الثوري طرح الخوف جانباً ونشر عدة مقالات تبنت الماركسية بشكل صريح.

د ـ ابراز خيوط الاتصال بين الفكر العربي التقدمي والماركسية :

سعى التيار الديموقراطي الثوري إلى ايجاد صلة بين الفكر العربي التقدمي والماركسية، وتسليط الاضواء على الجسور التي تربط التراث القومي بالماركسية.

---

(٨٨) موسى، سلامة: «تربية سلامة موسى» ـ القاهرة ١٩٥٨، ص ٢٦٩.

فنشـرت الطليعـة في أوائـل سنـة **١٩٣٧** مقالاً بعنوان «عبد الرحمن بن خلدون ـ أول فيلسـوف عربي يحاول تفسـير التـاريـخ ماديـاً . . «مقدمة المقدمة، هي طريقة علمية لتفهم العـوارض الاجتـماعيـة»[٨٩] جاء في المقـال: «ابن خلدون فيلسـوف العـرب في القـرن الثـالث عشر هو قريب جداً من ارنست هيجل من ناحية نظريته الفلسفية ومن ماركس من ناحيـة المـاديـة وصـراع الطبقـات ايضاً». وبعد ان أورد المقال النصوص المختلفـة لدعم ما قالـه اضـاف: «ان هذه الاسطر القليلة في باب الاقتصاد السياسي التي أتى بها فيلسوفنا العربي الكبير هي قريبة جداً من موضوع «القيمة الزائدة» الذي اكتشفه كارل ماركس، أمـا الفـرق ما بين الاثنـين فهـو ان ابن خلدون لم يوضـح كيفية الحصول على «الزيادة» بينما اوضحها ماركس تماماً. وسبب ذلك عدم وجود رأسمالية صنـاعيـة وطبقـة عمال في عصـر ابن خلدون ووجـودهـا كاملة ناضجة في عصر كارل ماركس»، ثـم يستمر المقال في إيراد أوجه التشابه بين أبن خلدون ومؤلفات ماركس، وخلص في النهـايـة إلى القـول بأن «فلسفـة ابن خلدون هي فلسفة اجتماعية مادية ما دامت تضـع البيئـة والظـروف الاقتصـاديـة أسـاسـاً لمعالجة شؤون «العمران البشري الاجتماع الانساني».

ان محاولـة ايجـاد خيـوط الـترابـط بين الفكر المادي الماركسي مع مراعاة ظروف نشوء كل منهما، لا تعبر فقط عن الحقيقة وعن كشف بعض جوانب تاريخنا الغامضة، التي طالما سعت الرجعية الداخلية والخارجية لطمسها أو تحريفها، ولا تعبر عن الرغبة في الوصول إلى الحقائق التاريخية فحسب، بل كانت أيضاً سلاحاً فكرياً في يد القوى التقـدميـة لمقـارعـة الرجعية التي تحاول الايهام بأن التراث العربي بمجمله يقف إلى جانبهـا ويؤيـد نظـريتهـا، أي نظـريـة الاستعبـاد والاستغلال والظلم والخنوع. ان التـاريـخ العـربي مليء بالجـوانب الناصعة المؤيدة للحق المعادية للظلم والاستعباد. وكـانت الطليعـة في أعـوام **١٩٣٦ ـ ١٩٣٩** ممن سعى إلى محاولة كشف النقـاب عن الفكر المادي في التراث العربي والقاء الضوء على التراث العربي التقدمي.

---

(٨٩) صدقي، نجاتي: «عبد الرحمن بن خلدون أول فيلسوف عربي يحاول تفسير التاريخ ماديا» ـ في: الطليعة كانون الثاني ١٩٣٧، ص ١٧ ومايليها.

هـ ـ احياء التاريخ العربي وكتابته من جديد:

اهتم التيار الديموقراطي الثوري باحياء التاريخ العربي الحديث وكتابته من جديد وبروح جديدة. فبعد ان نشر يوسف ابراهيم يزبك سنة ١٩٣٥ «النفط مستعبد الشعوب»، الف في مطلع ١٩٣٦ كتاباً جديداً عن «طانيوس شاهين البطل الشعبي اللبناني الذي قاد ثورة الفلاحين في كسروان على المشائخ من آل الخازن سنة ١٨٥٨» وعلقت الطليعة على الكتاب والثورة بما يلي: «كانت اول ثورة من نوعها في العالم العربي، قام بها اللبنانيون على الامراء والمشائخ لتحرير جبلهم من الحكم الاقطاعي. وكان طانيوس شاهين في بدء شبابه «مكارياً» ثم «بيطاراً»، وقد نادى الفلاحون بزعامته عليهم في «الغضبة الشعبية الكبرى» التي اباحت املاك المشائخ للفلاحين... ويؤكد الاستاذ يزبك في كتابه هذا ان المذابح الدينية المعروفة «بحركة سنة الستين» والتي غذتها الدول الاستعمارية بالمال والتحريض كانت نتيجة ثورة الفلاحين على الاقطاعيين، فقد خشي بعض الامراء والمشائخ عواقبها فقلبوها إلى فتنة دينية وهي نظرية جديدة في درس تاريخ لبنان السياسي على ضوء الحقيقة والجرد»[٩٠].

فكتاب طانيوس شاهين، معلن الجمهورية اللبنانية سنة ١٨٥٨ يقدم صفحة مجهولة من تاريخ المسألة الشرقية تفضح دسائس قناصل الدول الاجنبية منذ أن ذرّ الاستعمار قرنه في هذه البلاد. وثورة شاهين هي أول ثورة شعبية في بلاد العرب: تمرد فيها اللبناني على حكامه الاقطاعيين وناضلت فيها العامة في سبيل الرغيف والحرية».

هذا ما كتبته الطليعة سنة ١٩٣٦ تعليقاً وعرضاً لكتاب طانيوس شاهين. والطليعة هنا وقفت بصراحة ضد الاقطاعية ورأت بأن الاقطاعية عدو للفلاحين وبأن توزيع أراضي الاقطاعيين أمرٌ مشروع. هذا الموقف المعادي للاقطاعية بصراحة الذي تبنته الطليعة في تعليقها على ثورة طانيوس شاهين الفلاحية، اختلف عن موقفها عندما علقت على أعمال لجنة «مشروع انعاش الريف»، ولم تنتقد الاقطاعية بشكل مباشر. وهذا دليل على ان تيار الطليعة الفكري معاد للإقطاعية. إلا أنه خائف متردد، لا يرغب في فتح جبهات كثيرة متعددة. وهو يحاول الهجوم على الاقطاعية

(٩٠) الطليعة، آذار ١٩٣٦، ص ٤٩.

بشكل عام ومن خلال التاريخ، دون ان يتجاسر علناً على مهاجمة الاقطاعية المحلية وفضح عيوبها ومخازيها وجرائمها التي ترتكبها في كل يوم وساعة.

بالإضافة إلى ذلك قامت الطليعة ايضاً باحياء ذكرى الرواد العرب الاوائل ايام النهضة العربية ممن اتخذوا موقفاً اجتماعياً طبقياً معيناً إلى جانب المستثمَرين. فنشرت في أواخر سنة ١٩٣٦ عدة مقالات تحت عنوان «صفحات خالدة لكبار احرار الفكر العربي» وكان احد هذه المقالات بعنوان «الدكتور شميل والاشتراكية»، «اهم ما كتبه فيلسوفنا العربي الكبير في سنة ١٩٠٨ لشرح النظريات الاشتراكية والدفاع عنها» ودلت الطليعة بذلك على انها وريثة التيار الديموقراطي الثوري الذي مثله فرح انطون والدكتور شبلي شميل، داخل الحركة الوطنية قبل الحرب العالمية الاولى.

وعلينا هنا ألا ننسى **بندلي جوزي المقدسي الأصل**، الذي عمل في جامعة باكو وطبع سنة ١٩٢٨ كتاب «**بعض الحركات الفكرية في الاسلام**». فبندلي يهدي كتابه إلى الجماهير العربية الشابة ويسعى لاحياء الجوانب الايجابية الثورية في تاريخنا العربي واضعاً بذلك اللبنات الاولى للمؤرخين العرب التقدميين الساعين إلى فهم التاريخ العربي فهماً علمياً صحيحاً بعيداً عن الزيف والتزوير واهواء الملوك، من أجل خدمة الحقيقة والتاريخ العربي ذاته. وقد اثارت الرجعية في اوائل الثلاثينات الزوابع في وجه كتاب جوزي وقامت بمنعه من التداول في الأسواق.

٤ ـ الموقف من الوحدة العربية

أكثر من مرة أشرنا في هذا الكتاب إلى أنَّ سليم خياطة قد ترأس اجتماعاً (مؤتمراً) في زحلة عام ١٩٣٤ لبحث قضية الوحدة العربية، وكان من الحضور عدد من كتاب الطليعة. وقد صدر عن ذلك الاجتماع بيان يشرح وجهة نظر المثقفين العرب التقدميين في الوحدة.

هذا الاتجاه نلمسه في الطليعة وبخاصة في مقالة رئيف خوري «القومية العربية الجامعة طريق الخلاص». قسّم رئيف خوري مقالته المنشورة في كانون الثاني ١٩٣٧ إلى سبعة اقسام ننقل فيما يلي اهم مقاطعها:

«١ ـ عبرة التاريخ . . . **لا استقلال للعرب إلا باتحادهم**.

٢ ـ الاستقلال الحقيقي مقياسه: سعادة الهيئات العاملة المنتجة.

٣ ـ الاتحاد العربي المقبل . . . لا بد له ان يكون وحدة في الدفاع والتشريع الجمركي والنقد، لا بد له ان يكون خالياً من الحواجز الجمركية، غير الطبيعية، المقامة بين اقطاره الآن.

٤ ـ عوامل ضعف القومية . . . العصبيات الصغيرة السامة ألتي نعرفها لشهرة امرها: كالنعرة الطائفية، الوطنية الاقليمية أو البلدية، التحزب العائلي، والتحزب العنصري، الطمع الشخصي الخ . . والاستعمار يقوم بتغذية هذه العصبيات . . .

٥ ـ القضاء على الاستعمار يؤدي إلى القضاء على عناصر الضعف الداخلي.

٦ ـ ضعف الاستعمار وتطاحنه مع نفسه يؤدي إلى انخراق جبهته العالمية.

٧ ـ من هو العربي؟ . . . العربي هو الذي ينزل قطراً من هذه الاقطار التي يتألف منها الشرق العربي، والاتحاد العربي في المستقبل، وهويتكلم اللغة العربية العزيزة . . . العربي هو الذي يشعر انه وارث شعب باسل زكي ابيّ يعتز بالانتساب اليه . . . العربي هو الذي يرى اليوم انه من قومية مجزأة مظلومة . . .».

خارج إطار تيار الطليعة نجد تيارات كثيرة تدعو إلى لَمِّ شمل الادباء التقدميّين . . فمجلة «العصر الحديث» العراقية تنشر في عددها الرابع من عام ١٩٣٧ مقالاً هذه بعض مقاطعه:

«إلى الاباء الديمقراطيين في الاقطار العربية، في هذه المرحلة الخطيرة التي تمشيها الاقطار العربية، وانها لوثيقة الالتحام بالنضال الطبقي المسيطر على الغرب، يجب على الادباء الذين يكتبون باللغة العربية ويدعون للفكرة الديمقراطية ان يتعارفوا ويلموا (شعوثهم) ويتعاونوا لأنهم بعد مدة قد بدأت طلائعها تطل، سيكونون القادة الحقيقيين في توجيه تفكير الجماهير إلى اهداف التحرر من أنيار الاقطاعية الكثيرة الاسماء والعديدة الانواع: جنسياً ومالياً وروحياً والتي تنتهي جميعها في دائرة واحدة لتستعبد الانسان . . .

. . . كل اديب حتى اولئك الذين استعبدتهم (ظروفهم الخاصة) واعمت بصائرهم ثقافة الرجعيين . يرى عندما يخلو إلى نفسه ويفحص ضميره: ان هذا المجتمع ظالم، دنس، رديء، كلب، ولكن معظم الادباء المعروفين في العالم العربي

وقــد يكــونــون من صميم الشعب العـائش تحت الانيـار، يجارون لسـوء الحـظ هذه الاوضاع لأنهم مخدرون بالنزعات الخيالية والمعتقدات التصوفية والتقاليد الموروثة عن القرون الوسطى. والذين يماشون المجتمع ويخدمون اقطاعييه عن تعمد وسابق تصور وتصميم هم قلة ضئيلة فعلينـا اذن ان نتعـارف ونلم «شعـوثنـا» ونتعـاون كي نهدي زملاءنا الحيارى التائهين المخدرين سواء السبيل ونضمهم إلى صفوفنا.

إن الادباء الدعاة للفكرة الديمقراطية في الاقطار العربية يستطيعون ان يخلقوا في عشرين سنة جيلاً شعبياً جباراً يمرح بالسعادة والخيرات وذلك بتصويرهم المجتمع كما هو: يجب ان تخرق (عـدسـة) الآلـة التي يصـورون بها جميـع الحجب وان يفهمـوا الشعب الحقيقة عارية كما هي، فإن الديمقراطية والادب الواقعي «رياليسيم» أخوان لا يفترقان.

فإلى هذا التعـارف وهـذا التعـاون فلتـدعُ الصحف الادبيـة الديمقراطية وقد بدأت تكثر وتنتشر وتنمو وتثمر.

وحبـذا لـو تقـوم احـداهـا بدعوة كتابنا المعروفين بهذه النزعة إلى عقد اجتماع تنبثق منه فكرة التنظيم العملي الصحيح.

أيها الادباء الديمقراطيون، ادباء النبل والخير، ان بلدانكم اليوم هي احوج ما تكـون إلى اقـلامكم النـزيهـة، وافكـاركم الحـرة، وقلوبكم المحبة، فتعارفوا واتحدوا وتعاونوا وان المستقبل الابيض الهانىء المبارك يبسم للديمقراطية»[٩١].

٣ ـ مرحلة مجلة الطريق (١٩٤١ ـ ١٩٤٥)

في ٢٠ كانون الأول ١٩٤١ صدر في بيروت العدد الأول من مجلة «الطريق»، التي اصـدرتهـا عصبـة مكـافحة النازية والفاشستية في سوريا ولبنان، صدرت المجلة بادارة عمـر فاخـوري، انطون ثابت، يوسف ابراهيم يزبك، رئيف خوري، ورئيس تحريرها قدري قلعجي.

(٩١) نقلاً عن: الثقافة الجديدة بغداد العدد ٦٤ آب ١٩٧٤ ص ٢٧٢ ـ ٢٧٤.

جاء في العـدد الأول من الطـريق تحت عنـوان «رسـالـة العصبة» ما يلي : «ان عصبـة مكافحة الفاشستية والنازية التي تأسست في سوريا ولبنان سنة ١٩٣٥ للدفاع عن الحريات المضطهدة ومكافحة ألد اعدائها وكشف الستار عما تحويه بعض المذاهب السياسية والاجتماعية من اخطار تهدد الحضارة ومثلها الانسانية الرفيعة . . .

. . . نحن نؤمن بأن في البلاد العربية جماعة قوية من الكتاب الاحرار وجمهوراً واسعـاً من القـراء الاحرار. وان اولئك وهؤلاء بحاجة إلى التعارف والتفاهم والسير جنباً إلى جنب نحو المثل الأعلى . وقد أنشئت «الطريق» لتضم شتات القوى الموزعة فتشترك جميعها في رسم معالم الطريق القاصد ومنهج الاصلاح الحكيم . . .

. . . نحن نبغي المحـافظـة على تراثنـا الثقـافي واحيـائه وتعزيزه ليؤدي الفكر العـربي الحـر الرسالة الانسانية التي أداها دائماً في تاريخنا المجيد . فكيف ترضى كرامة العـروبـة ان نحـالف دولـة اثيمـة ، كالدولة الالمانية ، تزدري تاريخنا وتحتقر تراثنا وتهزأ بمثلنا العليا ، وتجهر بعدائها للثقافة واضطهادها لحرية الفكر» .

في هذا العـدد نشـرت الطـريق بخـط كبـير كلامـاً لعمر بن الخطاب ووضعت ضمن اطار بارز حديثاً شريفاً ونشرت آراء للشاعر الهندي الكبير طاغور ومقالاً للإمام محمـد عبـده . وهكـذا يتـوضح خط الطـريق ونهجهـا العـام ، الـذي غطى سائـر اعدادها في الفترة المبحوثة . فمثلاً في ١٥ شباط ١٩٤٤ نشرت الطريق مقالاً عن حياة محمد عبده وعمله واخرى عن ابن خلدون وهيجل وثالث عن فريدريك انجلز حياته وعمله بقلم اليـانـورر ماركس . وقد كتب المعرب : «ان حياة انجلز ستبقى كعمله ، خالدة ، ومثلاً يهتـدي بهديـه كل المنـاضلين الثـوريـين على مر الأجيـال» . والـواقـع ان الطـريق هي وريثـة الطليعـة الـدمشقية في محرريها (رئيف خوري ، كامل عياد . . . الخ) وشعارها «رسالة التحـرر الفكـري» . ولكن الطريق كانت خطوة متقدمة بالنسبة للطليعة سواء في مجال النضج الفكري ام في ميدان الاتصال الوثيق بالفكر الماركسي .

ويـلاحـظ بوضـوح اتسـاع جبهة الطليعة الفكرية وشمولها ـ لاسيما في سنواتها الأولى ـ لعنـاصـر قوميـة تقـدميـة (ميشيـل عفلق ، فؤاد الشـايب ، صلاح الـدين المحـايـري . . . الـخ) ، في حين ضاقت جبهـة الطـريق الفكـريـة ، بعد توضح معالم التيارات القومية في الأربعينات .

* * *

أهم القضايا التي تناولتها الطريق

تعكس رسوم غلاف اعداد الطريق لعام ١٩٤٤ المرسومة بريشة رضوان الشهال جانباً هاماً من سياسة الطريق الفكرية . وفيما يلي عناوين تلك الرسوم كما وردت في الطريق :

١ ـ طانيوس شاهين أبو الغضبات الشعبية في لبنان . ٢ ـ سليمان البستاني احد اعلام النهضة الادبية الحديثة . ٣ ـ الامام محمد عبده احد اعلام النهضة العربية الحديثة . ٤ ـ السيد جمال الدين الافغاني ـ الحسيني حكيم الشرق . ٥ ـ فرنسيس فتح الله المراش . ٦ ـ اديب اسحق . ٧ ـ خليل مطران شاعر القطرين . ٨ ـ ابو العلاء المعري . ٩ ـ «٦ أيار» صورة امرأة امام المشنقة وبيدها رسالة مكتوب عليها «استشهدوا في سبيل الوطن» . ١٠ ـ ابن المقفع . ١١ ـ جبران خليل جبران . ١٢ ـ الحرية تقود الشعوب ، للرسام الفرنسي ديلاكروا ، تنشرها الطريق بمناسبة ذكرى الثورة الفرنسية الكبرى . ١٣ ـ العلم السوفياتي يتوسط العلمين السوري واللبناني بمناسبة الاتفاق على تبادل التمثيل الدبلوماسي . ١٤ ـ بمناسبة تحرير باريس عام ١٩٤٤ من نير الطغيان الهتلري ووصمة الخيانة الفيشية (صورة تمثل) الشعب الباريسي يهاجم قصر التويلري ، مقر الطغيان والاستبداد عام ١٧٩١ . ١٥ ـ (صورة) لابطال الاتحاد السوفياتي وقائدهم الاعلى المرشال ستالين . ١٦ ـ ابو العلاء المعري . ١٧ ـ تمثال ستالين وحوله عامل وجندي وامرأة فلاحة . ١٨ ـ ابيات شعرية تكريماً للعلم اللبناني . ١٩ ـ شيخ يوناني من جنود ايلاس جيش التحرر الوطني في اليونان المناضلة نضال الجبابرة في سبيل الحرية والنور.

١ ـ الموقف الثوري من التراث:

تحت عنوان «كيف نفهم الماضي وندرس الحاضر» نشرت الطريق في ١٦ أيلول ١٩٤٢ مقالاً لعبد المعين الملوحي. ونظراً لأهمية هذا المقال سننشر القسم الأكبر منه:

«تنتاب العالم العربي موجة من التفكير، فقد احس العرب انهم في حاجة إلى البحث في مفاهيمهم القديمة ونقدها، وإلى شق طريق لهم بين تيارات الفكر المختلطة، يوصلهم إلى ما يضمن لهم كيانهم الاجتماعي والسياسي. ولا شك ان هذا التفكير ليس كله صحيحاً، وليس كله مستقيماً...

يقول الكثيرون: ان الشباب المتحرر يقطع الصلة بينه وبين الماضي، ويميل إلى الآراء الغربية ويؤيد سيطرة الغرب الفكرية، وهذا ليس صحيحاً بالنسبة إلى الشباب المتحرر بكل مافي معنى هذه الكلمة.

ولكن هذا الماضي العربي ليس خيرا كله، وليس شراً كله، ولكن فيه خيراً وشراً، فيجب ان نسعى إلى اعادة ما فيه من خير، وإلى هجر ما فيه من شر.

إن القديم العربي ليس آخر مراحل تطورنا، كما قلت، وهو ايضاً ليس آخر مراحل تطور الانسانية... ان الحضارة البشرية وحدة متماسكة، تعمل الأمم كلها في زيادتها وانمائها، وليست الآراء التي يطلع علينا بها الغرب شيئاً تابعاً لهواه، وانما هي نتيجة للتطور الاقتصادي الذي بلغه، وليست النظريات الاجتماعية التي يبشر بها اعتباطاً ولا فوضى. وانما هي علم قائم بذاته هو نتيجة ايضاً لهذه المرحلة من التطور.

هذا هو موقفنا من الحاضر: اقتباس في غير عبودية، وتمثيل في غير توقف، ومسايرة لهذه المرحلة من التطور الانساني للسير به في مراحل.

لقد كان الاسلام ثورة انسانية في القرن السابع، وكانت الثورة الفرنسية ثورة انسانية في القرن الثامن عشر، وكانت الثورة الاشتراكية الروسية ثورة انسانية في القرن العشرين.

.... ان بين هذه الثورات علاقة متشابكة في انها كلها ثورة على الرجعية والظلم، وان لكل واحدة منها خصائصها لأنها متدرجة تاريخياً. فقد كانت الثورة المحمدية حلقة الوصل بين دور العبودية ودور الاقطاعية، وكانت الثورة الفرنسية حلقة

الوصل بين دور الاقطاعية ودور الرأسمالية، **وكانت الثورة الروسية**، حلقة الوصل بين النظام الرأسمالي والنظام الاشتراكي . . .

. . . فمن العار على الشباب العربي الذي يؤمن بمهمته التحريرية ان يتربص ويتردد فلا يتحمل عبء تكوين كيان اجتماعي جديد لأمة عربية جديدة، في دنيا انسانية جديدة.

يجب ان نفخر بان عمر وأبا ذر قد مثلا النزعة الانسانية كما كانت تحتم الظروف الاقتصادية المحيطة بهما تمثيلها، ويجب ان نؤمن بأن في دعوة بلال فوق الكعبة: «الله اكبر» ثورة على الرجعية والجمود . . .

يجب أن نفهم تاريخنا كما كان وعلى ضوء المادية التاريخية، وهكذا نستطيع ان نحكم عليه فنفخر بما فيه من فخر، ونأسى على ما فيه من مآس. ويجب ان نفهم حاضرنا كما هو وعلى ضوء المادية التاريخية، وهكذا نستطيع ان نكتشف له علاجه الشافي.

إننا نحن حماة التراث العربي التقدمي - كما يقول احد الشباب المتحرر، لأننا نفهمه كما هو، واننا نحن دعاة البعث العربي القومي لأننا نعرف كيف يجب ان يكون وكيف يمكن ان يكون» (انتهى كلام عبد المعين الملوخي المعنون في حمص ٩ آب ١٩٤٢).

ان الموقف الثوري من التراث كان الصفة العامة، التي تميزت بها الطريق في الأربعينات. ولا يخلو عدد من مقال او تحليل او قصة حول التراث وكيفية التعامل معه. وكان لرئيف خوري اليد الطولى في الغوص في التراث واستجلاء كوامنه الثورية دون مبالغة او تعسف. وهذا الخط سار عليه رئيف في مجلة الطليعة (١٩٣٥ - ١٩٣٩) واستأنفه في عهد الطريق.

في خريف **١٩٤٤** أصدرت مجلة الجديد، كتاب رئيف خوري «مع العرب في التاريخ والاسطورة» تضمن طائفة من القصص العربية اقتبسها مؤلفها من التأريخ وأجرى فيها قلمه البليغ فجاءت باقة رائعة من القصص التاريخي تحمل إلى القارىء متعة الفن وتحمله مع ذلك على التفكير.

وفي عام **١٩٤٥** صدر عن رئيف خوري ورضوان الشهال سلسلة قصصية مصورة تحيي تراث القصة العربية القديم وتنقل روائع الكتاب الغربيين.

وإحياء التراث العربي **الاسلامي يتضمن** القديم منه والجديد. فرئيف خوري يقارن بين ابن خلدون وهيجل ويكتب عن ابي العلاء. وقدري قلعجي يختص في كُتاب عصر النهضة فيكتب عن محمد عبده والكواكبي وعن جمال الدين الأفغاني وينقل عنه ضمن اطار بارز «كل حكمة تقولها خير من مائة صلاة تقيمها».

وعندما نشر في مصر عام ١٩٤٤ كتاب «الفكر العربي بين ماضيه وحاضره»، الذي جاء فيه «اننا لا نزال نعيش تحت وطأة «الغيبيّات المعتمة»، التي تسيّر اعمالنا وتبني احكامنا وتضع تصاميمنا. . . .». عرفت الطريق بالمؤلف معلقة بأنه صاحب مجلة «الحديث» الحلبية، التي لها فضل السبق في تمهيد الطريق لتجديد الأدب ومعالجة القضايا الاجتماعية في ضوء العلم الحديث (الطريق ١ حزيران ١٩٤٤).

وتحت عنوان «تراثنا الثقافي» نشرت الطريق في ١٦ حزيران ١٩٤٤ مقالا علقت فيه على «اسبوع المعري في لبنان» رابطة بين الاصالة والحداثة. وفيما يلي مقاطع من المقال:

«. . . وقد سمعنا خلال اسبوع المعري في لبنان آراء جهر بها اناس وتمتم بها آخرون، اراء يميل اصحابها إلى اهمال الثقافة العربية اهمالاً تاماً لأنها ثقافة بدائية لا تتفق ونهضتنا الحديثة، والانصراف عنها إلى الثقافة الغربية لأنها اقرب إلى روح العصر. . .

وآراء يعتقد أصحابها ان الثقافة العربية ثقافة كاملة جديرة بان تسود قوانينها جميع العصور. . . ومن حسن الحظ ان هؤلاء واولئك قلة لا تستطيع ان تفرض رأيها. . .

فالانقطاع عن الماضي متعذر وان اردناه، والانقطاع عن الحضارة التي نلابسها والعصر الذي نعيش فيه مستحيل وان رغبنا فيه. . .

فالثقافة العربية تنطوي، كجميع الثقافات القديمة، على نواح شتى من القوة والضعف. . .».

وتحت عنوان «المرأة والشرع» نشرت اميلي فارس ابراهيم في الطريق (٣١ كانون الأول ١٩٤٤) مقالاً جاء فيه:

«. . . ومن تعمق في درس القرآن الكريم والاحاديث الشريفة، لا يجد قط ما يبر رحجة القائلين بوجوب صرف المرأة عن ميدان العمل العام، بل على العكس يثبت له ان النبي الكريم كان يحترم آراء المرأة».

أما بدر الدين السباعي من حمص فكتب في الطريق ٣١ كانون الأول ١٩٤٤ خاطرة تحت عنوان «امية بن خلف، افعل ما بدا لك». وامية هو مالك بلال وسيده الذي عذبه. وضمن اطار بارز كتب السباعي:

«من هؤلاء الحفاة العراة، من هؤلاء الابطال الخالدين، الذين ضحوا بهنائهم وارواحهم، وتحملوا الألم المرير في سبيل عقائدهم ومبادئهم. من هؤلاء الآباء السالفين، نتعلم صلابة العقيدة، والثبات على المبدأ، والتضحية في سبيل الحق والواجب».

وكانت الطريق اكثر وضوحاً عندما نشرت في ٢٠ أيار ١٩٤٥ مقالاً للمحامي الدمشقي زيد الشهابي بعنوان «الشيوعية والتراث العربي» جاء فيه: «الشيوعيون هم الورثة الشرعيون لكُماة بدر واحد والقادسية واليرموك، فهم مكملوا التاريخ العربي المجيد، التاريخ الزاخر بوثبات الانعتاق القومي، تاريخ أبي بكر وعمر وخالد بن الوليد وأبي ذر الغفاري، تاريخ الشيخ محمد عبده وجمال الدين الافغاني وعبد الرحمن الكواكبي». . . وقد اورد الشهابي مقاطع من اقوال خالد بكداش لاثبات ما جاء به في مقاله.

وكانت الطريق قد نشرت في ٢٠ كانون الثاني ١٩٤٥ مقالاً لخالد بكداش بعنوان «الدين الاسلامي والقضية الوطنية» ننشر منه المقطع التالي:

«. . ليس من افتراء على وطننا افظع من هذا. فإن الاسلام الذي يقول «لكم دينكم ولي دين»، هو عدو التعصب والتفرقة والطائفية. . . فليست تعاليم الاسلام السمحاء بمسؤولة عن مزاعم بعض الرجعيين الذين خدموا الاستعمار دائماً، بدعوى ان الاسلام دين طقوس وعبادات فقط. ولهذا فهو لا يناقض الشعور القومي والوطني. . . ومن باب الافتراء مايزعمون من ان الاسلام كدين هو الذي يمنع رقي بلادنا. . . ان سبب تأخرنا هو الاستعمار وبقايا الاقطاعية وقلة الديموقراطية وقلة المدارس والفقر والبؤس والجهل. . .».

٢ ـ ابحاث فلسفية وتربوية واجتماعية واقتصادية حول المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية والاشتراكية العلمية الماركسية وحق التملك والاقتصاد الموجه، والمعضلات الاجتماعية الراهنة.

٣ ـ سلسلة من المقالات عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية في سورية ولبنان مثل مقال جورج حكيم حول ضريبة الدخل في لبنان (الطريق ٣١ آب ١٩٤٤). وضريبة الدخل الجديدة مجحفة بحقوق العمال والمستخدمين لجورج حكيم ايضاً. وكذلك تطرقت الطريق (٢٠ أيار ١٩٤٥) لمشكلة البطالة وماذا تفعل الحكومة لمجابهتها. وقد ابدع في هذا المجال الاستاذ منير سليمان، الذي نشر سلسلة دراسات محلية وعالمية حول المشكلات الاقتصادية.

ويسترعي الانتباه ما نَشَرَ في الطريق (٥ تموز ١٩٤٥) الأب طانيوس منعم حول «العلاقة الجنسية وما يحيط بها من العوامل الاجتماعية والمؤثرات الاقتصادية»، الذي جاء فيه:

«... ان قضية الخلاعة العصرية والتشرد الجنسي التي تشغل حيزاً هاماً في حياة المرأة العربية اللبنانية والرجل اللبناني العربي، في القرية والمدينة، ليست قضية نفوس صالحة تأنف من الملذات ونفوس شريرة تتمرغ فيها فقط، بل قضية وضع سياسي ونظام اجتماعي فاسد يتعلق به مستوى ثقافي فكري معين. عندما يتوفر عنصرا العمل والثقافة مجتمعين يخف الانحراف الجنسي فتقوى الروابط العائلية وتتوثق الغبطة البيتية...».

٤ ـ التصدي للكتاب الرجعيين ولكتّابٍ ـ مثل العقاد ـ الذين نصبوا من أنفسهم اعداء للحركة التقدمية في العالم متسترين خلف برقع الديموقراطية التي يتظاهرون بالدفاع عنها.

«... فالعقاد المفكر لا يرى فرقاً ما بين النازية والفاشستية والعسكرية اليابانية وبين الشيوعية! إنه يحشرها مع بعضها حشراً عجيباً ويهاجمها جميعاً هجوماً واحداً «دفاعاً» عن الحرية والديمقراطية».

هذا ما كتبه وصفي البني في الطريق (١٥ تشرين الأول ١٩٤٣) تحت عنوان «عبقرية» العقاد. وانهى البني مقاله بايراد عبارة من مقال العقاد، يقول، حفظه الله:

«فالحرب الحاضرة وما جلبته على الناس من الكرب والألم والضيق والغلاء، هي ثمرة

العلاج الذي دبره النازيون **والشيوعيون والفاشيون لمشكلة** البطالة وازمة الارزاق».

وبعـد ان كتب وصفي البني مقـالـه المـذكـور («عبقـريـة» العقاد) نشرت مجلة «الرسالة المصرية في العدد ٥٣٥ مقالاً آخر للعقاد بعنوان (. . . ومن اساليبهم)، ذكر العقـاد فيـه ان انصـار الشيـوعيـة في الاقطار العربية هم «انصار الكتابة باللغة العامية حيثما وقعت المفاضلة بينها وبين اللغة الفصحى».

فيـجيب البني في الطـريق (٧ كانـون الأول ١٩٤٣) «فنحن لا نعـرف بين الشيـوعيـين العـرب او بين الـديمـوقـراطيـين عمـومـاً من آثـر الكتـابة بالعامية على الفصحى، بل نعرف اناساً يدعون للعامية وليسوا شيوعيين ومنهم من يجهر بعدائه للشيوعية».

. . . لقـد قالت مجلة الطـريق بهذا الصدد « . . . فالعدول عن الفصحى إلى العامية انما هو مخالفة للسير التاريخي الملحوظ. . . والدعوة إلى العامية لا مبر ر لها».

ويقـدم البني امثلة يبـين فيهـا ان الشيـوعيـين والـديمـوقـراطيين لا يكتبون الا بالفصحى ويضيف: «فإذا كان في مصر شخص او اشخاص، ممن يعرفون بالميل إلى الشيوعية، يدعون إلى اللغة العامية، فكيف يجوز للعقاد ان يستنتج من هذا الحادث المفرد حكماً مطلقاً يعممه على الشيوعيين في الاقطار العربيّة جمعاء. . .».

ان كتاب الطريق وسائر الكتاب التقدميين كانوا يكتبون للمجلات والصحف بدون أجـر. ولهـذا فإن الطـريق ارادت النيـل من بعض الكتـاب المصـريين، الذين يتنـاولـون - كما نشرت الصحف - أجراً على ما يكتبون. وممن تقاضى اجوراً الدكتور هيكل، العقاد، طه حسين، توفيق الحكيم.

وفي ١٠ آذار ١٩٤٥ عادت الطـريق للرد على العقـاد تحت عنـوان «مغالطات العقـاد» بقلم المحـامي طاهـر خيـاط (من حلب). وكان العقاد قد نشر في منتصف كانـون الثـاني ١٩٤٥ مقـالاً في جريـدة الاثنـين تحت عنـوان «هـل تصبـح مصر اشـتراكيـة؟». وحسب رأي كاتب مقـال الطـريق فإن مقال العقاد يتضمن مغالطات حول المـاركسيـة يجب ان يترفـع عنهـا العلماء. ويسـترعي الانتبـاه المقـال المنشور في الطـريق (٢٠ كانـون الاول ١٩٤١) بقلم باحث عربي وتحت عنـوان: «دور المثقفين العرب في الحياة القومية العربية»، جاء فيه:

«وثمـة ناحيـة طريفة اخرى من نشـاط بعض المثقفـين المتحمسـين في محاربـة

الاعتبارات الدولية والاتجاهات الطبقية، **فهم** يزعمون انهم ينظرون إلى المسائل نظرة عامة «قومية» شاملة، ولكنهم يكتبون في الواقع للشخص العربي المثقف **فقط**، ولا يرون إلا الشخص العربي المثقف، عندما يحاولون وصف الشخص العربي بصورة عامة. وفي اكثر الاحيان نرى المجتمع العربي يتقلص في نظرهم بصورة غريبة فلا يبقى فيه سوى جماعتهم، فكأن الوسط العربي هووسط المثقفين ابناء الطبقة المتوسطة **فقط**، وكأن المجتمع العربي هو هذا الفريق الذي نال قسطاً من التعليم العالي او اتم التحصيل الثانوي وراح يبحث عن عيشة رضية او وظيفة أو مجلة تنشر له مقالاً، او راح يقرأ كتب برغسون ونيتشه وافلاطون. أما بقية الجماعات فيخرجون من نطاق تفكيرهم ويفلتون من دائرة منظارهم المحدود الضيق. وإذا ارادوا وصف عقلية العرب، فانما يأخذون في الحقيقة دمية ميتة ويحشون رأسها بالآراء الحائرة المترددة والاهواء والرغبات التي تفعم رؤوسهم هم ورؤوس زملائهم واترابهم ابناء الجماعات العليا من الطبقة الوسطى. وإذا ارادوا وصف امراض المجتمع العربي وصفوا في الحقيقة امراض هذه الجماعة دون غيرها. فيقولون مثلاً: نحن العرب انانيون نركض وراء الوظائف او المجد الفارغ ونترك العمل المثمر، ونتعلق «بالماديات» ونترك الروحانيات. . . إلى آخر هذا الهراء الفارغ الذي لا يصح إلا على جماعة صغيرة من العرب. وقد يكون كتاب «الوعي القومي» للدكتور قسطنطين زريق خير مثال على هذه النظرة الضيقة المحدودة إلى الشخصية العربية بوجه خاص ولامراض المجتمع العربي ومشاكل القضية القومية بوجه عام».

٥ ـ الهجوم على الامبريالية الاميركية. عندما اخذت تتوضح تقاسيم الوجه الكالح للرأسمالية الاميركية في اواخر الحرب العالمية الثانية نشر منير سليمان في الطريق (١٨ كانون الثاني ١٩٤٤) مقالاً عن قانون الاعارة والتأجير، نجتزىء منه المقطعين التاليين:

كان الدافع الأول لنشر قانون الاعارة والتأجير، الدفاع عن المصالح الاميركية ذاتها. .

ان هذا المشروع الواسع فضلاً عن انه وجد من أجل مساعدة الدول التي تحارب المانيا وتمكينها من التغلب عليها وقهرها، فتح باباً واسعاً امام الرأسمال الاميركي وخلق روابط اقتصادية ذات اهمية كبرى بين دول العالم والولايات المتحدة

سيكون لها بعد الحرب اثر ظاهر في وضعية اميركا الاقتصادية .

ويتصدى للفكر الامبريالي الاميركي الكاتب وصفي البني ، المتخصص في فضح الافكار الرجعية ، فتحت عنوان «مقال لا يُهضم» في مجلة «المختار» الاميركية» نشرت الطريق (١ آذار ١٩٤٤) مقالاً للبني ننشر بعض فقراته :

لاقت الطبعة العربية من مجلة «ريدرز دايجست» الأميركية ، التي صدرت في مصر باسم «المختار» ، رواجاً في العالم العربي واسعاً ، غير مستغرب . فهي مجلة يسندها رأسمال ضخم ، سعرها رخيص جداً ، ورقها صقيل ، وصفحاتها كثيرة ، ودعاياتها واسعة ، ككل دعايات الشركات الاميركية .

بدأت هذه المجلة حياتها في عددها الأول ثم الثاني فبرزت في مستوى فكري مقبول ومحمود نوعاً ما . ولكنها ما لبثت ان حادت عن هذا السبيل فبدأ مستواها الفكري يهبط بشكل محسوس . وبعد ان كان القارىء يجد في بعض مقالاتها ملهاة او قليلاً من الغذاء لفكره وروحه اصبح اخيراً يتذوق الكثير من مقالاتها فلا يرى فيها غذاء صحيحاً لفكره وروحه ، وانما يتذوق فيها طعم الفكر الرخيص ، الفكر المبتذل ، فكر الاسواق والنشرات التجارية الذي يستهدف ابعاد الناس عن معرفة الحقيقة ، الفكر الذي يعرض مشاكل الحياة الكبرى مشوهة خافياً عللها وجوهرها ، وحلولها الصحيحة .

ويستأنف وصفي البني هجماته على «المختار» في الطريق (٢٠ نيسان ١٩٤٤) هذه المجلة ، التي اسفر عددها الثامن عن وجهها الحقيقي ، فإذا هي مجلة لا تختلف مقالات صفحاتها الأولى عن اعلانات صفحاتها الأخيرة الا بكون الاولى اعلانات مستورة ، مذوقة ، مصبوغة بشتى الالوان ، هدفها الاول والاخير خدمة اصحاب الاعلانات المنشورة في صفحات المجلة الاخيرة ، خدمة الشركات الاحتكارية الضخمة على حساب حرية الشعوب المستغلة والمستعبدة باسم الدفاع عن «الحرية المقدسة» ! . . .

٦ ـ الصداقة مع وطن الاشتراكية الاول وتعريف الجماهير العربية بالاتحاد السوفياتي

وما تم فيه من اعمال جبارة . وفي حفلة تدشين «جمعية اصدقاء الاتحاد السوفياتي بدمشق في ١٠ كانون الأول ١٩٤٢ القى الدكتور كامل عياد سكرتير الجمعية محاضرة دامت ساعة كاملة تكلم فيها اخيراً «عن النفر من المثقفين الذين يخشون الامية المنافية

في نظرهم للقومية فقال: ان **العرب يستفيدون من مثال الاتحاد السوفياتي الذي حقق** الانسجام التام بين القومية الصحيحة والاممية الصحيحة. واقام نظاماً عادلاً حراً نستفيد منه في بناء نهضتنا القومية»[٩٢].

وتحت عنوان «تحية إلى الشعوب السوفياتية» نشرت الطريق في **٣٠** تشرين الثاني **١٩٤٢** مقالاً بمناسبة مرور خمس وعشرين سنة على الانقلاب الروسي (ثورة اكتوبر) اختتمته بالفقرة التالية:

«فاليكم يا جنود الحق تحية بسيطة صادقة متفائلة، تحية ولاء واخاء وتعاهد على النضال يوجهها احفاد محمد بن عبد الله وابي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وخالد بن الوليد والوف الابطال الاحرار الذين كانوا مثلكم: جنود الحق».

وبعد عام وفي كانون الأول **١٩٤٣**، كرست الطريق (**٧** كانون الأول **١٩٤٣**) معظم مقالات عددها لنشر الخطب، التي القيت في احتفال جمعية اصدقاء الاتحاد السوفياتي بدمشق. وفيما يلي اهم العناوين:

- رسول السلام ونصير الشعوب الضعيفة - قدري قلعجي.
- الست والعشرون تحية إلى ستالين لمناسبة ذكرى الثورة الروسية - رئيف خوري.
- الدينا الفاضلة - عمر فاخوري.
- الحياة القومية في الاتحاد السوفياتي - عبد القادر اسماعيل.
- انقلاب **١٩١٧** والثورة المثلى - ادوار برلان (مترجم)
- روسيا كما رأيتها - بقلم رئيس اساقفة يورك (مترجم).

وفي **١٨** تموز **١٩٤٤** نشرت الطريق مقالين حول:

- الاسرة والزواج في الاتحاد السوفياتي لمصطفى كامل منيب (من مصر).
- التربية والتعليم في روسيا السوفياتية (لفاخر العاقل) (محاضرة القيت في دار المعلمين بدمشق).
- حقوق المواطن السوفياتي (الطريق ٤ آب **١٩٤٤**).

وفي **٢٠** تشرين الأول **١٩٤٤** نشرت الطريق الابحاث التالية عن الاتحاد

---

(٩٢) الطريق ١٥ كانون الأول ١٩٤٢ ص ٢٢.

السوفياتي .

- العلاقات السياسية بين الاتحاد السوفياتي والاقطار العربية لخالد بكداش .
- العلاقات الاقتصادية بين سوريا ولبنان والاتحاد السوفياتي .
- المزارع التعاونية في النظام السوفياتي للدكتور كامل عياد، الذي كتب «ان المزارع التعاونية حل وسط بين الفردية والاشتراكية .
- من صحارى آسيا الروسية إلى جنات آسيا السوفياتية .
- الاسرة والزواج والحب في الاتحاد السوفياتي لقدري قلعجي .
- الادب والفن في بلاد السوفيات .

٧ ـ التوجهات القومية التقدمية : وحرصت الطريق على نشر النشاطات الثقافية والسياسية في الاقطار العربية (مصر، العراق، فلسطين) . ويلاحظ ان الطريق كانت «ملتقى المثقفين التقدميين والديموقراطيين اللبنانيين والعرب» .

إن سياسة الطريق القومية نجدها واضحة في المقال المنشور في **١٥** شباط **١٩٤٤** تحت عنوان «اهدافنا الوطنية الكبرى» وجاء فيه :

. . . ومن ثم كان من اعظم ما تضعه الحياة امام شعبنا، وامام جميع الشعوب العربية، العمل بكل ما نستطيع من جهد وتجرد، لتأليف كتلة قوية من الشعوب العربية تتضامن جميعاً في سبيل تحرير كل شعب منها واستقلال كل قطر من اقطارها، كتلة قوية متضامنة تكافح الخطر الاستعماري على اختلاف الوانه وانواعه .

وبعد أن استعرض المقال سير الحركات الوطنية في البلاد العربية (لبنان، فلسطين، مصر، سوريا) خلص إلى القول :

وكل ذلك دلائل قوية واضحة على ان كل انتصار وطني يحرزه احد الاقطار العربية، يؤدي إلى تعزيز الحركة الوطنية في الاقطار الاخرى ويقربها من اهدافها الكبرى . وهذا التضامن الرائع بين الاقطار العربية لاستقلال كل قطر منها، هو الدعامة الأولى للحركة الوطنية في كل قطر عربي، وهو الدعامة الأولى للقضية العربية بصورة عامة .

وكثيراً ماكانت الطريق تدعو إلى قراءة «صحف الكفاح الوطني والتجديد الاجتماعي» الصادرة :

- في العراق ـ مجلة «المجلة» ومنشوراتها . مجلة «الرابطة، ومنشوراتها . جريدة

«صوت الاهالي». جريدة «الشعب»، جريدة «الرأي العام». رسائل البعث.
- في فلسطين - جريدة «الاتحاد».
- في مصر - منشورات «لجنة نشر الثقافة الحديثة»، منشورات «دار الفجر».

وفي أول آب ١٩٤٥ اشارت ادارة مجلة الطريق عن رغبتها في زيادة عدد مشتركيها في الاقطار العربية الشقيقة، حرصاً على تقوية العلاقات الثقافية بين البلدان العربية، وتعزيز التعاون الاخوي بينها، وتوثيق اواصر التضامن بين جميع العرب الديموقراطيين والوطنيين الصادقين في نضالهم من أجل الحرية والنور. وقد دفعتها هذه الرغبة، رغم الازمة المعروفة التي تعانيها إلى تخفيض قيمة الاشتراك السنوي فيها لقراء البلاد العربية، إلى نصفها تقريباً... تقبل الاشتراكات: في العراق بواسطة الاستاذ عزيز شريف صاحب مجلة الوطن (بغداد) وفي فلسطين بواسطة السيد فؤاد نصار (الناصرة) وفي مصر بواسطة دار القرن العشرين (القاهرة ص. ب. ١٩٢٤).

فحول مصر نشرت الطريق (٨ أيار ١٩٤٤) مقالاً بعنوان «مصر والعدالة الاجتماعية».

وفي ٣ تموز ١٩٤٤ نقلت الطريق مقتطفات من مقال في جريدة الاهرام جاء فيه ان في مصر تيارين «الاول يتأثر بمجاري الاشتراكية في العالم العربي، والثاني يفضل الأنا ويعتبر ان الجهد الفردي هو اساس نجاح الأمم».

كما نقلت الطريق عن مجلة الاثنين مقالاً عن مصر بعنوان «فلنحارب الفقر اولاً».

وفي ٣١ آب ١٩٤٤ عرّفت الطريق بمجلة «الاثنين» المصرية التي تحرص ان تكون ميداناً رحباً لجميع الافكار: صحيحها وفاسدها كريمها وسخيفها... وذلك في معرض ردها على رأي منشور في الاثنين للدكتور هيكل باشا حول الديموقراطية.

وفي ١٩ أيلول ١٩٤٤ أشادت الطريق بالكاتب المصري المحامي مصطفى كامل منيب، عضو لجنة نشر الثقافة الحديثة بمصر، ومعرّب كتاب «الاسرة والزواج» في الاتحاد السوفياتي، في توجيهه للحركة التقدمية الصاعدة في القطر المصري الشقيق.

وفي أواخر ١٩٤٤ ترجم الطالب السوري الدارس في مصر عبد المعين الملوحي

مذكرات غوركي. وقالت الطريق ان لجنة نشر الثقافة الحديثة في مصر ستنشر هذه المذكرات.

وبعدها نشرت الطريق (١٠ آذار ١٩٤٥) مقالاً عن «الفلاح المصري» للأديب المصري محمد أمين حسونة فيه وصف لحالة الفلاح المصري واقتراحات بتحسين اوضاعه. كما عرفت الطريق (٣٠ نسان ١٩٤٥) بكتاب صادق سعد «مشكلة الفلاح» في مصر ودعت قراءها لشرائه.

. وفي ٢٠ أيار ١٩٤٥ نقلت الطريق مقالاً لطه حسين الأديب الغربي الكبير أجرته معه مجلة «الشرق الجديد»، التي صدرت عام ١٩٤٥ في مصر، تحت عنوان «الأدب والسياسة» جاء فيه «الفن الذي لا يتصل بالحياة العامة ترف لا يحظى به إلا القليل ونحن في عصر انتشر فيه التعليم واصبحت الثقافة حظاً شائعاً بين افراد الشعب، وهذا التطور الخطير يؤيد بل يحتم الصلة بين الأدب والسياسة».

وفي هذا العدد نشرت الطريق خبر اعتقال كاتب كبير هو الكاتب المصري المعروف الاستاذ مصطفى كامل منيب أحد كبار الوطنيين العرب الذين يناضلون ضد الفاشستية في الشرق العربي والذين ينذرون حياتهم وادبهم في سبيل حرية اوطانهم وسعادة شعوبهم.

في ١٥ آذار ١٩٤٦ كتبت «الطريق» ما يلي:

نشرت مجلة الخبراء القاهرية حديثاً قيّماً أفضى به اليها السيد محمد خطاب عضو مجلس الشيوخ المصري عن العرض الذي حفزه على التقدم إلى مجلس الشيوخ بمشروع جعل الحد الاقصى للملكية الزراعية ٥٠ فداناً، استهله بالكلام عن مساعي الدول الديموقراطية لاقرار مبدأ «العدالة الاجتماعية» ولاسيما الاتحاد السوفياتي «الذي تقوم سياسته جميعها على هذا المبدأ».

ثم تحدث عن مصر فقال ان ٧٥ في المائة من سكانها يعملون في الزراعة، منهم ١٢ ألف يملكون في مجموعهم ٤٠ في المائة من الأرض الزراعية والأغلبية الساحقة يحيون ولكن لا يمكن القول بأنهم يعيشون.

وعن العراق يكتب وصفي البني (الطريق ١٩٤٢/٦/٣٠) عن ذي النون ايوب من ادباء الطليعة في العراق، الذي اصدر «المجلة» بالتعاون مع نخبة طيبة من طليعة الشعب العراقي المزودة بثقافة تقدمية واعية عميقة تدعمها عزيمة قوية

تستهدف العمل القومي الجدي **البعيد عن الضجيج الفارغ** والتظاهر الدعي .

ومجلة «المجلة» العـراقيـة أصـدرت في اوائل عام **١٩٤٢** ضمن منشوراتها رواية «الأم» لمكسيم غوركي وتولت الطريق توزيعها في سوريا ولبنان .

ثم صدر في هذه السلسلة كتـاب «الجبهـة الثـانية» ، تأليف كومندرينك وترجمة الاستاذ قاسم امين ، وكتاب «ستالينغراد تثأر» وهو بحث ممتع عن بطولة عروس الفولغا بقلم فاسيلي كروسمان اضافت إليه دار البعث القصائد الكبرى الثلاث التي نظمها في مدينة الفولاذ كل من الاساتذة محمد مهدي الجواهري وعلي محمود طه ورئيف خوري . وكان آخر ماصدر في رسائل البعث، كتيبان عن سقوط موسوليني وحكومة بادوليو.

كما اشارت الطريق (١٥ / ١١ / ١٩٤٣) إلى كتاب «النفط والحرب» للأستاذ عزيز شريف وهـو أول المؤلفـات التي صدرت في هذه السلسلة وقـد صدرت بعـد ترجمـة مقتضبـة لكتـاب «سقـوط باريس للأديب العـالمي ايليا اهرنبورغ ، لم تبلغ حد الكمال المنشود .

ثم توالت «رسـائـل البعث» فظهـر منها «الفاشية عدوة الشعوب» للأستاذ عبد الرحيم شريف ، و«في الاتحـاد السـوفيـاتي» و «البعث في الاتحـاد السوفياتي» و«في المعتقلات الالمـانيـة» و «الـبر بـريـة النـازية في تشيكوسلوفاكيا» و «تحت الكابوس النازي» وهي كراسات ترجم اولها الاستاذ سليم طه التكريتي ، وترجمت الكراسات الثلاث الاخرى الآنسة نورية شريف .

وفي **١٦** حزيران **١٩٤٤** دعت الطريق قراءها لشراء المجلات والكتب العراقية عن طريق ادارة مجلة الطريق وهي :

- مجلة الرابطة العراقية .
- مجلة المجلة العراقية .
- الوراثة والعنصرية .
- العنصرية بين الرجعية والعلم لعزيز الرشيف
- الدستور السوفياتي بالعربية
- صديقنا الاتحاد السوفياتي
- الصورة الخلفية لايزنهاور ومونتغمري .

وبعد ثلاثة اسابيع عادت الطريق لرصد الحركة الفكرية السياسية التقدمية في العـراق من خلال كتـاب الـوعي الوطني والاجتماعي في العراق خلال الحرب الاخيرة

بقلم مهدي القزاز. ويتمثل هذا الوعي بالنشاطات التالية:

- مجلة المجلة يكتب فيها عزيز الشريف عبد الفتاح ابراهيم فكتوريا نعمان عبد الملك عبد اللطيف نوري.

- جريدة «صوت الاهالي» تنافح عن حقوق الفلاح والعامل وتندد بالمضاربين والمحتكرين.

- «الرابطة الثقافية»، التي أصدرتها جماعة من الشباب المثقف.

- مكتبة بغداد، التي يديرها نخبة من الشباب التقدمي، تقوم بنشر الكتب وتوزيعها في البلاد العربية. كما تقوم بنشر «رسائل البعث». وهذه المكتبة تخدم الوعي الوطني والثقافة الشعبية أجل الخدمات.

- ويأتي في طليعة المثقفين الشاعرَ محمد مهدي الجواهري صاحب جريدة «الرأي العام»، الذي ساهم بجريدته وبشعره في القضية الوطنية ومحاربة الفقر واسماع المسؤولين صوت الشعب.

وبمناسبة انعقاد مؤتمر المحامين العرب بدمشق نشرت الطريق كلمة المحامي العراقي التقدمي عزيز الشريف، الذي تحدث عن اسس الاتحاد العربي وكيفية اقامته وعبّر بذلك عن رأي الثوريين العرب في الاسس الأولى الضرورية للوحدة العربية. وفيما يلي ننشر مقطعين من خطابه في ١٥ آب ١٩٤٤:

«... يجب ان نعترف ان الاتحاد الذي ننشده، يقتضي ان تتطور كل وحدة من الوحدات التي تكوّن هذه الامة، تطوراً يقضي على كل العقبات الخاصة في كل منها، ولن يحدث هذا التطور، او على الاقل، لن يحدث بالسرعة المبتغاة، الا بشرطين اساسيين هما التحرر الوطني من كل نير اجنبي، وتحقيق الحريات الديموقراطية.

... وقد يظن اني ادعو إلى الكف او التراخي عن السعي لتحقيق هذا الاتحاد، حتى يتم استقلال البلاد العربية جميعها. فمعاذ الله ان اقول بهذا، بل انما اقول اننا ان اغفلنا قضية الاستقلال، فإن كل كلامنا عن الاتحاد هراء...».

«... ان توحيد امتنا يقتضي ان تتطور احوالها وتتقدم، وان ينقل المجتمع العربي من حالة البداوة التي لم تزل سائدة في كثير من ربوعه، إلى حالة المدنية الحديثة... واحداث الصناعات.

. . . على الحكام الوطنيين ان يكون سندهم الشعب العربي، وان يلبوا طلباته . . . ».

وعزيز الشريف كان غزير الانتاج وقد اصدر في اوائل ١٩٤٥ كراساً عن «الحركة الوطنية في سوريا ولبنان» وهي رسالة من سلسلة رسائل «البعث» التي صدرت في بغداد. وعلق محمد كزما المعرف بالكتاب بانه لا يتضمن «متاجرة بالعرب والعروبة وغيرهما من الكلمات المحببة إلى قلوبنا والتي يعز علينا ان يتاجر بها».

وكان عزيز الشريف رئيس حزب الشعب قد اصدر في بغداد مجلة باسم الوطن.

وفي صيف ١٩٤٥ اصدرت «رسائل البعث» العراقية «سقوط الجمهورية الفرنسية الثالثة» للكاتب الانكليزي د. ن. بريت وترجمة الكاتب كامل قزانجي. وهذه الرسائل تشرح كيف سقطت الجمهورية الفرنسية تحت اقدام الفاشست الألمان في حزيران ١٩٤٠ وهي عبارة عن استعراض تقدمي للأحداث الفرنسية والاوروبية في الثلاثينات.

وعن فلسطين تهتم الطريق بفضح مرامي الصهيونية ونشر نشاطات عصبة التحرر الوطني في فلسطين، التي اصدرت بياناً قالت فيه: إن نضال الشعب العربي في فلسطين لاجل حريته واستقلاله، هو جزء مكمل لنضال شعوب العالم في سبيل الحرية والقضاء على النظم العنصرية ودك صروح العبودية والاستعمار لاقامة عالم جديد تتوافر فيه الحرية والسلام لجميع الشعوب (الطريق ٢٠ أيار ١٩٤٤).

وبمناسبة ذكرى وعد بلفور عام ١٩٤٤ عقدت عصبة التحرر الوطني في حيفا اجتماعاً شعبياً كبيراً ارسل المجتمعون فيه البرقية التالية إلى الماريشال ستالين: «الجماهير العربية المحتشدة في حيفا بدعوة من عصبة التحرر الوطني احتجاجاً على وعد بلفور تحيي انتصارات الجيش الاحمر المظفر على النازية الاستعمارية عدوة الشعوب، وتتوجه اليكم بثقة لتعيروا قضية فلسطين اهتمامكم في مؤتمر السلم المقبل».

ووجه اتحاد الاحزاب اللبنانية لمكافحة الصهيونية برقية إلى ستالين جاء فيها «ويغتنم اتحاد الاحزاب اللبنانية هذه المناسبة لتوجيه انتباه الحكومة السوفياتية إلى مشاريع الصهيونية في فلسطين، تلك المشاريع التي تناقض، باسسها العرقية

والاستعمارية، تناقضاً تاماً، مبادىء الحرية والمساواة التي تقوم عليها هذه الحرب العظمى، حرب الحق على القوة».

وتحت عنوان قضيتا اليهود وفلسطين كما بحثها الحزب الشيوعي الانكليزي في تقريره إلى لجنة التحقيق الاميركية البريطانية، نشرت الطريق (١٥ آذار ١٩٤٦) ملخصاً لتقرير الحزب المذكور الذي بحث خمس قضايا هامة: ١ ـ مدى التحقيق، ٢ ـ جذور معاداة السامية، ٣ ـ الصهيونية، ٤ ـ اليهود في اوروبا، ٥ ـ فلسطين.

وفي ٣١ آذار ١٩٤٦ نشرت الطريق مقالاً مطولاً لرئيف خوري بعنوان «القضية الفلسطينية» بيّن فيه «ان الصهيونية ربيبة الاستعمار البريطاني وهي ترتبط اكثر فأكثر بـ «نزعة التوسع الاقتصادي الاميركي». وطالب رئيف خوري «بوجوب التخلي عن الانتداب على فلسطين واعلان استقلالها وصنع دستور فلسطيني ديموقراطي يقوم على اساسه مجلس نيابي، يمثل الفلسطينيين كلهم تمثيلاً نسبياً، كما تقوم حكومة وطنية فلسطينية»..

ودعا الكاتب العرب في فلسطين إلى تشكيل «جبهة موحدة تطالب بوقف الهجرة وتعارض التقسيم وتجعل اساس منهجها النضال لانهاء الانتداب واقامة حكومة وطنية فلسطينية على قاعدة دستور ديموقراطي».

وفي الختام انتقد رئيف خوري من يدعون إلى النضال الاقتصادي السياسي ضد الصهيونية وحدها ولا يتوجهون بنضالهم ايضاً ضد الانتداب.

في ١٥ تشرين الثاني ١٩٤٤ نشرت مجلة «الطريق» مقالاً مطولاً بقلم خالد بكداش بعنوان: «العلاقات السياسية بين الاتحاد السوفياتي والاقطار العربية» جاء فيه: «وهناك مسألة الصهيونية: هذه الآفة الفتاكة التي تجتاح فلسطين الشهيدة، وتتحول إلى خطر على العالم العربي بأسره، خطر عظيم يهدد كيانه القومي ومستقبله وصناعته وتجارته وزراعته جميعاً. إن الدعوة الصهيونية، أي الدعوة إلى هجرة اليهود إلى فلسطين، ممنوعة في الاتحاد السوفياتي، ويعاقب عليها القانون بصرامة، ويعتبرها من جرائم الخيانة العظمى».

ومما كتبه بكداش في حاشية شرح الصهيونية ما يلي: «الصهيونية حركة قديمة ظهرت في القرن التاسع عشر، وقد حاربها اساطين الاشتراكية العلمية باستمرار،

وبينوا جوهرها الرأسمالي الرجعي، وقد صنفها لينين صراحة في عداد الحركات الرجعية العالمية . . . ولا بد من القول هنا بان زعم الصهيونيين بان اليهود يؤلفون قومية واحدة او امة واحدة ليبرروا بذلك الحركة الصهيونية، هو زعم فاسد باطل من أساسه . . . ».

٤ ـ اعلام نهضوية تحمل الفكر الماركسي : كامل عياد، رئيف خوري، عمر فاخوري

لدى مطالعة اعداد مجلة الطريق تستوقفنا ثلاثة اسماء اسهمت اسهاماً جوهرياً في تحرير الطريق وهي الدكتور كامل عياد، رئيف خوري ـ وكلاهما من المحررين الرئيسيين في الطليعة ـ وعمر فاخوري . وليس المجال متسعاً هنا لدراسة هذه الأعلام الثلاثة من حملة لواء الفكر العربي الديموقراطي الثوري، وانما نريد ان نقدم لمحة موجزة عن عياد وخوري، بعد ان اشرنا إلى بعض مقالاتهما في الطليعة والطريق، ثم ننتقل لتناول دور عمر فاخوري في سنوات الحرب العالمية الثانية اللاهبة.

الدكتور كامل عياد (تولد ١٩٠٠) كان من أوائل السوريين الذين حازوا شهادة دكتوراة بالفلسفة من جامعات المانيا في بداية الثلاثينات . ورأينا اسهامه الاساسي في اصدار مجلة الطليعة (١٩٣٧ ـ ١٩٣٩) والطريق ابتداء من عام ١٩٤٢ . كان يتمتع بسمعة علمية جيدة في دمشق واسهم اسهاماً واضحاً في خلق جيل مثقف بالفكر الثوري ونشر الفكر العلمي والتعريف بالاشتراكية العلمية، وبالماركسية عامة، وفي تنمية الحركة الثورية وتجذيرها . ومن الكتب التي اصدرها منفرداً : «تاريخ الشرق القديم» ١٩٣٣، «تاريخ اليونان» . «تأثير ابن رشد على مر العصور»، «عبر التاريخ»، «أديب عربي، وأديب روسي، عمر فاخوري ومكسيم غوركي» ١٩٤٦، . . . أما ما اصدره من الكتب بالاشتراك مع صديقه الدكتور جميل صليبا فهي : «ابن خلدون / دراسة وتحليل ومنتخبات» ١٩٣٤، «حي بن يقظان / مع مقدمة عن حياة ابن طفيل وفلسفته» ١٩٣٥ . المنطق وطرائق العلم العام» ١٩٤٨، «المنقذ من الضلال / مع مقدمة عن حياة الغزالي وفلسفته» ١٩٥١ [٩٣].

---

(٩٣) راجع الطريق شباط ١٩٨٢ ص ٢٤٦ ومايليها.

أمـا رئيف خوري فقـد عرفـه العـالم العـربي (منـذ بدايـة الثـلاثينـات وحتى أواخـر الستينـات) اديبـاً ومفكـراً موسـوعياً كتب في مختلف اغراض الادب والفكر، بحث في التراث العربي القديم،٠والتراث النهضوي، وانواع الأدب العربي الحديث. مارس النقد الأدبي وبحث في اصوله واساليبه. أنشأ المقالة الادبية والسياسية. كتب القصة والـروايـة التـاريخيـة، ونظم الشعـر. وكتب فصـولاً رائـدة قيّمـة في الفكـر المـاركسي والفهم المـادي الجـدلي لتطـور الكـون والمجتمع والفكر. خطب في الاجتماعات الجماهيرية. شارك في المؤتمـرات الثقـافيـة والسيـاسية والفكرية التخصصية. ساهم في العديد من المنظمات اديمـوقـراطيـة الجماهيية. اندمج في الحركة النضالية العامة. جادل وعارك، وانتضى سيف التحدي، كما شهر ابتسامة الفرح والعافية والسخرية، معاً[٩٤]

إن رئيف خوري منّـور موسـوعي يحَمـل الفكـر الماركسي، ويبشر بالاشتراكية العلميـة، ويـربـط ممارستـه الفكـرية والنضالية بحركة الجماهير، وبالمسيرة الكفاحية لحزب الطبقة العاملة.

كتب رئيف خوري في المجـلات والجـرائـد التقـدميـة على التـوالى: الدهور، الطليعــة، صوت الشعب (١٩٣٧ ـ ١٩٣٩)، الطـريق، «الثقــافـة الـوطنيـة»، الاخبـار، النداء، حتى وفاته عام ١٩٦٧.

أمـا كتبـه المنشورة، وهي ليست قليلة فقد وضعها اصلاً للنشر مباشرة في كتب مستقلة. وقـد اشـرنـا إلى بعضهـا واقتبسنـا من بعضهـا الآخـر مقـاطـع في ثنايا هذا الكتـاب. وهـذه الكتب هي على التـوالي[٩٥]: «امرؤ القيس، نقد» وتحليل ١٩٣٤، «حبـة الـرمـان، وقصص عربيـة اخـرى» قصص مستمـدة من كتب التراث العربي القديم ١٩٣٥، «جهاد فلسطين، كفاح العرب في سبيل الحرية والاستقلال: الثـورة الفلسطينية في مختلف مراحلها» . صدر عام ١٩٣٦ بتـوقيـع «الفتى العـربي»، «ثورة بيدبا» مسرحية شعبية ١٩٣٦، «حقوق الانسان» ١٩٣٧، «مجوسي في الجنة» تمثيليات

(٩٤) المصدر نفسه: «رئيف خوري.... المفكر الموسوعي» بقلم محمود كروب، ص ٢٣٧ ومايليها.

(٩٥) المصدر نفسه.

مستمدة من التراث العربي ١٩٣٨، «هل يخفى القمر؟» بحث في حياة عمر بن ابي ربيعة وشعره ١٩٣٩، «النقد والدراسة الادبية، ١٩٣٩، «معالم الوعي القومي» (مناقشة لكتاب قسطنطين زريق الوعي القومي، ١٩٤١، «مع العرب في التاريخ والاسطورة» ١٩٤٢، «الفكر العربي الحديث، اثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي» ١٩٤٣، «صحون ملونة» قصص مستمدة من كتب التراث العربي ١٩٤٧، «ديك الجن: الحب المفترس» ١٩٤٨، «الثورة الروسية رقصة مولد حضارة جديدة» ١٩٤٨، «الحب أقوى» رواية تاريخية ١٩٥٠، «التعريف في الأدب العربي» تاريخ، نقد منتخبات ١٩٥١، «نصوص التعريف في الأدب العربي، عصر الإحياء والنهضة» ١٩٥٧.

اتجه كامل عياد ورئيف خوري منذ نعومة اظفارهما الفكرية نحو التيار الديموقراطي الثوري ووصلا إلى الفكر الماركسي في وقت مبكر من حياتهما. ولهذا فانهما اسهما اسهاماً واضحاً في الثلاثينات في نشر الفكر التقدمي.

أما عمر فاخوري فكان قبل الحرب العالمية الثانية يتلذذ بملاذته في «برجه العاجي» يكثر من القراءة ولا يكتب إلا القليل[٩٦]. ولم يدخل بوابة الفكر الديموقراطي الثوري إلا في اوائل الاربعينات بعد ان قصفت رعود الحرب العالمية الثانية وامست الفاشستية تشكل خطراً يهدد البشرية... عندها تحول عمر فاخوري وامسى محارباً نشطاً لا يهدأ يكتب ويخطب فاضحاً الفكر الفاشستي وداعياً إلى الفكر الديموقراطي الثوري.. إلى الفكر الماركسي.. وكان معظم ماكتبه عمر فاخوري في سنيه الاخيرة (توفي عام ١٩٤٦) من روائع الأدب السياسي يدخل في إطار الخطب والاحاديث والمحاضرات.

لم يكن عمر فاخوري إلا وريثاً للتطور الفكري العربي في بلاد الشام ـ ذلك التطور، الذي افصح عن خلجات التحولات الاجتماعية الاقتصادية في الداخل، وردد اصداء الصراع العالمي المحتدم بين الديموقراطية والفاشستية بين الاشتراكية

---

(٩٦) راجع «الطريق» شباط ١٩٨٢: «هكذا اصدرنا الطريق» لنقولا شاوي ص ١٠٠ ومايليها و ٢٢٢ ومايليها.

والـرأسـمالية . لقد سار عمر فاخوري منذ الحرب العالمية الأولى على صراط مستقيم متقـدمـاً إلى الأمـام صاعـداً إلى القمـة . وهولم يَضلَّ السبيل بل اتبع شعاع الحقيقة فانكشفت له أنـوارهـا وتفتحت لبصـيرتـه الآفـاق الـواسعـة حتى صار يشـرف على الاهداف المقصودة . ويهدي قراءه وسامعيه اليها . ولكن البعض رأى في عمر فاخوري اديبـاً ومفكـراً منحـرفـاً بعد ان ضلَّ الطريق ولم يدركوا بل لم يريدوا ان يدركوا ان ذلك كان تطوراً طبيعياً ونتيجة محتومة لأن ينتهي اليها كل اديب حقيقي صادق .

لقد قيّم الدكتور كامل عياد أحسن تقييم مراحل تطور الانتاج الفكري والأدبي عنـد عمـر فاخـوري متتبعـاً مراحـل تطـوره وذلـك في الكلمـة التي ألقاها في بيروت في ذكرى تكريم عمر فاخوري في ٧ تموز ١٩٤٦ ، قال الدكتور عياد[٩٧] :

«يـرغب البعض في ان يميـز بين عمـر فاخوري الشاب العربي الوطني ، الذي انضم إلى «حـزب الاستقـلال» و«الجمعيـة العربية الفتاة» وألف عند نشوب الحرب العـالميـة الاولى كتـابـه «كيف ينهض العـرب» ـ وبين عمر فاخوري ، الكاتب الناقد والمحرر في مجلة «الميزان» الادبية ومُعرب «آراء أناتول فرانس» ، ثم بعد ذلك بين عمر فاخـوري الاديب الفنـان ، مؤلف «البـاب المرصود» عام ١٩٣٨ و«الفصول الأربعة» وبـين عمـر فاخـوري ، السياسي المكافح للنازية والفاشستية «بلا هوادة» والمدافع عن الـديموقراطية والاشتراكية بحماسة ورئيس جمعية اصدقاء السوفيات وصاحب «أديب في السوق» و«الحقيقة اللبنانية» و«الاتحاد السوفياتي حجر الزاوية» .

و الـواقـع ان عمـر فاخـوري ظل مدة طويلة مضطـرباً حائراً يتلمس طريقه في ضباب من النظريات البديعية يتساءل متبرماً بأمسه ويومه وغده . .

كتب عمر فاخوري في سنة ١٩٢٦ : هذا المساء وفي احدى ساعات الملل التي

---

(٩٧) في ٧ تموز ١٩٤٦ ألقى الـدكتـور كامـل عيـاد كلمة في ذكرى تكريم عمر فاخوري نشرت في كراس تحت عنوان : «عمر فاخوري ومكسيم غوركي ، اديب عربي واديب روسي» من مطبوعات جمعيـة التعـاون بين سوريـة والاتحـاد السـوفياتي . . والدكتور كامل عياد استاذ الفلسفة في الجامعة السورية لعب دوراً رئيسياً في تحرير مجلتي الطليعة والطريق وكان من انصار اتجاه الجمع بين النضال الطبقي الاجتـماعي والنضـال القـومي ورؤيـة العـلاقـة الديالكتيكية بينهما . . وعنه اخذنا التقييم المتعلق بعمر فاخوري .

يتساءل المرء فيها وقد هادنته الحياة: «تُرى، ماذا يراد بنا، في هذه الدنيا، وهل لوجودنا غاية؟ . . . دون ان يوفق الى جواب او شبه جواب على سؤاله، بل السؤال الذي طرحته سآمتُه على الوجود وعلى الحياة».

وحتى الحرب العالمية الثانية لم يكن عمر قد توصل بعد إلى تحديد وظيفة الأديب تحديداً دقيقاً . . . وقد فاجأته كارثة الحرب الثانية، إذ كان منهمكاً في تلفيق المعاني وتزويق المباني . . . فزلت قدمه وتدحرج من برجه العاجي حتى وجد نفسه في الساحة، بين بني آدم المعذبين . . وهنا انبرى عمر فاخوري لمعالجة مشكلات امته الاجتماعية والسياسية.

وقد آمن عمر فاخوري - كما قال الدكتور عياد - بالاشتراكية التي تستهدف حرية الانسان وبناء مجتمع لا اضطهاد فيه ولا استثمار. وأدرك ان الاشتراكية التي بدأت تنتصر في كل العالم، هي الشرط الأساسي لتحقيق القومية والديموقراطية والانسانية. لذلك انضم عمر فاخوري إلى الطبقة العاملة، لأن حركتها إنما تخدم في الحقيقة الوحدة القومية، ولأن نضالها انما يستهدف ازالة الانقسام بين ابناء الشعب الواحد والقضاء على اسباب هذا الانقسام وعوامله. لقد آمن عمر فاخوري بان «الشيء الحقيقي الوحيد في الوجود هو الانسان وكل ما سواه هو من صنع ساعده ودماغه».

في سنة ١٩٤٢ نشر عمر فاخوري سلسلة مقالات جمعها في كتيب واحد باسم «لا هوادة» ضد الفاشستية صدره بالعبارة التالية: «ليس حسبنا ان نعيش، كما نعيش. ينبغي أن نفكر كيف يصح أن نعيش». ومعنى ذلك أن عمر فاخوري عقد العزم على ترك برجه العاجي ونزل إلى ساح المعركة، معركة النضال. فهو يدعو «دعوة حارة إلى الاشتغال في السياسة . . . في هذه السياسة»، التي ترشدنا «أين نقف في الصراع» بين الفاشستية والجبهة المعادية لها.

لم يقتصر نشاط عمر فاخوري الفكري علس السياسة الدولية بل خاض غمار السياسة الداخلية فهاجم مثلاً في مقالة «الاحتكار وابن خلدون» البرجوازية التجارية وايّد موضوعة ابن خلدون القائلة: «يجب ان يرجح جانب القوت على جانب التجارة».

وفي مقالة اخرى حول الحرية بعنوان: «كل شيء نسبي» كتب عمر فاخوري

مهاجماً التجار المحتكرين نقتطف منها مايلي :[٩٨]

«لطالما فاضت ارواح على شفرات السيوف، وفي غيابات السجون، وعلى أعواد المشانق، في سبيل هذه الحرية التي تعتبر حقاً من حقوقهم المقدسة.

. . . لكن أترون، لو جاء باسم هذه الحرية العزيزة تجار البلد، رافعين علمها الخافق وسط الأزمة الخانقة، ثم نادوا بصوت واحد يتهدج حماسة، ويتقطع حمية : (الحرية؟ نحن وانتم، بتأييد من الشرائع الإلهية والمدنية، مجمعون على انها من الضروريات كالخبز والماء، والنور والهواء. . . بل الحياة بدونها - كما تقولون - شيء لا معنى له، ولا طائل تحته. لكننا تجار، ولا بد لنا بهذه الصفة، من ان نضيف إلى لفظة «الحرية» ذلك اللفظ الآخر الذي نُعرف نحن به، «اي التجارة» ولنقل دفعة واحدة : (حرية التجارة. .) فهل عرفتم على ظهر البسيطة؟ ابسط من هذه الإضافة؟ كل شيء نسبي في هذا الوجود، حتى الحرية العزيزة، ولاسيما حرية التجارة!».

يظهر مما تقدم ان الوطني العربي والديموقراطي الثوري عمر فاخوري اخذ ينتقل اكثر فأكثر إلى مواقع الفكر الماركسي. وظهر ذلك جلياً في محاضرته التي اقامتها «جمعية اصدقاء الاتحاد السوفياتي في سوريا ولبنان» في ١٨ شباط ١٩٤٣ في بيروت بعنوان : «الاتحاد السوفياتي حجر الزاوية».

ومما يجدر ذكره أنه في أيامنا هذه في السبعينات، ولظروف عديدة معلومة، نشاهد كثيراً من الناس، الذين لا تربطهم بالفلسفة الماركسية اية رابطة، وبعضهم ليس على وفاق مع الاشتراكية، اصدقاء للاتحاد السوفياتي. أي ان اصدقاء الاتحاد السوفياتي في الوطن العربي يتألفون حالياً من ماركسيين وانصاف ماركسيين وقوميين تقدميين من مختلف التيارات، بالإضافة إلى الجماهير العربية الغفيرة، التي ترى في الاتحاد السوفياتي سندها الأول في نضالها القومي والاجتماعي.

أما في أوائل الحرب العالمية الثانية وقبلها فكان الوضع يختلف نسبياً، ولم تكن الأمور بهذا الوضوح، في الوقت، الذي كانت لا تزال الدعاية البورجوازية والاباطيل والافتراءات الامبريالية مسيطرة على العقول. في تلك الأيام اقتصرت صداقة الاتحاد السوفياتي في الوطن العربي على الماركسيين والديموقراطيين الثوريين،

---

(٩٨) عمر فاخوري : «لاهوادة» بيروت ١٩٤٢. ص ٨٥.

المتطلعين الى الاشتراكية وبناء وطن حر سعيد.

وقد صوّر عمر فاخوري في مقالته «**الدنيا الفاضلة**» في الذكرى السادسة والعشرين لتأسيس الاتحاد السوفياتي نفسية الناس قائلاً:

«لسنة او سنتين خلتا، كنا إذا احتفلنا للاتحاد السوفياتي، وان لمناسبة مقبولة معقولة، ارتسمت في افق هذه الديار، علامة استفهام ضخمة، عرضها السموات والأرض. . . ».

«أما الآن فما اكثر الذين سألوني، قبل ان يحين الموعد بزمن: الا تحتلفون هذه السنة لذكرى تأسيس الاتحاد السوفياتي. . . ».

«لماذا هذا الحب المتزايد للاتحاد السوفياتي؟».

يجيب عمر فاخوري في محاضرته المنوه عنها في شباط **١٩٤٣** على ذلك موضحاً:

«لكن لو سألت زيداً من هؤلاء الناس الذين يحبون الاتحاد السوفياتي ـ وما أكثرهم ـ: لماذا تحب تلك البلاد النائية. . . لأجابك فوراً: «ان الشعوب السوفياتية برهنت في هذه الحرب على بطولة خارقة». فالحب هنا هو إذاً من قبيل الاعجاب الطبيعي او الفطري».

ولكن عمر فاخوري يريد ان يكون هذا الاعجاب وذاك الحب صادرين عن معرفة حصيفة وادراك صحيح، اي انه يريد ان ينتقل المعجبون بشجاعة الجنود السوفيات من الحب العاطفي إلى الحب المنطقي العلمي القائم على فهم طبيعة النظام الاشتراكي السوفياتي، واستيعاب النظرية الاشتراكية بوجه عام.

ولهذا فإن عمر فاخوري تطرق للأمور الحساسة، التي دار حولها جدل واسع، وتعرضت لتشويه الدعايات البورجوازية ولأضاليل الامبريالية. فما اهم الأمور التي عالجها عمر فاخوري[٩٩]؟

ـ الملكية. . «يقولون: ليس في الاتحاد السوفياتي ملكية خاصة. والساعي

---

(٩٩) عمر فاخوري: «الاتحاد السوفياتي حجر الزاوية» منشورات جمعية اصدقاء الاتحاد السوفياتي في سوريا ولبنان. بيروت ١٩٤٣. والاساسي في الكتاب هو محاضرة القيت في بيروت في ٧ تشرين الثاني ١٩٤٢.

هناك لا ينال جزاء سعيه، بالرغم من ان ثورة اكتوبر التي تلهجون بذكرها، والماركسية اللينينية الستالينية التي تحبذونها قضتا بأن «ليس للإنسان إلا ما سعى».

وأجاب عمر فاخوري بقوله: «ينبغي ان نفرق بين نوعين من الملكية الخاصة. هناك ملكية خاصة يستثمر بها البشري بشرياً مثله، كحيازة المناجم والمصانع والمزارع الكبيرة. وهناك ملكية خاصة لا يستثمر بها الانسان اخاه الانسان، كحيازة امتعة وادوات ينتفع بها المالك انتفاعاً مباشراً أو يستهلكها، من فنوغراف وسيارة ومسكن وقطعة صغيرة من الأرض وهلمجرا. ان هذه الملكية مباحة في الاتحاد السوفياتي، والماركسية انما الغت استثمار الانسان للإنسان».

ـ العائلة.. وهنا يرد عمر فاخوري على مزاعم المشككين بعدم وجود العائلة في الاتحاد السوفياتي ويضيف: «ان الولد والاسرة في الاتحاد السوفياتي هما زينة الحياة، دون ان يكونا حجر رحى في الاعناق».

ـ الدين.. وفيها يرد على الدعاية الاثيمة، التي ادخلت على الافهام كثيراً من الباطل ولاسيما في امر الاديان والعبادات.

ـ الديموقراطية... حيث وجه عمر فاخوري سهام نقده للديموقراطية البورجوازية من عدة وجوه: «انها تمنح الافراد كثيراً من الحقوق لكن لا تضمن لهم الوسائل لممارسة تلك الحقوق فما الفائدة من قولك: «لكل انسان حق التعبير الطليق عن رأيه». إذا لم يكن هذا الانسان على قسط من الثقافة يمكنه من ممارسة هذا الحق؟ أو إذا لم يملك الوسائل المادية لممارسته».

واخيراً ختم عمر فاخوري محاضرته مبيناً ان البشرية حلمت منذ اجيال بعالم غير عالمنا خلو من الفقر والظلم والجهالة. الاتحاد السوفياتي يحمل في صدره التراث القديم تراث الشوق إلى المدينة الفاضلة. ان المبدأ الاساسي القائل بأن الانسان هو محور العالم واثمن ما فيه، وان مبادىء الثورات الانكليزية والاميركية والفرنسية، وان رسالة الديمقراطية الصحيحة، وان النهضة العلمية التي تستهدف السيطرة على الطبيعة وتسخيرها لخير الناس..

كل هذه العناصر قد اجتمعت، كأنها على موعد، في نظام الاتحاد السوفياتي.

الاتحاد السوفياتي... حجر الزاوية في بناء العالم الجديد في بناء الانسانية الجديدة».

الاتحـاد السـوفيـاتي في رأي الـوطني العـربي والـديمـوقـراطي الثوري، عمر فاخوري، «اعاد الى النفوس رجاءاً كاد يفنى في توطيد السلم العالمي، على اساس ثابت من العـدل والمسـاواة والرفاه بما يضمن للأفراد وللشعوب ما تصبو إليه، وتناضل في سبيله، من مطامح قومية عادلة، واصلاح بل صلاح اجتماعي».

«ان من دواعي اللذة والغبطة ان يعرف الانسان الهدف الذي يحارب من أجله».

مغـرفـة الهـدف، هذا احـد المحـركات الرئيسية، التي دفعت بالديموقراطيين الثـوريـين لتحمـل المشـاق والاضطهـاد من أجـل الوصول إلى «ما تصبو إليه الافراد والشعوب وتناضل في سبيله، من مطامح قومية عادلة، واصلاح بل صلاح اجتماعي».

ان كتـابـات عمـر فاخـوري في سنـوات الحـرب كانت، كما ذكـرنـا، حصيلة التطـورات الـداخليـة والخـارجيـة، ولكنهـا اثـرت ايضاً في هذه التطورات واسهمت بدورهـا ـ شأنهـا شأن سائـر الكتب التقـدمية ـ في دفع الحركة الفكرية العربية باتجاه اليسار وفي تمهيد معالم الطريق امام الفكر الماركسني ومبادىء ثورة اكتوبر الاشتراكية. وعمـر فاخـوري كان من المفكـرين القلائل، الذين جاهروا برأيهم واعلنوا وقوفهم في صف الجبهــة الفكــريــة الاشـتراكيـة. وكـانت ثورة اكتـوبـر بالنسبـة للمفكـرين الـديمـوقراطيين الثوريين، كما ذكر الكاتب المصري سلامة موسى سنة ١٩٤٣ بمثابة الثـورة الفـرنسيـة الكـبرى لابنـاء القرن التاسع عشر. ويقول سلامة موسى: فلو ان احـداً كان يعيش بين سنـة ١٨٠٠ و ١٨٥٠ وكـان يهمل دراسة هذه الثورة (الفرنسية البرجوازية) لما استطاع ان يدرك التطورات الاجتماعية والسياسية في عصره. وكذلك نحن لا نفهم تطورات عصرنا إذا اهملنا دراسة الثورة الروسية (الاشتراكية).

وعندما رشح عمر فاخوري نفسه للنيابة عن بيروت نشرت الطريق في ٣٠ اب ١٩٤٣ جزءاً من بيانه الانتخابي وفيما يلي ما نشرته الطريق:

إن آفـة لبنـان هي الاستغـلال بانـواعـه وشر هذه الانواع استغلال التفرقة بين ابنائه الذين اجمعوا على ارادة واحدة، هي العيش في ظلال هذا الوطن بحرية وعدل وتضامن.

ان العـالم مشغـول بحـل مشـاكله العظمى ، ونحن ما زلنـا منهمكـين في حل مشكلة ابتـدائيـة حيـويـة ـ كدت اقـول : «حيـوانية» ، ليس بكاف ، كلما رأينا البيت يحترق ، ان نهب جميعـاً لاخمـاد النـار. يجب ان نمنـع اسبـاب الحـريق ، ان نبعد عن البيت المحـرقـين. لنقـل بصـراحـة : لا يمكن ان يكـون لبنان وطناً مسيحياً ولا وطناً اسـلاميـاً . لايمكن أن يكـون وطنـاً لأي دين من الأديـان ، أومذهب من المـذاهب. لا يصح ان يكون لبنان إلا وطناً لجميع اللبنانيين على السواء.

وتحت عنـوان «ميثـاقنـا» نشرت الطريق في ١٧ أيلول **١٩٤٣** نص الكلمة التي القـاهـا رئيف خوري في حفلة تكريم عمر فاخوري بمناسبة دخوله المعركة الانتخابية جاء فيها :

. . كان عمـر فاخـوري وطنيـاً قوميـاً يسعى في سبيل اعلاء الوطن ويغار على القـوميـة ويجـاهـد في سبيـل الحـريـة والهنـاء للبنان وللشرق العربي كله . . كان عمر فاخـوري امينـاً مخلصـاً لكـل ما هو خير ونـير وعظيم ، في صفحـات تاريخنا وتقاليدنا وعقائدنا ومراحل جهادنا . .

ففي هذا الاجتـماع الـذي عقـدنا تكريماً للاستاذ عمر فاخوري نتلومن القرآن الآيات الكريمة . . . ونتلو من الانجيل الآيات الكريمة . . . ونذكر فيلسوفنا العربي العظيم ابن حزم الاندلسي ونردد قوله . .

ونـذكـر علمنـا وعلم الشرق ، المفكر المناضل السيد جمال الدين الافغاني ونردد كلماتـه . . . نذكـر الشيـخ الفـاضل عبد الله النديم . . . ومفكرنا السابق عبد الرحمن الكـواكبي . . . نذكـر فرنسيس مراش . . . وأديب اسحاق . . . والـزهاوي . . وامين الريحاني . وجبران . .

في هذا الاجتماع نقسم لجميع رجالنا الافذاذ ، ومفكرينا هؤلاء ، وغيرهم ممن رفعـوا اسمنـا عاليـاً ، اننا سنبقى امناء اوفياء لرسالتهم ، رسالة الامة والوطنية والحرية والفكر الرفيع . .

فليحيـا رجـل الفكـر والتسـامـح والإخـاء الـوطني ، فخـر لبنان واديب العرب الكبـير ، حامـل المجـد التقاليد القومية ومكمل قافلة الاحرار الميامين في لبنان والشرق العربي ، الاستاذ عمر فاخوري .

٥ ـ مكانة التيار الديموقراطي الثوري

اسهمت كتابات الديموقراطيين الثوريين في تعريف قراء العربية ببعض جوانب الفكر الاشتراكي، وفي نشر الوعي الوطني والطبقي، وفي الربط بين الفكر التقدمي العالمي والفكر العربي التقدمي قديمه وحديثه. ولكن التيار الديموقراطي الثوري لم يتمكن بالرغم من انجازاته الضخمة ومآثره العظيمة في فترة ما بين الحربين، من نشر أفكاره على نطاق واسع بسبب الأمية السائدة بين الجماهير والظروف الموضوعية التي عاشتها هذه الجماهير وبسبب عدم وضوح الرؤ ية الفكرية عند القسم الأكبر من انصار التيار الديموقراطي الثوري. كما أن الافكار الاستعمارية والرجعية السائدة قامت بنصيب كبير في مقاومة الأفكار التقدمية وفي ارهاب انصار الفكر التقدمي، مما أدى إلى عرقلة انتشار الفكر التقدمي بين عدد ضخم من المثقفين، وإلى سيطرة الغموض النسبي على المعرفة الحقيقية للأفكار التقدمية العربية والعالمية، رغم المحاولات العديدة لأنصار التيار الديموقراطي الثوري في استجلاء

والعالمية، رغم المحاولات العديدة لأنصار التيار الديموقراطي الثوري في استجلاء

غوامض هذه الأفكار وفي تعريفها للناس. وقد أدت الصعوبات العديدة التي لاقاها انصار التيار الديموقراطي الثوري قبل الحرب العالمية الثانية إلى ارتداد قسم منهم أو توقفه عن التطور والوقوع في احضان الايديولوجية البرجوازية، التي لم يتخلص منها، او الى انحدار قسم آخر إلى مستنقع الانتهازية والخيانة والتنكر للأفكار التي نادى بها فيما مضى فأصبح خادماً للاستعمار وبوقاً للرجعية ضد مسيرة الفكر التقدمي. كما ان قسماً من انصار التيار الديموقراطي الثوري سقط في منتصف الطريق حائراً بين الأمواج الفكرية المتصارعة ولم يبق لوجوده الفكري أي أثر. ولكن العناصر الواعية داخل التيار الديموقراطي الثوري لم ترمِ علمَ النضال بل رفعته عالياً وازداد التصاقها بقضية الشعب وبنضاله الوطني والقومي والاجتماعي وتعمقت صلاتها الفكرية مع الثقافة العالمية وسارت إلى نهاية الطريق وانتقلت نهائياً إلى مواقع الماركسية. وازداد وضوحها الفكري. لقد بدأت هذه العملية بالنضج على اعتاب الحرب العالمية الثانية واسهم القضاء على النازية وانتصار الاتحاد السوفياتي في تسارعها، مما ادى إلى رفد

التيار الماركسي في الوطن العربي بعناصر قوية جديدة وإلى احتلاله لمواقع ايديولوجية جديدة في رحاب الوطن الكبير.

لقد مهد التيار الديموقراطي الثوري في سورية ولبنان الطرق الأولى لبداية انتشار الفكر الماركسي وعبّد الطريق امام هذا التيار، ثم لم يلبث انْ دعمه ورفده بعناصر جديدة وقدّم له كل عون وسند. وفي الوقت نفسه كان التيار الماركسي يحدب على التيار الديموقراطي الثوري، ويقدم له ايضاً المساعدة اللازمة ويتعهده بالعناية مثل من يعتني بنبع يتفجر من قلب الأرض من أجل ان يروي ظمأه وظمأ الأرض العطشى إلى ماء المعرفة. والواقع ان الجسور المقامة بين التيارين المذكورين كانت، في فترة ما بين الحربين، واسعة وشديدة الحركة والنشاط ذهاباً واياباً.

والتيار الديموقراطي الثوري لم يقتصر في امتداده الفكري على سورية ولبنان فقط، بل انتشر بدرجات مختلفة في الأقطار العربية المتقدمة.

فالشاعر العربي العراقي المعروف محمد مهدي الجواهري ذكر في عام **١٩٧٢** اثناء مقابلة صحفية اسباب انحيازه الانساني المطلق إلى جماهير المسحوقين وانتمائه الشعري إلى «بياض» الناس» كما يحلو له ان يسمي سوادهم. وقد عدد الجواهري بعض الأسباب التي دفعته إلى هذا الانحياز مثل«الضائقة المادية»و«الأزمة الروحية»، ثم انتقل إلى الاشارة إلى المصادر الفكرية التي دفعته في أوائل الثلاثينات إلى الانحياز إلى صف الكادحين. ذكر الجواهري:(١٠٠)

«كنت قد قرأت «ذكرى ابي العلاء» لطه حسين، وكل المترجمات عن الفرنسية خصوصاً، وبقية اللغات عموم. أخص منها بالذكر كتاباً عن نظرية التطور لشبلي شميل. قرأت ايضاً كتاب بندلي جوزي «الامهات عند العرب» وكتابه الآخر «بعض الحركات الفكرية في الاسلام» وجميع كتب سلامة موسى واسماعيل مظهر، والمجلات المصرية الشهيرة كالمقتطف والهلال والمصور والعصور والمجلة الجديدة. ولقد تلقيت الأفكار الثورية لأول مرة عن هذه المصادر، ولكن مصدر المصادر هو آلام شعبي».

---

(١٠٠) انظر المقابلة التي أجراها غالي شكري مع الجواهري في أحد أعداد **الطريق لعام ١٩٧٢ وقد سقط** رقم العدد من وثائقنا

ان كلام شاهد العيان الجواهري مصداق لما ذكرناه في المقدمة حول المصادر التي استقت منها التيارات الفكرية وهي :

١ ـ الارضية الاجتماعية الاقتصادية .
٢ ـ التراث القومي .
٣ ـ التراث العالمي .

ولعل من المفيد ايضاً لفت الانتباه إلى أثر شبلي شميل المتوفى سنة ١٩١٦ في كتابه نظرية التطور، وبندلي جوزي في كتابه «بعض الحركات الفكرية في الاسلام» المطبوع في القدس سنة ١٩٢٨ في دفع الفكر العربي خطوات إلى الأمام وفي صقل التيار الديموقراطي الثوري وتغذية التيار الماركسي .

وقبل اختتام الحديث عن التيار الديموقراطي الثوري وقبل البدء في الكلام عن التيار الماركسي لا بد من الاشارة إلى أثر القطر المصري في نشر الايديولوجيات المختلفة ومن جملتها الايديولوجية الاشتراكية في سورية . وبما ان الصراع الفكري في مصر كان محتدماً أيضاً بين الاشتراكية وخصومها ، فإن اصداء هذا الصراع كانت تتردد في كثير من الاقطار العربية .

فجريدة «ألف باء» الدمشقية نشرت مثلاً في ٢٣ أيلول ١٩٢٥ ، نقلاً عن الكاتب المصري سلامة موسى ، اخباراً عن الحياة الشخصية لكارل ماركس ، الذي زرع بذور الاشتراكية . وتذكر «ألف باء» أيضاً أن «نشر اخبار ثورة الأمير عبد الكريم (في الريف المغربي سنة ١٩٢٥) ، وتأييد الشيوعيين (الفرنسيين ع . ح .) كان له أثر لا بأس به ، بالرغم من نشر المقالات المتتالية المعادية للبلشفية والسوفيات .

والواقع ان ردود الفعل ضد بداية انتشار الفكر الاشتراكي كانت كثيرة ولم تقتصر على المقالات التي ذكرتها «ألف باء» . ورد الفعل لا يظهر عادة إلا بعد ظهور الفعل وهو دليل على قوة هذا الفعل .

كان من جملة ردود الفعل المعادية للفكر الاشتراكي والمدافعة عن «رأس المال» كتاب : «الاشتراكية ـ تعوق ارتقاء النوع الانساني» الصادر سنة ١٩٢٧ في مصر لمؤلفه اسماعيل مظهر . ان نشر هذا الكتاب هو احدى ردود فعل القوى الرجعية في

الوطن العربية الخائفة من بداية انتشار الافكار الاشتراكية. هذا مع العلم أن كتابات اسماعيل مظهر السابقة اسهمت في تكوين تيار تقدمي ولكنه في هذا الكتاب ارتد إلى الوراء لاسباب لامجال لذكرها هنا.

الفصل الخامس
التيار الماركسي

ولد التيار الماركسي في سورية ولبنان في نهاية العشرينات وبداية الثلاثينات في احضان التيار الديمقراطي الثوري وترعرع بين جوانبه، ثم سعى بالتدريج للتميز عنه وقيادته. ومعنى ذلك ان الفكر الماركسي لم ينشأ في وسط عمالي - نظرا لجنينية الطبقة العاملة وضعفها - بل نما في وسط بورجوازي صغير ثوري، ذلك الوسط المتأثر بالتراث القومي التقدمي الانساني وباحتدام الصراع الاجتماعي وبافكار الجناح اليساري للثورة الفرنسية، وبمبادىء ثورة اكتوبر الاشتراكية ومنجزاتها الضخمة. وقد أسهم التيار الديمقراطي الثوري بشكل رئيسي في نشر الافكار الماركسية في أوساط بورجوازية صغيرة وعمالية ناشئة على مستوى لابأس به من الوعي، ووضع بذلك اللبنات الاولى لظهور تيار ماركسي مستقل متميز. وخلال عملية تكون التيار الماركسي تطورت عناصر عديدة من التيار الديمقراطي الثوري وازداد وضوحها الفكري وانتقلت بالتدريج منذ بداية الحرب العالمية الثانية ومابعدها إلى المواقع الماركسية. وفي الوقت ذاته انتقلت الى مواقع الماركسية بعض العناصر القومية، على الرغم من وجود أسباب عديدة حدّت من سرعة وعمق هذا الانتقال. كما ظهرت أيضا عناصر ماركسية على اتصال وثيق بالاوساط العمالية واخذت عناصر بورجوازية صغيرة ثورية بفضل الافكار الماركسية تنتقل الى مواقع الطبقات المضطهَدة المظلومة من العمال والفلاحين، كما ان فهمها للانتداب والاستعمار تميز جوهرياً عن فهم العناصر البورجوازية المعادية للاستعمار التي لم تستطع ادراك المحتوى الاقتصادي لظهور الامبريالية.

تميز التيار الماركسي عن الديمقراطي الثوري بالجرأة والاقدام في طرح المشكلات الداخلية والخارجية، كما اتصف بالوضوح الفكري وفي الدخول في صراع مكشوف مع الافكار الاقطاعية البالية والبورجوازية الاستثمارية، على الرغم من ميل بعض

عناصره بعد سنة ١٩٣٦ الى المهادنة مع البورجوازية والى عدم تسليط الاضواء بشكل كاف على الاقطاعية.

قام الماركسيون العرب بنشر الفكر الاشتراكية عن طريق ترجمة بعض المؤلفات الماركسية الصادرة على الغالب في اللغة الافرنسية، أوعن طريق تأليف الكتب والكتيبات ووضع النشرات واصدار وتوزيع المنشورات الشارحة للمبادىء الاشتراكية، أو لطرق الحياة في الدولة الاشتراكية السوفياتية الوحيدة آنذاك.

وليس بين ايدينا إلا كمية ضئيلة من الكتب والمنشورات المؤلفة أو المترجمة، نظراً لأن قسماً منها صدر بشكل سري أيام الصراع ضد الانتداب وتداولته الايدي في الخفاء ولا نعلم ماذا بقي من هذه الكتيبات والمنشورات السرية على قيد الحياة. أما الكتب والمنشورات المطبوعة بشكل علني فإن حالتها أحسن ويمكن الحصول عليها بعد جهود مضنية نظراً لندرتها، اذ ان القسم الاكبر منها التهمته نار «التنانير» والمدافىء أيام العهود الرجعية والارهابية. ولم يبق من هذه المؤلفات والنشرات الموضوعة قبل الحرب العالمية الثانية الا النذر اليسير. وهو يحتاج الى جهود جماعية وأجواء علمية من أجل جمعه وتنسيقه وتحليله وبيان أثره.

وان مانملك، حتى الآن، من المؤلفات الماركسية الصادرة قبل الحرب العالمية الثانية لايتعدى قطرة من اناء ملىء بالماء، ومع ذلك فهو يعطينا فكرة عامة عن الموضوعات التي عالجها الفكر العربي التقدمي آنذاك. كما أن هذه المؤلفات أو المقدمات الموضوعة لهذه المؤلفات تلقي الاضواء على مدى فهم الرواد الماركسيين العرب الأوائل للمبادىء الاشتراكية، وتدل على مدى انتشار هذه الافكار وتقبل الفئات الاجتماعية المختلفة لها.

ولابد من الاشارة هنا، الى ان تبني المباديء الماركسية، والاعتراف بصحتها لايعني فهمها جملة واستيعاب سائر مكوناتها وجوانبها المتعددة. فتطبيق مبادىء الاشتراكية العلمية على الواقع العربي، من قبل أناس لايزالون في أول الطريق، لم يكن بالامر السهل. والخطأ والصواب محتمل الوقوع هنا سواء في مجال فهم النظرية أم في ميدان تطبيقاتها العملية. ولذا فإن الخطأ والصواب عند التقييم يجب وضعهما في اطارهما التاريخي، والنظر إليهما بمنظار ذلك العصر انطلاقا من واقع العلاقات

الاجتماعية المتناقضة والظروف العربية والدولية المعقدة والمختلفة.

واذا اكدنا على هذا المقطع فلكي ننبه القارىء وندعوه الى النظر الى التيارات الفكرية عامة، والتيار الماركسي خاصة، من هذه الزاوية، زاوية كون الحياة معقدة تعتمل في احشائها التناقضات المتنوعة وهي في تطور مستمر وتغير لاينتهي. وهذا التطور لاتفصله عن بعضه سدود عالية، بل هو تيار جار متصل الذرات والحلقات. وان التأكيد على هذه الموضوعات ضرورة لامحيد عنها لفهم التيار الماركسي في بلاد العرب بشكل أفضل.

١ ـ مرحلة ماقبل ١٩٣٠

ان مرحلة ماقبل **١٩٣٠** الماركسية هي في الواقع مرحلة التيار الديمقراطي الثوري ذاتها، التي مهدت الطريق أمام التيار الماركسي بعد عام **١٩٣٠**. وقد تكلمنا في الفصل الرابع عن التيار الديمقراطي الثوري واطلقنا على سنواته الاولى قبل **١٩٢٨** اسم «مرحلة يزبك»، الذي تأثر بالفكر الاشتراكي عن طريق معرفته للغة الفرنسية. كما ان التيار الديمقراطي الثوري والماركسي في سورية ولبنان تأثر في هذه الفترة تأثراً واضحاً بترجمات وكتابات التقدميين المصريين، الذين كانوا في العشرينات ـ بالمقارنة الى السوريين ـ على مستوى ارفع من النضج الفكري وعلى صلة وثيقة بالفكر الثوري. ولذا فإن تأثيرهم كان ظاهراً في سورية ولبنان وفلسطين والعراق.

كان القطر المصري الموئل الأول للديمقراطيين الثوريين المصريين منهم والسوريّين، الذين عبّدوا الطريق امام الفكر الاشتراكي العلمي. ففي مصر حمل في مستهل هذا القرن كل من اللبنانيين فرح انطون والدكتور شبلي شميل لواء الاشتراكية. ودخل الدكتور شميل في معركة كتابية جريئة مع مجلتي الهلال والمقتطف، اللتين كانتا تسفهان اغراض الاشتراكية وتعلنان عن مفاسدها.

وكان سلامة موسى ايضا ـ ورد ذكره في الفصل السابق ـ من أوائل الداعين للافكار الاشتراكية ـ بصرف النظر عن نوعية المفاهيم التي نادى بها. وسلامة موسى هو من الذين اسسوا في مصر الحزب الاشتراكي عام **١٩٢٠**. وهو الذي ألف كتاباً عن «الاشتراكية»، اصدرته المطبعة المصرية الاهلية، غرضه «تنوير الرأي العام عن ماهية

الاشتراكية مع بيان اغراض الاشتراكيين في أوروبا وامريكا». وقد طمح سلامة موسى من وراء نشر هذا الكتاب «ان يكون خميرة تختمر بها الافكار الى حين تستعد ألبلاد للاشتراكية»[101].

دخل ايضا في عداد الرعيل «الاشتراكي الديموقراطي» الأول نقولا حداد صاحب كتاب «الاشتراكية» الصادر سنة ١٩٢٠ عن مطبعة الهلال بمصر. وقد تضمن احد فصول هذا الكتاب بحثاً بعنوان «مصير العالم الى الاشتراكية» دل على مدى ايمان نقولا حداد بالاشتراكية.

جاء في كلمة ادارة الهلال بمناسبة صدور الكتاب مايلي: «قد اصبح للاشتراكية شأن عظيم في حياة الشعوب الغربية ولاسيما بعد الحرب العظمى. فجدير بقراء العربية أن يطلعوا على حقيقة هذا المذهب وقضاياه ومراميه الى غير ذلك من المباحث... ولما كانت اللغة العربية تفتقر الى كتاب في هذا الموضوع طلبنا الى الكاتب...» الكتابة في هذا المجال.

ولكن ادارة الهلال سرعان ماتدفع «التهمة» عنها فتعلن في نهاية كلمتها «وليست غاية الكتاب نشر الدعوة الاشتراكية او الحث على الانخراط في سلك الاحزاب الاشتراكية»[102].

وقبلا حاول سلامة موسى أيضا دفع «تهمة» تأليف احزاب اشتراكية، اذ قال في فاتحة كتابه «الاشتراكية»: ولست طامحا ان تعد هذه الرسالة دعوة للجمهور الى الاشتراكية ولا ان تكون سبباً في تأليف حزب أو جمعية. ولكني اطرحها أمام الجمهور القارىء عسى أن تكون خميرة تختمر بها الافكار الى حين تستعد البلاد للاشتراكية»[103].

لم يكن نشاط الديمقراطيين الثوريين لشق الطريق أمام الافكار الاشتراكية محض صدفة، بل أنه كان جزءاً من العملية الثورية التي عاشها العالم في مرحلة بداية

(١٠١) جذور الاشتراكية: سلامة موسى - نقولا حداد - مع مقدمة بقلم كامل أبو جابر. دار الطليعة. طبعة جديدة. بيروت حزيران ١٩٦٤. ص ٩.

(١٠٢) حداد، نقولا: «الاشتراكية». نشرته ادارة مجلة الهلال. مصر مط الهلال ١٩٢٠.

(١٠٣) المصدر نفسه، المقدمة.

غروب شمس الرأسمالية وظهور الثورات الاشتراكية. كما أنه كان ايضا انعكاساً لآلام الطبقات المضطهَدة المظلومَة ودعوة لتحررها وانعتاها. لقد كان هذا النشاط أيضا صدى لبداية تمايز اليمين واليسار داخل حركة التحرر العربية.

تحت تأثير هذه العوامل وفي مناخ الجو المشبع باخبار ثورة اكتوبر الاشتراكية - بين مؤيد ومعارض - وبالروايات المتعددة المتنوعة حول قائد الثورة لينين، في هذه الظروف صدر سنة ١٩٢٢ في مصر أول كتاب - على مانعتقد - مترجم حرفياً إلى اللغة العربية لاحد كلاسيكيي الاشتراكية العلمية، وهذا الكتاب هو «الدولة والثورة» للينين تعريب احمد رفعت.

صدر كتاب لينين «الدولة والثورة» في مصر سنة ١٩٢٢ بعنوان مغاير للاصل على الشكل التالي:

مذكرات لينين
عن الحروب الاوروبية ماضيها وحاضرها
تأليف
ن. لينين
رئيس الجمهورية الروسية
عربها عن الفرنسية
أحمد رفعت
مصر ١٩٢٢

لماذا لم يصدر الكتاب بعنوانه الاصلي وصدر بهذا العنوان المثير والمغاير لعنوان الكتاب في آن واحد؟

يُعتقد ان الناشر اختار هذا العنوان، في وقت كانت لاتزال احداث الحرب العالمية الأولى طرية في الاذهان، ليثير انتباه القارىء ويدفعه لشراء الكتاب. والمعرب ذاته لم يكن يتحلى بروح طبقية ولم يكن مُعتنقاً للفكر الماركسي، كما لايمكن تصنيفه في عداد التيار الديمقراطي الثوري. ولهذا فإنه وضع عنواناً آخر للكتاب. وكان هدفه

من تعـريب الكتـاب ـ على حد قولـه «وصـل سلسلة المعلومات الاكيدة عن تفاصيل الحرب الكبرى، تلك المعلومات، التي بدأتها بكتاب هندنبرج ثم بكتاب وليم ليكيه عن راسبوتين . . . . »[١٠٤].

فالمعـرب اذن مترجم محترف، قادتـه ظروف مابعـد الحـرب لترجمة هذا السفر الهـام منسـاقـاً في ذلـك وراء رغبته في ترجمة روائع الفكر العالمي، وكذلك انسجاماً مع نزعتـه «الـوطنيـة العثمانية» أو «الجامعة الشرقية»، لأن لينين ـ كما كتب رفعت ـ «العدو الالـد لدول الاستعـمار. فقـد رأيت ان انقل الى جمهورنا هذا الكتاب الذي أودع فيه لينين خلاصة أفكاره التي حملته على قلب كيان دولة الاستبداد القيصري».

اعقب كلمـة المعـرب المؤلفـة من صفحة ونصف كلمة أخرى ـ لعلها للناشر ـ مغفلة من توقيـع كاتبهـا، ولكنها تتصف بالوضوح الفكري. ويظهر ان كاتب الكلمة الثـانيـة، الـذي تعمد اغفال اسمه، كان على وفاق مع الفكر الاشتراكي. ويبدو أنه هو الذي دفع المعرب احمد رفعت لترجمة الكتاب.

جاء في الكلمة المغفلة التوقيع الوصف التالي للينين: [١٠٥]

«لقد خاضت الصحف كثيراً في سيرة لينين واوردت عنه الانباء الجمة لأن من الممكن اعتباره اعظم رجل على وجه الكرة الارضية في الوقت الحاضر».

«لينـين مثـل ماركس ترك المحـامـاة عن الاشخـاص الى مهنتـه الحقيقية وهي المدافعة عن الانسانية المظلومة المضطهدة المعذبة» كما «بدأ الدفاع عن عضو الانسانية المعذب في وطنه وهو الطبقة المستعبَدة من شعبه».

«. . والرجل في مأكله وملبسه ومسكنه ملتزم منتهى البساطة ولا هم له إلا نشر مبـادئـه الحـرة التي ترمي إلى تحريـر العـالم بأسـره من نير الاستعباد وتجعل كل الناس اخواناً متساوين . . ».

---

(١٠٤) مذكـرات لينـين عن الحـروب الاوروبيـة ماضيهـا وحـاضـرهـا. تأليف ن. لينـين رئيس الجمهورية الروسية. عربها عن الفرنسوية أحمد رفعت. مصر ١٩٢٢.

(١٠٥) المصدر نفسه، ص ٤ ـ ٥.

بعـد الانتهـاء من تعـريب كتاب «الدولة والثورة» أفرد المعرب فصلا خاصا من تأليفـه تحت عنـوان «ايضاحات لازمة»[106]. فماذا تحتوي هذه الايضاحات التي كتبها المعرب في ٢٤ يناير ١٩٢٢؟....

١ ـ اذا تركنا الغلاف وعنوانه، الذي ذكرنا اسباب وضعه، فإن المترجم عرّب الكتاب باسم «الحكومة والثورة» بدلا من «الدولة والثورة».

٢ ـ ترجم كلمـة الكـومـونـة بـ «المشـاعيـة». كما ترجم كلمـة الشيـوعيـة بـ «المشـاعية». ومعنى ذلك أن كلمة «الشيوعية» لم تكن متداولة ومستعملة بعد في اللغة العربية. والبولشفية هو الاسم الذي اطلق على الشيوعية آنذاك.

٣ ـ تعـرّض المعـرب لفـريدريك انجلس وكتب اسمه «انجيلس» ومما كتبه عن انجلس أنـه «الصـديق الحميم لماركس واكـبر مؤيدي مذهبه المشاعي».. «وبعد ان مات ماركس تولى انجيلس نشـر آثـار قلمـه واعـاد طبـع مانشـر منهـا». «وقـد ألف انجلس عدة كتب أهمها كتاب «الاسرة النقية».

٤ ـ يتبـين من فصـل «ايضاحات لازمة» ان اصداء ثورة اكتوبر كانت مسموعة في مصـر فـ «المشـارقـة» كما كتب احمد رفعت «اخذوا في كل مكان يترقبون تدفق التيار البولشفي إلى بلادهم لينقذهم من وطأة ذلك الكابوس» أي الدول الاستعمارية.

ولكن هذا الـترقب المشفـوع بالـرجـاء لم يكن عاماً، بل شمل الفئات الوطنية التقدمية في المجتمع، أما القوى الاخرى فلم يكن موقفها موقفاً محبذا، بدليل ماكتبه المعرب: «قامت ضجة في مصر حول البلشفية وتعرض لها بعض كبار المشايخ يعزوها الى أصول لاتنتمي اليها بتاتاً».

ويـرد المعـرب على هؤلاء قائـلا: «غـير أن الـذي يهمنـا الـوقوف عليه هو ان البولشفية ليست ديانة ولا عقيدة وإنما هي مبادىء كمالية ترمي إلى تحسين حالة النوع البشـري فهي ليست سوى المشـاعيـة نفسهـا متجددة في هيئات السوفييت والمجالس التمثيلية الروسية. وباعتبار ان المشاعية أو البولشفية أمنية كمالية يمكننا أن نقول بأنها لاتفسـد الاخـلاق ولا تتعرض للاديان والعقائد مادامت متبعة عند اربابها خاصة أي مادام المسلم يصلي في مسجده والمسيحي في كنيسته والاسرائيلي في كنيسه».

---

(١٠٦) المصدر نفسه، ص ٢٣٨ ـ ٢٥٣.

وفي خاتمة «ايضاحات لازمة» يوضح المعرب هدفه من تعريب كتاب لينين «الدولة والثورة» بالصورة التالية :[107] .

«ولنعد إلى ماكنا فيه من أمر هذا الكتاب فنقول أننا أردنا بتعريبه ان يعرف الناس من هو لينين وما هي مبادئه في الوقت الذي تخوض الصحف في امره بخصوص دعوة الدول للحضور في مؤتمر جنوى» .

«والذي يهمنا نحن المصريين من محتويات هذا الكتاب هو الوقوف على مختلف الافكار في العالم الراقي حتى لانبقى في مؤخرة الشعوب المستنيرة التي تطلب حقوقها بعقل وعلم فإن أعظم خدمة يمكن تقديمها لابناء الوطن هي تغذية عقولهم بالافكار الحديثة وتركهم يتخيرون الصالح لهم» .

ان تعريب كتاب لينين «الدولة والثورة» في مصر سنة **١٩٢٢** يُعد بداية مرحلة جديدة في نشر الفكر الاشتراكي العلمي . فقبل هذا التاريخ كانت تنقل إلى العربية أفكار الاشتراكية الديمقراطية ، التي اطلق عليها أيضا البرلمانية . وكانت أفكار الماركسية ترد عرضا كجزء من الافكار الاشتراكية ، وأحياناً كثيرة كانت تنقل محرفة مشوشة أو غير مفهومة . وقبل عام **١٩٢٢** لم تكن كتب كلاسيكيي الاشتراكية العلمية معروفة لدى القارىالعربي إلا بالسماع[108] .ولهذا فإن تعريب «الدولة والثورة» كان بداية مرحلة جديدة لنشر مبادىء الاشتراكية العلمية وترجمة كتبها ترجمة حرفية .

---

(١٠٧) المصدر نفسه ، ص ٢٥٣ .

(١٠٨) لعل أول محاولة لعرض مبادىء الماركسية وتاريخها نجدها في كتاب «تاريخ المذاهب الاشتراكية» لمصطفى المنصوري الصادر عام ١٩١٥ في القاهرة . وهو يعرض جوهر الاشتراكية العلمية معتمداً بالكامل على مؤلف انجلز : «تطور الاشتراكية من الطوباوية الى العلم» . وعلى الرغم من قيام المنصوري بتعميم الماركسية إلا أنه لم يتخذ هو نفسه مواقف ماركسية . وكان المنصوري يدرك أن ظروف الدعوة للافكار الاشتراكية لم تنضج بعد في مصر . وقد كتب المنصوري عن ماركس عام ١٩١٥ مايلي : «إن كارل ماركس بلا شك هو اعظم دعاة الاشتراكية وأكبر انصارها وهو أول من وضع برنامجاً لحزب اشتراكي ، وهو صاحب كتاب رأس المال ، وهو الذي وضع قانون الجمعية الدولية» نقلاً عن : ليفين : «الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث في لبنان وسوريا ومصر» ، ترجمة بشير السباعي . بيروت ١٩٧٨ . ص ٢٧٩ .

٢ ـ مرحلة الترجمة (الأولى)

بعد ترجمة الدولة والثورة في مصر، لانعلم، هل عُرّبت خلال العشر سنوات اللاحقة كتب أخرى لكلاسيكيي الاشتراكية العلمية؟ . لأن الكتاب الثاني الموجود بين أيدينا، والذي ترجم بعد «الدولة والثورة» للينين هو «البيان الشيوعي» لكارل ماركس وفريدريك إنجلز المترجم في دمشق سنة **١٩٣٣** من قبل خالد بكداش.

كان تعريب هذا الكتاب سنة **١٩٣٣** نقطة تحول اخرى ذات نوعية جديدة في نشر مبادىء الاشتراكية العلمية في الوطن العربي. لقد تكلمنا مافيه الكفاية عن ظروف نشر كتاب «الدولة والثورة» سنة **١٩٢٢** في مصر وكذلك عن وضع المعرب. ومن خلال دراسة ترجمة الكتابين «الدولة والثورة» و«البيان الشيوعي» تبدو الفروق الجوهرية الشاسعة بين الترجمتين وبين المعربين.

فخالد بكداش كان قد اعلن عن انتمائه الى الماركسية سنة **١٩٣٠** قبل أن يعرب «البيان الشيوعى» بسنتين ونيف. ولاشك أنه استوعب خلال هذه المدة بعض جوانب الماركسية مما مكنه من ترجمة ذلك المؤلف المشهور بامانة تامة في النقل مع تعابير دقيقة مفهومة. وهذه الأمور لم تتسن لمعرب كتاب «الدولة والثورة» في سنة **١٩٢٢**. وبعبارة اخرى ان الفارق الزمني والتطورات الفكرية والاقتصادية والسياسية، التي حدثت خلال احدى عشر سنة جعلت الفرق شاسعاً بين الترجمتين والمعربين.

لقد كانت ترجمة «البيان الشيوعي» بهذه الدقة وهذا الوضوح ثمرة لتطور الافكار الاشتراكية العلمية في الوطن العربي، ودليلاً واضحاً على أن الفكر الماركسي في الوطن العربي قد شق لنفسه طريقاً أصبحت بعض أجزائه معبدة. كما دل على المستوى الفكري الرفيع الذي بلغه رواد الاشتراكية من الرعيل الثاني. (ضمّ الرعيل الأول د. شبلي شميل وسلامة موسى ونقولا حداد وغيرهم).

إن هذا النضج (النسبي طبعاً) الذي وصل اليه الفكر الماركسي على أرض العروبة سنة **١٩٣٣** يبدو جليا في كون ترجمة خالد بكداش للبيان الشيوعي سنة **١٩٣٣** لاتزال إلى الآن معتمدة من قبل دور النشر العربية، التي أعادت نشر الكتاب أكثر من مرة مع تصحيح طفيف لبعض التعابير والكلمات. أما ترجمة «الدولة

والثـورة» في سنـة ١٩٢٢ فلا يمكن الاعتـماد عليها. ولهذا فإن كتاب «الدولة والثورة» أعيد تعريبه من جديد بعد الحرب العالمية الثانية.

بعد تعريب «البيان الشيوعي» بسنتين صدر في دمشق أيضا كراس لفريدريك انجلس، عبارة عن المادة الخام أو بالاصح التصميم، الذي هيأه انجلس قبل التقائه بماركس لوضـع البيـان الشيـوعي سنـة ١٨٤٧. ولهـذا فيمكننا القول أن اصدار هذا المخطـوط باللغـة العـربية بعد فترة وجيزة من نشر البيان الشيوعي. يعد شرحاً لبعض جوانب البيـان بأفكـار مبسطـة يستطيـع القـارىء العادي فهمها بسهولة. ترجم هذا المخطوط عن الافرنسية مصطفى حسنى (نقولا شاوي) في دمشق سنة ١٩٣٥.

لم يكتب المعـرب مصطفى حسني مقـدمة بقلمه للكتاب، وإنما اكتفى بمقدمة ارسيل أولينه، مترجم الكتاب من اللغة الالمانية الى اللغة الافرنسية. ويذكر المعرب في حاشية الصفحة ١٣ أن «اسم الكتاب الاصلي هو «مبادىء الشيوعية» وقد اسميناه «تعـاليم المـاركسيـة» لاسبـاب فنيـة محضـة تتعلق بمسألتي النشـر والتوزيع[١٠٩]. لأن الشيوعية كانت لاتزال ممنوعة في سنة ١٩٣٥، ولم يسمح بكتابتها أو التلفظ بها علنا الا بعـد الهبـة الجـماهـير يـة المعـاديـة للاستعمار في شباط ـ آذار من عام ١٩٣٦ والمعروفة بالاضراب الستيني.

٣ ـ سليم خياطة

في النصف الأول من الثـلاثينـات وفي فترة ترجمة «البيان الشيوعي» و«التعاليم الماركسية» برز كاتب عربي لبناني ماركسي الهوى ـ كان من المنادين بالوحدة العربية ـ وعقـد لهذا الغـرض مؤتمـراً للمثقفين العرب لبحث القضية العربية في معلقة زحلة في اواخـر شتـاء ١٩٣٤. وكـان من الحـاضـرين ميشيل عفلق وصلاح البيطار ومصطفى العريس وكامل عياد ويوسف خطار الحلو. وصدر عن المؤتمر قرار طبع في كراس تحت

---

(١٠٩) انجلس، فريدريك: «تعاليم الماركسية» ـ تعريب مصطفى حسني. دمشق ١٩٣٥. ص ١٣.

عنوان «اتحاد البلدان العربية» كما اقر فكرة اصدار مجلة[110] وضع هذا الكاتب عدة مؤلفات تستحق الوقوف عندها طويلاً، لما لها من أهمية تاريخية. . . . هذا الكاتب والمفكر الماركسي هو سليم خياطة.

في سنوات ١٩٣٣ ـ ١٩٣٥ نشر سليم خياطة العربي اللبناني الطرابلسي، الذي قضى ردحا من حياته في أيام الحرب العالمية الاولى مهاجراً في الولايات المتحدة، عدة كتب اسهمت في نشر الافكار الماركسية في المشرق العربي في سنوات العقد الرابع. كان سليم خياطة بعد عودته من المهجر بعيداً عن السياسة قابعاً، كما يذكر عن نفسه ـ في صومعة احلام عاجية، ثم اخذ يُطل على العالم بعين جديدة ولكنه لم يكن يجد قبل سنة ١٩٣٠ «من يقف مع الشعب قائدا ايام المحنة الا شيوخاً ذوي عقلية مستعارة من الحقب الداجية، والا شبابا متدهوراً يتمثل بشيوخ العهد العثماني ويقتبس فكره ـ ان اقتبس فكراً ـ من ثقافة عباسية خليعة أو ثقافة فرنسية تتقاسمها «رومانتيكية» متخنثة و«اكاديمية» يابسة رجعية، والا قبضة من سيدات متبجحات يعتقدون بأنفسهن التقدم وماهن في الحقيقة بأحس حال من اخواتهن الجاهلات المؤودات».

* * *

- ١ -

اطلع سليم خياطة عن طريق معرفته باللغتين الافرنسية والانكليزية وعن طريق نشاط التيار الديموقراطي الثوري وطلائع الماركسيين المحليين على الفكر الاشتراكي. وهذا مادفعه للانحياز الى جانب الطبقات والشعوب المضطهدة والمظلومة. وعندما أتاحت له الظروف القيام بجولة استطلاعية في انحاء اوروبا الغربية والاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الف كتاباً في أواخر عام ١٩٣٣ بعنوان :

---

(١١٠) من مقابلة مع يوسف خطار الحلو في ١٣/ ٤/ ١٩٧٥. وقد نشر الحلو تفاصيل هذا المؤتمر في كتاباته اللاحقة. والمجلة التي تقرر اصدارها في الطليعة.

«**حُمَيَّات في الغـرب، جولات، دراسيـة بين صراع الجماعات في العالم الغربي**» «رمى من وراء نشـره الى اطـلاع العـرب على قضـايا الغرب نظراً لأهمية الدور الذي يلعبه الغرب على مسرح وجودنا».

في هذا الكتـاب يعلن سليم خيـاطـة صراحة عن تحزبه الفكري فيقول: «فأنا أول مادخلت هذا المسلك اقتحمته بنظرة شرقي يحاول أن يجد في الغرب ذلك الدرس الذي يستفيد منه الشرق ـ الشرق العربي خاصة ـ في عراكه وفي سيره مع الغرب. ان هذه النظـرة بعـين شرقيـة هي التحيـز ـ ان جازت التسميـة ـ الذي لم نستطيع التخلي عنـه. وبعـد هذا، قد لاتكـون اقتنعت مني، فتسألني مرة أخـرى لماذا احشـر نظرات شخصية، وعبارات حارة في ابحاث كان الاجدر بها الا تكون سوى اخبار محض. اما انـا فأجيبـك، بأن عصـر ابن بطـوطـة وابنَ جبـير لم يعـد، بأن العـالم الحاضر شديد التحزب.. ومن لايتحزب، من لايناضل اليوم، قل عليه ألف سلام. أن العالم على مفترق طرق، فاما طريق الى سفر، واما سبيل سوي، نحن ننشد السبيل السوي».

تضمن كتـاب سليم خيـاطـة «حميـات في الغـرب» على مقدمة وعدة فصول: صليبية صهيون، تأملات ومحاورات، فاشستية، فاشستية أيضاً، حطام، مستقبل.

احتلت الابحاث المتعلقة بالصهيونية مكاناً بارزاً من كتاب «حُمَيَّات في الغرب» ومما يسترعي الانتبـاه في هذا الكتاب التقييم العلمي الواضح للصهيونية ونشاطها. فالصهـاينـة، كما يقـول المؤلف، غزاة جاؤوا من كل بقعـة مرتبطون بعروة «فبركتها» شركـة مريبـة، بشبـاك عنكبـوتيـة رميت لتصيـد التـائهـين. والصهيونية ككل حركة استعمارية تنحصر في النقطتين التاليتين:

١ ـ انها آلة بيد الاستعمار لمحاربة نهضة العرب التحررية الوطنية.

٢ ـ آلـة لمحـاربـة أعظم وأقـوى دعـاة ودعـامـة لكـل حركة تحرر وطني تقوم في الشرق، أعني اتحاد الجمهوريات السوفياتية.

ويشـير خيـاطـة الى مقـاومـة الصهيـونيـين لعمليـة اقامة دولة لليهود في اقليم بيرابيجـان في الاتحـاد السوفياتي، فيقول: «بيد أن اليهودية ـ الصهيونية وهي الحركة الرأسمالية، التوسعية، الدينية، المتعصبة ـ لاترى حلها في بيرابيجان، التي يرى اليهود السوفييت في اقامتها مساعدة جلى للعرب في كفاحهم ضد الصهيونية في فلسطين».

ثم يحلل سليم خياطة، بعين ماركسية، طبيعة الصهيونيين اعتماداً على المناقشات التي أجراها سنة ١٩٣٢ مع الضهيونيين وهم «اناس ينطوون على مناحي جمة تجمع بين عجرفة الهوس الوطني Chauvinisme وبين اخلاقية من صميم البورجوازية الاوروبية، أي الطبقة الوسطى، التي تبتدىء بوكيل الدعاوى الصغيرة وكاتب الدواوين وتنتهي بصاحب الملايين. لقد كانوا في اعماقهم وفي واقعهم، من لباب البورجوازية، فكان تخلقهم وتفكيرهم يعبر عن احساس فردي، امتيازي سقيم». وهنا كشف الكاتب العربي الماركسي خياطة عنصرية الصهيونية قائلاً: «كنت اشعر بالاحتقار الذي يبطنون لكل من لايدخل في ملتهم. وكان ازدراؤهم للعرب بليغا، ينظرون إليهم كما تنظر طبقة من الامريكيين إلى العبيد والمهاجرين الذين لايدخلون في العرق الانكلو-سكسوني، أو الأشقر عموماً».

«العربي في مفهومهم شيء بذيء، وحشي، يُشمأز منه. عقيدة شعب الله الخاص عميقة الانغراس في نفوسهم. رؤيا مجد اسرائيل يسكرهم كما أسكر خيال «دوتشلاند فوق كل شيء» وسوبرمان نيتشه أهل المانيا، كما يتهوس لهذه المثالية الممسوخة اليوم محمومو الحركة الهتلرية».

وبعد ذلك يؤكد خياطة على أن الحركة الصهيونية حركة منحرفة ومصطنعة. لأنها تستند إلى اليهودية، وهي دين، ولأن الدين لم يعد باستطاعته ان يكون رابطة في عصرنا العلمي. فالدين، كما يقول عروة قديمة انحلت مع سقوط المقامات الروحية الزمنية، كالبابوية والخلافة.

ويشير خياطة الى الهجمات التي يتعرض لها «الشعب العربي العامل» في سنة ١٩٣٢ وهي ثلاثة:

١ - الاستعمار الانكليزي.

٢ - الرأسمالية الصهيونية.

٣ - الزعامات الاقطاعية، التي تدأب على حفر الهوة تحت اقدام هذا الشعب ونثر غطاء كاذب من القش فوقها.

وتمنى خياطة وجود «شبيبة عربية ثائرة، تدرك واجبها وحقيقة موقف البلاد وتعمل على تحرير شعب فلسطين من نير الاستعمار والرأسمال والاقطاع، يداً بيد مع الفئات التي تناضل لهذا الهدف».

فعلى «الفلاح والعامل وصغار الباعة والشباب المفكر العربي» أن يناضلوا مع «المخلصين لكل الحق، للحق العربي كما للحق اليهودي، للحق الانساني العام».

فمن هم هؤلاء المخلصون؟ هم كما يقول خياطة «الذين وهبوا اليهود مقاطعة بيرابيجان (في الاتحاد السوفياتي - المؤلف) وطناً أكبر من فلسطين جميعاً.. هم الحزب الذي يجمع شتات الطبقات المهضومة والعرب من هذه الطبقة... ولاشك بأن نجاة العرب الفلسطينيين، في نهاية المرحلة لا تكون إلا بالاشتراك معهم في النضال».

دعا سليم خياطة، كمفكر ماركسي مضطلع في أوائل الثلاثينات على وثائق الحركة الشيوعية، وكإنسان عربي تقدمي زار الاتحاد السوفياتي والغرب، إلى التحالف بين حركة التحرر الوطني العربية والدولة الاشتراكية، ورأى في هذا التحالف الطريق للخلاص من الصهيونية..

هذا اهم ما كتبه سنة **١٩٣٣** المفكر العربي الماركسي اللبناني الطرابلسي في فصلي «صليبية صهيون» و«تأملات ومحاورات» حول الصهيونية. ولكن المؤلف يعود في المقدمة التي كتبها بعد الانتهاء من كتابه «حُمَّيات في الغرب» إلى الحديث مطولاً عن الصهيونية في ضوء ما كتبه وفي ضوء الاحداث وتتبع النتائج المادية للحرب التي شنتها في أوائل الثلاثينات الدوائر الاستعمارية والرأسمالية على فلسطين وسكانها العرب كما يلي:

١ - تفقير الشعب العربي الفلسطيني وتشريد ٤٠,٠٠٠ عائلة من الفلاحين، الذين يبيتون في الطرقات لا مأكل لهم ولا مسكن، بسبب استيلاء المستوطنين اليهود على أراضيهم.

٢ - استخدام الرأسماليين اليهود لعمال يهود دون العرب، واستخدام أصحاب رؤوس الاموال من العرب أنفسهم لليهود بسبب افضليتهم، مما عطل ايضاً، موارد الرزق لعدد يتراوح بين عشرة وخمسة عشر ألف عائلة عربية من سكان المدن.

٣ - استجلاب الاستعمار والرأسمالية اليهودية كميات كبيرة من جماهير اليهود إلى فلسطين بقصد استعمالهم ذريعة لاستعباد الشعب العربي استعباداً مطلقاً يجعل مركزهم في البلاد كمركز اقوام «الهيلوت» من سبارطة، أو كمركز الفلاحين في سوريا من أرباب الاقطاع فيها.

٤ ـ معاندة جماهير العرب لهذا الطغيان وكان رد الفعل شديداً تجسّد في المظاهرات الاخيرة التي عمّت مدن فلسطين، والتي جابهها الاستعمار الانكليزي ـ الصهيوني بفظاعته المعروفة، بحيث انتهت مظاهرات العرب السلمية إلى وقوع عدد كبير منهم قتلى، وإلى وقوع جرحى يعدون بالمئات.

استنادا إلى هذه الوقائع المذكورة في المقدمة أجرى المفكر العربي الماركسي سليم خياطة الداعي إلى «التآخي والاتحاد بين الشعوب والطبقات المهضومة» المضطهدة، بعض التعديلات الطفيفة على آرائه المتعلقة باسلوب مقاومة الصهيونية. ففي فصلّي كتابه:

«صليبية صهيون» و «تأملات ومحاولات» نصح المؤلف جماهير العرب بمشاركة العناصر اليهودية التي تقاوم الاستعمار. أما في المقدمة فقد قلب الآية ودعا الجماهير اليهودية إلى مشاركة العرب في النضال ضد الاستعمار. «لأن اساس المقاومة يجب ان يكون العرب، ولأن العرب هم المستثمَرون استثماراً مطلقاً، بينما الطبقة العاملة من اليهود تكاد تكون، بالنسبة إلى سواد الشعب العربي، من البرجوازية الصغيرة. زد على ذلك ان اليهود ككل، عبارة عن جنود للاستعمار، يقومون بوظيفة آلة له. وكما ان وجود افراد أو فرق في الجيش تقاوم الجيش وتحاربه وتحارب فكرة الحرب نفسها، لا يعني بأن الواجب على الجماعات التي تعتنق وتعمل لنفس الغاية، والتي هي خارج نطاق الجيش، ان تلتحق بعناصر المقاومة في الجيش وتكون تابعاً لها، كذلك وجود عناصر يهودية طيبة تقاوم الصهيونية لا يعني ان المقاومين الاصليين يجب ان ينضموا إليهم. على هذا نجد ان كلمتنا (والكلام لسليم خياطة) تنقلب، الآن، من دعوة جماهير العرب للانضمام إلى صفوف المقاومين من غير العرب، إلى نداء لهم بمعارضة الاستعمار والصهيونية وحلفاء الاستعمار من زعماء العرب مباشرة. أما العمال اليهود الذين يستثمرهم الصهيونية والاستعمار، فإننا ننتظر منهم الدخول في المقاومة العربية، لأن ذلك في صالحهم. يجب ان تعلم العناصر اليهودية العاملة والثائرة والمقاومة للصهيونية، ان تحررها الاجتماعي لا يتم إلا بتحرر وطني تناله فلسطين كبلد عربي أولاً. هذا، ونعتقد بأن الفئات الثائرة بين اليهود، إذا كانت مخلصة حقيقة في مقاومتها للاستعمار والصهيونية، وإذا كانت غير دجالة مفسودة، نعم نعتقد، بأنها يجب عليها، لتحقيق فكرتها البعيدة، ان تنضم تحت لواء المقاومة العربية، بل وجوب

اصطباغها بصبغة عربية خالصة».

لم يكن موقف سليم خياطة من الصهيونية إلا صدى للفكر الماركسي اللينيني، الذي دخل منذ ان ظهرت الصهيونية في صراع عنيف معها. ويبدو واضحاً ان خياطة كان مطلعاً على مختلف جوانب هذا الصراع، وهو يرى في الصهيونية آلة لمحاربة أقوى دعامة لحركة التحرر الوطني وهو الاتحاد السوفيتي. ويروي خياطة أدق التفاصيل عن هذا الصراع مثل قيام دوراً كابلان اليهودية الصهيونية، التي حاولت أن تلعب دور شارلوت كوارداي، قاتلة مارا، باطلاق الرصاص على لينين زعيم الثورة مما عجّل في موته. ولا شك بان خياطة كان قد اطلع على الكتاب المفتوح للجنة التنفيذية للأممية الشيوعية في ٢٦ تشرين الثاني ١٩٣٠، الذي ورد فيه[111] «الصهيونية هي التعبير عن الجهود الاستثمارية والاضطهادية القوميةً للبرجوازية اليهودية، التي تستغل اضطهاد الاقليات القومية اليهودية في شرق أوروبا لفرض السياسة الامبريالية الرامية الى تأمين سيطرتها». ولا بد ان يكون خياطة قد قرأ ايضاً نشرات الحزب الشيوعي الفلسطيني سنة ١٩٣١، التي رأت في الصهيونية الفصيلة النضالية للإمبريالية، التي تقوم بكفاح إبادة استعماري ضد الجماهير الكادحة المحلية. ونشرات الحزب الشيوعي الفلسطيني في سنة ١٩٣١ تشير أيضاً إلى ان الصهيونية المتحالفة مع الامبريالية البريطانية تحولت «إلى اداة للإمبريالية البريطانية تستخدمها للقضاء على حركة التحرر القومية للجماهير العربية. وفي الوقت نفسه، فهي ذاتها تصنع اداة من السكان اليهود في فلسطين، بما في ذلك المراتب شبه ـ البروليتارية والبروليتارية»[112].

من خلال ما تقدم يتبين ان المفكر العربي سليم خياطة استقى معلوماته عن الصهيونية من أدبيات الفكر الماركسي ومن نشرات الأممية الشيوعية واحزابها المحلية، كما ان دراسته العملية للصهيونية عن كثب اعانته في اطلاق الاحكام الصائبة عليها.

---

(١١١) انظر: «الاممية الشيوعية والثورة العربية، وثائق ١٩٣١» ـ ترجمها الياس مرقص. بيروت ١٩٧٠.

(١١٢) انظر النص الكامل لوثيقة ممثلي الحزبين الشيوعيين السوري والفلسطيني في: Internasionale presse Korresbondans, Nr. 1, 1933/1 Yanuar, S.23 ff. الطبعة الالمانية. انظر الطبعة العربية في ترجمة مرقص، المصدر السابق. ص ١٥٩.

وتتمتـع كتـابـات خيـاطـة حول الصهيـونية باهمية تاريخية فائقة لكونها فضحت طبيعة الصهيونية ومراميها في وقت مبكر ومن وجهة نظر طبقية وأممية لا يرقى الشك إلى كونها معادية للصهيونية .

وخيـاطـة نفسه يعلن صراحة عداءه للإضطهاد السامي وقد وصفه بأنه «اخبث واسخف ما يمكن ان يوجد في هذا العصر، وهو عمل همجي ،وواجب على كل ذي انسانية، وفهم سليم لمصلحة شعوب الدنيا جميعاً، ان يقاومه». وبكن خياطة قام في الـوقت نفسـه بفضح من يحاول من الصهاينة استغلال المشاعر النبيلة المناهضة لشعار العداء للسامية قائلاً: «على أن ذلك لا يعني اننا نرضى لحركة نبيلة كهذه ان تنقلب إلى آلة استعمارية تندس لتحريكها اصابع متلاعبة».

هذا هو المفكـر المـاركسي سليم خيـاطـة، الـذي نشـط فكـريـاً في منتصف الثـلاثينـات وتطرق لجملة قضـايـا كانت تهم العـرب وفي طليعتهـا مسألـة الغـزو الصهيوني. ولكن ما كتبه خياطة عن الصهيونية لم يكن إلا غيضاً من فيض مما كتب. فلنبدأ الآن باستعراض الأمور الاخرى التي تطرق لها خياطة.

مع ان الحـديث عن الصهيـونيـة احتل مكاناً بارزاً من كتاب خياطة «حميات في الغـرب»، إلا ان الحديث عن الفاشية تضمن أيضاً فصلين كاملين بحث فيهما المؤلف مختلف القضايا. ولم يقتصر حديث خياطة في هذين الفصلين على الفاشستية فقط، التي سعى جاهـداً لفضـح مآربهـا ومـراميهـا بكل ماأوتيَ من مقدرة، بل تطرق لأمور هامة كثيرة كان من أهمها الأمور التاية:

١ ـ السخـريـة من الصحـافـة البورجوازية الاميركية، التي تزور الأخبار أولا تنقلها على حقيقتها.

٢ ـ كشف عورات «النظام البورجوازي وهو في الواقع نظام زوجات بحالة الشيوع».

٣ ـ التطورات التي تطـرأ على تفكـير وسلوك بعض الشخصيات البارزة، التي تبـدأ بدايـة حسنـة وتنتهي نهايـة سيئة. فموسوليني مثلاً الذي عارض في سنة ١٩١١ ارســال حملة إلى طرابلس الغــرب، اصبـح فيـما بعـد مضطهـد طرابلس ومن كبـار المستعمـرين. كتب خيـاطـة تعليقـاً على تطـور موسـوليني العكسي ما يلي: «لم يكن موسوليني الاشتراكي، في الواقع، إلا جاهلاً لتعاليم الماركسية التي كان يدعيها...

ومـا كان يعـرف من المبـادىء التي يدعيهـا ازيد بكثير من حمل رسم ماركس في جيبه. كثـير ون ممن عرفـوا من الثـوريـين ابتدأوا على هذا الشكل. ثم ما لبثوا ان انتهوا إلى واحـد من امـرين: اما إلى تثلج كتثلج الميت، وإما الى حرارة معاكسة، عدوة على طول الخط للحرارة الاولى».

٤ ـ **الهجوم المكشوف على «الاشتراكية الديموقراطية»**، التي قدمت للفاشستية المادة والزاد للتغرير بالطبقة العاملة.

٥ ـ **تحليل التطورات، التي طرأت على المسيحية والاسلام**. ولا شك بأن هذه الشـروح لم تكن من بنـات أفكار خياطة وحصيلة لجهده الفكري، بل هي ثمرة جهد ودراسـة مؤ رخـين عرب تقـدميين مختلفين اخذ عنهم خياطة ومنهم بندلي جوزي (من القـدس) صاحب كتـاب «من تاريـخ الحـركـات الفكـريـة في الاسلام» المطبوع سنة ١٩٢٨. وسنورد فيما يلي بعض المقاطع التي كتبها خياطة سنة ١٩٣٣ حول المسيحية والاسـلام، لنتبـين مدى الجـرأة التي تمتـع بها، ولنـدرك إلى أي درجة وصل التحليل الطبقي التاريخي لدى المفكرين العرب التقدميين.

كتب خيـاطـة: «ظهـرت المسيحيـة في البـدء عند الفقراء، وكانت روحها تمثل ثورتهم بمن فيهم الارقـاء والمتشـردون و «الجـلاد يتـوريـون» والقيـان وبنـات الهـوى الـخ... لكن لما استطـار شرهـا، ولم يعـد في متنـاول الطبقات الرفيعة القضاء عليها بمجـرد الـركـون إلى المـذابح و «الآرينات» صادقتها واندست فيها وقلبتها إلى حركة يتقـدمهـا الزعماء والكهان والقياصرة، ويديرونها لمصالحهم فسمموا الثورة بذلك. أما المسيـح، هذا الشبـح البعيـد، فقـد جعلوا منـه زعيـماً مقـدسـاً سكبوا عليه فيضاً من الغيبيات والخزعبلات، فلحقتهم الجموع وهي تظن انها تلحق بعيسى بن مريم».

أمـا المثـل الثـاني، فهـوحركـة الاسلام في بدء نشوئه. ويلاحـظ خياطة أن ما اعترى الاسلام هونفس ما حدث للمسيحية، إلا أن الفترة كانت أقصر وذات ظاهرة غريبـة. «فـالحـركة الثائرة في جزيرة العرب لم تلبث ان انقلبت في بضع سنوات، ضد الطبقات التي خرجت منها وقامت على اكتافها. اعني الارقاء، الأقليات المضطهدة، جماهـير الفقـراء، النسـاء، الشبان، المفلسين الخ... وكان ذلك لمّا اعترى العناصر الـرجعيـة الارستقـراطية والمالية، وهم سادة وتجار مكة وسواها، تخوف من هذه الحركة انـدفعـوا إلى الـدخـول في الاسـلام واستـلام مقاليد الامور وتوجيهها في مصلحتهم

الطبقية وحدها».

انهى خياطة كتابه «حميات في الغرب» بفصل «مستقبل» المليء بالتفاؤل والتشاؤم في آن واحد. فهو ليس متفائلاً من ان الجزء الثاني من كتابه سيتاح له الظهور، لأن «الوقت يطير والحرب قد تندلع بعد اسبوع او بعد شهر أو اقل او اكثر»، «وستسود الفوضى ثم تندلع الثورة وتوضع اسس العالم الآتي تحت رماد العالم الحاضر» وعلى الرغم من انتصار الفاشستية في ايطاليا والمانيا فإن خياطة كان متفائلاً بانقراضها فهو يختم كتابه بما يلي: «في ايطاليا، هذا اليوم، رغم الاضطهاد، توجد الجمعيات الانقلابية التي يخبرنا التاريخ ان الثورات دائماً تكون من ثمارها... سجون الفاشستية تمتلىء بالثائرين... ان المستقبل لغير الفاشستية. فلنتوجه شطر غيرها».

* * *

- ٢ -

كان تشاؤم سليم خياطة وخوفه من اندلاع حرب عالمية ثانية في خاتمة كتابه «حُميات في الغرب» الصادر عام ١٩٣٣ في بيروت له ما يبرره في أعقاب الأزمة العامة للرأسمالية وبعد انتصار الفاشستية في المانيا. وهذا ما دفعه إلى تأليف كتاب جديد انتهى من تأليفه في تموز ١٩٣٤ بعنوان ذي مغزى: «على أبواب الحرب».

في هذا الكتاب يصور خياطة مشاعر الناس ويعكس احاسيسهم في منتصف عام ١٩٣٤ «.. من الناس من ينتظر الحرب، ومنهم من ينتظر الثورة أو المجاعة، وآخرون يبشرون بالقيامة، أما عن جنون او عن خبث دفين. في كل مكان أيضاً بطالة وجوع ومنافسة ومعاركة من كل شكل ونوع».

ويتساءل الكاتب العربي التقدمي سليم خياطة عن «القوى الاقتصادية التي تحرك عالم اليوم»، وعن اسباب «الفواجع التي تهدد كل واحد منا بالقضاء عليه، باستعباده، بتحقيره، بامتهانه، بتمزيقه كالخرقة لا أكثر». ويجيب خياطة عن هذا التساؤل بان «المجتمعات، حتى عام ١٩١٧ يوم خليقة أول مجتمع اشتراكي على انقاض روسيا القيصرية، ركبت من افراد يحيون من انتاج افراد آخرين عن طريق

الاستيـلاء على ذلـك الانتـاج بوسيلة من **الوسائل «المشروعة»** أوغير **المشروعة، ومن** جماعـات تحصـل على مطـاليبها وما فوق مطاليبها بوجودها عالة على جماعات اخرى وباغتصابها واستثمارها لمطاليب هذه».

ويتسأنف خيـاطـة قائـلاً: «**بأن الانقسـامـات الطبقيـة التي كان أول من بينها بوضـوح العـالمـان الالمانيان العظيمان ماركس وانجلز، هي اساس جميع الانقسامات والعـداوات الاخـرى**». وهـذه الانقسـامـات وريثـة العداوات المادية وهي التي تولد النضال بين الطبقات: الاقطـاعيـين والفـلاحـين، الرأسماليين والعمال. وبعد انتقال الجمعيـة الانسـانيـة من الاقطـاعيـة إلى الـرأسمالية «لم يتغير شيء... فبعد ان كان السيـد سيـداً لأنـه كان يملك ارضـاً وفلاحـاً ويستغلهما، أصبح السيد سيداً لأنه صار يملك فبركـة وعـامـلاً ويستغلهما... فالتنافس الفردي بين الاسياد ما يزال موجوداً، والتنافس بين الاسياد كطبقة وبين مأجوريهم ما يزال موجوداً».

في كتـابـه على ابـواب الحـرب تبـدو واضحة مشاعر عربي تقدمي زار البلدان الرأسمالية في الأشهر الاخيرة من الأزمة العامة للرأسمالية (**١٩٢٩ - ١٩٣٣**) وكتب ما جاش في خاطره مردداً اصداء ازمات النظام الرأسمالي في الغرب. وهذا الوصف الذي كتبـه خيـاطـة يثبت ماأكـده في مقـدمـة كتـابـه «حُميّـات في الغـرب» بأنـه ينظـر إلى الأمورمن وجهـة نظـر شرقيـة، أي من منطلق المضطهـدين والمستثمَـرين، وهـو لا ينسى طبعـاً الحـديث عن الشـرق المستعمَـر المهان الجائع فكتـاب «على أبـواب الحـرب» الصـادر في سنة **١٩٣٤** وصف لحالة الشرق كما هو وصف لحالة الغرب... فلنر ماذا كتب:

«كـل سوري مظلوم يشعـر بالكثير مما نعـد ونصف. وهـل سوريـا الا ضحية واحدة من ضحايا الرأسمال والاستعمار.

إن كل شرقي لمستعمَرٌ. ان كل شرقي يتعب ويكد ليقدم اللذة والرفاه والسيطرة لغني ينتن دمه في مونتي كارلو أو شواطىء الريفيرا أو فلوريدا.

الشرق الذي يُنهب ويداس على أجداث ملايينه. في هذا الشرق الذي يئن، الذي يُسلَق ابناؤه الصينيون في مراجل قاطرات السكك، الذي يُبصق على جثث هنديه وصيني هنـدييـه بعـد ان ينـزلـوا عن أعـواد المشـانق، ثم يذروا الـتراب عبرة لجماهير الناظرين المظلومين، في هذا الشرق الذي يشقي مصريوه كما يشقى الامساخ، الذي يلعب بعـربييـه كما يلعب بالـديكـة، لكن لعبـاً دمويا، بسورييه وعراقييه وفلسطينييه

الـذين يربطـون إلى نير الاستعـمار ليحرثوا أرضهم له ثم يجازون بالرصاص إن أنّوا، الـذي تغـرق جماهـيره من بيروت إلى شانغهـاي، في بحور من سموم الاستعمار، في المخدرات والجرائم والفقر والمجاعة والدم».

رمى خيـاطـة من وراء تأليف كتـابـه «على أبواب الحرب» في سنة **١٩٣٤** إلى فضح الرأسماليين تجار الحروب، الذين يدفعون بالبشرية إلى اتون حرب عالمية ثانية، كما هدف إلى كشف الظلم الاجتـماعي، الـذي تعـانيـه الجـماهير العمالية في البلدان الـرأسـماليـة والشعـوب في البلدان المستعمَـرة. وقـد اراد ايضـاً تحذير قراء العربية من الحـرب المقبلة، التي تسهم الفـاشستيـة اسهاماً قوياً في اشعالها. فهذا موسوليني كتب بقلمـه في كراس من كتب الأطفـال التي درست في ايطـاليـا تحضـيراً لهم للمجـزرة، قائـلاً: «يجب ان تعشق البنـدقية، وان تعبد المتراليوز، وان يكون صديقك الاصدق خنجر الى جانبك!».

وقـد كان خيـاطـة في سنـة **١٩٣٤** متشائماً ومعتقداً بأن المذبحة على الابواب، وبأن الشعوب ستكون طعاماً للحرب المقبلة. وبعد ان ذكر خياطة احوال الشعوب في شـرق الأرض ومغـربهـا انتقـل إلى وصف «البؤس الفظيـع الـذي يدفـع الجـماهير السـوريـة نحو هاويات الجوع والانتحار، الذي يدخل الانحلال على القبائل ويدفع الألـوف من ابنـاء القـرى إلى الهـرب منهـا والهجـوم إلى المـدن. ان الضائقة الماسكة بخناق الجميع الا فئة ذليلة من اصحاب رؤوس الاموال والاقطاعات، ان الاستيلاء على امـوال البـلاد وجميع ابواب دخلها ورفع الضرائب المضنكة، ان العمال العاطلين بالألـوف وتـوقف حركـة اشغـال الطبقة المتوسطة الصغيرة واصحاب المهن الحرة، ان ازديـاد عدد الشحـاذين وجميـع انـواع العـاهـات الانسـانيـة، كل هذا سببـه استعمار الرأسمال الغربي من جهة، والاستعداد الاستعماري للحرب «المقبلة» في هذه الربوع الآمنة من جهة أخرى». وفي رأي خياطة فان اموال الشعب «تذهب إلى بالوعتين: البـالـوعة الأولى هي جيوب الرأسماليين بوجه عام، والثانية هي جيوب «تجار المدافع» الذين يجنون الربح الطائل من أموال الشعب السوري» ثم يقول: «أليس كل سوري يدرك ان المـرافـىء ومحطـات الطـائـرات، السكـك والطـرق، المعـاقـل والتحصينات

والثكنات تبنى استعداداً» **للحرب المقبلة»**.

انتهى خياطة من كتابه «على ابواب الحرب» في تموز **١٩٣٤** أي قبل سنة من انعقاد مؤتمر الأممية الشيوعية (الكومنترن) السابع (تموز ـ آب **١٩٣٥**)، الذي عدل في خطة الاحزاب الشيوعية ودعا إلى وحدة جميع القوى المعادية للفاشستية ووضع امام الاقطار المستعمرة واجب تأليف جبهة ضد الاستعمار لتناضل نضالاً مستمراً في سبيل استقلالها وحريتها، وفي سبيل تأليف جبهة عالمية للنضال ضد الفاشستية. ومن المعلوم ان خطة الاممية الثالثة أي الكومنترن لم تكن على هذا الشكل قبل مؤتمر عام **١٩٣٥** أي قبل تفاقم خطر الفاشستية والحرب. وكانت المعركة حامية الوطيس بين الامميتين الثانية والثالثة، أي بين الاحزاب الشيوعية والاحزاب الاشتراكية الديموقراطية. ولهذا فان سليم خياطة الماركسي نصير الاممية الثالثة حمل، كما رأينا أيضاً فيما مضى، حملة شعواء ليس فقط على الفاشستية، التي صرح زعيمها موسوليني بأن «التاريخ يعلمنا ان الحرب هي الظاهرة التي ترافق نمو الانسانية»، بل حمل ايضاً وبعنف على «الاشتراكيين الديموقراطيين» «الذين يغررون بالطبقات العاملة وجماهير المظلومين في العالم باسم الاشتراكية. فالاشتراكيون ـ الديموقراطيون» كما يذكر خياطة في تموز **١٩٣٤** «يقولون انهم للسلام، لكنهم غير صادقين، اليسوا هم الذين مشوا إلى الحرب الكبرى قبل غيرهم؟ . . . »وهم الذين تلاعبوا بالجماهير لاستغلالها «في سبيل البرجوازية الرأسمالية».

انطلاقاً من ذلك ومن موقف الأممية الشيوعية المنعزل المنكمش على نفسه، قبل تفاقم خطر الفاشستية والحرب فان نصير الاممية الثالثة المفكر العربي سليم خياطة كتب بأن «الحزب الشيوعي، هو الحزب الذي برهن في كل اطواره وتجاربه انه وأعضاءه ومحبذيه لمن خيرة الادمغة البشرية المصلحة، ويشكلون العناصر الوحيدة المخلصة في قيادة الجماهير لتحقيق امانيها ولمحاربة الحرب».

بالاضافة إلى الشيوعيين اعتقد خياطة بأن **«اتحاد الجمهوريات السوفياتية،** عامل دولي هائل ضد الحرب». «ان من يوقف **الحرب»** كما كتب خياطة **«ارادة مئة** وسبعين مليون انسان هانىء مجد، يعيشون في نظام اشتراكي وعدل اجتماعي. يُضافُ إليها ارادة مئات الملايين من ابناء الطبقات العاملة والشعوب المستعبدة في كل انحاء العمورة». وهنا يعود سليم خياطة متفائلاً مرة اخرى مؤمناً بقدوم «فجر

الاشتراكية» بعد «تهشيم رأس الحية» ثم ينهي كتابه قائلاً: «بيد ان ذلك العالم الجميل، الذي لا حرب فيه والذي تكلمنا عنه بحب عميق، لا طلوع لفجره الرائع قبل المعركة الفاصلة، قبل النضال الحديدي الذي يحوّل الحرب الاستعمارية الكبرى ثورات تنبثق منها الخطوط الأولى لذلك العالم».

* * *

- ٣ -

في ٢ تشرين الأول من عام **١٩٣٥** اجتاحت الجيوش الفاشستية الايطالية أراضي الحبشة لاستثمارها واستعبادها. فهب الشعب الاثيوبي للدفاع عن ثرى وطنه، وايدته الانسانية التقدمية في نضاله العادل. ولكن الشعب الاثيوبي الاعزل لم يستطع الصمود طويلاً أمام جحافل الجيوش الفاشستية البالغ عددها مئتي ألف والمسلحة تسليحاً حديثاً، فانهارت المقاومة بعد ستة اشهر واحتل الغزاة الفاشست اديس أبابا في **٥** أيار **١٩٣٦**.

اثناء الغزو الفاشستي الموسوليني للحبشة كان سليم خياطة المعادي للإمبريالية والرأسمالية والفاشستية مبعداً بسبب نشاطه الفكري والسياسي عن «بلدان الانتداب الفرنسي» سورية ولبنان، إلى فلسطين. هناك هزته انباء الغزو الفاشستي للحبشة وأثارت فيه الحَمِيَّة الأممية والشرقية لمقاومة الغزو الفاشستي والاسهام في فضح مرامي الفاشستية، التي كانت تجد لها بعض الأنصار والمؤيدين من المخدوعين المضللين أو من الذين باعوا «أوطانهم في أسواق المزاد العلني الدولية». فالحوافز الاممية والشرقية مضافاً إليها الرغبة في كشف الحقيقة امام قراء العربية وإزالة الغشاوة عن أعين المخدوعين بالفاشستية من العرب دفعت بسليم خياطة العربي المكافح ضد الامبريالية والفاشستية والرأسمالية إلى تأليف كتاب جديد وهو في المنفى في فلسطين انجزه على عجل في ١٢ كانون الأول **١٩٣٥** بعنوان: «**الحبشة المظلومة، او فاتحة آخر نزاع للاستعمار في دور انهياره**»[١١٣].

---

(١١٣) خياطة سليم: «الحبشة المظلومة، أو فاتحة آخر نزاع للاستعمار في دور انهياره» - بيروت ١٩٣٥.

في مقدمة هذا الكتاب يخاطب خياطة صديقاً له بعبارة «أيها العربي العزيز المناضل مع عصبة الثائرين لتحرير شعبك مع شعوب الأرض بأجمعها»، ثم يقول:

«يا صديقي!

طلبتَ مني أن أسافر إلى بلاد الحبشة لأدرسها وانور شعبي العربي المظلوم عن قضية اخوان لهم... وجئتك وجئت شعبي بهذه الصفحات. انها اوراق سوّدت في ليالي أرق العالم في هذه السنة، هبطت عليّ من وحي الاشتراكية ونهضة الشرق العظيمة، من وحي ماركس ونضال الحبشة ضد الرأسمال الغربي».

وقد افصح خياطة عن غرضه من تأليف كتاب «الحبشة المظلومة» وهو الدراسة والفهم العلمي الصحيح فيما «سماه المعلمان الكبيران ماركس وانجلز «بقانون حركة المجتمع»، ثم افهام ما أدركه هو لاخوانه.

لم يكن خياطة في كتابه الجديد «الحبشة المظلومة» متشائماً كما هو الحال في كتبه السابقة المصطبغة بصبغة تشاؤمية. فخياطة مؤلف كتاب «الحبشة المظلومة» في سنة **١٩٣٥** يبدو اكثر تفاؤلاً على الرغم من كونه مبعداً عن وطنه لبنان كما هو واضح من المقدمة: «فاعلم أنني فرح رغم عميم الشقاء، فرح لأني أرانا نسير إلى الامام بأسرع مما نتصور ونشعر، بل لأني أتبين «الأمام» وهو يكاد يأتينا من نفسه من شدة ما نبدو له كسالى!».

لقد كان تفاؤل المفكر العربي التقدمي سليم خياطة في محله على اعتاب النهوض الجماهيري المعادي للاستعمار في كل من سورية وفلسطين ومصر وعلى أبواب قيام الجبهات الشعبية في أوروبا الغربية، تلك الجبهات التي دعا إلى تشكيلها المؤتمر السابع للكومنترن (الأممية الثالثة) في تموز **١٩٣٥**. واسمع الآن إلى خاتمة مقدمة كتاب «الحبشة المظلومة» المكتوبة في **٢** ديسمبر **١٩٣٥**:

«اهدِ ابناء الحبشة في الجنوب والاخوان في الشمال سلامي وصفحاتي! قل لهم ان قلبي وقلوب الملايين ترافقهم وتحارب معهم ضد العدو البربري المشترك. بلّغهم الخبر اليقين من اننا جميعاً نواصل العمل في هذه الجبهة المتحدة التي ستنتهي، آجلاً غير بعيد ان لم يكن عاجلاً، إلى انهيار الرأسماليات الآكلة من بعضها، إلى التئام أول مؤتمر عالمي يضم مندوبي مجالس الشعوب المتحررة إلى تحقيق اعظم حلم لأول مؤرخ متمدن، يوم رأى عصر الاشتراكية محتوم المجيء رؤية نبوية من خلال مخاض

القرن التاسع عشر ودخان آلامه وسواد احتراقه بين دواليب الصناعة الرأسمالية يوم صاح: «يا عمال العالم اتحدوا».

يا عمال الخير والفضيلة الانسانية في كل مكان، اتحدوا! ضموا الصفوف وهبوا إلى الامام نمنع الاشرار من استعمال اسلحتهم الجهنمية! بل نستعملها نحن ضدهم.

لا فُض فوه لآباء وامهات أولادهم اعزاء على قلوبهم فيقولون، اللهم اهلك الكافرين بالكافرين»... ولا يخفى ان خياطة يقصد بهم اؤلئك الفرحين بالحرب او المنادين بالحياد من الفئات التي تنظر إلى الامور العامة نظرة دينية منغلقة جامدة بعيدة عن روح الايمان الصحيح بحجة ان الطليان والاحباش لم يكونوا من المسلمين.

عندما راجع سليم خياطة تاريخ بلاد الحبشة وجده شبيهاً في خطوطه العامة بتاريخ كل أمة. واهم نواحي التشابه بين تاريخ الامم هو كثرة النكبات التي تصيبها، سواء كانت من الخارج او من الداخل، من أهوال الطبيعة أو من نظام المجتمع. وهنا ايضاً يؤكد خياطة على ان فهم الاحداث التاريخية لا يتم إلا بفهم الحقائق الاساسية المبنية على «قواعد النضال الطبقي، وعلى المحور الاقتصادي الذي دار ويدور عليه هذا النضال» وهذه الحقائق لا تظهر جلية إلا في «ضوء طريقة المادية التاريخية» في البحث. وهي في رأي خياطة الطريقة الوحيدة السليمة لفهم حوادث المجتمع ومعرفة اسباب تقدمه وتقهقره.

بعد استعراض التاريخ ومآسيه انتقل خياطة إلى بحث شؤون المستقبل وتعليل اسباب تعاطفه مع الحبشة المظلومة فيقول: «اعتقد بانه يحق لي كشرقي متعرض لعبودية الاستعمار، وواقع مع قومي في نفس الفخ المنصوب لاخواننا اهل الحبشة»... ان ادراكنا لهذه الأمور ادراك اهالي الحبشة له يعيننا «على نوال الحرية والسير في معارج التمدن الاشتراكي الصادق والتنعم بعدله وبحبوحته». كما ان الرابطة بين الاحباش والعرب في رأي خياطة قوية عن طريق «الدم واللغة والاخلاق والعقلية... بل انهما شعبان نبيلان تجمعهما مصائب الماضي والحاجة إلى السلام والتضامن في سبيل تكسير انياب الاستعمار المكشرة».

قبل ان ننتقل إلى تقييم سليم خياطة ووضعه في الاطار التاريخي، لا بد من ايراد رأي خياطة في التغرب، أي موقفه من التقدم العلمي التكنولوجي في الغرب، في

معرض حديثه عن مقاومة العرب للغزو الصهيوني في كتابه «حميات في الغرب». كتب خياطة:

«ان تغرب العرب من نفسهم معضلة لاتنحمل، في رأينا، إلا بانفكاك وثائق الاستعمار، كما وان الاستعمار عقبة لا يقضى عليها بغير التغرب. ولأجل التوفيق بين حل المشكلتين والسير بهما نحو الهدف المنشود جنباً إلى جنب، تلزم البلاد العربية فئات قائدة غير التي تعرفها .تلزم (قيادة) **دفتها عناصر جديدة تخرج من قلب الشعب وعقل الغرب**».

* * *

- ٤ -

لا ريب في ان كتب خياطة اسهمت في نقل بعض المفاهيم الماركسية إلى القراء العرب وساعدت بذلك على تنوير عدد من المثقفين اوممن يعنيهم الامر من غير المثفين، في وقت كانت فيه الكتب الماركسية المترجمة نادرة في العربية، وفي الوقت الذي حرفت فيه الافكار الماركسية عن طريق المؤلفات والكتابات البرجوازية، التي لم يكن لها طبعاً مصلحة في نشر حقيقة الماركسية، حتى لا تستنير بها الجماهير وتتخذها سلاحاً ماضياً في نضالها ضد مستثمريها ومضطهديها.

وبعد فما أهم الامور والقضايا التي ذكرناها قبل قليل والتي تطرق إليها خياطة وعالجها بفكر ماركسي وعين شرقية وعقل غربي وجرأة نادرة؟؟

١ ـ من الامور الهامة، التي غابت عن ذهن خياطة ولم يستطع ادراكها **هي نفيه للصلة بين القديم والجديد**. والصلة بين القديم والجديد تجد تعبيرها في ان الجديد يتمسك بكل ما هو ايجابي في القديم. فقانون «نفي النفي» الديالكتيكي يؤكد ان «القديم في حركته الوالدة للجديد، لا يُرمى بكل بساطة من قبل الجديد بل يُزاح. والمفهوم الفلسفي لكلمة الإزاحة يعني، النفي والحفظ، في وقت واحد، **نفي الوضع السابق، وحفظ كل ما هو ايجابي، في الجديد، كل ما حققه التطور السابق**».

فالفلسفة الماركسية نشأت كنفي للفلسفة السابقة، ولكنها، بعد تغلبها على الخاطىء

الذي لم يتحمل وطأة تجربة الزمن، احتفظت بكل ما تضمنته من حقائق[114].

لقد اغفل خياطة امر هذا القانون الديالكتيكي أحياناً ولاسيما عند موقفه من «الثقافة العباسية الخليعة» و«الثقافة الفرنسية الرومانتيكية والاكاديمية» الجافة الرجعية. ولم تتح له الظروف ليفهم ان الثقافة الاشتراكية تعيد النظر في تقدير الثقافة القديمة ودراستها بشكل انتقادي لتحفظ وتدعم كل ما هو ثمين تقدمي. ولكن خياطة عاد فأعطى لقانون نفي النفي حقه عند حديثه عن كيفية مقاومة العرب للغزو الصهيوني وعن قيادة هذه المقاومة التي عليها ان «تخرج من قلب الشعب وعقل الغرب» وان تقوم بكسر قيود الاستعمار. كما اشار خياطة ان على الشرق ان يتعلم من الغرب في صراعه او في مسيرته معه.

٢ ـ **تظهر الحزبية الفكرية** في كل سطر من كتابات خياطة، وقد اعلن عنها بصراحة متناهية. وهكذا فقد اعلن عن انحيازه إلى جانب الشعوب المستعبدة ضد مستثمريها وغاصبيها.

٣ ـ **الهجوم على الصهيونية** من وجهة نظر طبقية أولا وقومية ثانياً. لقد سلط خياطة الاضواء الماركسية اللينينية على الصهيونية وكشف عن زيفها وعنصريتها وطبيعتها الطبقية الرأسمالية ومطامحها التوسعية في الوطن العربي على حساب شعبه. ونرى ان ماكتبه خياطة عن الصهيونية لايزال يحتفظ الى الآن بجديته وقد اثبتت التجارب صحته. وكانت كتابة خياطة المستفيضة عن الصهيونية تمثل احد أوجه الصراع بين الاشتراكية والرأسمالية، بين حركة التحرر العربية والغزو الصهيوني الامبريالي. فقد دعا العرب بصفتهم مستثمَرين إلى الانضمام إلى حركة مستثمَري العالم سواء كانوا المانا أم فرنسيين أم يهوداً أم صينيين وسودان.

٤ ـ **كان خياطة في مواقه القومية العربية طبقيّاً** الى أبعد الحدود. لقد هاجم بلا هوادة الزعامات الاقطاعية العربية، ورأى أن مفهوم «**الشعب العربي**» ينحصر في «الفلاح والعامل وصغار الباعة والشباب المفكر». كما أنه الف كتابه «**الحبشة المظلومة**» كما قال من أجل أن «انوّر شعبي العربي المظلوم عن قضية أخوان لهم» في الحبشة.

---

(١١٤) «المادية الديالكتيكية» تأليف جماعة من الاساتذة السوفييت. ترجمة مرعي، سباعي، جاموس. اصدار دار الجماهير. دمشق بلا تاريخ. ص ٣٠١.

فخياطة كان من أوائل الداعين في بلاد العرب الى الربط بين النضالين الاجتماعي الطبقي والقومي، وكذلك بين النضالين الاممي والقومي.

٥ - الوقوف بلا مواربة إلى جانب الاممية الثالثة وإدانة مواقف الاممية الثانية «الاشتراكية الديموقراطية»، والهجوم العنيف على الفاشستية مما يجيز لنا القول أن خياطة كان علماً من اعلام المناضلين (فكرياً) ضد الفاشستية وهي في مراحل صعودها الى الاوج، كما أنه فضح أيضاً الاهداف الحقيقية للحرب التي شنها الرأسماليون.

٦ - النظرة الطبقية الى التاريخ باعتباره تاريخ نضال طبقي بين مستثمرين ومستثمَرين. لقد اعلن سليم خياطة بصراحة وجرأة اعتناقه لمبادىء «العالمين الالمانيين العظيمين ماركس وانجلز».

٧ - روح أممية عالية تتألم لألم المعذبين في سائر انحاء العالم وتعلن تعاطفها مع المناضلين في اليابان الفاشستية وصين الكومينتانغ والمانيا الهتلرية حيث يعذب تايلمان وفي ايطاليا الموسولينية، في فرنسا وانكلترا وامريكا اللاتينية. ولكن سليم خياطة الماركسي الذي نظر الى العالم بمنظار اممي لم ينس الشرق الذي يئن مقيدا بسلاسل المدافع ولم يهمل الاقطار العربية المسحوقة وسوريا المظلومة ضحية الرأسمال والاستعمار. لقد كان خياطة في الوطن العربي احد المعبرين عن آراء الحركة المعادية للرأسمالية والاستعمار، والتي ضمت بين جناحيها قوى الطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية وقوى الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي وقوى حركة التحرر الوطنية. وقد ازدادت هذه الدعوة وضوحاً عند خياطة بعد مؤتمر الاممية الشيوعية السابع في تموز ١٩٣٥، حيث نادى خياطة: «ياعمال الخير والفضيلة الانسانية في كل مكان، اتحدوا».

لاشك في ان هذه الدراسة المقتضبة لافكار سليم خياطة الماركسية لايمكن أن تحيط بجميع جوانب افكاره. ان من حق العربي الماركسي الجرىء سليم خياطة ان تخصص له الدراسات المطولة. فقد آن الأوان لإزالة الستار وتمزيق مؤامرات الصمت الاقطاعي البرجوازي عن المفكرين العرب المكافحين ضد الرأسمالية والاستعباد، الساعين الى خير الطبقات المضطهدة المظلومة في دنيا العروبة والعالم.... ولابد لذلك اليوم من فجر.

٤ ـ مرحلة أواخر الثلاثينات (شرح وترجمة وتأليف ونضال ضد الفاشية)

قبل ان يبرز سليم خياطة على مسرح الاحداث الفكرية ويبدأ في الكتابة، وقبل أن يترجم البيان الشيوعي الى العربية، ظهر عدة أشخاص عرب كتبوا عن الحركة العمالية العالمية وشرحوا بعض جوانب الماركسية. وكان في طليعة هؤلاء النقابي اللبناني فؤاد الشمالي، الذي استقى افكاره الماركسية الأولى اثناء وجوده في القطر المصري. ثم ابعدته عام ١٩٢٤ السلطات المصرية البورجوازية الاقطاعية الخاضعة آنذاك للاستعمار الانكليزي، عن مصر بسبب نشاطه النقابي العمالي وبتهمة البلشفية. فعاد إلى لبنان واستأنف نشاطه الفكري والسياسي فيه بهمة جبارة وعزيمة لاتلين.

بعد ابعاد فؤاد الشمالي عن مصر وعودته الى لبنان اصدر جريدتي «العمال» و «المريخ» وقام بتأسيس نقابة عمال التبغ في بكفيا، وقاد الحركة النقابية في لبنان في أواخر العشرينات واوائل الثلاثينات، كما أسهم في تأسيس وقيادة الحزب الشيوعي في أيامه الأولى، ويُعد الشمالي من أوائل من أسهموا في نشر الفكر الماركسي في الشرق العربي عن طريق الجرائد والنشاط النقابي والسياسي، أو عن طريق تأليف الكتب. فقد زار الشمالي الاتحاد السوفياتي سنة ١٩٢٨ وكتب عن مشاهداته هناك. ثم الّف كتاب «الانترناسيونال أو الامميات الاشتراكية الثلاث» وبعد ذلك نشر في سنة ١٩٣٦ في بيروت كتاب «الاشتراكية» الذي صدّره بلمحة عن تاريخ حياة «الزعيم الاشتراكي الاممي الاكبر الرفيق كارل ماركس».

اتصف كتاب الاشتراكية لفؤاد الشمالي الصادر سنة ١٩٣٦ بوضوح الافكار التي عالجها مع تبسيطها، حتى يتمكن الانسان العادي من فهمها، كما يتميز الكتاب بغزارة الافكار والمشكلات التي تطرق لها.

تعرض المؤلف لاسباب الانقسام بين الاحزاب الاشتراكية الاصلاحية والثورية. ورغم ادعائه الوقوف على الحياد وانه لم ينشر الدعاية لاحدى الامميتين الاشتراكيتين ضد الاخرى، الا انه قاد القارىء للاقتناع بصحة رأي الاحزاب الشيوعية، التي تجنب ذكر اسمها في جميع صفحات الكتاب واطلق عليها اسم «الاحزاب الاشتراكية الثورية». ويبدو من كتابه هذا انه مطلع على أسباب الخلاف

بين الاممیتين الثانية والثالثة، تلك الاسباب التي شرحها في كتابه «الانترناسيونال أو الاميات الاشتراكية الثلاث».

ثم استعرض الشمالي آراء الاشتراكيين والبورجوازيين في القضايا المختلفة محاولاً وضع افكار وآراء كارل ماركس في المقام اللائق ومحاولة اقناع الآخرين بصحتها تحت ستار عرض مختلف الآراء والمذاهب، ثم قام المؤلف ببحث المواضيع التالية: المجتمع الرأسمالي ـ الغاء الملكية الخاصة ـ استثمار الفرد أو القيمة الزائدة ـ الغاء التجارة الفردية ـ المرأة والعائلة ـ الوطن ـ الدين ـ الفلاحون ـ الاحسان ـ الدولة ـ التعليم ـ الطب ـ الضعيف والشيخ ـ الضائقة الاقتصادية ـ الانتاج الاشتراكي ـ حياة العمال في الاتحاد السوفياتي ـ دكتاتورية البروليتاريا.

ولابد ان كتاب «الاشتراكية» هذا قد أسهم في أواخر الثلاثينات في نشر الفكر الاشتراكي وأعطى صورة تقريبية عن الحياة في الدولة الاشتراكية، والقضاء على قسم من الاراجيف والدعايات الكاذبة ضد الاشتراكية وبلدها الأول.

بعد انتصار الحركة الوطنية، على اثر الحركة الجماهيرية في أوائل **١٩٣٦**، وبعد حصول سورية على جزء من السيادة الوطنية أثر توقيع مشروع معاهدة **١٩٣٦**، صدر في سنة **١٩٣٧** كتاب بعنوان: **«انسانية جديدة تبني عالماً جديداً» لمؤلفه فرج الله الحلو** احد قادة الحزب الشيوعي في سورية ولبنان، الذي زار الاتحاد السوفياتي في سنة **١٩٣٤** وتجول في جمهوريات آسيا الوسطى، وضمّن هذا الكتاب مشاهداته وانطباعاته عن بلد الاشتراكية الأول.

ولعل المرء يتساءل عن سبب تأخر صدور كتاب فرج الله الحلو عن زمن الزيارة أكثر من ثلاث سنوات ويرجع السبب الى عدم توفر امكانية نشر كتاب يشرح مبادىء الاشتراكية في الاعوام التي سبقت الموجة الشعبية الجماهيرية المعادية للاستعمار سنة **١٩٣٦**، لأن سيف الارهاب والقوانين المكافحة للتقدم حالت دون نشر أي كتيب أو كتاب يلقي الاضواء على الافكار الاشتراكية، التي تؤدي ليس الى وضوح التناقضات داخل المجتمع فقط، بل الى ازدياد اوار النضال ضد الاستعمار ووضوح أهداف هذا النضال. وهكذا فإن الشمالي تمكن من نشر كتابه في سنة **١٩٣٦** بعد انتصار الجبهة الشعبية في فرنسا، واستطاع فرج الله الحلو طبع مشاهداته وآرائه بعد انتصار الحركة الوطنية وتراجع الهجوم الاستعماري.

استهل فرج الله الحلو كتابه، انسانية جديدة تبني عالماً جديداً، بشرح وافٍ للماركسية، التي اطلق عليها اسم «فلسفة التحرير». وقال ان «الماركسية تسعى الى تحرير الانسان من نير الانسان، وأنها تسعى بذلك لتحرير المستعمرات من مستعمِريها، ويجب ان لانظن ان هذا التحرير هو منحة». وبعدها شرح تطور الاشتراكية التاريخي «من عهد افلاطون الى عهد الفارابي وتوماس مور الى عهد سان سيمون وروبرت اوين الى عهد ماركس وانجلز الى عهد لينين مرّت الاشتراكية من حلم الى خيال الى رغبة الى علم الى حقيقة». ثم يستطرد فرج الله الحلو قائلا: «**وليست الماركسية بنت لينين ولاربيبة روسيا القيصرية بل هي بنت التاريخ البشري وربيبة الانسانية بأجمعها**. وليس الاتحاد السوفياتي الا الميدان الأول لتحقيق هذه المبادىء، ولايمكن ان يفهم الاتحاد السوفياتي كل الفهم الا من يفهم الماركسية اولا من جهتها المبدئية»[115].

لقد سعى فرج الله الحلو هنا لتبيان ان الاشتراكية ليست وليدة مجتمع معين او بلد واحد بل هي بنت التاريخ العالمي اسهمت في وضع اسسها جميع الشعوب. وهو يرد بذلك على الدعاية البرجوازية، التي حاولت وتحاول اضفاء صفة الاقليمية والمحلية على الماركسية وحصر صلاحها في فترة معينة وبلد معين. وقد كان فرج الله الحلو على حق عندما اشار الى ان فهم الاتحاد السوفياتي لايمكن ان يتم بدون فهم الماركسية المطبقة هناك.

وبعد ذلك شرح مؤلف الكتاب علاقة الماركسيين بالاتحاد السوفياتي كما يلي: «ولاننظر نحن فقط الى الاتحاد السوفياتي نظرة العطف والاعجاب والامل، بل تنظر اليه كل الطبقات الكادحة وكل الشعوب المضطهدة في كل اطراف الدنيا كذلك. والاتحاد السوفياتي لايمثل أمل الانسانية عند الشعب السوفياتي، بل عند كل الشعوب. وكما استفاد الماركسيون الروس والماركسيون في المستعمرات الروسية القيصرية القديمة من كل الاختبارات الماركسية السابقة في الغرب لاجل تحرير شعوبهم، هكذا يستفيد الماركسيون الآخرون اليوم من كل اختباراتهم لتحرير شعوبهم ايضا. والتحرير كما قلنا لايمكن ان يبنى في أي مكان الا حسب مايمليه تاريخ ذلك

(١١٥) الحلو، فرج الله: «مقتطفات من كتاباته» - بيروت ١٩٦٢، ص ٢٤.

المكان وحسب ماتمليه اوضاعه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الحاضرة. فإذا حولنا نظرنا في هذا الكتاب الى الاتحاد السوفياتي فلكي نعرف كيف ندرج على طريق الحرية بثقة متينة وخطة ثابتة».

اراد فرج الله الحلو من نشر كتيبه «انسانية جديدة تبني عالماً جديداً» اجابة قراء العربية عن اسئلة كثيرة تخالج افكار ابناء البلاد، وفي الوقت نفسه دحض اكاذيب الفاشيست المستعمرين ودعاية المضللين خدمة للحقيقة.

عالج فرج الله الحلو في كتيبه اموراً كثيرة مثل: حق الشعوب في تقرير مصيرها، الاقليات القومية في الاتحاد السوفياتي، ظفر الزراعة الاشتراكية والقضاء النهائي على الجوع وتعميم الآلة في الزراعة - الآلة التي ترفع مستوى الفلاح مادياً وفكريا - وغيرها من سبل الحياة في الاتحاد السوفياتي.

ثم ركّز المؤلف على ناحية جوهرية تهم الرأي العام في الشرق وهي العائلة السوفياتية، فقال: «يشيع أعداء الاتحاد السوفياتي، اعداء كل الجمهوريات الاشتراكية الحرة، ان لا عائلة في تلك البلاد، . . . ان الاب لايعرف ابنه، والابن لايعرف امه، والاخ لايعرف اخته، والاخت لاتعرف اخاها. . يقولون بأن النظام الشيوعي جلب معه شيوعية النساء فما عليك الا ان تختار أية فتاة كانت على الشارع حتى تكون «حلالك». . . وان اردت نبذها فليس أسهل من نبذها كالنواة. . . الاباحية في بلاد السوفيات. . . الاباحية في الاشتراكية. . كرروا هذه السخافات مدة ٢٠ سنة. . ومع الاسف قد اثرت هذه الدعاية الكاذبة المضللة على قسم كبير من الناس». وهو يرد على هذه الاكاذيب مستخدماً الاحصاءات والمنطق ومشاهداته الشخصية ثم تحدث مطولاً عن «العائلة المسلمة ورفاهها وهي مثال الفضيلة والعفة». ثم برهن على ان المجتمع الاشتراكي حرر المرأة في الاتحاد السوفياتي من الاباحية.

ونحن الآن عندما نقرأ أو نتذكر كيف كان المستعمرون والرجعيون ينشرون الاباطيل حول الحياة في الاتحاد السوفياتي، وبخاصة حول العائلة السوفياتية، وتصديق قسم من الناس لذلك، ندرك كم كانت ظروف النضال في سبيل نشر الفكر الاشتراكي صعبة بل وتُعرض ناشرها الى مختلف المخاطر والمصاعب. فالطبقة الاقطاعية والبرجوازية حاولت بمختلف الوسائل منع الفكر الاشتراكي من الانتشار من أجل حجب الحقيقة عن أعين الجماهير وابقائها سجينة الافكار الرجعية، أو

الافكار التي لاتسعى الا الى **تحقيق الرفاه لفئة ضئيلة** جداً من المجتمع . لقد كان نشر الافكار الاشتراكية في ذلك الحين مأثرة لاصحابها سوف لن ينساها لهم التاريخ .

كانت فترة الحكم الوطني الأول (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩) كما ذكرنا فترة نشاط ملحوظ في نشر الفكرة الماركسي والآراء التقدمية . وتمتع انصار التيار الديموقراطي الثوري والماركسي بحرية نسبية استطاعوا بفضلها من نشر عدد من المؤلفات والكراريس التي ذكرنا بعضا منها .

بعد مضي سنة ونصف على القاء خطاب **جورج ديمتروف** في مؤتمر الاممية الشيوعية العالمي (**٢٥** تموز ـ **٢٠** آب **١٩٣٥**) نشر الخطاب في سنة **١٩٣٧** على شكل كراس بعنوان : «**الفاشستية عدوة الشعوب**» أو «وحدة الطبقة العاملة في النضال ضد الفاشستية» وقد نقل الخطاب الى العربية **نقولا شاوي** ـ أحد قادة الحزب الشيوعي اللبناني آنذاك ـ ووضع مقدمته **خالد بكداش** ـ الشخصية الشيوعي الصاعدة في الفترة المبحوثة .

ذكر مقدم الكتاب أن ديمتروف وضع «امام الاقطار المستعمَرة ، ومنها بلادنا العربية ، واجب تأليف جبهة ضد الاستعمار لتناضل نضالاً مثمراً في سبيل استقلالها وحريتها»[116] . ومع أن مقدمة الكتاب كانت سياسية ، إلا أنها القت الضوء على الاتجاه الفكري لانصار التيار الماركسي . فبعد ان أورد مقدم الكتاب قول ديمتروف : يجب « . . . ان لانعمل في كل حين وفي كل مكان وفقاً لكليشة معينة . اذ يجب ألا يغرب عن بالنا أن وضعية الشيوعيين لايمكن ان تكون واحدة في ظروف مختلفة» . ثم بين خالد بكداش «أن واجب كل شيوعي في الاقطار العربية ، اذا كان يريد خدمة شعبه وتطبيق خطط حزبه بنجاح ، أن يهتم اهتماماً كلياً بالاطلاع على شؤون بلاده الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، والاحاطة بثقافة العرب وتاريخهم والسعي في الوقت نفسه لتوسيع معارفه النظرية» .

ثم عدد بكداش الفئات التي اغتبطت بنقل الخطاب الى العربية وهي : «العمال والفلاحون التقدميون والمتعلمون الثوريون والوطنيون المخلصون الديمقراطيون» كما «يغتبط له كل الذين يحبون وطنهم وشعبهم ، كل الذين يريدون

(**١١٦**) **ديمتروف جورج** : «الفاشستية عدوة الشعب» ـ ترجمة نقولا شاوي . دمشق **١٩٣٧** . ص

أن يروا بلادهم حرة مستقلة متقدمة، لابؤس ولا جوع ولا ارهاب فيها، قوية بكيانها الـوطني وبنيـانهـا الاقتصـادي والاجتـماعي، فخـورة بثقـافتها وتاريخها جادة في احياء أحسن تقاليدها، محافظة على ارث الماضي خيره وأفضله»، ولايخفى هنا التشابه بين التيـارين: الـديمـوقـراطي الثـوري والماركسي، في الدعوة الى احياء أحسن التقاليد والحفـاظ على خير وافضـل ما في المـاضي من تراث، وفي هذه المقدمة لخالد بكداش تبـدو الـدعـوة واضحـة الى دراسـة احـوال البلاد بمختلف نواحيها والاحاطة بتاريخ العرب وثقافتهم والاهتمام بما هو خير ونير في هذا التراث.

ولم تكن كتـابـة هذه المقـدمة لخطاب ديمتروف عن عبث أو محض صدفة، بل هدفت إلى بيـان ان الاهتـمام بالـتراث العالمي لاينفي الاهتمام بالتراث القومي، وان التراثين العالمي والقومي غير متعارضين أو متناقضين.

في أوائـل سنـة ١٩٣٩ نشرت في دمشق أربعة أبحاث لستالين وبحث لموريس توريـز مغفلة من اسم المعـرب. مع مقـدمـة لخالـد بكداش بعنوان «العرب وابحاث ستالين في المسألة الوطنية». وابحاث ستالين هذه حول القومية التي كتبت اثناء الحرب الاولى وبعـدهـا نشـرت في العـربية تحت عنوان «طريق الاستقلال ـ المسألة الوطنية: نشؤها ـ تطورها ـ حلولها». (١١٧).

استهـل خالـد بكداش مقدمته لكتاب ستالين بالعبارة التالية: «.... لانريد سوى الاشـارة الى النقـاط الـرئيسيـة التي تهم القارىء العربي في كل بحث من هذه الابحاث ساعين جهدنا للوصول الى بعض نتائج عملية تتعلق بنضال العرب الحاضر في سبيل حريتهم الوطنية واستقلالهم».

واشـار بكـداش في المقـدمة الى «الغموض المنتشر انتشاراً هائلاً في بلادنا حول قضيـة الامـة وتعـريفهـا والعلائم التي تميزها. فكثيراً ماتجد كاتباً عربياً واحداً يعطيك تعاريف مختلفة للامة في مقالات مختلفة». ولهذا تأتي أهمية نشر أبحاث ستالين حول الامـة. ثم ينتقـل بكـداش للهجـوم على النظـريـات العـرقية والعنصرية عن الامة ويخلص إلى القـول أن «مقـال ستـالـين يبرهن فسـاد النظـريـات العـرقيـة والعنصـريـة عن الأمة

---

(١١٧) ستـالـين: «طـريق الاستقـلال» «المسألـة الـوطنيـة: نشؤهـا ـ تطـورهـا ـ حلولها» مكتب المطبوعات السياسية والاجتماعية. مقدمة الكتاب بقلم خالد بكداش. دمشق ١٩٣٩.

والقومية ويثبت ان اليهود لايؤلفون أمة وأن النظريات التي يتذرع بها الصهيونيون لتبرير سياستهم المجرمة في فلسطين هي نظريات باطلة . . . ».

وبعد أن يلخص بكداش في مقدمته المكتوبة عام ١٩٣٩ ابحاث ستالين يستطرد قائلاً : «ان نشوء الامم وتطورها لم يسيرا بسرعة واحدة في كل الدنيا . فبينما ان بعض الامم تكونت تماماً في الغرب كانت شعوب آسيا وأفريقيا لاتزال في عهد الاقطاعية ولم تتكون بعد من أمم . . فامتنا لاتزال في طريق التطور والتكون أي في طريق استتمام العلائم التي تميز الامة . ويتوقف مستقبل هذا التطور والشكل الذي سينتهي اليه على عدة عوامل خارجية وداخلية . . . ».

بمناسبة الذكرى المئة والخمسين للثورة الفرنسية اصدرت مجلة «الطليعة» في سنة ١٩٣٩ عدداً خاصاً اشترك في تحريره الى جانب الكتاب العرب نخبة من الكتاب الفرنسيين والانكليز. لقد كان اصدار هذا العدد في الواقع ثمرة جهود مشتركة لانصار التيارين الديمقراطي الثوري والماركسي . وكنا نوهنا عند بحثنا للتيار الديموقراطي الثوري الى القصد من وراء اصدار هذا العدد . ولن نتعرض هنا الا الى المقال الذي كتبه للطليعة الاستاذ فرج الله الحلو سكرتير الحزب الشيوعي اللبناني آنذاك ، بعنوان : «الثورة الفرنسية والثورة الروسية» . اذ كان هذا المقال تعبيراً عن فهم كاتبه العميق لطبيعة كل من الثورتين ، وصورة لمستوى النضج الذي بلغته القيادة الفكرية للتيار الماركسي في سورية ولبنان على أعتاب الحرب العالمية الثانية .

بعد أن أورد فرج الله الحلو أوجه التشابه والخلاف في ظروف نشأة وتطور كل من الثورتين وأهدافهما ، خلص الى القول : ان الثورة الفرنسية كانت ثورة برجوازية ديموقراطية ، في حين كانت الثورة الروسية ثورة بروليتارية اشتراكية ، ثم بين ان الثورة البروليتارية الروسية حققت في طريقها كل اغراض الثورة الفرنسية كثورة برجوازية ديمقراطية ، ولكنها مضت الى أكثر من ذلك فحقق نظاماً جديداً أرقى وأجمل وأحسن هو النظام الاشتراكي الذي يضمن الحرية والاخاء والمساواة الاشتراكية الصحيحة بقضائه على استثمار الانسان للانسان وبقضائه على الطبقات الاجتماعية المتنافرة ، وبالتدرج الحثيث الثابت نحو الشيوعية .

ثم استطرد فرج الله الحلو قائلا : بأن الثورة الاشتراكية لم تلغ استثمار الانسان للانسان وسيادة طبقة على اخرى في المجتمع فحسب ، بل الغت كذلك استثمار امة

لامة وسيادة بلد على بلد، فقضت بذلك على الاستعمار وجعلت العلاقات بين الشعوب قائمة على الاخاء والمساواة التامة، بصرف النظر عن الوانها وأجناسها وأوطانها وعن درجات تقدمها وتطورها، وبذلك نفذت تنفيذاً صادقاً مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها[118].

ان هدفنا من وراء نشر هذا المقطع حول اهداف ثورة اكتوبر هو تبيان ان قسماً من قراء العربية اصبحوا في أواخر الثلاثينات على اطلاع بأهداف وغايات الثورة الاشتراكية وذلك بفضل النشاط الذي بذله انصار التيار الماركسي من أجل ازالة الغشاوة عن العيون وشق الطريق امام الجماهير العربية من أجل ان تسير باتجاه هدفها المنشود.

في ٦ و٧ ايار ١٩٣٩ عقد في بيروت «مؤتمر مكافحة الفاشستية السورية اللبناني الأول»[119]، وقد اشترك في الإعداد لهذا المؤتمر انصار التيارين الديمقراطي الثوري والماركسي، حيث شكلوا لجنة تحضيرية دعت أكبر عدد ممكن من القادة الوطنيين المعادين للاستعمار من مختلف المشارب والالوان. وقد شارك بعضهم في المؤتمر وارسل الآخرون رسائل وبرقيات التأييد. في هذا المؤتمر القى الاستاذ خالد بكداش خطاباً بعنوان: «الفاشستية والشعوب العربية» استهله بتبيان مخاطر الفاشستية على العرب وفق الصورة التالية: «اذا انتصرت ايطاليا والمانيا، فمعنى انتصارهما ان كل هذه الدول العربية الفتية، من بغداد إلى الرياض الى القاهرة تفقد كيانها الاستقلالي الناشيء، وتصبح مثل طرابلس الغرب والحبشة أي مقاطعات طليانية أو المانية يحرم سكانها حق التكلم بلغتهم العربية. اذا انتصرت المانيا أو ايطاليا فمعنى انتصارهما ان كل هذه الحركات الوطنية التحررية الفتية في سورية وفلسطين ستغرق في بحر من الدماء وتُسحق بفؤوس جلادي روما وبرلين».

حاول بكداش في خطابه هذا تبيان الاخطار التي تلحق بالبلدان العربية في حال انتصار الفاشستية وخلص الى القول: بأن «النضال ضد الفاشستية هو في الوقت

---

(١١٨) انظر الطليعة، أيار ١٩٣٩. عدد خاص.

(١١٩) بكداش خالد: «الفاشستية والشعوب العربية» في: الطليعة، أيار ١٩٣٩ ص ٣٦٨ - ٣٨١.

الحاضر اعظم نضال وطني وأول واجب قومي على كل العرب المخلصين». ثم أكد على أن «الوقوف على الحياد أمر مستحيل بعد أن اصبح العالم منقسماً الى جبهتين: جبهة الدولة المعتدية التي تريد الحرب لاجل الاستيلاء على المستعمرات وهذه الدول هي ايطاليا والمانيا واليابان، ثم جبهة الشعوب التي لاتريد الحرب». وقد ميّز بكداش بوضوح بين عمال وفلاحي واحرار فرنسا من جهة، الذين يؤيدون نضال الشعب السوري، وبين «الرجعية الاستعمارية الافرنسية» التي تمعن في تسليط سيف الارهاب على بلادنا ودعا الى «توطيد أواصر تحالف شريف قوي بين فرنسا الديموقراطية وسوريا العربية»، وهذا هو «السبيل الوحيد لسلامة استقلال البلد امام أخطار الفاشستية»[١٢٠].

كنا قد أشرنا عند بحث موقف التيار الديموقراطي الثوري من المشكلات العالمية الى استراتيجية وتاكتيك التيار الديموقراطي الثوري، وهي نفسها استراتيجية وتاكتيك التيار الماركسي. هذا الموقف يتلخص من الوجهة الاستراتيجية بمقاومة الاستعمار الجاثم على صدر الوطن العربي، اي مقاومة الاستعمار الافرنسي والانكليزي والايطالي وكل استعمار يطمح في السيطرة، ونعني الاستعمار الالماني. أما من الوجهة التاكتيكية فإن الأمر اختلف كثيراً على أعتاب الحرب العالمية الثانية، على اثر تفاقم خطر الفاشستية وضرورة قيام جبهة عالمية معادية للفاشستية. ولهذا السبب فإن التيار الماركسي كان مضطراً لغض الطرف، خلال فترة محدودة من الزمن ولسبب تاكتيكي محض، عن السياسة الانكليزية الافرنسية بهدف تجميع القوى في النضال ضد الفاشستية والحرب دون ان ينسى في الوقت نفسه تسليط النار على الرجعية في انكلترا وفرنسا التي تضطهد العرب والشعوب الاخرى وتمهد الطريق امام الفاشستية.

إن هذا الموقف التاكتيكي للتيارين الماركسي والديمقراطي الثوري، الذي فرضته ظروف تفاقم خطر الفاشستية والحرب، وخطر استعباد العرب بشكل أكثر شراسة ووحشية من قبل الفاشستية والنازية، هذا الموقف التاكتيكي تحاول بعض الأوساط تشويهه بهدف اتهام هذين التيارين «بالعمالة» لانكلترا أو فرنسا. ونكتفي هنا بالاشارة

---

(١٢٠) المصدر نفسه.

إلى ذلك دون ان ندخل في تفصيلات حجج كل من الطرفين، لان مجال بحثنا هنا لن يتعدى نطاق الفكر. ولكن لابد لنا من تكرار ماقلناه عند بحث موقف التيار الديموقراطي الثوري من المشكلات العالمية، من ان تصدي التيار الماركسي للموجة الفكرية الفاشستية العاتية وتعرية الفاشستية من جذورها واظهارها على حقيقتها، قدم للحركة الوطنية والقومية العربية خدمات جلى واسهم في تخليص اقسام عديدة من الحركة الوطنية من الوقوع بين مخالب الوحش الفاشستي والغرق في متاهة العنصرية والشوفينية. ومع ان التيار الماركسي لم يستطع التغلب نهائيا على هذه المساوىء، الا انه استطاع ان يقضي على بعضها، او يخفف على الاقل من آثارها الضارة. كما اغنى الحركة الوطنية ومن ثم القومية في مشرق الوطن العربي بمحتوى ديموقراطي، وانار أمام اقسام منها سبيل الرؤية الصحيحة وهذا مما أسهم، بالاضافة الى جملة عوامل اخرى في تسارع التطور اللاحق للحركة الوطنية واغناها بمضامين اجتماعية، الى درجة ان اقساماً مختلفة داخل الحركة القومية العربية اخذت تعترف بالنضال الطبقي، وبالاشتراكية العلمية كطريق وحيد لوصول الامة العربية إلى مبتغاها في إقامة المجتمع العربي الاشتراكي الموحد.

ان البحث في هذا الأمر يطول وهو يدخل في اطار متابعة تطور الحركة الفكرية بعد الحرب العالمية الثانية، بعد القضاء على الفاشستية وضعف النظام الامبريالي العالمي وبدء دخول الرأسمالية في ازمتها العامة الثالثة، حيث اصبح النضال الفكري أقل صعوبة مما كان عليه في فترة ماقبل الحرب الثانية، فترة انتعاش الافكار الفاشستية في العالم ومن ضمنها الاقطار العربية. ومن هنا تأتي أهمية الدور التاريخي للماركسيين العرب وللديموقراطيين الثوريين العرب الذين خاضوا معركة ضارية مع اعتى اعداء البشرية في ذلك الحين ومع اشرس اشكال الاستعمار، الا وهو الفاشستية.

٥ ـ أوائل الاربعينات

في اواخر الثلاثينات وأوائل الاربعينات اخذت حرارة البحث في القضايا الفكرية المتعلقة بتوضيح معالم الامة وتطورها وبالقومية وابعادها وبالعلاقة بين القومية والاممية تحتل مكاناً بارزاً، وحامياً احياناً، في نقاش المفكرين العرب. وهذا مما دفع

خالد بكداش في سنة ١٩٤٤ **لتأليف كتيب صغير**، بعنوان «الشيوعية والقومية»، رمى من وراء تأليفه الى الرد على السؤال الذي كان يعالجه فريق من الشباب ورجال السياسة والعلم والفكر. وكان هذا السؤال يطرح كالتالي: هل من تنافر بين الشيوعية والقومية؟ أو بعبارة اخرى: هل تتنافى مبادىء الشيوعية المشهورة بصبغتها العالمية الاممية مع الشعور الوطني أولا، أي مع حب الانسان لوطنه وتعلقه به واستعداده للدفاع عن استقلاله وسلامته ومصالحه، ومع الفكرة القومية ثانياً، أي مع طموح كل شعب الى المحافظة على كيانه القومي، وعلى خصائصه القومية وتراثه القومي وثقافته القومية، وعلى تطورها وازدهارها؟.

وقد أجاب خالد بكداش، منطلقاً من وجهة نظره في سنة ١٩٤٤ على هذا السؤال القديم الذي ابرزته الحياة بشكل اقوى وأوضح، ووضعته على كل شفة ولسان، في كتيبه بعنوان: «الشيوعية والقومية». ويقول بكداش معتمداً على تجارب شعوب الاتحاد السوفياتي بأن الوقائع برهنت «أن لاتناقض بين الشيوعية والشعور الوطني، وهي (أي الشيوعية) لاتقضي على كيان القوميات بل تحفظها وترقبها وتدفعها في طريق التطور والازدهار». ثم يورد بكداش خلاصة النزعة الاممية في الشيوعية بما يلي: «مساواة الامم والقوميات والاخاء بينها، وتضامن الجماهير الشعبية في كل الدنيا في النضال من أجل نظام يضمن هذه المساواة وهذا الاخاء». وبديهي كما يقول المؤلف: «أن وضع القومية على هذا الشكل يهمنا نحن العرب ويهم جميع الشعوب الصغيرة والمظلومة».

ثم يستعرض بكداش التطور التاريخي لمسألة القوميات الى ان اصبحت القضية القومية، أي قضية حرية القوميات المضطهَدة المستعبَدة المحرومة من حقوقها، مرتبطة بقضية التخلص من كل النظام الاستعماري العالمي، أي قضية تحرير الانسانية كلها من سيطرة الجماعات الرأسمالية الاستعمارية الضخمة العليا التي تستثمر نفس شعوبها في الغرب وتستعبدُ الشعوبَ والقوميات في الشرق. والحل في نظر الكاتب هو: التحرر من نير الاستعمار والانفصال عن الدول المستعمِرة، وتأليف دولة قومية مستقلة، ومن ثم الاتحاد الاختياري الحر مع جميع الشعوب الاخرى في نظام اقتصادي عالمي موحد على اساس المساواة التامة».

ولهذا فإن بكداش يدعو للتضامن «مع جميع الشعوب العربية ومع الجماهير الشعبية في كل الاقطار» من أجل «المحافظة على مانالته بلادنا من حقوق وطنية استقلالية» وكذلك «مكافحة العقلية الرجعية . . . . التي تمنع انطلاق مواهب الشعب القومية ورقي ثقافته القومية وبناء كيان قومي قوي قائم على الازدهار الاقتصادي والمعنوي . . . . ويساهم في اغناء المدنية الانسانية كما فعل آباؤ نا العرب في عصورهم الزاهية المجيدة» . وختم بكداش كراسه بالعبارة التالية : «وطن حر وكيان قومي وطيد ، وشعب سعيد متقدم : هذا مايريده ، ويعمل له ويناضل في سبيله الشيوعيون العرب» .

في الاشهر الاخيرة من الحرب العالمية الثانية وعلى وجه الدقة في نيسان **١٩٤٥** ، صدر عن «مكتب المطبوعات الشعبية» بيروت ـ دمشق ، كتاب **ستالين «المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية»** الموضوع في ايلول **١٩٣٨** . قام بترجمة **هذا** الكتاب معرب البيان الشيوعي سنة **١٩٣٣ خالد بكداش** . وقد قام المعرب هنا بكتابة مقدمة اقتصرت على الامور الفلسفية دون الدخول في السياسة اليومية ، كما كانت عادته في مقدماته السابقة»[١٢١] .

عكست ترجمة الكتاب بنظرته الفلسفية العامة لتطور الكون والمجتمع ، وكذلك مقدمة المعرب ، درجة النضج الفكري ، التي وصل اليها المنادون بالفكر الاشتراكي في منتصف الاربعينات ، وقدرتهم على فهم وبالتالي ترجمة القضايا الفلسفية المعقدة ، بغض النظر عن الرأي الحالي في مؤلف ستالين المذكور .

جاء في مقدمة المعرب مايلي :

«حاول الفكر الانساني ، منذ عهود اقدم الفلاسفة الاولين ، تفسير الوجود ، وتكوين فكرة عامة عن الكون وعن المجتمع البشري . وكانت أفكار كل عصر تعكس الظروف السائدة» .

ثم اعطى المعرب فكرة عن تطور الفكر حتى وصل الى ماركس وانجلز ولينين وبين دورهم . واستأنف كلامه قائلا :

---

(١٢١) ستالين «المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية» ـ تعريب خالد بكداش . بيروت ـ دمشق ١٩٤٥ . ص ١ ـ ٤ .

«هكـذا نشأت بعـد قرن ونصف من الـدراسـات والابحـاث العلميـة والفنية والتاريخية، طريقةٌ جديدة حلت محل ماكان الأولون يسمونه «المنطق»، وهذه الطريقة هي «الـديـالكتيـك»، أوعلم التغـيرات في الفكر والطبيعة والتاريخ، هذه التغيرات الخاصة بقوانين التناقض، والفعل المتبادل، والرقي بقفزات. وتتمثل في هذه الطريقة خلاصـة ماحققـه الفكـر البشـري حتى الآن خلال تطـوره الطويل من عهود فلاسفة اليونان القدماء، الى عهود للفلاسفة العرب، الى مفكري اوروبا الحديثة وعلمائها.

وبتطبيق هذه الطـريقـة على الحياة الاجتماعية، اصبحت السياسة علماً. وماذا كان من نتائجها؟ لقد كانت روسيا حتى عام ١٩١٧، أكثر اقطار اوروبا تأخراً في جميع الميـادين، فاستعمل البلاشفة المادية الديالكتيكية كأداة للبحث والعمل، فجعلوا من وطنهم خلال ربع قرن، أكثر بلاد العالم قوة وازدهاراً ورقيّاً وحضارة.

وكما ان الفكـر العربي القديم، الذي استمد من الفلسفة اليونانية خصباً فوق خصبـه، وقـوة فوق قوتـه، استطـاع ان يكـون أساس ذلك الجهـد المُبدع الذي خلق حضارةً سيبقى ذكرها طويلاً في التاريخ، فإن الفكرَ العربيَّ الحديث، باستنارته بهذه الطـريقـة العلميـة في البحث والتحليـل، التي يستنـير بها ملايـين النـاس من مختلف الاقطـار والاجنـاس والاديـان، يستطيـع أن يساعد عمل الجماهير الشعبية العربية في سبيل حرية اوطانها ورقيها وسعادتها».

* * *

إن تحليل نصوص الفكر السياسي لمرحلة الاربعينات وتقييم الاتجاهات والقاء الاضواء على كثـير من النـواحي ستتم معـالجتهـا في كتـابنـا الـلاحق: «الاتجاهات الفكرية في المشرق العربي في مراحـل الاستقـلال» بعـد ١٩٤٥. حيث ستتوضح العلاقة بين الفكر السياسي في مرحلتي النضال ضد الاستعمار والاستغـلال المتغـيرات الجديدة في مرحلة الاستقلال وماعقبها من اصلاح زراعي وتأميم حيث جرت تغيـيرات هامـة على البنى الاقتصـاديـة والاجتـماعية. وستكون احدى أهداف الكتاب المقبل تَتَبُّع آثار هذه التبدلات التحتية في البنى الفوقية وأفكار الناس وسلوكهم....

الفهرست

المقدمة ٥
الباب الأول ـ بداية تكّون التيارات الفكرية في أواخر العهد العثماني ١٨
الفصل الأول ـ العوامل الرئيسية المؤثرة في
الحياة الفكرية ١٩
الفصل الثاني ـ الفكر الصوفي ٢٢
الفصل الثالث ـ تصدع العلاقات القديمة وظهور
الأفكار الجديدة ٢٧
الفصل الرابع ـ اعلام رجال التنوير ٣٠
الفصل الخامس ـ برامج الجمعيات والاحزاب
السياسية (١٩٠٨ ـ ١٩١٤) ٣٦
الفصل السادس ـ التيار الديمقراطي الثوري ٥٣
الفصل السابع ـ حركة التحرر العربي بين
اليمين واليسار ٥٨
الفصل الثامن ـ الثورة العربية في الحجاز ٦١
الفصل التاسع ـ الاتجاهات السائدة في الدولة
الوطنية العربية بدمشق (١٩١٨ ـ ١٩٢٠) ٦٤
الباب الثاني ـ التيارات الفكرية في
عهد النضال ضد الاحتلال الاجنبي ١٩٢٠ ـ ١٩٤٥ .... ٦٦
الفصل الأول ـ التيار الفكري الاقطاعي
«العثملي» وردود الفعل ٦٩
الفصل الثاني ـ التيار الفكري للبرجوازية ٧٥
الفصل الثالث ـ التيارات الفكرية
للبرجوازية الصغيرة ٨٠
الفصل الرابع ـ التيار الديمقراطي الثوري ١٠٨
الفصل الخامس ـ التيار الماركسي ١٧٠

صدر عن دار الاهالي

١ ـ من الاتجاهات الفكرية في سوريّة ولبنان — الدكتور عبدالله حنا

٢ ـ النباتات الطبية واستعمالاتها — الدكتور محمد العودات والدكتور جورج لحام

٣ ـ والليل الذي يسكنني (شعر) — ممدوح عدوان

٤ ـ الفرسان الثلاثة مقتبسة عن الانكليزية (للأطفال) — سليمان العيسى وصلاح مقداد

٥ ـ ساعة الشؤم (رواية) — غابرييل غارسيا ماركيز ترجمة صالح علماني

٦ ـ آناباز (قصيدة طويلة) — سان جون بيرس ترجمة وتقديم: عبد الكريم كاصد

يصدر قريباً

١ ـ المعتزلة والفكر الحر — الدكتور عادل العوا

٢ ـ داء السكري — الدكتورة مية الرحبي

٣ ـ وضاح وليلى (للأطفال) — سليمان العيسى

هي التي ستقود هذه العملية. وقد رأى المؤلف «أن القيام بثورة صناعية بأوسع معانيها تكفل وحدها الاساس المادي الذي لا بد منه لتهيئة قوى الدفاع ولرفع مستوى المعيشة». وقد سلط العاص الاضواء على الثورة الصناعية التي تختلف عن الرأسمالية ولا تمت إليها بصلة أكبر من الصلة العرضية لظهورهما معاً في زمن واحد من أزمنة التاريخ. أي ان الثورة الصناعية يمكن ان ترافق الرأسمالية كما ترافق الاشتراكية[٦٨].

ثم يتساءل العاص «هل الاحتفاظ بالنظم والعلاقات الاقتصادية القائمة في سوريا هو أسرع الطرق لأجل تحقيق الثورة الصناعية؟...» وأجاب عن هذا السؤال بالنفي. لأن ضآلة الرأسمال الذي تملكه الفئة، التي سيعهد إليها القيام بالثورة الصناعية لا يساعد على ذلك. كما ان الشعب السوري لم يألف في غير المدن «الاقتصاد النقدي» ولا يحسن بعد استعمال المال، أي ان الاقتصاد الطبيعي القائم على المبادلة لا يزال سائداً في بعض أقسام الريف. «الدولة وحدها هي التي تستطيع أن تستخدم مالدينا من قوى العمل وثروة طبيعية على طريقة علمية فتحقق في أقصر زمن ممكن ما تقدر ان تبلغ اليه قوانا من التقدم الصناعي. أما رأس المال اللازم لتحقيق الثورة الصناعية فيمكن في رأي المؤلف استدانته من الخارج في ظروف خاصة، تقوم به الدولة إذا أمنت العواقب. وهذه الدول يجب ألا تكون كالحكومات السابقة «حكومات موظفين»، وانما يجب «انشاء دولة حديثة من الشعب وإلى الشعب يقوم بشؤونها فئة لا تعمل بدافع الأثرة وحب الذات».

ولكن عدم افساح المجال أمام الرأسمالية، للنمو والتطور لم يكن هو الرأي الوحيد السائد ضمن التيار الديموقراطي الثوري، كما ان التيار الماركسي بالرغم من موافقته عليه لم يتبناه لاسباب تكتيكية، ولم يكن إلا عبارة عن تمنيات للمستقبل وتعبير عن شعور مبدئي وهدف استراتيجي تجاه الرأسمالية. أما الموقف الحقيقي للتيار الديموقراطي الثوري من الرأسمال الوطني، وكذلك الموقف الماركسي، فيتجلى في الحاشية التي كتبها رئيف الخوري في كتابه «حقوق الانسان» سنة ١٩٣٧ كما يلي[٦٩]

(٦٨) العاص، شاكر: «نحن والثورة الصناعية» - في: الطليعة، أيار ١٩٣٦، ص ٢٣٥.

(٦٩) خوري، رئيف: «حقوق الانسان، من أين والى أين المصير» - منشورات الطليعة، دمشق ١٩٣٧، ص ١٣٣.

«قد يعجب القارىء من اننا ندعو الآن إلى فسح المجال لذوي الأموال منا كي يقوموا بالمشاريع مع ما عرفه خلال الكتاب من معارضة شديدة للرأسمالية، ولا مجال للعجب. فنحن اذا عارضنا الرأسمالية، فانما نعارض الرأسمالية الاجنبية الاستعمارية القوية، التي تتمتع عندنا بالامتيازات والاحتكارات، وتستبد بنا وتنهبنا ولسنا نعارض رأسماليتنا المستغِلة الناشئة الضعيفة، لأننا في مرحلة تستوجب تعزيز رأسماليتنا وحمايتها إذ بذلك ينهض وطننا ويكتسب مناعة لكيانه ضد هجوم الاستعمار وتأسيس الدعايات المادية لتحرره الناجز في المستقبل».

كما أن بيانات الحزب الشيوعي وتصريحات قادته في سنوات ما قبل الحرب العالمية الثانية دعت إلى دعم الرأسمال الوطني وافساح المجال أمامه للنمو والتطور حتى تستطيع البلاد أن تقف على رجليها وتتمكن من نيل استقلالها[٧٠]. فقد هدف الحزب الشيوعي، رغم معارضته المبدئية للرأسمالية، إلى مشاركة الرأسمالية الوطنية اقتصادياً وسياسياً، في تشييد صرح الاستقلال، الذي لم يكن بالامكان اقامته دون جبهة وطنية تضم جميع العناصر المعادية للاستعمار. هذا بالإضافة إلى أن نسبة القوى داخل البلاد والوضع الذي عاشت فيه لم يكن يسمح برفع شعار القضاء على الرأسمالية الوطنية في ظروف ما قبل الحرب العالمية الثانية وفي ظروف الانتداب الافرنسي وسيادة العلاقات الاقطاعية.

ولكن ذلك لم يكن يعني اهمال مصالح ومطالب الفئات الشعبية بل أن العكس هو الصحيح فقد وقف التيار الديموقراطي الثوري إلى جانب الطبقات المضطهدة المستعبدة متبعاً مختلف الوسائل.

قومت الطليعة نشاط لجنة «مشروع انعاش القرى»[٧١] وهي جمعية اصلاحية للبرجوازية الصغيرة المثقفة شعارها «من الشباب المثقف إلى الفلاح» لم تدع إلى القضاء على الاقطاعية وانما دعت إلى تحسين أحوال الفلاح دون التعرض للعلاقات الاجتماعية الاقطاعية في الريف. ومع ذلك فقد أعلنت الطليعة عن تأييدها لهذا

---

(٧٠) انظر بيانات الحزب الشيوعي، وعلى سبيل المثال البيان الصادر في حزيران ١٩٣٩ بعنوان: «لتحي الجمهورية السورية العربية».

(٧١) الطليعة، نيسان ١٩٣٧، ص ٣١٠.

المشروع محاولة ابراز جوانبه الايجابية. قالت الطليعة: «ان عملاً من هذا النوع عدا ما فيه من فائدة كبرى للفلاح فهو يزرع بالقائمين فيه من الشباب روح الديموقراطية الصحيحة والوطنية الصادقة بل هو رياضة نفسية وجسدية فان احتكاك ابن المدينة ببؤس الفلاح وشقائه وهو أخوه في الوطنية والانسانية يصقل نفسه ويهذبها..».
«فالفلاح الذي لم يعتد أن يرى من أبناء المدينة غير الجابي يهينه والدركي الذي يضطهده والمرابي الذي يمتص دمه فضعفت ثقته بالمدينة ورغب عن المدينة يجب ان يرى بعد اليوم وقد بدأت الأمة نهضتها الفعلية - شباباً قطرت قلوبهم على الرحمة به والشفقة عليه لا يستغلونه ولا يحتقرونه ويفهمونه انه عنصر أساسي من عناصر الأمة لا تتحقق نهضتها الا بنهوضه ولا تتم سعادتها إلا بسعادته»[٧٢].

ولئن كانت حركة لجنة «مشروع انعاش القرى» لا تتعدى اعمالها وامكانياتها اجراء بعض التغييرات الطفيفة البسيطة دون المساس بالعلاقات الاجتماعية القائمة، فإن هذه الحركة رغم اصلاحيتها، كانت حدثاً هاماً للاتصال بين الطبقة الوسطى في المدينة والفلاحين بمختلف انواعهم. وهذا ما حدا بالطليعة إلى ابراز الجانب الايجابي لنشاط لجنة «مشروع انعاش القرى». ولكن عدم التعرض لجوهر النظام الاقطاعي دلّ على أن أقساماً من البرجوازية الصغيرة كانت لا تريد الدخول في صراع مكشوف مع الاقطاعية نظراً لضعف هذه البرجوازية ولخوفها من الارهاب الاقطاعي. ومع ان الاتجاه الفكري العام لمجلة الطليعة لم يقف بصراحة ضد العلاقات الاقطاعية في سوريا إلا انه حاول الاستفادة من كل مناسبة لفضح النظام الاستثماري بشكل عام والاشارة بين السطور إلى فساد النظام الاقطاعي.

من أمثلة وقوف التيار الديموقراطي الثوري إلى جانب الطبقات المضطهدة المستثمرة ماكتبته الطليعة في آذار سنة **١٩٣٦** معلقة على مسرحية شعرية للاستاذ رئيف خوري بعنوان: «ثورة بيدبا» بما يلي[٧٣]: «وهي جديدة خصوصاً بالنفس الذي يتمشى فيها وهو نفس الثورة الملتهب، وبالنطاق الذي تدور فيه نطاق الطبقة الفقيرة المعذبة من المجتمع. هذه المسرحية ستكون كما نرجو لها يداً حديدية من جملة الأيدي

---

(٧٢) المصدر نفسه.

(٧٣) الطليعة، آذار ١٩٣٦، ص ٣٩.

التي تمسك بنواصي الفقراء المعذبين أبناء الطبقات المضطهدة المداسة وترفع رؤوسهم من حضيض الثرى إلى سماء الحرية وهوائها الطيب».

أما كاتب المسرحية فقد أورد في مقدمته كلمة كارل ماركس المعروفة «كان هم الفلاسفة حتى اليوم أن يفسروا التاريخ، ويجب عليهم بعد اليوم أن يعملوا التاريخ» وما علينا إلا أن نأخذ كلمة ماركس هذه فنقولها عن الادباء أيضاً. فـ «ثورة بيدبا» المنتزعة من كتاب كليلة ودمنة كانت المحاولة الاولى من نوعها في الأدب العربي محاولة جريئة موفقة في الأدب، تعطينا قطعة قوية من حياة شعب مظلوم مضطهد، عرف أن يزيح عن كتفيه كابوس الظلم والاضطهاد[٧٤].

إن هذه المسرحية الشعرية التي وقفت بصراحة إلى جانب الطبقات المضطهدة دلت بوضوح على موقف «الديموقراطية الثورية» من المشكلات الاجتماعية، فيما إذا كان الامر يتعلق بقضايا تاريخية لا تمس مباشرة الطبقات المضطهدة المحلية، إذ أن معظم اقسام «الديموقراطية الثورية» كانت تتحاشى الهجوم المباشر على الاقطاعية المحلية خوفاً منها وخشية من بطشها.

ولعل من المفيد، من أجل اعطاء صورة كاملة عن مدى ادراك العناصر الواعية من التيار الديموقراطي الثوري للقضايا الاجتماعية، الاشارة إلى مقال احسان الجابري المنشور في الطليعة في أواخر ١٩٧٣ بعنوان: «من أين يعيش الشعب السوري»[٧٥] الذي دلّ على عمق في فهم العلاقات الاجتماعية. وسننشر فيما يلي اللائحة المرافقة للمقال حول تصنيف الدخل القومي لسورية ولبنان لنرى مدى عمق التفكير العلمي لصاحب المقال وكيفية فهمه لتوزع الطبقات الاجتماعية. ومع أن الجابري يصنف كثيراً من الفئات الاجتماعية في طبقة واحدة أو يمزج أحياناً أخرى بين فئة وأخرى بحيث تتداخل الفئات الاجتماعية مع بعضها، فإن تصنيفه هذا للفئات المنتجة وغير المنتجة ونسبة ما تحصل عليه من الدخل القومي يعتبر عملاً فريداً من نوعه في تلك الفترة. وهو دليل على مدى النضج الذي وصل إليه بعض ممثلي «الديموقراطية الثورية».

---

(٧٤) خوري، رئيف: «ثورة بيدبا» مسرحية شعرية ـ دمشق ١٩٣٦، ص ٤

(٧٥) الجابري، احسان: «من أين يعيش الشعب السوري» ـ في: الطليعة، كانون الأول، ١٩٣٧، ص ٨٥٤.

١ ـ مداخيل الفئات المنتجة

النسبة المئوية من مجموع السكان	عائلات الفئة المنتجة باعتبار العائلة مؤلفة من خمسة أفراد	دخل الفئة من مجموع الدخل العام بملايين الليرات الذهبية	النسبة المئوية من الدخل القومي العام
٤٠٪	الفلاحون الذين يعيشون في ظل النظام الاقطاعي ويبلغ عدد عائلاتهم (٢٤٠) ألف عائلة ودخل العائلة السنوية (٢٠) ليرة ذهبية وسطياً.	٤,٨٠	١٤,١٢٪
١٤,٥٪	الفلاحون الاحرار الذين يتمتعون بملكية صغيرة من الاراضي وعدد عائلاتهم (٨٧) ألف عائلة ودخل العائلة الوسطي في السنة (٢٠) ليرة ذهبية	٢,٦٢	٧,٧٠٪
١٠٪	المتعلمون من أرباب الحرف والصناعات والمهن الحرة وقسم من موظفي الدولة والكتاب والمحررين ويبلغ عدد عائلاتهم (٦٠) ألف عائلة، ومتوسط دخل العائلة السنوي (٦٠) ليرة ذهبية	٣,٦٠	١٠,٥٦٪
٠,٥٪	كبار المنتجين من مديري الاعمال ورؤساء المصالح الشعبية والحكومية الذين يتناولون دخلا باستحقاق لقاء عمل منتج ويبلغ عدد عائلاتهم (٣) آلاف عائلة متوسط دخل العائلة السنوي (٣٥٠) ليرة ذهبية.	١,٠٥	٣,٠٦٪
٨٥,٠٪	المجموع	١٥,٦٧	٤٦,٠٠٪
	٢ ـ مداخيل الفئات غير المنتجة		
١٥٪	وتتألف من كبار وصغار الطفيليين من اقطاعيين ومستعمرين وأصحاب المحسوبيات والسماسرة وأصحاب الأرباح المجانية الاخرى.	١٨,٣٣	٥٤٪
١٠٠٪	المجموع	٣٤,٠٠	١٠٠٪

إن احســـان بهاء الــدين **الجــابــري** صاحب مقـال «من أين يعيش الشعب السـوري» نشـر في دمشق سنـة **١٩٣٩** كراساً بعنوان: «**مسألة عمال المدن في سوريا**» تنـاول فيـه القضـايـا التـاليّة: «مسألة العمال على ضوء المعضلة الاجتماعية ـ التنظيم النقابي ـ أوضاع اليد العاملة والحركة العمالية في سوريا ـ واجباتنا حيال العمال»[٧٦].

بعـد أن عالـج الجـابري «معضلة الاستثمار»، انتقل إلى المعضلة الثانية طارحاً اياها بصيغة التساؤل: «وكيف يتسنى لشعب متأخر ان يدرك «معضلته الاجتماعية» ما دام يعيش بفكـرة «يـوم جديـد رزق جديـد» ويعـزو فقـره وبؤس طبقته إلى تقدير ربـاني، ومـا دام مستسلماً في حل مشـاكله الاجتـماعية والسياسية لاسياده الاقطاعيين وفلولهم «المثقفين» الانتهـازيـين، الذين لا يتمتعون بالادراك الاجتماعي الصحيح ولا يتصفون بالاخلاص اللازم لقيادته؟ أليست معضلة اجتماعية ثانية للشعوب المتأخرة! (بعد الاستثمار وهو المعضلة الأولى).

صدّر احســـان بهاء الجـابـري غلاف كتـابـه بجملة وضعهـا ضمن اطـار بارز عكست، وقف التيـار الـديمـوقـراطي الثوري، في ذلك الحين، من مسألة الربط بين التحـرر القـومي والتحـرر الاجتماعي، ذلك الموقف، الذي لم يكن عابراً أو وقفاً على الجابري، بل كان تياراً قوياً يظهر هنا وهناك في فترة الثلاثينات. كتب الجابري:

«قضيـة تحريـر الطبقـة العـاملة هي الـدعامة الرئيسية التي ترتكز عليها قضيتنا الوطنية واهتمامنا بالطبقة العاملة هو مقياس لصدق وطنيتنا وايماننا بالعدالة الاجتماعية التي نستمد منها حجتنا بالاستقلال والسيادة القومية».

٢ ـ الموقف من المشكلات العالمية:

صدرت الطليعة في ظروف تفاقم خطر الفاشستية، عدوة الانسانية الأول، وفي زمن تهديـدهـا للبشرية باشعال نار حرب ثانية، وفي ظروف انتصار الجبهة الشعبية في

---

(٧٦) الجابري احسان بهاء الدين: «مسألة عمال المدن في سوريا» ـ نشرات متسلسلة في الاقتصاد الاجتماعي ٤ ـ ٥. دمشق ١٩٣٩، ص ٣.

فرنسا واسبانيا ومن ثم اندلاع الحرب الأهلية في اسبانيا. لهذا السبب فان الطليعة لم تأخذ أي موقف من السياسة الفرنسية والانكليزية، التي أخذت في التراجع أمام الحركات الوطنية العربية. يضاف إلى ذلك ان الطليعة مجلة شهرية ثقافية لا يمكنها اعطاء الرأي في القضايا اليومية السياسية. ويبدو من مقالات الطليعة ان كتابها لم يكونوا في ذلك الوقت معادين للولايات المتحدة، بل على العكس فهناك احترام للولايات المتحدة وتقدير للجامعة الاميركية وأعمالها، في وقت لم تكن الامبريالية الاميركية قد تجلت واضحة في الشرق العربي، كما حدث بعد الحرب العالمية الثانية.

رأت الطليعة أن العدو الأول للحركة الوطنية العربية وللإنسانية هو النازية في المانيا والفاشستية في إيطاليا، فوجهت نار انتقاداتها اليهما وفتحت صدرها لكل نقد يتعلق بالفاشستية، فتحت عنوان «وحوش النازي يغتالون خصومهم»[٧٧] نشرت الطليعة في أواخر ١٩٣٥ مقالاً لعامل المعادن الألماني جون شير الذي اغتاله النازي في السجن، لأنه هاجم سياسة العداء للسوفييت والسامية وانتقد نظرية الاجناس. كما عربت الطليعة في العدد نفسه مقالاً حول «النازي والعمال».

وبعد ذلك بشهرين نشرت الطليعة في آذار ١٩٣٦ مقالاً بعنوان «العرقية الهتلرية في مبَاذلها»[٧٨] ردت فيه على العنصرية النازية وعلى كتاب «كفاحي» لهتلر الذي جاء فيه «أن العنصر الأعلى يسود العنصر الاسفل، وان الفروق بين العناصر السفلى وبين عناصرنا العليا هي أعظم مما بين الانسان الذي لا يزال في أسفل السلم البشري وبين القرد في الطور الأعلى من تطوره». وتضيف الطليعة قائلة «ومن المعلوم أن هتلر وضع العرب في الدرجة الزابعة عشرة أي في أسفل السلم بين القرود».

ثم ترد الطليعة على جريدة «لونكشير بيوباختر» «التي يحررها روزنبرغ الفيلسوف المزيف وبوق الدعاية النازية الاستعمارية» والتي «تعتز علنا في أحد اعدادها في ٢٧ أيلول سنة ١٩٣٧ بانتشار النازية في الاقطار العربية وبتأليف فرقة قمصان خضراء فاشستية»، ترد قائلة: «إباؤنا واعتزازنا القومي لا يعنيان مطلقاً اننا غير

---

(٧٧) الطليعة، ٢٠ كانون الأول ١٩٣٥ ص ٢٢ ومايليها.

(٧٨) الطليعة، آذار ١٩٣٦ ص ٣٨ ومايليها.

مستعدين للتعاون على حل مشاكلنا ومشاكل العالم مع الأمم الديموقراطية الحقة أي الأمم التي تعترف بحريتنا وتعاملنا على أساس الانصاف»[٧٩].

تعرض الديمقراطي الثوري الماركسي رئيف خوري في كتابه «حقوق الانسان» سنة ١٩٣٧ للفاشستية واعتبر طريقها يعني الموت بينما يعني طريق الاشتراكية الحياة. وبين ان المخدوعين بالدكتاتورية في بلادنا فئتان: (فئة المغشوشين وفئة مأجوري الديكتاتورية الاستعمارية الاجنبية ـ فئة مأجوري الفاشستية الايطالية والنازية الالمانية الذين يريدون تسليمنا إلى أوحش ضرب من ضروب الاستعمار»[٨٠] ولم ينس المؤلف رغم هجومه على الفاشستية وهي أشد أنواع البرجوازية فتكاً، وشراسة «البرجوازية» التي «تعيث فساداً في مستعمراتها ولاتعرف فيها الديمقراطية» وأضاف أن «علاجنا هو الديمقراطية الصحيحة».

يتبين من ذلك أن الديمقراطي الثوري الماركسي رئيف خوري وُجه نار نقده في الدرجة الأولى للفاشستية، دون أن ينسى أو يهمل مظالم الاستعماريين الانكليزي والافرنسي، وقطع بذلك الطريق على من كانوا يدعون عن جهل أو عمالة، إلى محالفة الفاشستية عدوة الشعوب بحجة «مقاومتها» أو بالأصح تنافسها مع الاستعماريين الانكليزي والفرنسي للحلول مكانهما والاستمرار في نهب الشعوب بصورة أشرس وأكثر بربرية. ولكن ازدياد حدة الهجوم الفاشستي عل الشعوب اضطر انصار الاتجاه الديمقراطي الثوري إلى تشديد النضال بحزم أشد ضد الفاشستية مع غض الطرف عن المستعمرين الانكليز والفرنسيين وتجريحهم بشكل لا يؤد إلى افساد قيام الجبهة المعادية للفاشستية.

خصصت الطليعة عدداً خاصاً لنشر وثائق مؤتمر مكافحة الفاشستية السوري اللبناني الأول المنعقد في بيروت في ٦ و ٧ أيار ١٩٣٩. «فالفاشستية»، كما قالت الطليعة، «لم تعد نظرية أو مبدأ يمكن للعربي النقاش فيه ـ فيحبذه أو يقبحه، حسب اهوائه أو معلوماته ـ كلا بل الفاشستية تعني خطراً محدقاً بالبلاد العربية بعد ان ظهرت

---

(٧٩) الطليعة، تشرين الأول ١٩٣٧. ص ٦٣٨.

(٨٠) خوري رئيف، حقوق الانسان....، ص ١٢٦.

مطامع الدوتشي والفوهرر. **فهما يتطلعان إلى الشرق** العربي بعيون محملقة تريد ابتلاعه»[81].

ثم حددت افتتاحية الطليعة الموقف من فرنسا وانكلترا على الوجه التالي: «إذا نحن دعونا إلى توحيد الصفوف ومقاومة الخطر الفاشستي الذي يلوح لنا في الأفق القريب فهذا لا يعني اننا راضون عن أعمال الحكومتين الفرنسية والانكليزية في البلاد العربية كلا فان الديموقراطيين الحقيقيين في كل من فرنسا وانكلترا غير راضين عن سياسة حكومتهما في الشرق العربي وهم دائماً يرفعون أصواتهم مطالبين بإنصاف الشعوب العربية، رغم ان هذه الاصوات لم تنلنا حقوقنا وكل ما نصبو إليه وما ذلك إلا لأن من **يديرون دفة السياسة الاستعمارية** هم بعيدون عن الديموقراطية كل البعد ويخدمون مآرب الفاشستية». «ان الديموقراطية الصحيحة التي ندعو اليها ونسعى في سبيل توطيدها لتتبرأ من سياسة الاستعمار الغاشمة، سياسة البطش والقوة والافقار كما هي الحالة في فلسطين الذبيحة منذ اندلاع لهب الثورة عام ١٩٣٦ للآن». «ان الطليعة كانت وما تزال تكافح كل ألوان العسف والضغط والارهاق وهي انما تدعو الادباء وحملة الأقلام أكثر من كل يوم مضى إلى مكافحة الظلم والاستعمار ومكافحة الفاشستية أعظم انواعه».

يتجلى موقف التيار الديموقراطي الثوري من القضايا الدولية ومن الصراع الدائر على اعتاب الحرب العالمية الثانية من تقرير اللجنة التحضيرية لمؤتمر مكافحة الفاشستية في أيار ١٩٣٩. جاء في تقرير اللجنة «يظهر لنا لأول وهلة في العالم اليوم جبهتان كبيرتان متقابلتان:

جبهة الشعوب الواقعة في قبضة الاستعمار - الشعوب المستضعفة التي تسعى إلى طرح قيودها والتحرر.

وجبهة الدول الاستعمارية التي تتحكم بمقدرات الشعوب المغلوبة على أمرها.

ولكن يظهر لنا أيضا (وهذا ما ينساه بعضنا) ان جبهة الدول الاستعمارية نفسها تقع في جانبين.

---

(٨١) الطليعة، أيار ١٩٣٩، ص ٢٤٧.

فهنـاك جانب الـدول **الاستعـمارية التي** يسـود في داخلها النظام الديموقراطي وجـانب الـدول الاستعمارية التي تسودها الدكتاتورية الفاشستية ونستعمل الفاشستية لنعني بها النـازيـة أيضـاً». ثم يؤكـد التقرير ان الحيـاد في الصـراع بين الفـاشستيـة والديموقراطية مهزلة و «نحن في جبهة الديوقراطية».

ويلاحظ بوضوح اهمال التقرير ـ عن عمد ولاسباب تاكتيكية ـ جبهة الاتحاد السوفياتي.

ويجب ألا يتبادر إلى الذهن ان التيار الديموقراطي الثوري في سورية ولبنان هو تيار ذو صبغة محلية لا ينظر إلى أرجاء الوطن العربي الكبير. فالعكس هو الصحيح. فالكلمات والمقالات التي ألقيت في المؤتمر لا تقصر ابحاثها على سورية ولبنان فحسب بل تتعـداهما إلى سائـر الأقطـار العربية. ففي كلمة الافتتاح التي ألقاها رئيس عصبة مكـافحـة الفـاشستيـة انطـون ثابت اشـارة واضحة إلى ذلك: «انني إذا أحيي البلاد العربية الشقيقة وفلسطين العربية المناضلة، أعلن أسف مؤتمرنا الذي لم تمثل فيه بقية الاقطـار الشقيقـة، فنحن واثقـون من مشاطرتهم ايانا الرأي، لأننا نسعى إلى هدف واحد: الاستقلال والحرية...».

وتمنى الخطيب أن يرى في المؤتمر القادم بين ممثلي الاقطار العربية الشقيقة، ممثلي فلسطين العربية الظافرة. وهذا المؤتمر هو الخطوة الأولى في سبيل تفاهم وتعاون أوسع وأعم بين جميع البلاد العربية.

وقفت الطليعة أيضاً إلى جانب اسبانيا الجمهورية دون تحفظ. ففضحت كتيباً مزيفـاً بالصـور الفتـوغرافية عن الأعمال الوحشية التي يقوم بها الجمهوريون في اسبانيا الحمراء. وعلقت الطليعة بسخرية على اصدار هذا الكتاب قائلة: «فهو كما يبدو نفثة من سموم الدعاية الفاشستية التي تعمل وكالاتها في الشرق بنشاط باهر فالكتيب صادر من مدينة حلب وقد وزع في البلاد العربية مجاناً ـ إيماناً واحتساباً لوجه الله»[٨٢].

وفي العـدد نفسـه دعت الطليعـة إلى قراءة كتـاب «خمسـة أشهـر في اسبـانيـا الجمهـوريـة» من «مـذكـرات عربي ناضـل في الجيش الاممي في سبيـل الـدفـاع عن

---

(٨٢) الطليعة، تشرين الثاني ١٩٣٧، ص ٧٤٦.

الـديمـوراطيـة وحـريـة الشعب الاسبـاني بل «حـريـة العـرب، المهددة من الطغيان الفـاشستي» وجـاء في كتـاب صاحب المـذكـرات العربي قوله «انني دافعت عن حرية العـرب في جبهـة مدريـد»[83] ودل ذلـك على اتساع الآفاق الأممية لهذا العربي وعلى مدى فهمـه العميق لطبيعـة المعـركـة الـدائـرة بين الاشـتراكية والتقدم من جهة وبين الامبر يالية الممثلة في الفاشستية من جهة أخرى، كمـا دل ذلـك علـى فهمـه لوحدة كفـاح الشعـوب في سائـر انحـاء المعمـورة وان أي نصر يحرزه شعب ما في نضاله ضد الاستعباد هو في الوقت نفسه نصر لشعب آخر يبعد عنه مئات بل آلاف الكيلومترات.

وهكذا فقد شنت الطليعة والاتجاه الديموقراطي الثوري حرباً ضروساً لا هوادة فيهـا ضد الفـاشستيـة، بلغت أوجها اثناء انعقاد «مؤتمر مكافحة الفاشستية السوري اللبنـاني الأول» في بيروت أيـار ١٩٣٩ وكـانت هذه الحملة ضروريـة وصعبة في وقت اعتقـد فيـه، خطأ، قسم من المثقفين العرب، بأن انتصار الفاشستية سيجلب الحرية للأقطـار العـربيـة، متنـاسين طبيعـة الفـاشستية العدوانية، وغير مدركين بأنها أشد اشكـال الامـبر يالية شراسة ووحشية ولم تكن المهمة الملقاة على عاتق القوى التقدمية العـالميـة بإقـامـة جبهـة موحـدة عالميـة معادية للفاشستية، سهلة التحقيق في الأقطار العـربيـة، الـرازحة بمعظمهما تحت نير الاستعمارين الانكليزي والافرنسي، والتي لم تذق مرارة الاستعبـاد النـازي او الاضطهاد الفاشستي. وكانت ظروف المعركة الناشبة على أعتاب الحرب العالمية الثانية، ومحاولة شق المعسكر الامبريالي العالمي، والدفاع عن أول دولـة اشـتراكيـة للعمـال والفـلاحـين، واقـامـة جبهـة موحـدة عالمية معادية للفاشستية، هي التي أملت هذه السياسة.

في ظل هذه الظـروف الصعبـة المعقـدة استطـاع التيار الديموقراطي الثوري، وحليفه التيار الماركسي، من تجاوز المشكلة بسلام ومن تحقيق انتصارات ملحوظة على الفـاشستيـة ومن كسب قسم كبـير من الرأي العام العربي وتوضيح طبيعة الفاشستية امـامـه وشرح ظروف المعركة العالمية بين الفاشستية واعدائها وهذا النصر على النطاق

---

(٨٣) المصـدر نفسـه، ٧٩٣. وثمـة كتـاب آخـر لمؤلف آخر هو خالد بكداش صدر في دمشق سنة ١٩٣٧ بعنوان: «العرب والحرب الاهلية في اسبانيا».

الشعبي لم يتم الحصول عليه إلا بعد معركة ضارية مع العناصر الفاشستية الداخلية والخارجية .

وقد ادى النضال ضد الفاشستية وفضح جرائمها في ألمانيا وايطاليا واسبانيا وفي كل مكان وجدت فيه إلى ترسيخ جذور الحركة الديموقراطية العامة في سورية ولبنان وإلى اكتساب هذه الحركة اصالة جديدة، نشأت وترعرعت في معمعان النضال ضد العنصرية والفاشستية وفي خضم الكفاح في سبيل الحصول على الاستقلال الوطني .

هذه العملية بمجموعها ساهمت أيضاً في دفع اعداد كبيرة من انصار التيار الديموقراطي الثوري ومن عناصر شعبية أخرى، نحو مواقع الماركسية، حيث تصلب عود هذه العناصر في نار الصراع ضد الفاشستية، لاسيما اثناء الحرب العالمية الثانية . كما اثرت هذه العملة بدورها في الحركة الوطنية بمجموعها وأضفت عليها طابعاً ديموقراطياً عاماً، وزادت من أصالة هذا الطابع الذي ترسخت جذوره أيام النضال ضد الانتداب الافرنسي .

ولعل من المفيد اجراء مقارنة بين التيار اليساري داخل الحركة الوطنية في سورية ولبنان ومثيله في مصر. فهنا في سورية ولبنان رسخت جذور هذا التيار وأثر بشكل فعال في مجموع الحركة الوطنية وأضفى عليها طابعاً ديموراطياً. في حين لم يستطع التيار اليساري داخل الحركة الوطنية المصرية أن يقوم، لأسباب لا مجال لذكرها هنا بالدور نفسه، الذي قام به التيار اليساري في سوريا. وبالإضافة إلى قوة الاصوات الداعية للتفاهم مع الفاشستية في مصر، فإنها لم تواجه المقاومة العنيفة التي لاقتها في سورية ولبنان. وهذا ما أضعف من ديموقراطية الحركة الوطنية في مصر بسبب ضعف جناحها اليساري قبل الحرب الثانية. وكان ذلك أحد الخصائص المميزة لكل من الحركتين الوطنيتين في القطرين السوري والمصري .

٣ ـ الموقف من التراث الثوري العربي والعالمي

كان من الطبيعي ان يتفاعل التيار الديموقراطي الثوري مع الاتجاهات التقدمية العربية والعالمية، وكان ذلك أحد اسباب قوة هذا التيار ومصدراً من مصادر حيويته وفاعليته .

آ ـ الاعتماد على الفكر الثوري الاسلامي:

أورد الـديموقراطي الثوري رئيف خوري، اثناء تقديم روايته «مسرحية بيدبا» عدة آيات قرآنية من سورة القصص[٨٤] عبرت عن مضمون مسرحيته وهدفها.

«إن فرعـون علا في الأرض وجعـل أهلهـا شيعـاً يستضعف طائفـة منهم يذبح أبنـاءهم ويستحيي نسـاءهم انـه كان من المفسـدين، ونـريـد أن نمن على الـذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين. ونمكن لهم في الأرض ونُري فرعون وهمان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون».

«ان هذه الآيـات البينـات ـ والكـلام لرئيف خوري ـ دليـل قوي على ظلم المستثمـرين المتجـبرين وهي في الـوقت نفسـه تنبىء المستضعفـين المضطهـدين بالخـلاص من الظلم ورفع نير الاضطهاد وباستلامهمّ للسلطة. وهنا اراد الديموقراطي الثوري الماركسي رئيف خوري أن يصل بين تراثنا الثوري القديم وبين الفكر الثوري الحديث المنادي بالقضاء على استغلال الانسان للإنسان وتطهير البشرية من رجس المستغلين واعلاء كلمة المستثمَرين.

وقد أشار رئيف خوري فيما بعد في كتابه «الفكر العربي الحديث» إلى التفاعل بين التيـارين الـبرجـوازي التقـدمي الحـديث والعـربي الثوري القديم وإلى رجوع «هؤلاء الافـذاذ من آبـائنـا (أي من الأدبـاء الـبرجـوازيـين التقـدميـين ـ المؤلف) إلى قديمنا وتعلموا منه، وأطلوا على العالم وتفقهوا، ونظروا في أحوالنا وشؤوننا»[٨٥].

وعلى هذا المنوال سار التيـار الديموقراطي الثوري في محاولة تحقيق التفاعل بين التيـار الثـوري العـربي القـديم والتيـار الثـوري الـديموقراطي الحديث. انهم كانوا يقتبسـون من القـرآن الكـريم الآيـات النـاريـة التي تتـوقـد غضبـاً على العتـاة الجبارين وترن بالنداء إلى الثورة. كما رجعوا إلى سيرة الرسول وإلى الحياة في عهد الخلفاء الراشدين الاوائل، التي تكره الملكية الوراثية المطلقة ويستشم منها روح الملكية الجماعية للأرض وبـذور بعض المبـادىء الاشـتراكية. ـ وهذا الحكم ينطبق على التيارين البرجوازي التقدمي والديموقراطي الثوري الماركسي ـ.

---

(٨٤) خوري . . . ثورة بيدبا . . . . ، ص٢.

(٨٥) خوري . . . الفكر العربي الحديث . . . ، ص ١٥٤.

ب ـ الأخذ من معين الفكر البورجوازي التقدمي :

لم يقتصر التيار الديموقراطي الثوري في سياسته على اجراء التفاعل بين التيارين العربي الثوري والاشتراكي ، بل اعتمد ايضاً ، مثل التيار الماركسي النقي ، على الفكر البرجوازي العالمي التقدمي ووصله بالفكر العربي التقدمي القديم والحديث وبالفكر الاشتراكي .

فيوسف ابراهيم يزبك يقدم كتابه « ١٤ تموز ـ مدرسة لكل شعب يطلب الحرية وعبرة لكل حكومة تريد العدل»[٨٦] في حزيران ١٩٣٦ ، تكريماً لذكرى الابطال الذين عملوا أو سعوا وفكروا وكتبوا لتجديد ١٤ تموز، وهم :

طانيوس شاهين   في جبل لبنان

ابراهيم هنانو   في سوريا

مكسيم غوركي   في العالم.

وكذلك لجنود ١٤ تموز في مختلف اقطارهم ، الذين سقطوا في ميادين الشرف مجهولين ومنسيين .

وفي كتاب حقوق الانسان لرئيف الخوري أقوال بارزة لعمر ابن الخطاب ولامارتين وغوركي تدعو إلى حقوق الانسان ، وان تسلسل الفصول في شرح حقوق الانسان تعبّر عن وجهة نظر التيار الديموقراطي الثوري ومدى فهمه العميق لتطور تاريخ البشرية .

فهناك فصل عن «الانسان بلا حقوق» في عهد «طغيان اسياد الكهنوت والاقطاع والملوك» باسم المجتمع العبودي والاقطاعي . ثم يأتي فصل «الانسان بحقوق سياسية ومدنية» في زمن «الثورات البورجوازية» . وبعد لك فصل «الانسان بأوسع حقوقه» في «عصر الاشتراكية» . وفي حين تهمل الديموقراطية البرجوازية حق الانسان الاقتصادي توليه الديموقراطية الاشتراكية اهمية كبيرة . والبرجوازية ترمي أولاً إلى فرض ديكتاتوريتها الطبقية المطلقة . أما البروليتاريا فهي في نضالها نصيرة

---

(٨٦) يزبك ، يوسف ابراهيم : «١٤ تموز، مدرسة لكل شعب يطلب الحرية ، وعبرة لكل حكومة تريد العدل» ـ منشورات مجلة الطليعة . بيروت ١٩٣٦ . . . والمقصود بمدرسة ١٤ تموز الثورة الفرنسية لعام ١٧٨٩ ، التي دكت حصون الاقطاعية .

الشعوب المستعمرة وحاملة **لواء أعظم ديموقراطية**، الديموقراطية البروليتارية في سدس الكرة الأرضية.

ان التفصيل في هذه الامور هام وقيّم لتبيان الفرق الجوهري بين كل من الديموقراطيتين البرجوازية والاشتراكية، في وقت حاول فيه المؤلفون البرجوازيون الحديث عن حقوق الانسان بدون تحديد وبدون اظهار محتواها الطبقي. وكتاب رئيف بمجموعه يعتمد في الواقع على هذه المعطية محاولاً شرحها وتوضيحها.

ورغم نظرة المؤلف البعيدة الشاملة إلى العالم وما يتمخض عنه من حركات بركانية وفهم دقيق لتلك الحركات ونتائجها فقد وضع، كما ذكر مقدم الكتاب رئيس تحرير الطليعة، نصب عينيه البلاد العربية ومصيرها واشار إلى أفضل الطرق الممكن اتباعها كي تعيش هذه الاقطار العربية مستقلة موفورة الكرامة تدير شؤونها بنفسها ويستطرد رئيس تحرير الطليعة خاتماً مقدمة كتاب حقوق الانسان بما يلي: «**وفي بعض اجزاء بلادنا العزيزة يعامل العربي معاملة تخجل منها القرون الوسطى» ثم نادى الأدباء قائلاً**: «عليكم أيها الادباء تقع مسؤولية كبرى - مسؤولية مجابهة الحقائق والدفاع عن الثقافة العربية الديمقراطية، الدفاع عن الانسان العربي الذي يعيش في بلادنا بلا حقوق...».

بمناسبة الذكرى المئة والخمسين لنشوب الثورة الفرنسية اصدرت الطليعة في **١٩٣٩ عدداً خاصاً عن الثورة الافرنسية**[٨٧] هدفت من وراء اصداره الوصول إلى غايتين:

١ - الهجوم على الفاشية وتبيان تناقضها الجوهري مع مبادىء الثورة الفرنسية وتذكير القارىء بالتقاليد الثورية الفرنسية بهدف تحقيق الجبهة المعادية للفاشستية وتقريب الجماهير من فرنسا ثورة ١٧٨٩ وابعادها عن المانيا الهتلرية.

٢ - ترسيخ اسس الديموقراطية وشرح حوادث الثورة الافرنسية من وجهة نظر ماركسية قلما تعرض لها، حتى الآن أي مؤرخ عربي، وابراز الصراع داخل القوى المحركة للثورة الفرنسية، والوقوف إلى جانب القوى الديموراطية الشعبية والقاء الاضواء على دور الجماهير الشعبية في الثورة ثم اجراء المقارنة بين الثورة البرجوازية الافرنسية والثورة الاشتراكية الروسية.

---

(٨٧) الطليعة، تموز ١٩٣٩.

جـ ـ الاخذ من الفكر الماركسي :

بالرغم من ان التيار الديموقراطي الثوري الذي وجد مجالاً لنشر افكاره على صفحات مجلة الطليعة، لم يتبنَّ الماركسية ـ اللينينية بشكل صريح سافر، بل تبناها بشكل غير مباشر وبالتلميح دون التصريح او بالتصريح الحذر، فان الاتجاه الماركسي كان واضحاً عند القسم الأكبر من انصار هذا التيار. وقد نشرت ابحاث كثيرة عن المادية الديالكتيكية والتاريخية، وعن الحياة في الاتحاد السوفياتي. ان احد اسباب عدم تبني التيار الديموقراطي الثوري للماركسية بشكل علني صريح لا غموض فيه، هو نقص المصادر الماركسية المترجمة إلى العربية في ذلك الحين، وهذا ما حرم عدداً كبيراً ممن لا يجيدون لغة اجنبية من الاطلاع على التراث الماركسي. وثمة سبب آخر هام ألا وهو خوف هذه الفئة البرجوازية الصغيرة التقدمية من تبني الاشتراكية بشكل صريح علني امام الجماهير الواقعة تحت تأثيرات مختلفة للقوى الامبريالية والرجعية الداخلية، ومثالنا على ذلك ما ذكره الكاتب الاجتماعي التقدمي المعروف سلامة موسى سنة ١٩٥٧ من الخوف الذي استحوذ على افئدة قسم من التقدميين البرجوازيين الصغار حتى بعد الحرب العالمية الثانية، هذا ما أعلنه بصراحة سلامة موسى الذي قال[٨٨]:

«ومع اني في كتابي «هؤلاء علموني» قد ذكرت عشرين من الأدباء والعلماء والمفكرين الذين وجهوا نشاطي الذهني وربوا نفسي فإني لم اذكر معهم كارل ماركس داعية الاشتراكية. والآن (١٩٥٧) احب ان اعترف انه ليس في العالم من تأثرت به وتربيت عليه مثل كارل ماركس، وانما كنت اتفادى ذكر اسمه خشية الاتهام بالشيوعية».

ومع ذلك فإن قسماً من التيار الديموقراطي الثوري طرح الخوف جانباً ونشر عدة مقالات تبنت الماركسية بشكل صريح.

د ـ ابراز خيوط الاتصال بين الفكر العربي التقدمي والماركسية :

سعى التيار الديموقراطي الثوري إلى ايجاد صلة بين الفكر العربي التقدمي والماركسية، وتسليط الاضواء على الجسور التي تربط التراث القومي بالماركسية.

---

(٨٨) موسى، سلامة: «تربية سلامة موسى» ـ القاهرة ١٩٥٨، ص ٢٦٩.

فنشرت الطليعة في أوائل سنة ١٩٣٧ مقالاً بعنوان «عبد الرحمن بن خلدون ـ أول فيلسوف عربي يحاول تفسير التاريخ مادياً . . «مقدمة المقدمة، هي طريقة علمية لتفهم العوارض الاجتماعية»[٨٩] جاء في المقال: «ابن خلدون فيلسوف العرب في القرن الثالث عشر هو قريب جداً من ارنست هيجل من ناحية نظريته الفلسفية ومن ماركس من ناحية المادية وصراع الطبقات ايضاً». وبعد ان أورد المقال النصوص المختلفة لدعم ما قاله اضاف: «ان هذه الاسطر القليلة في باب الاقتصاد السياسي التي أتى بها فيلسوفنا العربي الكبير هي قريبة جداً من موضوع «القيمة الزائدة» الذي اكتشفه كارل ماركس، أما الفرق ما بين الاثنين فهو ان ابن خلدون لم يوضح كيفية الحصول على «الزيادة» بينما اوضحها ماركس تماماً. وسبب ذلك عدم وجود رأسمالية صناعية وطبقة عمال في عصر ابن خلدون ووجودها كاملة ناضجة في عصر كارل ماركس»، ثم يستمر المقال في إيراد أوجه التشابه بين أبن خلدون ومؤلفات ماركس، وخلص في النهاية إلى القول بأن «فلسفة ابن خلدون هي فلسفة اجتماعية مادية ما دامت تضع البيئة والظروف الاقتصادية أساساً لمعالجة شؤون «العمران البشري الاجتماع الانساني».

ان محاولة ايجاد خيوط الترابط بين الفكر المادي الماركسي مع مراعاة ظروف نشوء كل منهما، لا تعبر فقط عن الحقيقة وعن كشف بعض جوانب تاريخنا الغامضة، التي طالما سعت الرجعية الداخلية والخارجية لطمسها أو تحريفها، ولا تعبر عن الرغبة في الوصول إلى الحقائق التاريخية فحسب، بل كانت أيضاً سلاحاً فكرياً في يد القوى التقدمية لمقارعة الرجعية التي تحاول الايهام بأن التراث العربي بمجمله يقف إلى جانبها ويؤيد نظريتها، أي نظرية الاستعباد والاستغلال والظلم والخنوع. ان التاريخ العربي مليء بالجوانب الناصعة المؤيدة للحق المعادية للظلم والاستعباد. وكانت الطليعة في أعوام ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ ممن سعى إلى محاولة كشف النقاب عن الفكر المادي في التراث العربي والقاء الضوء على التراث العربي التقدمي.

---

(٨٩) صدقي، نجاتي: «عبد الرحمن بن خلدون أول فيلسوف عربي يحاول تفسير التاريخ مادياً» ـ في: الطليعة كانون الثاني ١٩٣٧، ص ١٧ ومايليها.

هـ ـ احياء التاريخ العربي وكتابته من جديد:

اهتم التيار الديموقراطي الثوري باحياء التاريخ العربي الحديث وكتابته من جديد وبروح جديدة. فبعد ان نشر يوسف ابراهيم يزبك سنة ١٩٣٥ «النفط مستعبد الشعوب»، الف في مطلع ١٩٣٦ كتاباً جديداً عن «طانيوس شاهين البطل الشعبي اللبناني الذي قاد ثورة الفلاحين في كسروان على المشائخ من آل الخازن سنة ١٨٥٨» وعلقت الطليعة على الكتاب والثورة بما يلي: «كانت اول ثورة من نوعها في العالم العربي، قام بها اللبنانيون على الامراء والمشائخ لتحرير جبلهم من الحكم الاقطاعي. وكان طانيوس شاهين في بدء شبابه «مكارياً» ثم «بيطاراً»، وقد نادى الفلاحون بزعامته عليهم في «الغضبة الشعبية الكبرى» التي اباحت املاك المشائخ للفلاحين... ويؤكد الاستاذ يزبك في كتابه هذا ان المذابح الدينية المعروفة «بحركة سنة الستين» والتي غذتها الدول الاستعمارية بالمال والتحريض كانت نتيجة ثورة الفلاحين على الاقطاعيين، فقد خشي بعض الامراء والمشائخ عواقبها فقلبوها إلى فتنة دينية وهي نظرية جديدة في درس تاريخ لبنان السياسي على ضوء الحقيقة والجرد»[٩٠].

فكتاب طانيوس شاهين، معلن الجمهورية اللبنانية سنة ١٨٥٨ يقدم صفحة مجهولة من تاريخ المسألة الشرقية تفضح دسائس قناصل الدول الاجنبية منذ أن ذرّ الاستعمار قرنه في هذه البلاد. وثورة شاهين هي أول ثورة شعبية في بلاد العرب: تمرد فيها اللبناني على حكامه الاقطاعيين وناضلت فيها العامة في سبيل الرغيف والحرية».

هذا ما كتبته الطليعة سنة ١٩٣٦ تعليقاً وعرضاً لكتاب طانيوس شاهين. والطليعة هنا وقفت بصراحة ضد الاقطاعية ورأت بأن الاقطاعية عدو للفلاحين وبأن توزيع أراضي الاقطاعيين أمرٌ مشروع. هذا الموقف المعادي للاقطاعية بصراحة الذي تبنته الطليعة في تعليقها على ثورة طانيوس شاهين الفلاحية، اختلف عن موقفها عندما علقت على أعمال لجنة «مشروع انعاش الريف»، ولم تنتقد الاقطاعية بشكل مباشر. وهذا دليل على ان تيار الطليعة الفكري معاد للإقطاعية. إلا أنه خائف متردد، لا يرغب في فتح جبهات كثيرة متعددة. وهو يحاول الهجوم على الاقطاعية

(٩٠) الطليعة، آذار ١٩٣٦، ص ٤٩.

بشكل عام ومن خلال التاريخ، دون ان يتجاسر علناً على مهاجمة الاقطاعية المحلية وفضح عيوبها ومخازيها وجرائمها التي ترتكبها في كل يوم وساعة.

بالإضافة إلى ذلك قامت الطليعة ايضاً باحياء ذكرى الرواد العرب الاوائل ايام النهضة العربية ممن اتخذوا موقفاً اجتماعياً طبقياً معيناً إلى جانب المستثمَرين. فنشرت في أواخر سنة ١٩٣٦ عدة مقالات تحت عنوان «صفحات خالدة لكبار احرار الفكر العربي» وكان احد هذه المقالات بعنوان «الدكتور شميل والاشتراكية»، «اهم ما كتبه فيلسوفنا العربي الكبير في سنة ١٩٠٨ لشرح النظريات الاشتراكية والدفاع عنها» ودلت الطليعة بذلك على انها وريثة التيار الديموقراطي الثوري الذي مثله فرح انطون والدكتور شبلي شميل، داخل الحركة الوطنية قبل الحرب العالمية الاولى.

وعلينا هنا ألا ننسى بندلي جوزي المقدسي الأصل، الذي عمل في جامعة باكو وطبع سنة ١٩٢٨ كتاب «بعض الحركات الفكرية في الاسلام». فبندلي يهدي كتابه إلى الجماهير العربية الشابة ويسعى لاحياء الجوانب الايجابية الثورية في تاريخنا العربي واضعاً بذلك اللبنات الاولى للمؤرخين العرب التقدميين الساعين إلى فهم التاريخ العربي فهما علمياً صحيحاً بعيداً عن الزيف والتزوير واهواء الملوك، من أجل خدمة الحقيقة والتاريخ العربي ذاته. وقد اثارت الرجعية في اوائل الثلاثينات الزوابع في وجه كتاب جوزي وقامت بمنعه من التداول في الأسواق.

٤ ـ الموقف من الوحدة العربية

أكثر من مرة أشرنا في هذا الكتاب إلى أنَّ سليم خياطة قد ترأس اجتماعاً (مؤتمراً) في زحلة عام ١٩٣٤ لبحث قضية الوحدة العربية، وكان من الحضور عدد من كتاب الطليعة. وقد صدر عن ذلك الاجتماع بيان يشرح وجهة نظر المثقفين العرب التقدميين في الوحدة.

هذا الاتجاه نلمسه في الطليعة وبخاصة في مقالة رئيف خوري «القومية العربية الجامعة طريق الخلاص». قسّم رئيف خوري مقالته المنشورة في كانون الثاني ١٩٣٧ إلى سبعة اقسام ننقل فيما يلي اهم مقاطعها:

«١ ـ عبرة التاريخ . . . **لا استقلال للعرب إلا باتحادهم** .

٢ ـ الاستقلال الحقيقي مقياسه: سعادة الهيئات العاملة المنتجة .

٣ ـ الاتحاد العربي المقبل . . . لا بد له ان يكون وحدة في الدفاع والتشريع الجمركي والنقد ، لا بد له ان يكون خالياً من الحواجز الجمركية ، غير الطبيعية ، المقامة بين اقطاره الآن .

٤ ـ عوامل ضعف القومية . . . العصبيات الصغيرة السامة التي نعرفها لشهرة امرها : كالنعرة الطائفية ، الوطنية الاقليمية أو البلدية ، التحزب العائلي ، والتحزب العنصري ، الطمع الشخصي الخ . . والاستعمار يقوم بتغذية هذه العصبيات . . .

٥ ـ القضاء على الاستعمار يؤدي إلى القضاء على عناصر الضعف الداخلي .

٦ ـ ضعف الاستعمار وتطاحنه مع نفسه يؤدي إلى انخراق جبهته العالمية .

٧ ـ من هو العربي ؟ . . . العربي هو الذي ينزل قطراً من هذه الاقطار التي يتألف منها الشرق العربي ، والاتحاد العربي في المستقبل ، وهو يتكلم اللغة العربية العزيزة . . . العربي هو الذي يشعر انه وارث شعب باسل زكي ابيّ يعتز بالانتساب اليه . . . العربي هو الذي يرى اليوم انه من قومية مجزأة مظلومة . . . » .

خارج إطار تيار الطليعة نجد تيارات كثيرة تدعو إلى لَمِّ شمل الادباء التقدميين . . فمجلة «العصر الحديث» العراقية تنشر في عددها الرابع من عام ١٩٣٧ مقالاً هذه بعض مقاطعه :

«إلى الاباء الديمقراطيين في الاقطار العربية ، في هذه المرحلة الخطيرة التي تمشيها الاقطار العربية ، وانها لوثيقة الالتحام بالنضال الطبقي المسيطر على الغرب ، يجب على الادباء الذين يكتبون باللغة العربية ويدعون للفكرة الديمقراطية ان يتعارفوا ويلموا (شعوثهم) ويتعاونوا لأنهم بعد مدة قد بدأت طلائعها تطل ، سيكونون القادة الحقيقيين في توجيه تفكير الجماهير إلى اهداف التحرر من أنيار الاقطاعية الكثيرة الاسماء والعديدة الانواع : جنسياً ومالياً وروحياً والتي تنتهي جميعها في دائرة واحدة لتستعبد الانسان . . .

. . . كل اديب حتى اولئك الذين استعبدتهم (ظروفهم الخاصة) واعمت بصائرهم ثقافة الرجعيين . يرى عندما يخلو إلى نفسه ويفحص ضميره : ان هذا المجتمع ظالم ، دنس ، رديء ، كلب ، ولكن معظم الادباء المعروفين في العالم العربي

وقـد يكـونـون من صميم الشعب العـائش تحت الانيـار، يجارون لسـوء الحـظ هذه الاوضاع لأنهم مخدرون بالنزعات الخيالية والمعتقدات التصوفية والتقاليد الموروثة عن القرون الوسطى. والذين يماشون المجتمع ويخدمون اقطاعييه عن تعمد وسابق تصور وتصميم هم قلة ضئيلة فعلينـا اذن ان نتعـارف ونلم «شعـوثنـا» ونتعـاون كي نهدي زملاءنا الحيارى التائهين المخدرين سواء السبيل ونضمهم إلى صفوفنا.

إن الادباء الدعاة للفكرة الديمقراطية في الاقطار العربية يستطيعون ان يخلقوا في عشرين سنة جيلاً شعبياً جباراً يمرح بالسعادة والخيرات وذلك بتصويرهم المجتمع كما هو: يجب ان تخرق (عـدسـة) الآلـة التي يصـورون بها جميـع الحجب وان يفهمـوا الشعب الحقيقة عارية كما هي، فإن الديمقراطية والادب الواقعي «رياليسيم» أخوان لا يفترقان.

فإلى هذا التعـارف وهـذا التعـاون فلتـدعُ الصحف الادبيـة الديمقراطية وقد بدأت تكثر وتنتشر وتنمو وتثمر.

وحبـذا لـو تقـوم احـداهـا بدعوة كتابنا المعروفين بهذه النزعة إلى عقد اجتماع تنبثق منه فكرة التنظيم العملي الصحيح.

أيها الادباء الديمقراطيون، ادباء النبل والخير، ان بلدانكم اليوم هي احوج ما تكـون إلى اقـلامكم النـزيهـة، وافكـاركم الحـرة، وقلوبكم المحبة، فتعارفوا واتحدوا وتعاونوا وان المستقبل الابيض الهانىء المبارك يبسم للديمقراطية»[91].

٣ ـ مرحلة مجلة الطريق (١٩٤١ ـ ١٩٤٥)

في ٢٠ كانون الأول ١٩٤١ صدر في بيروت العدد الأول من مجلة «الطريق»، التي اصـدرتهـا عصبـة مكـافحة النازية والفاشستية في سوريا ولبنان، صدرت المجلة بادارة عمـر فاخـوري، انطون ثابت، يوسف ابراهيم يزبك، رئيف خوري، ورئيس تحريرها قدري قلعجي.

(٩١) نقلاً عن: الثقافة الجديدة بغداد العدد ٦٤ آب ١٩٧٤ ص ٢٧٢ ـ ٢٧٤.

جاء في العـدد الأول من الطـريق تحت عنـوان «رسـالـة العصبة» ما يلي: «ان عصبـة مكافحة الفاشستية والنازية التي تأسست في سوريا ولبنان سنة ١٩٣٥ للدفاع عن الحريات المضطهدة ومكافحة ألد اعدائها وكشف الستار عما تحويه بعض المذاهب السياسية والاجتماعية من اخطار تهدد الحضارة ومثلها الانسانية الرفيعة . . .

. . . نحن نؤمن بأن في البلاد العربية جماعة قوية من الكتاب الاحرار وجمهوراً واسعـاً من القـراء الاحرار. وان اولئك وهؤلاء بحاجة إلى التعارف والتفاهم والسير جنباً إلى جنب نحو المثل الأعلى. وقد أنشئت «الطريق» لتضم شتات القوى الموزعة فتشترك جميعها في رسم معالم الطريق القاصد ومنهج الاصلاح الحكيم . . .

. . . نحن نبغي المحـافظـة على تراثنـا الثقـافي واحيـائه وتعزيزه ليؤدي الفكر العـربي الحـر الرسالة الانسانية التي أداها دائماً في تاريخنا المجيد. فكيف ترضى كرامة العـروبـة ان نحـالف دولـة اثيمـة، كالدولة الالمانية، تزدري تاريخنا وتحتقر تراثنا وتهزأ بمثلنا العليا، وتجهر بعدائها للثقافة واضطهادها لحرية الفكر».

في هذا العـدد نشـرت الطـريق بخـط كبـير كلامـاً لعمر بن الخطاب ووضعت ضمن اطار بارز حديثاً شريفاً ونشرت آراء للشاعر الهندي الكبير طاغور ومقالاً للإمام محمـد عبـده. وهكـذا يتـوضـح خط الطـريق ونهجهـا العـام، الـذي غطى سائـر اعدادها في الفترة المبحوثة. فمثلاً في ١٥ شباط ١٩٤٤ نشرت الطريق مقالاً عن حياة محمد عبده وعمله واخرى عن ابن خلدون وهيجل وثالث عن فريدريك انجلز حياته وعمله بقلم اليـانـورر ماركس. وقد كتب المعرب: «ان حياة انجلز ستبقى كعمله، خالدة، ومثلاً يهتـدي بهديـه كل المناضلين الثـوريـين على مر الأجيـال». والـواقـع ان الطـريق هي وريثـة الطليعـة الـدمشقية في محرريها (رئيف خوري، كامل عياد . . . الخ) وشعارها «رسالة التحـرر الفكـري». ولكن الطريق كانت خطوة متقدمة بالنسبة للطليعة سواء في مجال النضج الفكري ام في ميدان الاتصال الوثيق بالفكر الماركسي.

ويـلاحـظ بوضـوح اتسـاع جبهة الطليعة الفكرية وشموها - لاسيما في سنواتها الأولى - لعنـاصـر قومية تقـدميـة (ميشيـل عفلق، فؤاد الشـايب، صلاح الـدين المحـايـري . . . الـخ)، في حين ضاقت جبهـة الطـريق الفكـريـة، بعد توضح معالم التيارات القومية في الأربعينات.

* * *

أهم القضايا التي تناولتها الطريق

تعكس رسوم غلاف اعداد الطريق لعام ١٩٤٤ المرسومة بريشة رضوان الشهال جانباً هاماً من سياسة الطريق الفكرية . وفيما يلي عناوين تلك الرسوم كما وردت في الطريق :

١ ـ طانيوس شاهين أبو الغضبات الشعبية في لبنان . ٢ ـ سليمان البستاني احد اعلام النهضة الادبية الحديثة . ٣ ـ الامام محمد عبده احد اعلام النهضة العربية الحديثة . ٤ ـ السيد جمال الدين الافغاني ـ الحسيني حكيم الشرق . ٥ ـ فرنسيس فتح الله المراش . ٦ ـ اديب اسحق . ٧ ـ خليل مطران شاعر القطرين . ٨ ـ ابو العلاء المعري . ٩ ـ «٦ أيار» صورة امرأة امام المشنقة وبيدها رسالة مكتوب عليها «استشهدوا في سبيل الوطن» . ١٠ ـ ابن المقفع . ١١ ـ جبران خليل جبران . ١٢ ـ الحرية تقود الشعوب ، للرسام الفرنسي ديلاكروا ، تنشرها الطريق بمناسبة ذكرى الثورة الفرنسية الكبرى . ١٣ ـ العلم السوفياتي يتوسط العلمين السوري واللبناني بمناسبة الاتفاق على تبادل التمثيل الدبلوماسي . ١٤ ـ بمناسبة تحرير باريس عام ١٩٤٤ من نير الطغيان الهتلري ووصمة الخيانة الفيشية (صورة تمثل) الشعب الباريسي يهاجم قصر التويلري ، مقر الطغيان والاستبداد عام ١٧٩١ . ١٥ ـ (صورة) لابطال الاتحاد السوفياتي وقائدهم الاعلى المرشال ستالين . ١٦ ـ ابو العلاء المعري . ١٧ ـ تمثال ستالين وحوله عامل وجندي وامرأة فلاحة . ١٨ ـ ابيات شعرية تكريماً للعلم اللبناني . ١٩ ـ شيخ يوناني من جنود ايلاس جيش التحرر الوطني في اليونان المناضلة نضال الجبابرة في سبيل الحرية والنور .

١ ـ الموقف الثوري من التراث :

تحت عنوان «كيف نفهم الماضي وندرس الحاضر» نشرت الطريق في ١٦ أيلول ١٩٤٢ مقالاً لعبد المعين الملوحي . ونظراً لأهمية هذا المقال سننشر القسم الأكبر منه :

«تنتاب العالم العربي موجة من التفكير ، فقد احس العرب انهم في حاجة إلى البحث في مفاهيمهم القديمة ونقدها ، وإلى شق طريق لهم بين تيارات الفكر المختلطة ، يوصلهم إلى ما يضمن لهم كيانهم الاجتماعي والسياسي . ولا شك ان هذا التفكير ليس كله صحيحاً ، وليس كله مستقيماً . . .

يقول الكثيرون : ان الشباب المتحرر يقطع الصلة بينه وبين الماضي ، ويميل إلى الآراء الغربية ويؤيد سيطرة الغرب الفكرية ، وهذا ليس صحيحاً بالنسبة إلى الشباب المتحرر بكل مافي معنى هذه الكلمة .

ولكن هذا الماضي العربي ليس خيرا كله ، وليس شراً كله ، ولكن فيه خيراً وشراً ، فيجب ان نسعى إلى اعادة ما فيه من خير ، وإلى هجر ما فيه من شر .

إن القديم العربي ليس آخر مراحل تطورنا ، كما قلت ، وهو ايضاً ليس آخر مراحل تطور الانسانية . . . ان الحضارة البشرية وحدة متماسكة ، تعمل الأمم كلها في زيادتها وانمائها ، وليست الآراء التي يطلع علينا بها الغرب شيئاً تابعاً لهواه ، وانما هي نتيجة للتطور الاقتصادي الذي بلغه ، وليست النظريات الاجتماعية التي يبشر بها اعتباطاً ولا فوضى . وانما هي علم قائم بذاته هو نتيجة ايضاً لهذه المرحلة من التطور.

هذا هو موقفنا من الحاضر : اقتباس في غير عبودية ، وتمثيل في غير توقف ، ومسايرة لهذه المرحلة من التطور الانساني للسير به في مراحل .

لقد كان الاسلام ثورة انسانية في القرن السابع ، وكانت الثورة الفرنسية ثورة انسانية في القرن الثامن عشر ، وكانت الثورة الاشتراكية الروسية ثورة انسانية في القرن العشرين .

. . . . ان بين هذه الثورات علاقة متشابكة في انها كلها ثورة على الرجعية والظلم ، وأن لكل واحدة منها خصائصها لأنها متدرجة تاريخياً . فقد كانت الثورة المحمدية حلقة الوصل بين دور العبودية ودور الاقطاعية ، وكانت الثورة الفرنسية حلقة

الوصل بين دور الاقطاعية ودور الرأسمالية، وكانت الثورة الروسية، حلقة الوصل بين النظام الرأسمالي والنظام الاشتراكي . . .

. . . فمن العار على الشباب العربي الذي يؤمن بمهمته التحريرية ان يتربص ويتردد فلا يتحمل عبء تكوين كيان اجتماعي جديد لأمة عربية جديدة، في دنيا انسانية جديدة.

يجب ان نفخر بان عمر وأبا ذر قد مثلا النزعة الانسانية كما كانت تحتم الظروف الاقتصادية المحيطة بهما تمثيلها، ويجب ان نؤمن بأن في دعوة بلال فوق الكعبة: «الله اكبر» ثورة على الرجعية والجمود. . .

يجب أن نفهم تاريخنا كما كان وعلى ضوء المادية التاريخية، وهكذا نستطيع ان نحكم عليه فنفخر بما فيه من فخر، ونأسى على ما فيه من مآس. ويجب ان نفهم حاضرنا كما هو وعلى ضوء المادية التاريخية، وهكذا نستطيع ان نكتشف له علاجه الشافي.

إننا نحن حماة التراث العربي التقدمي - كما يقول احد الشباب المتحرر، لأننا نفهمه كما هو، واننا نحن دعاة البعث العربي القومي لأننا نعرف كيف يجب ان يكون وكيف يمكن ان يكون» (انتهى كلام عبد المعين الملوخي المعنون في حمص ٩ آب ١٩٤٢).

ان الموقف الثوري من التراث كان الصفة العامة، التي تميزت بها الطريق في الأربعينات. ولا يخلو عدد من مقال او تحليل او قصة حول التراث وكيفية التعامل معه. وكان لرئيف خوري اليد الطولى في الغوص في التراث واستجلاء كوامنه الثورية دون مبالغة او تعسف. وهذا الخط سار عليه رئيف في مجلة الطليعة (١٩٣٥ - ١٩٣٩) واستأنفه في عهد الطريق.

في خريف ١٩٤٤ أصدرت مجلة الجديد، كتاب رئيف خوري «مع العرب في التاريخ والاسطورة» تضمن طائفة من القصص العربية اقتبسها مؤلفها من التاريخ وأجرى فيها قلمه البليغ فجاءت باقة رائعة من القصص التاريخي تحمل إلى القارىء متعة الفن وتحمله مع ذلك على التفكير.

وفي عام ١٩٤٥ صدر عن رئيف خوري ورضوان الشهال سلسلة قصصية مصورة تحيي تراث القصة العربية القديم وتنقل روائع الكتاب الغربيين.

وإحياء التراث العربي **الاسلامي يتضمن** القديم منه والجديد. فرئيف خوري يقارن بين ابن خلدون وهيجل ويكتب عن ابي العلاء. وقدري قلعجي يختص في كُتاب عصر النهضة فيكتب عن محمد عبده والكواكبي وعن جمال الدين الأفغاني وينقل عنه ضمن اطار بارز «كل حكمة تقولها خير من مائة صلاة تقيمها».

وعندما نشر في مصر عام ١٩٤٤ كتاب «الفكر العربي بين ماضيه وحاضره»، الذي جاء فيه «اننا لا نزال نعيش تحت وطأة «الغيبيّات المعتمة»، التي تسيّر اعمالنا وتبني احكامنا وتضع تصاميمنا . . . . ». عرفت الطريق بالمؤلف معلقة بأنه صاحب مجلة «الحديث» الحلبية، التي لها فضل السبق في تمهيد الطريق لتجديد الأدب ومعالجة القضايا الاجتماعية في ضوء العلم الحديث (الطريق ١ حزيران ١٩٤٤).

وتحت عنوان «تراثنا الثقافي» نشرت الطريق في ١٦ حزيران ١٩٤٤ مقالا علقت فيه على «اسبوع المعري في لبنان» رابطة بين الاصالة والحداثة. وفيما يلي مقاطع من المقال:

«. . . وقد سمعنا خلال اسبوع المعري في لبنان آراء جهر بها اناس وتمتم بها آخرون، اراء يميل اصحابها إلى اهمال الثقافة العربية اهمالاً تاماً لأنها ثقافة بدائية لا تتفق ونهضتنا الحديثة، والانصراف عنها إلى الثقافة الغربية لأنها اقرب إلى روح العصر. . .

وآراء يعتقد أصحابها ان الثقافة العربية ثقافة كاملة جديرة بان تسود قوانينها جميع العصور. . . ومن حسن الحظ ان هؤلاء واولئك قلة لا تستطيع ان تفرض رأيها. . .

فالانقطاع عن الماضي متعذر وان اردناه، والانقطاع عن الحضارة التي نلابسها والعصر الذي نعيش فيه مستحيل وان رغبنا فيه. . .

فالثقافة العربية تنطوي، كجميع الثقافات القديمة، على نواح شتى من القوة والضعف. . . ».

وتحت عنوان «المرأة والشرع» نشرت اميلي فارس ابراهيم في الطريق (٣١ كانون الأول ١٩٤٤) مقالاً جاء فيه:

«. . . ومن تعمق في درس القرآن الكريم والاحاديث الشريفة، لا يجد قط ما يبر ر حجة القائلين بوجوب صرف المرأة عن ميدان العمل العام، بل على العكس يثبت له ان النبي الكريم كان يحترم آراء المرأة».

أما بدر الدين السباعي من حمص فكتب في الطريق ٣١ كانون الأول ١٩٤٤ خاطرة تحت عنوان «امية بن خلف، افعل ما بدا لك». وامية هو مالك بلال وسيده الذي عذبه. وضمن اطار بارز كتب السباعي:

«من هؤلاء الحفاة العراة، من هؤلاء الابطال الخالدين، الذين ضحوا بهنائهم وارواحهم، وتحملوا الألم المرير في سبيل عقائدهم ومبادئهم. من هؤلاء الآباء السالفين، نتعلم صلابة العقيدة، والثبات على المبدأ، والتضحية في سبيل الحق والواجب».

وكانت الطريق اكثر وضوحاً عندما نشرت في ٢٠ أيار ١٩٤٥ مقالاً للمحامي الدمشقي زيد الشهابي بعنوان «الشيوعية والتراث العربي» جاء فيه: «الشيوعيون هم الورثة الشرعيون لكُماة بدر واحد والقادسية واليرموك، فهم مكملوا التاريخ العربي المجيد، التاريخ الزاخر بوثبات الانعتاق القومي، تاريخ أبي بكر وعمر وخالد بن الوليد وأبي ذر الغفاري، تاريخ الشيخ محمد عبده وجمال الدين الافغاني وعبد الرحمن الكواكبي». . . وقد اورد الشهابي مقاطع من اقوال خالد بكداش لاثبات ما جاء به في مقاله.

وكانت الطريق قد نشرت في ٢٠ كانون الثاني ١٩٤٥ مقالاً لخالد بكداش بعنوان «الدين الاسلامي والقضية الوطنية» ننشر منه المقطع التالي:

«. . ليس من افتراء على وطننا افظع من هذا. فإن الاسلام الذي يقول «لكم دينكم ولي دين»، هو عدو التعصب والتفرقة والطائفية. . . فليست تعاليم الاسلام السمحاء بمسؤولة عن مزاعم بعض الرجعيين الذين خدموا الاستعمار دائماً، بدعوى ان الاسلام دين طقوس وعبادات فقط. ولهذا فهو لا يناقض الشعور القومي والوطني. . . ومن باب الافتراء مايزعمون من ان الاسلام كدين هو الذي يمنع رقي بلادنا. . . ان سبب تأخرنا هو الاستعمار وبقايا الاقطاعية وقلة الديموقراطية وقلة المدارس والفقر والبؤس والجهل. . .».

٢ ـ ابحـاث فلسفيـة وتـربـوية واجتماعية واقتصادية حول المادية الديالكتيكية والمادية، التـاريخيـة والاشتراكية العلمية الماركسية وحق التملك والاقتصاد الموجه، والمعضلات الاجتماعية الراهنة.

٣ ـ سلسلة من المقالات عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية في سورية ولبنان مثل مقال جورج حكيم حول ضريبـة الـدخـل في لبنـان (الطـريق **٣١** آب **١٩٤٤**). وضـريبة الـدخـل الجـديـدة مجحفة بحقوق العمال والمستخدمين لجورج حكيم ايضاً. وكذلك تطرقت الطريق (**٢٠** أيار **١٩٤٥**) لمشكلة البطالة وماذا تفعل الحكومة لمجابهتها. وقد ابـدع في هذا المجـال الاستـاذ منـير سليمان، الذي نشر سلسلة دراسات محلية وعالمية حول المشكلات الاقتصادية.

ويستـرعي الانتبـاه ما نَشَـرَ في الطـريق (**٥** تموز **١٩٤٥**) الأب طانيـوس منعم حول «العـلاقـة الجنسية وما يحيط بها من العوامل الاجتماعية والمؤثرات الاقتصادية»، الذي جاء فيه:

«... ان قضيـة الخـلاعـة العصرية والتشرد الجنسي التي تشغل حيزاً هاماً في حيـاة المـرأة العربية اللبنانية والرجل اللبناني العربي، في القرية والمدينة، ليست قضية نفـوس صالحـة تأنف من الملذات ونفـوس شريـرة تتمـرغ فيها فقط، بل قضية وضع سيـاسي ونظـام اجتـماعي فاسـد يتعلق به مستـوى ثقـافي فكـري معين. عندما يتوفر عنصـرا العمـل والثقـافـة مجتمعـين يخف الانحـراف الجنسي فتقوى الروابط العائلية وتتوثق الغبطة البيتية...».

٤ ـ التصـدي للكتـاب الـرجعيـين ولكتّـابِ ـ مثل العقاد ـ الذين نصبوا من أنفسهم اعـداء للحـركـة التقدمية في العالم متسترين خلف برقع الديموقراطية التي يتظاهرون بالدفاع عنها.

«... فالعقاد المفكر لا يرى فرقاً ما بين النازية والفاشستية والعسكرية اليابانية وبـين الشيـوعيـة! إنـه يحشـرهـا مع بعضها حشراً عجيباً ويهاجمها جميعاً هجوماً واحداً «دفاعاً» عنْ الحرية والديمقراطية».

هذا ما كتبـه وصفي البني في الطـريق (**١٥** تشـرين الأول **١٩٤٣**) تحت عنوان «عبقرية» العقاد. وانهى البني مقاله بايراد عبارة من مقال العقاد، يقول، حفظه الله: «فالحرب الحاضرة وما جلبته على الناس من الكرب والألم والضيق والغلاء، هي ثمرة

العلاج الذي دبره النازيون والشيوعيون والفاشيون لمشكلة البطالة وازمة الارزاق».

وبعد ان كتب وصفي البني مقاله المذكور («عبقرية» العقاد) نشرت مجلة «الرسالة المصرية في العدد ٥٣٥ مقالاً آخر للعقاد بعنوان (. . . ومن اساليبهم)، ذكر العقاد فيه ان انصار الشيوعية في الاقطار العربية هم «انصار الكتابة باللغة العامية حيثما وقعت المفاضلة بينها وبين اللغة الفصحى».

فيجيب البني في الطريق (٧ كانون الأول ١٩٤٣) «فنحن لا نعرف بين الشيوعيين العرب او بين الديموقراطيين عموماً من آثر الكتابة بالعامية على الفصحى، بل نعرف اناساً يدعون للعامية وليسوا شيوعيين ومنهم من يجهر بعدائه للشيوعية».

. . . لقد قالت مجلة الطريق بهذا الصدد « . . . فالعدول عن الفصحى إلى العامية انما هو مخالفة للسير التاريخي الملحوظ. . . والدعوة إلى العامية لا مبر ر لها».

ويقدم البني امثلة يبين فيها ان الشيوعيين والديموقراطيين لا يكتبون الا بالفصحى ويضيف: «فإذا كان في مصر شخص او اشخاص، ممن يعرفون بالميل إلى الشيوعية، يدعون إلى اللغة العامية، فكيف يجوز للعقاد ان يستنتج من هذا الحادث المفرد حكماً مطلقاً يعممه على الشيوعيين في الاقطار العربية جمعاء. . .».

ان كتاب الطريق وسائر الكتاب التقدميين كانوا يكتبون للمجلات والصحف بدون أجر. ولهذا فإن الطريق ارادت النيل من بعض الكتاب المصريين، الذين يتناولون - كما نشرت الصحف - أجراً على ما يكتبون. وممن تقاضى اجوراً الدكتور هيكل، العقاد، طه حسين، توفيق الحكيم.

وفي ١٠ آذار ١٩٤٥ عادت الطريق للرد على العقاد تحت عنوان «مغالطات العقاد» بقلم المحامي طاهر خياط (من حلب). وكان العقاد قد نشر في منتصف كانون الثاني ١٩٤٥ مقالاً في جريدة الاثنين تحت عنوان «هل تصبح مصر اشتراكية؟». وحسب رأي كاتب مقال الطريق فإن مقال العقاد يتضمن مغالطات حول الماركسية يجب ان يترفع عنها العلماء. ويسترعي الانتباه المقال المنشور في الطريق (٢٠ كانون الاول ١٩٤١) بقلم باحث عربي وتحت عنوان: «دور المثقفين العرب في الحياة القومية العربية»، جاء فيه:

«وثمة ناحية طريفة اخرى من نشاط بعض المثقفين المتحمسين في محاربة

الاعتبـارات الدولـية والاتجـاهات **الطبقية، فهم** يزعمون انهم ينظرون إلى المسائل نظرة عامة «قومية» شاملة، ولكنهم يكتبون في الواقع للشخص العربي المثقف فقط، ولا يرون إلا الشخص العـربي المثقف، عندما يحاولـون وصف الشخص العـربي بصورة عامة. وفي اكثر الاحيان نرى المجتمع العربي يتقلص في نظرهم بصورة غريبة فلا يبقى فيـه سوى جماعتهم، فكأن الـوسـط العـربي هووسـط المثقفـين ابناء الطبقة المتوسطة فقط، وكأن المجتمـع العـربي هوهذا الفـريق الـذي نال قسطاً من التعليم العالي او اتم التحصيل الثانوي وراح يبحث عن عيشة رضية او وظيفة أو مجلة تنشر له مقالاً، او راح يقرأ كتب برغسون ونيتشه وافلاطون. أما بقية الجماعات فيخرجون من نطاق تفكيرهم ويفلتون من دائرة منظارهم المحدود الضيق. وإذا ارادوا وصف عقلية العـرب، فانـما يأخـذون في الحقيقـة دمية ميتـة ويحشون رأسها بالآراء الحائرة المترددة والاهـواء والرغبـات التي تفعم رؤوسهم هم ورؤوس زملائهم واترابهم ابناء الجماعات العليـا من الطبقـة الـوسطى. وإذا ارادوا وصف امـراض المجتمـع العربي وصفوا في الحقيقة امراض هذه الجماعة دون غيرها. فيقولون مثلاً: نحن العرب انانيون نركض وراء الـوظـائف او المجـد الفـارغ ونـترك العمـل المثمـر، ونتعلق «بـالماديات» ونترك الروحانيات... إلى آخر هذا الهراء الفارغ الذي لا يصح إلا على جماعة صغيرة من العـرب. وقـد يكون كتاب «الوعي القومي» للدكتور قسطنطين زريق خير مثال على هذه النظـرة الضيقـة المحدودة إلى الشخصية العربية بوجه خاص ولامراض المجتمع العربي ومشاكل القضية القومية بوجه عام».

٥ - الهجـوم على الامـبريالية الاميركية. عندما اخذت تتوضح تقاسيم الوجه الكالح للرأسـماليـة الاميركية في اواخر الحرب العالمية الثانية نشر منير سليمان في الطريق (١٨ كانون الثاني ١٩٤٤) مقالاً عن قانون الاعارة والتأجير، نجتزىء منه المقطعين التاليين:

كان الدافع الأول لنشر قانون الاعارة والتأجير، الدفاع عن المصالح الاميركية ذاتها..

ان هذا المشـروع الـواسـع فضـلاً عن انـه وجـد من أجل مساعدة الدول التي تحارب المـانيـا وتمكينهـا من التغلب عليهـا وقهـرهـا، فتـح بابـاً واسعـاً امام الرأسمال الامـيركي وخلق روابـط اقتصادية ذات اهمية كبرى بين دول العالم والولايات المتحدة

سيكون لها بعد الحرب اثر ظاهر في وضعية اميركا الاقتصادية .

ويتصدى للفكر الامبريالي الاميركي الكاتب وصفي البني ، المتخصص في فضح الافكار الرجعية ، فتحت عنوان «مقال لا يُهضم» في مجلة «المختار» الاميركية» نشرت الطريق (١ آذار ١٩٤٤) مقالاً للبني ننشر بعض فقراته :

لاقت الطبعة العربية من مجلة «ريدرز دايجست» الأميركية ، التي صدرت في مصر باسم «المختار» ، رواجاً في العالم العربي واسعاً ، غير مستغرب . فهي مجلة يسندها رأسمال ضخم ، سعرها رخيص جداً ، ورقها صقيل ، وصفحاتها كثيرة ، ودعاياتها واسعة ، ككل دعايات الشركات الاميركية .

بدأت هذه المجلة حياتها في عددها الأول ثم الثاني فبرزت في مستوى فكري مقبول ومحمود نوعاً ما . ولكنها ما لبثت ان حادت عن هذا السبيل فبدأ مستواها الفكري يهبط بشكل محسوس . وبعد ان كان القارىء يجد في بعض مقالاتها ملهاة او قليلاً من الغذاء لفكره وروحه اصبح اخيراً يتذوق الكثير من مقالاتها فلا يرى فيها غذاء صحيحاً لفكره وروحه ، وانما يتذوق فيها طعم الفكر الرخيص ، الفكر المبتذل ، فكر الاسواق والنشرات التجارية الذي يستهدف ابعاد الناس عن معرفة الحقيقة ، الفكر الذي يعرض مشاكل الحياة الكبرى مشوهة خافياً عللها وجوهرها ، وحلولها الصحيحة .

ويستأنف وصفي البني هجماته على «المختار» في الطريق (٢٠ نيسان ١٩٤٤) هذه المجلة ، التي اسفر عددها الثامن عن وجهها الحقيقي ، فإذا هي مجلة لا تختلف مقالات صفحاتها الأولى عن اعلانات صفحاتها الأخيرة الا بكون الاولى اعلانات مستورة ، مذوقة ، مصبوغة بشتى الالوان ، هدفها الاول والاخير خدمة اصحاب الاعلانات المنشورة في صفحات المجلة الاخيرة ، خدمة الشركات الاحتكارية الضخمة على حساب حرية الشعوب المستغلة والمستعبدة باسم الدفاع عن «الحرية المقدسة» ! . . .

٦ ـ الصداقة مع وطن الاشتراكية الاول وتعريف الجماهير العربية بالاتحاد السوفياتي وما تم فيه من اعمال جبارة . وفي حفلة تدشين «جمعية اصدقاء الاتحاد السوفياتي بدمشق في ١٠ كانون الأول ١٩٤٢ القى الدكتور كامل عياد سكرتير الجمعية محاضرة دامت ساعة كاملة تكلم فيها اخيراً «عن النفر من المثقفين الذين يخشون الامية المنافية

في نظرهم للقومية فقال: ان العرب يستفيدون من مثال الاتحاد السوفياتي الذي حقق الانسجام التام بين القومية الصحيحة والاممية الصحيحة. واقام نظاماً عادلاً حراً نستفيد منه في بناء نهضتنا القومية»[٩٢].

وتحت عنوان «تحية إلى الشعوب السوفياتية» نشرت الطريق في ٣٠ تشرين الثاني ١٩٤٢ مقالاً بمناسبة مرور خمس وعشرين سنة على الانقلاب الروسي (ثورة اكتوبر) اختتمته بالفقرة التالية:

«فاليكم يا جنود الحق تحية بسيطة صادقة متفائلة، تحية ولاء واخاء وتعاهد على النضال يوجهها احفاد محمد بن عبد الله وابي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وخالد بن الوليد والوف الابطال الاحرار الذين كانوا مثلكم: جنود الحق».

وبعد عام وفي كانون الأول ١٩٤٣، كرست الطريق (٧ كانون الأول ١٩٤٣) معظم مقالات عددها لنشر الخطب، التي القيت في احتفال جمعية اصدقاء الاتحاد السوفياتي بدمشق. وفيما يلي اهم العناوين:

- رسول السلام ونصير الشعوب الضعيفة - قدري قلعجي.
- الست والعشرون تحية إلى ستالين لمناسبة ذكرى الثورة الروسية - رئيف خوري.
- الدينا الفاضلة - عمر فاخوري.
- الحياة القومية في الاتحاد السوفياتي - عبد القادر اسماعيل.
- انقلاب ١٩١٧ والثورة المثلى - ادوار برلان (مترجم)
- روسيا كما رأيتها - بقلم رئيس اساقفة يورك (مترجم).

وفي ١٨ تموز ١٩٤٤ نشرت الطريق مقالين حول:

- الاسرة والزواج في الاتحاد السوفياتي لمصطفى كامل منيب (من مصر).
- التربية والتعليم في روسيا السوفياتية (لفاخر العاقل) (محاضرة القيت في دار المعلمين بدمشق).
- حقوق المواطن السوفياتي (الطريق ٤ آب ١٩٤٤).

وفي ٢٠ تشرين الأول ١٩٤٤ نشرت الطريق الابحاث التالية عن الاتحاد

---

(٩٢) الطريق ١٥ كانون الأول ١٩٤٢ ص ٢٢.

السوفياتي .
- العلاقات السياسية بين الاتحاد السوفياتي والاقطار العربية لخالد بكداش .
- العلاقات الاقتصادية بين سوريا ولبنان والاتحاد السوفياتي .
- المزارع التعاونية في النظام السوفياتي للدكتور كامل عياد، الذي كتب «ان المزارع التعاونية حل وسط بين الفردية والاشتراكية .
- من صحارى آسيا الروسية إلى جنات آسيا السوفياتية .
- الاسرة والزواج والحب في الاتحاد السوفياتي لقدري قلعجي .
- الادب والفن في بلاد السوفيات .

٧ - التوجهات القومية التقدمية : وحرصت الطريق على نشر النشاطات الثقافية والسياسية في الاقطار العربية (مصر، العراق، فلسطين) . ويلاحظ ان الطريق كانت «ملتقى المثقفين التقدميين والديموقراطيين اللبنانيين والعرب» .

إن سياسة الطريق القومية نجدها واضحة في المقال المنشور في **١٥** شباط **١٩٤٤** تحت عنوان «اهدافنا الوطنية الكبرى» وجاء فيه :

. . . ومن ثم كان من اعظم ما تضعه الحياة امام شعبنا، وامام جميع الشعوب العربية، العمل بكل ما نستطيع من جهد وتجرد، لتأليف كتلة قوية من الشعوب العربية تتضامن جميعاً في سبيل تحرير كل شعب منها واستقلال كل قطر من اقطارها، كتلة قوية متضامنة تكافح الخطر الاستعماري على اختلاف الوانه وانواعه .

وبعد أن استعرض المقال سير الحركات الوطنية في البلاد العربية (لبنان، فلسطين، مصر، سوريا) خلص إلى القول :

وكل ذلك دلائل قوية واضحة على ان كل انتصار وطني يحرزه احد الاقطار العربية، يؤدي إلى تعزيز الحركة الوطنية في الاقطار الاخرى ويقربها من اهدافها الكبرى . وهذا التضامن الرائع بين الاقطار العربية لاستقلال كل قطر منها، هو الدعامة الأولى للحركة الوطنية في كل قطر عربي، وهو الدعامة الأولى للقضية العربية بصورة عامة .

وكثيراً ماكانت الطريق تدعو إلى قراءة «صحف الكفاح الوطني والتجديد الاجتماعي» الصادرة :

- في العراق - مجلة «المجلة» ومنشوراتها . مجلة «الرابطة، ومنشوراتها . جريدة

«صوت الاهالي». جريدة «الشعب»، جريدة «الرأي العام». رسائل البعث.
ـ في فلسطين ـ جريدة «الاتحاد».
ـ في مصر ـ منشورات «لجنة نشر الثقافة الحديثة»، منشورات «دار الفجر».

وفي أول آب ١٩٤٥ اشارت ادارة مجلة الطريق عن رغبتها في زيادة عدد مشتركيها في الاقطار العربية الشقيقة، حرصاً على تقوية العلاقات الثقافية بين البلدان العربية، وتعزيز التعاون الاخوي بينها، وتوثيق اواصر التضامن بين جميع العرب الديموقراطيين والوطنيين الصادقين في نضالهم من أجل الحرية والنور. وقد دفعتها هذه الرغبة، رغم الازمة المعروفة التي تعانيها إلى تخفيض قيمة الاشتراك السنوي فيها لقراء البلاد العربية، إلى نصفها تقريباً... تقبل الاشتراكات: في العراق بواسطة الاستاذ عزيز شريف صاحب مجلة الوطن (بغداد) وفي فلسطين بواسطة السيد فؤاد نصار (الناصرة) وفي مصر بواسطة دار القرن العشرين (القاهرة ص. ب. ١٩٢٤).

فحول مصر نشرت الطريق (٨ أيار ١٩٤٤) مقالاً بعنوان «مصر والعدالة الاجتماعية».

وفي ٣ تموز ١٩٤٤ نقلت الطريق مقتطفات من مقال في جريدة الاهرام جاء فيه ان في مصر تيارين «الاول يتأثر بمجاري الاشتراكية في العالم العربي، والثاني يفضل الأنا ويعتبر ان الجهد الفردي هو اساس نجاح الأمم».

كما نقلت الطريق عن مجلة الاثنين مقالاً عن مصر بعنوان «فلنحارب الفقر اولاً».

وفي ٣١ آب ١٩٤٤ عرّفت الطريق بمجلة «الاثنين» المصرية التي تحرص ان تكون ميداناً رحباً لجميع الافكار: صحيحها وفاسدها كريمها وسخيفها... وذلك في معرض ردها على رأي منشور في الاثنين للدكتور هيكل باشا حول الديموقراطية.

وفي ١٩ أيلول ١٩٤٤ أشادت الطريق بالكاتب المصري المحامي مصطفى كامل منيب، عضو لجنة نشر الثقافة الحديثة بمصر، ومعرّب كتاب «الاسرة والزواج» في الاتحاد السوفياتي، في توجيهه للحركة التقدمية الصاعدة في القطر المصري الشقيق.

وفي أواخر ١٩٤٤ ترجم الطالب السوري الدارس في مصر عبد المعين الملوحي

مذكرات غوركي. وقالت الطريق ان لجنة نشر الثقافة الحديثة في مصر ستنشر هذه المذكرات.

وبعدها نشرت الطريق (١٠ آذار ١٩٤٥) مقالاً عن «الفلاح المصري» للأديب المصري محمد أمين حسونة فيه وصف لحالة الفلاح المصري واقتراحات بتحسين اوضاعه. كما عرفت الطريق (٣٠ نسان ١٩٤٥) بكتاب صادق سعد «مشكلة الفلاح» في مصر ودعت قراءها لشرائه.

. وفي ٢٠ أيار ١٩٤٥ نقلت الطريق مقالاً لطه حسين الأديب الغربي الكبير أجرته معه مجلة «الشرق الجديد»، التي صدرت عام ١٩٤٥ في مصر، تحت عنوان «الأدب والسياسة» جاء فيه «الفن الذي لا يتصل بالحياة العامة ترف لا يحظى به إلا القليل ونحن في عصر انتشر فيه التعليم واصبحت الثقافة حظاً شائعاً بين افراد الشعب، وهذا التطور الخطير يؤيد بل يحتم الصلة بين الأدب والسياسة».

وفي هذا العدد نشرت الطريق خبر اعتقال كاتب كبير هو الكاتب المصري المعروف الاستاذ مصطفى كامل منيب أحد كبار الوطنيين العرب الذين يناضلون ضد الفاشستية في الشرق العربي والذين ينذرون حياتهم وادبهم في سبيل حرية اوطانهم وسعادة شعوبهم.

في ١٥ آذار ١٩٤٦ كتبت «الطريق» ما يلي:

نشرت مجلة الخبراء القاهرية حديثاً قيّماً أفضى به اليها السيد محمد خطاب عضو مجلس الشيوخ المصري عن العرض الذي حفزه على التقدم إلى مجلس الشيوخ بمشروع جعل الحد الاقصى للملكية الزراعية ٥٠ فداناً، استهله بالكلام عن مساعي الدول الديموقراطية لاقرار مبدأ «العدالة الاجتماعية» ولاسيما الاتحاد السوفياتي «الذي تقوم سياسته جميعها على هذا المبدأ».

ثم تحدث عن مصر فقال ان ٧٥ في المائة من سكانها يعملون في الزراعة، منهم ١٢ ألف يملكون في مجموعهم ٤٠ في المائة من الأرض الزراعية والأغلبية الساحقة يحيون ولكن لا يمكن القول بأنهم يعيشون.

وعن العراق يكتب وصفي البني (الطريق ١٩٤٢/٦/٣٠) عن ذي النون ايوب من ادباء الطليعة في العراق، الذي اصدر «المجلة» بالتعاون مع نخبة طيبة من طليعة الشعب العراقي المزودة بثقافة تقدمية واعية عميقة تدعمها عزيمة قوية

تستهدف العمل القومي الجدي **البعيد عن الضجيج الفارغ** والتظاهر الدعي.

ومجلة «المجلة» العراقية أصدرت في اوائل عام **١٩٤٢** ضمن منشوراتها رواية «الأم» لمكسيم غوركي وتولت الطريق توزيعها في سوريا ولبنان.

ثم صدر في هذه السلسلة كتاب «الجبهة الثانية»، تأليف كومندرينك وترجمة الاستاذ قاسم امين، وكتاب «ستالينغراد تثأر» وهوبحث ممتع عن بطولة عروس الفولغا بقلم فاسيلي كروسمان اضافت إليه دار البعث القصائد الكبرى الثلاث التي نظمها في مدينة الفولاذ كل من الاساتذة محمد مهدي الجواهري وعلي محمود طه ورئيف خوري. وكان آخر ماصدر في رسائل البعث، كتيبان عن سقوط موسوليني وحكومة بادوليو.

كما اشارت الطريق (١٥ / ١١ / ١٩٤٣) إلى كتاب «النفط والحرب» للأستاذ عزيز شريف وهو أول المؤلفات التي صدرت في هذه السلسلة وقد صدرت بعد ترجمة مقتضبة لكتاب «سقوط باريس للأديب العالمي ايليا اهرنبورغ، لم تبلغ حد الكمال المنشود. ثم توالت «رسائل البعث» فظهر منها «الفاشية عدوة الشعوب» للأستاذ عبد الرحيم شريف، و«في الاتحاد السوفياتي» و«البعث في الاتحاد السوفياتي» و«في المعتقلات الالمانية» و«البربرية النازية في تشيكوسلوفاكيا» و«تحت الكابوس النازي» وهي كراسات ترجم اولها الاستاذ سليم طه التكريتي، وترجمت الكراسات الثلاث الاخرى الآنسة نورية شريف.

وفي ١٦ حزيران ١٩٤٤ دعت الطريق قراءها لشراء المجلات والكتب العراقية عن طريق ادارة مجلة الطريق وهي:

- مجلة الرابطة العراقية.
- مجلة المجلة العراقية.
- الوراثة والعنصرية.
- العنصرية بين الرجعية والعلم لعزيز الرشيف
- الدستور السوفياتي بالعربية
- صديقنا الاتحاد السوفياتي
- الصورة الخلفية لايزنهاور ومونتغمري.

وبعد ثلاثة اسابيع عادت الطريق لرصد الحركة الفكرية السياسية التقدمية في العراق من خلال كتاب الوعي الوطني والاجتماعي في العراق خلال الحرب الاخيرة

بقلم مهدي القزاز. ويتمثل هذا الوعي بالنشاطات التالية:

- مجلة المجلة يكتب فيها عزيز الشريف عبد الفتاح ابراهيم فكتوريا نعمان عبد الملك عبد اللطيف نوري.

- جريدة «صوت الاهالي» تنافح عن حقوق الفلاح والعامل وتندد بالمضاربين والمحتكرين.

- «الرابطة الثقافية»، التي أصدرتها جماعة من الشباب المثقف.

- مكتبة بغداد، التي يديرها نخبة من الشباب التقدمي، تقوم بنشر الكتب وتوزيعها في البلاد العربية. كما تقوم بنشر «رسائل البعث». وهذه المكتبة تخدم الوعي الوطني والثقافة الشعبية أجل الخدمات.

- ويأتي في طليعة المثقفين الشاعرَ محمد مهدي الجواهري صاحب جريدة «الرأي العام»، الذي ساهم بجريدته وبشعره في القضية الوطنية ومحاربة الفقر واسماع المسؤولين صوت الشعب.

وبمناسبة انعقاد مؤتمر المحامين العرب بدمشق نشرت الطريق كلمة المحامي العراقي التقدمي عزيز الشريف، الذي تحدث عن اسس الاتحاد العربي وكيفية اقامته وعبّر بذلك عن رأي الثوريين العرب في الاسس الأولى الضرورية للوحدة العربية. وفيما يلي ننشر مقطعين من خطابه في **١٥ آب ١٩٤٤**:

«... يجب ان نعترف ان الاتحاد الذي ننشده، يقتضي ان تتطور كل وحدة من الوحدات التي تكوّن هذه الامة، تطوراً يقضي على كل العقبات الخاصة في كل منها، ولن يحدث هذا التطور، اوعلى الاقل، لن يحدث بالسرعة المبتغاة، الا بشرطين اساسيين هما التحرر الوطني من كل نير اجنبي، وتحقيق الحريات الديموقراطية.

... وقد يظن اني ادعو إلى الكف او التراخي عن السعي لتحقيق هذا الاتحاد، حتى يتم استقلال البلاد العربية جميعها. فمعاذ الله ان اقول بهذا، بل انما اقول اننا ان اغفلنا قضية الاستقلال، فإن كل كلامنا عن الاتحاد هراء...».

«... ان توحيد امتنا يقتضي ان تتطور احوالها وتتقدم، وان ينقل المجتمع العربي من حالة البداوة التي لم تزل سائدة في كثير من ربوعه، إلى حالة المدنية الحديثة... واحداث الصناعات.

. . . على الحكام الوطنيين ان يكون سندهم الشعب العربي، وان يلبوا طلباته . . . » .

وعزيز الشريف كان غزير الانتاج وقد اصدر في اوائل ١٩٤٥ كراساً عن «الحركة الوطنية في سوريا ولبنان» وهي رسالة من سلسلة رسائل «البعث» التي صدرت في بغداد. وعلق محمد كزما المعرف بالكتاب بانه لا يتضمن «متاجرة بالعرب والعروبة وغيرهما من الكلمات المحببة إلى قلوبنا والتي يعز علينا ان يتاجر بها».

وكان عزيز الشريف رئيس حزب الشعب قد اصدر في بغداد مجلة باسم الوطن.

وفي صيف ١٩٤٥ اصدرت «رسائل البعث» العراقية «سقوط الجمهورية الفرنسية الثالثة» للكاتب الانكليزي د. ن. بريت وترجمة الكاتب كامل قزانجي. وهذه الرسائل تشرح كيف سقطت الجمهورية الفرنسية تحت اقدام الفاشست الألمان في حزيران ١٩٤٠ وهي عبارة عن استعراض تقدمي للأحداث الفرنسية والاوروبية في الثلاثينات.

وعن فلسطين تهتم الطريق بفضح مرامي الصهيونية ونشر نشاطات عصبة التحرر الوطني في فلسطين، التي اصدرت بياناً قالت فيه: إن نضال الشعب العربي في فلسطين لاجل حريته واستقلاله، هو جزء مكمل لنضال شعوب العالم في سبيل الحرية والقضاء على النظم العنصرية ودك صروح العبودية والاستعمار لاقامة عالم جديد تتوافر فيه الحرية والسلام لجميع الشعوب (الطريق ٢٠ أيار ١٩٤٤).

وبمناسبة ذكرى وعد بلفور عام ١٩٤٤ عقدت عصبة التحرر الوطني في حيفا اجتماعاً شعبياً كبيراً ارسل المجتمعون فيه البرقية التالية إلى الماريشال ستالين: «الجماهير العربية المحتشدة في حيفا بدعوة من عصبة التحرر الوطني احتجاجاً على وعد بلفور تحيي انتصارات الجيش الاحمر المظفر على النازية الاستعمارية عدوة الشعوب، وتتوجه اليكم بثقة لتعيروا قضية فلسطين اهتمامكم في مؤتمر السلم المقبل».

ووجه اتحاد الاحزاب اللبنانية لمكافحة الصهيونية برقية إلى ستالين جاء فيها «ويغتنم اتحاد الاحزاب اللبنانية هذه المناسبة لتوجيه انتباه الحكومة السوفياتية إلى مشاريع الصهيونية في فلسطين، تلك المشاريع التي تناقض، باسسها العرقية

والاستعمارية، تناقضاً تاماً، مبادىء الحرية والمساواة التي تقوم عليها هذه الحرب العظمى، حرب الحق على القوة».

وتحت عنوان قضيتا اليهود وفلسطين كما بحثها الحزب الشيوعي الانكليزي في تقريره إلى لجنة التحقيق الاميركية البريطانية، نشرت الطريق (١٥ آذار ١٩٤٦) ملخصاً لتقرير الحزب المذكور الذي بحث خمس قضايا هامة: ١ ـ مدى التحقيق، ٢ ـ جذور معاداة السامية، ٣ ـ الصهيونية، ٤ ـ اليهود في اوروبا، ٥ ـ فلسطين.

وفي ٣١ آذار ١٩٤٦ نشرت الطريق مقالاً مطولاً لرئيف خوري بعنوان «القضية الفلسطينية» بيّن فيه «ان الصهيونية ربيبة الاستعمار البريطاني وهي ترتبط اكثر فأكثر بـ «نزعة التوسع الاقتصادي الاميركي». وطالب رئيف خوري «بوجوب التخلي عن الانتداب على فلسطين واعلان استقلالها وصنع دستور فلسطيني ديموقراطي يقوم على اساسه مجلس نيابي، يمثل الفلسطينيين كلهم تمثيلاً نسبياً، كما تقوم حكومة وطنية فلسطينية»..

ودعا الكاتب العرب في فلسطين إلى تشكيل «جبهة موحدة تطالب بوقف الهجرة وتعارض التقسيم وتجعل اساس منهجها النضال لانهاء الانتداب واقامة حكومة وطنية فلسطينية على قاعدة دستور ديموقراطي».

وفي الختام انتقد رئيف خوري من يدعون إلى النضال الاقتصادي السياسي ضد الصهيونية وحدها ولا يتوجهون بنضالهم ايضاً ضد الانتداب.

في ١٥ تشرين الثاني ١٩٤٤ نشرت مجلة «الطريق» مقالاً مطولاً بقلم خالد بكداش بعنوان: «العلاقات السياسية بين الاتحاد السوفياتي والاقطار العربية» جاء فيه: «وهناك مسألة الصهيونية: هذه الآفة الفتاكة التي تجتاح فلسطين الشهيدة، وتتحول إلى خطر على العالم العربي بأسره، خطر عظيم يهدد كيانه القومي ومستقبله وصناعته وتجارته وزراعته جميعاً. إن الدعوة الصهيونية، أي الدعوة إلى هجرة اليهود إلى فلسطين، ممنوعة في الاتحاد السوفياتي، ويعاقب عليها القانون بصرامة، ويعتبرها من جرائم الخيانة العظمى».

ومما كتبه بكداش في حاشية شرح الصهيونية ما يلي: «الصهيونية حركة قديمة ظهرت في القرن التاسع عشر، وقد حاربها اساطين الاشتراكية العلمية باستمرار،

وبينوا جوهرها الرأسمالي الرجعي، وقد صنفها لينين صراحة في عداد الحركات الرجعية العالمية . . . ولا بد من القول هنا بان زعم الصهيونيين بان اليهود يؤلفون قومية واحدة او امة واحدة ليبرروا بذلك الحركة الصهيونية، هو زعم فاسد باطل من أساسه . . . » .

٤ ـ اعلام نهضوية تحمل الفكر الماركسي : كامل عياد، رئيف خوري، عمر فاخوري

لدى مطالعة اعداد مجلة الطريق تستوقفنا ثلاثة اسماء اسهمت اسهاماً جوهرياً في تحرير الطريق وهي الدكتور كامل عياد، رئيف خوري ـ وكلاهما من المحررين الرئيسيين في الطليعة ـ وعمر فاخوري . وليس المجال متسعاً هنا لدراسة هذه الأعلام الثلاثة من حملة لواء الفكر العربي الديموقراطي الثوري، وانما نريد ان نقدم لمحة موجزة عن عياد وخوري، بعد ان اشرنا إلى بعض مقالاتهما في الطليعة والطريق، ثم ننتقل لتناول دور عمر فاخوري في سنوات الحرب العالمية الثانية اللاهبة .

الدكتور كامل عياد (تولد ١٩٠٠) كان من أوائل السوريين الذين حازوا شهادة دكتوراة بالفلسفة من جامعات المانيا في بداية الثلاثينات . ورأينا اسهامه الاساسي في اصدار مجلة الطليعة (١٩٣٧ ـ ١٩٣٩) والطريق ابتداء من عام ١٩٤٢ . كان يتمتع بسمعة علمية جيدة في دمشق واسهم اسهاماً واضحاً في خلق جيل مثقف بالفكر الثوري ونشر الفكر العلمي والتعريف بالاشتراكية العلمية، وبالماركسية عامة، وفي تنمية الحركة الثورية وتجذيرها . ومن الكتب التي اصدرها منفرداً : «تاريخ الشرق القديم» ١٩٣٣، «تاريخ اليونان» . «تأثير ابن رشد على مر العصور»، «عبر التاريخ»، «أديب عربي، وأديب روسي، عمر فاخوري ومكسيم غوركي» ١٩٤٦، . . . أما ما اصدره من الكتب بالاشتراك مع صديقه الدكتور جميل صليبا فهي : «ابن خلدون / دراسة وتحليل ومنتخبات» ١٩٣٤، «حي بن يقظان / مع مقدمة عن حياة ابن طفيل وفلسفته» ١٩٣٥ . المنطق وطرائق العلم العام» ١٩٤٨، «المنقذ من الضلال / مع مقدمة عن حياة الغزالي وفلسفته» ١٩٥١[٩٣] .

---

(٩٣) راجع الطريق شباط ١٩٨٢ ص ٢٤٦ ومايليها .

أمـا رئيف خوري فقـد عرفـه العـالم العـربي (منـذ بدايـة الثـلاثينـات وحتى أواخـر الستينـات) اديبـاً ومفكـراً موسـوعياً كتب في مختلف اغراض الادب والفكر، بحث في التراث العربي القديم،.والتراث النهضوي، وانواع الأدب العربي الحديث. مارس النقد الأدبي وبحث في اصوله واساليبه. أنشأ المقالة الادبية والسياسية. كتب القصة والـروايـة التـاريخيـة، ونظم الشعـر. وكتب فصـولاً رائـدة قيّمـة في الفكـر المـاركسي والفهم المـادي الجـدلي لتطـور الكـون والمجتمع والفكر. خطب في الاجتماعات الجماهيرية. شارك في المؤتمـرات الثقـافيـة والسيـاسية والفكرية التخصصية. ساهم في العديد من المنظمات اديمـوقـراطيـة الجماهيية. اندمج في الحركة النضالية العامة. جادل وعارك، وانتضى سيف التحدي، كما شهر ابتسامة الفرح والعافية والسخرية، معاً[٩٤]

إن رئيف خوري منـور موسـوعي يحَمـل الفكـر الماركسي، ويبشر بالاشتراكية العلميـة، ويـربـط ممارستـه الفكـرية والنضالية بحركة الجماهير، وبالمسيرة الكفاحية لحزب الطبقة العاملة.

كتب رئيف خوري في المجـلات والجـرائـد التقـدميـة على التـوالى: الدهور، الطليعــة، صوت الشعب (١٩٣٧ ـ ١٩٣٩)، الطـريق، «الثقــافـة الـوطنيـة»، الاخبـار، النداء، حتى وفاته عام ١٩٦٧.

أمـا كتبـه المنشورة، وهي ليست قليلة،فقد وضعها اصلاً للنشر مباشرة في كتب مستقلة. وقـد اشـرنـا إلى بعضهـا واقتبسنـا من بعضهـا الآخـر مقـاطـع في ثنايا هذا الكتـاب. وهـذه الكتب هي على التـوالي[٩٥]: «امرؤ القيس، نقد» وتحليل ١٩٣٤، «حبـة الـرمـان، وقصص عربيـة اخـرى» قصص مستمـدة من كتب التراث العربي القديم ١٩٣٥، «جهاد فلسطين، كفاح العرب في سبيل الحرية والاستقلال: الثورة الفلسطينية في مختلف مراحلها» . صدر عام ١٩٣٦ بتـوقيـع «الفتى العـربي»، «ثورة بيدبا» مسرحية شعبية ١٩٣٦، «حقوق الانسان» ١٩٣٧، «مجوسي في الجنة» تمثيليات

---

(٩٤) المصدر نفسه: «رئيف خوري... المفكر الموسوعي» بقلم محمود كروب، ص ٢٣٧ ومايليها.

(٩٥) المصدر نفسه.

مستمدة من التراث العربي ١٩٣٨ ، «هل يخفى القمر؟» بحث في حياة عمر بن ابي ربيعة وشعره ١٩٣٩ ، «النقد والدراسة الادبية ، ١٩٣٩ ، «معالم الوعي القومي» (مناقشة لكتاب قسطنطين زريق الوعي القومي ، ١٩٤١ ، «مع العرب في التاريخ والاسطورة» ١٩٤٢ ، «الفكر العربي الحديث ، اثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي» ١٩٤٣ ، «صحون ملونة» قصص مستمدة من كتب التراث العربي ١٩٤٧ ، «ديك الجن : الحب المفترس» ١٩٤٨ ، «الثورة الروسية رقصة مولد حضارة جديدة» ١٩٤٨ ، «الحب أقوى» رواية تاريخية ١٩٥٠ ، «التعريف في الأدب العربي» تاريخ ، نقد منتخبات ١٩٥١ ، «نصوص التعريف في الأدب العربي ، عصر الإحياء والنهضة» ١٩٥٧ .

اتجه كامل عياد ورئيف خوري منذ نعومة اظفارهما الفكرية نحو التيار الديموقراطي الثوري ووصلا إلى الفكر الماركسي في وقت مبكر من حياتهما . ولهذا فانهما اسهما اسهاماً واضحاً في الثلاثينات في نشر الفكر التقدمي .

أما عمر فاخوري فكان قبل الحرب العالمية الثانية يتلذذ بملاذته في «برجه العاجي» يكثر من القراءة ولا يكتب إلا القليل[٩٦] . ولم يدخل بوابة الفكر الديموقراطي الثوري إلا في اوائل الاربعينات بعد ان قصفت رعود الحرب العالمية الثانية وامست الفاشستية تشكل خطراً يهدد البشرية . . . عندها تحول عمر فاخوري وامسى محارباً نشطاً لا يهدأ يكتب ويخطب فاضحاً الفكر الفاشستي وداعياً إلى الفكر الديموقراطي الثوري . . إلى الفكر الماركسي . . وكان معظم ماكتبه عمر فاخوري في سنيه الاخيرة (توفي عام ١٩٤٦) من روائع الأدب السياسي يدخل في إطار الخطب والاحاديث والمحاضرات .

لم يكن عمر فاخوري إلا وريثاً للتطور الفكري العربي في بلاد الشام ـ ذلك التطور ، الذي افصح عن خلجات التحولات الاجتماعية الاقتصادية في الداخل ، وردد اصداء الصراع العالمي المحتدم بين الديموقراطية والفاشستية بين الاشتراكية

(٩٦) راجع «الطريق» شباط ١٩٨٢ : «هكذا اصدرنا الطريق» لنقولا شاوي ص ١٠٠ ومايليها و ٢٢٢ ومايليها .

والـرأسـمالـيـة. لقد سار عمر فاخوري منذ الحرب العالمية الأولى على صراط مستقيم متقـدمـاً إلى الأمـام صاعـداً إلى القمـة. وهولم يَضلَّ السبيل بل اتبع شعاع الحقيقة فانكشفت له أنـوارهـا وتفتحت لبصـيرتـه الآفـاق الـواسعـة حتى صار يشـرف على الاهداف المقصودة. ويهدي قراءه وسامعيه اليها. ولكن البعض رأى في عمر فاخوري اديبـاً ومفكـراً منحـرفـاً بعد ان ضلَّ الطريق ولم يدركوا بل لم يريدوا ان يدركوا ان ذلك كان تطوراً طبيعياً ونتيجة محتومة لأن ينتهي اليها كل اديب حقيقي صادق.

لقد قيّم الدكتور كامل عياد أحسن تقييم مراحل تطور الانتاج الفكري والأدبي عنـد عمـر فاخـوري متتبعـاً مراحـل تطـوره وذلـك في الكلمـة التي ألقاها في بير وت في ذكرى تكريم عمر فاخوري في ٧ تموز ١٩٤٦، قال الدكتور عياد[٩٧]:

«يـرغب البعض في ان يميـز بين عمـر فاخوري الشاب العربي الوطني، الذي انضم إلى «حـزب الاستقـلال» و «الجمعيـة العربية الفتاة» وألف عند نشوب الحرب العـالميـة الاولى كتـابـه «كيف ينهض العـرب» - وبين عمر فاخوري، الكاتب الناقد والمحرر في مجلة «الميزان» الادبية ومُعرب «آراء أناتول فرانس»، ثم بعد ذلك بين عمر فاخـوري الاديب الفنـان، مؤلف «البـاب المرصود» عام ١٩٣٨ و «الفصول الأربعة» وبـين عمـر فاخـوري، السياسي المكافح للنازية والفاشستية «بلا هوادة» والمدافع عن الـديموقراطية والاشتراكية بحماسة ورئيس جمعية اصدقاء السوفيات وصاحب «أديب في السوق» و «الحقيقة اللبنانية» و «الاتحاد السوفياتي حجر الزاوية».

و الـواقـع ان عمـر فاخـوري ظل مدة طويلة مضطـربـاً حائراً يتلمس طريقه في ضباب من النظريات البديعية يتساءل متبرماً بأمسه ويومه وغده..

كتب عمر فاخوري في سنة ١٩٢٦: هذا المساء وفي احدى ساعات الملل التي

---

(٩٧) في ٧ تموز ١٩٤٦ ألقى الـدكتـور كامـل عيـاد كلمة في ذكرى تكريم عمر فاخوري نشرت في كراس تحت عنوان: «عمر فاخوري ومكسيم غوركي، اديب عربي واديب روسي» من مطبوعات جمعيـة التعـاون بين سوريـة والاتحـاد السـوفياتي.. والدكتور كامل عياد استاذ الفلسفة في الجامعة السورية لعب دوراً رئيسياً في تحرير مجلتي الطليعة والطريق وكان من انصار اتجاه الجمع بين النضال الطبقي الاجتـماعي والنضـال القـومي ورؤيـة العـلاقـة الديالكتيكية بينهما... وعنه اخذنا التقييم المتعلق بعمر فاخوري.

يتساءل المرء فيها وقد هادنته الحياة: «تُرى، ماذا يراد بنا، في هذه الدنيا، وهل لوجودنا غاية؟ . . . دون ان يوفق الى جواب او شبه جواب على سؤاله، بل السؤال الذي طرحته سآمته على الوجود وعلى الحياة».

وحتى الحرب العالمية الثانية لم يكن عمر قد توصل بعد إلى تحديد وظيفة الأديب تحديداً دقيقاً . . . وقد فاجأته كارثة الحرب الثانية، إذ كان منهمكاً في تلفيق المعاني وتزويق المباني . . . فزلت قدمه وتدحرج من برجه العاجي حتى وجد نفسه في الساحة، بين بني آدم المعذبين . . وهنا انبرى عمر فاخوري لمعالجة مشكلات امته الاجتماعية والسياسية.

وقد آمن عمر فاخوري - كما قال الدكتور عياد - بالاشتراكية التي تستهدف حرية الانسان وبناء مجتمع لا اضطهاد فيه ولا استثمار. وأدرك ان الاشتراكية التي بدأت تنتصر في كل العالم، هي الشرط الأساسي لتحقيق القومية والديموقراطية والانسانية. لذلك انضم عمر فاخوري إلى الطبقة العاملة، لأن حركتها إنما تخدم في الحقيقة الوحدة القومية، ولأن نضالها انما يستهدف ازالة الانقسام بين ابناء الشعب الواحد والقضاء على اسباب هذا الانقسام وعوامله. لقد آمن عمر فاخوري بان «الشيء الحقيقي الوحيد في الوجود هو الانسان وكل ما سواه هو من صنع ساعده ودماغه».

في سنة ١٩٤٢ نشر عمر فاخوري سلسلة مقالات جمعها في كتيب واحد باسم «لا هوادة» ضد الفاشستية صدره بالعبارة التالية: «ليس حسبنا ان نعيش، كما نعيش. ينبغي أن نفكر كيف يصح أن نعيش». ومعنى ذلك أن عمر فاخوري عقد العزم على ترك برجه العاجي ونزل إلى ساح المعركة، معركة النضال. فهويدعو «دعوة حارة إلى الاشتغال في السياسة . . . في هذه السياسية»، التي ترشدنا «أين نقف في الصراع» بين الفاشستية والجبهة المعادية لها.

لم يقتصر نشاط عمر فاخوري الفكري علس السياسة الدولية بل خاض غمار السياسة الداخلية فهاجم مثلاً في مقالة «الاحتكار وابن خلدون» البرجوازية التجارية وايّد موضوعة ابن خلدون القائلة: «يجب ان يرجح جانب القوت على جانب التجارة».

وفي مقالة اخرى حول الحرية بعنوان: «كل شيء نسبي» كتب عمر فاخوري

مهاجماً التجار المحتكرين نقتطف منها مايلي: [٩٨]

«لطالما فاضت ارواح على شفرات السيوف، وفي غيابات السجون، وعلى أعواد المشانق، في سبيل هذه الحرية التي تعتبر حقاً من حقوقهم المقدسة.

... لكن أترون، لو جاء باسم هذه الحرية العزيزة تجار البلد، رافعين علمها الخافق وسط الأزمة الخانقة، ثم نادوا بصوت واحد يتهدج حماسة، ويتقطع حمية: (الحرية؟ نحن وانتم، بتأييد من الشرائع الإلهية والمدنية، مجمعون على انها من الضروريات كالخبز والماء، والنور والهواء... بل الحياة بدونها - كما تقولون - شيء لا معنى له، ولا طائل تحته. لكننا تجار، ولا بد لنا بهذه الصفة، من ان نضيف إلى لفظة «الحرية» ذلك اللفظ الآخر الذي نُعرف نحن به، «اي التجارة» ولنقل دفعة واحدة: (حرية التجارة..) فهل عرفتم على ظهر البسيطة؟ ابسط من هذه الإضافة؟ كل شيء نسبي في هذا الوجود، حتى الحرية العزيزة، ولاسيما حرية التجارة!».

يظهر مما تقدم ان الوطني العربي والديموقراطي الثوري عمر فاخوري اخذ ينتقل اكثر فأكثر إلى مواقع الفكر الماركسي. وظهر ذلك جلياً في محاضرته التي اقامتها «جمعية اصدقاء الاتحاد السوفياتي في سوريا ولبنان» في ١٨ شباط ١٩٤٣ في بيروت بعنوان: «الاتحاد السوفياتي حجر الزاوية».

ومما يجدر ذكره أنه في أيامنا هذه في السبعينات، ولظروف عديدة معلومة، نشاهد كثيراً من الناس، الذين لا تربطهم بالفلسفة الماركسية اية رابطة، وبعضهم ليس علي وفاق مع الاشتراكية، اصدقاء للاتحاد السوفياتي. أي ان اصدقاء الاتحاد السوفياتي في الوطن العربي يتألفون حالياً من ماركسيين وانصاف ماركسيين وقوميين تقدميين من مختلف التيارات، بالإضافة إلى الجماهير العربية الغفيرة، التي ترى في الاتحاد السوفياتي سندها الأول في نضالها القومي والاجتماعي.

أما في أوائل الحرب العالمية الثانية وقبلها فكان الوضع يختلف نسبياً، ولم تكن الأمور بهذا الوضوح، في الوقت، الذي كانت لا تزال الدعاية البورجوازية والاباطيل والافتراءات الامبريالية مسيطرة على العقول. في تلك الأيام اقتصرت صداقة الاتحاد السوفياتي في الوطن العربي على الماركسيين والديموقراطيين الثوريين،

---

(٩٨) عمر فاخوري: «لاهوادة» بيروت ١٩٤٢. ص ٨٥.

المتطلعين الى الاشتراكية وبناء وطن حر سعيد.

وقد صوّر عمر فاخوري في مقالته «الدنيا الفاضلة» في الذكرى السادسة والعشرين لتأسيس الاتحاد السوفياتي نفسية الناس قائلاً:

«لسنة او سنتين خلتا، كنا إذا احتفلنا للاتحاد السوفياتي، وان لمناسبة مقبولة معقولة، ارتسمت في افق هذه الديار، علامة استفهام ضخمة، عرضها السموات والأرض. . . ».

«أما الآن فما اكثر الذين سألوني، قبل ان يحين الموعد بزمن: الا تحتلفون هذه السنة لذكرى تأسيس الاتحاد السوفياتي . . . ».

«لماذا هذا الحب المتزايد للاتحاد السوفياتي؟».

يجيب عمر فاخوري في محاضرته المنوه عنها في شباط ١٩٤٣ على ذلك موضحاً:

«لكن لو سألت زيداً من هؤلاء الناس الذين يحبون الاتحاد السوفياتي ـ وما أكثرهم ـ: لماذا تحب تلك البلاد النائية . . . لأجابك فوراً: «ان الشعوب السوفياتية برهنت في هذه الحرب على بطولة خارقة». فالحب هنا هو إذاً من قبيل الاعجاب الطبيعي او الفطري».

ولكن عمر فاخوري يريد ان يكون هذا الاعجاب وذاك الحب صادرين عن معرفة حصيفة وادراك صحيح، اي انه يريد ان ينتقل المعجبون بشجاعة الجنود السوفيات من الحب العاطفي إلى الحب المنطقي العلمي القائم على فهم طبيعة النظام الاشتراكي السوفياتي، واستيعاب النظرية الاشتراكية بوجه عام.

ولهذا فإن عمر فاخوري تطرق للأمور الحساسة، التي دار حولها جدل واسع، وتعرضت لتشويه الدعايات البورجوازية ولأضاليل الامبريالية. فما اهم الأمور التي عالجها عمر فاخوري[99]؟

ـ الملكية . . «يقولون: ليس في الاتحاد السوفياتي ملكية خاصة. والساعي

---

(٩٩) عمر فاخوري: «الاتحاد السوفياتي حجر الزاوية» منشورات جمعية اصدقاء الاتحاد السوفياتي في سوريا ولبنان. بيروت ١٩٤٣. والاساسي في الكتاب هو محاضرة القيت في بيروت في ٧ تشرين الثاني ١٩٤٢.

هناك لا ينال جزاء سعيه، **بالرغم من ان ثورة اكتوبر التي تلهجون** بذكرها، والماركسية اللينينية الستالينية التي تحبذونها قضتا بأن «ليس للإنسان إلا ما سعى».

وأجاب عمر فاخوري بقوله: «ينبغي ان نفرق بين نوعين من الملكية الخاصة. هناك ملكية خاصة يستثمر بها البشري بشرياً مثله، كحيازة المناجم والمصانع والمزارع الكبيرة. وهناك ملكية خاصة لا يستثمر بها الانسان اخاه الانسان، كحيازة امتعة وادوات ينتفع بها المالك انتفاعاً مباشراً أو يستهلكها، من فنوغراف وسيارة ومسكن وقطعة صغيرة من الأرض وهلمجرا. ان هذه الملكية مباحة في الاتحاد السوفياتي، والماركسية انها الغت استثمار الانسان للإنسان».

- العائلة.. وهنا يرد عمر فاخوري على مزاعم المشككين بعدم وجود العائلة في الاتحاد السوفياتي ويضيف: «ان الولد والاسرة في الاتحاد السوفياتي هما زينة الحياة، دون ان يكونا حجر رحى في الاعناق».

- الدين.. وفيها يرد على الدعاية الاثيمة، التي ادخلت على الافهام كثيراً من الباطل ولاسيما في امر الاديان والعبادات.

- الديموقراطية... حيث وجه عمر فاخوري سهام نقده للديموقراطية البورجوازية من عدة وجوه: «انها تمنح الافراد كثيراً من الحقوق لكن لا تضمن لهم الوسائل لممارسة تلك الحقوق فما الفائدة من قولك: «لكل انسان حق التعبير الطليق عن رأيه». إذا لم يكن هذا الانسان على قسط من الثقافة يمكنه من ممارسة هذا الحق؟ أو إذا لم يملك الوسائل المادية لممارسته».

واخيراً ختم عمر فاخوري محاضرته مبيناً ان البشرية حلمت منذ اجيال بعالم غير عالمنا خلو من الفقر والظلم والجهالة. الاتحاد السوفياتي يحمل في صدره التراث القديم تراث الشوق إلى المدينة الفاضلة. ان المبدأ الاساسي القائل بأن الانسان هو محور العالم واثمن ما فيه، وان مبادىء الثورات الانكليزية والاميركية والفرنسية، وان رسالة الديمقراطية الصحيحة، وان النهضة العلمية التي تستهدف السيطرة على الطبيعة وتسخيرها لخير الناس..

كل هذه العناصر قد اجتمعت، كأنها على موعد، في نظام الاتحاد السوفياتي. الاتحاد السوفياتي... حجر الزاوية في بناء العالم الجديد في بناء الانسانية الجديدة».

الاتحاد السوفياتي في رأي الوطني العربي والديموقراطي الثوري، عمر فاخوري، «اعاد الى النفوس رجاءاً كاد يفنى في توطيد السلم العالمي، على اساس ثابت من العدل والمساواة والرفاه بما يضمن للأفراد وللشعوب ما تصبو إليه، وتناضل في سبيله، من مطامح قومية عادلة، واصلاح بل صلاح اجتماعي».

«ان من دواعي اللذة والغبطة ان يعرف الانسان الهدف الذي يحارب من أجله».

معرفة الهدف، هذا احد المحركات الرئيسية، التي دفعت بالديموقراطيين الثوريين لتحمل المشاق والاضطهاد من أجل الوصول إلى «ما تصبو إليه الافراد والشعوب وتناضل في سبيله، من مطامح قومية عادلة، واصلاح بل صلاح اجتماعي».

ان كتابات عمر فاخوري في سنوات الحرب كانت، كما ذكرنا، حصيلة التطورات الداخلية والخارجية، ولكنها اثرت ايضاً في هذه التطورات واسهمت بدورها ـ شأنها شأن سائر الكتب التقدمية ـ في دفع الحركة الفكرية العربية باتجاه اليسار وفي تمهيد معالم الطريق امام الفكر الماركسي ومبادىء ثورة اكتوبر الاشتراكية. وعمر فاخوري كان من المفكرين القلائل، الذين جاهروا برأيهم واعلنوا وقوفهم في صف الجبهة الفكرية الاشتراكية. وكانت ثورة اكتوبر بالنسبة للمفكرين الديموقراطيين الثوريين، كما ذكر الكاتب المصري سلامة موسى سنة ١٩٤٣ بمثابة الثورة الفرنسية الكبرى لابناء القرن التاسع عشر. ويقول سلامة موسى: فلو ان احداً كان يعيش بين سنة ١٨٠٠ و ١٨٥٠ وكان يهمل دراسة هذه الثورة (الفرنسية البرجوازية) لما استطاع ان يدرك التطورات الاجتماعية والسياسية في عصره. وكذلك نحن لا نفهم تطورات عصرنا إذا اهملنا دراسة الثورة الروسية (الاشتراكية).

وعندما رشح عمر فاخوري نفسه للنيابة عن بيروت نشرت الطريق في ٣٠ اب ١٩٤٣ جزءاً من بيانه الانتخابي وفيما يلي ما نشرته الطريق:

إن آفة لبنان هي الاستغلال بانواعه وشر هذه الانواع استغلال التفرقة بين ابنائه الذين اجمعوا على ارادة واحدة، هي العيش في ظلال هذا الوطن بحرية وعدل وتضامن.

ان العالم مشغول بحل **مشاكله العظمى**، ونحن ما زلنا منهمكين في حل مشكلة ابتدائية حيوية - كدت اقول: «حيوانية»، ليس بكاف، كلما رأينا البيت يحترق، ان نهب جميعاً لاخماد النار. يجب ان نمنع اسباب الحريق، ان نبعد عن البيت المحرقين. لنقل بصراحة: لا يمكن ان يكون لبنان وطناً مسيحياً ولا وطناً اسلامياً. لايمكن أن يكون وطناً لأي دين من الأديان، أومذهب من المذاهب. لا يصح ان يكون لبنان إلا وطناً لجميع اللبنانيين على السواء.

وتحت عنوان «ميثاقنا» نشرت الطريق في ١٧ أيلول **١٩٤٣** نص الكلمة التي القاها رئيف خوري في حفلة تكريم عمر فاخوري بمناسبة دخوله المعركة الانتخابية جاء فيها:

.. كان عمر فاخوري وطنياً قومياً يسعى في سبيل اعلاء الوطن ويغار على القومية ويجاهد في سبيل الحرية والهناء للبنان وللشرق العربي كله.. كان عمر فاخوري اميناً مخلصاً لكل ما هو خير ونير وعظيم، في صفحات تاريخنا وتقاليدنا وعقائدنا ومراحل جهادنا..

ففي هذا الاجتماع الذي عقدنا تكريماً للاستاذ عمر فاخوري نتلو من القرآن الآيات الكريمة... ونتلو من الانجيل الآيات الكريمة... ونذكر فيلسوفنا العربي العظيم ابن حزم الاندلسي ونردد قوله..

ونذكر علمنا وعلم الشرق، المفكر المناضل السيد جمال الدين الافغاني ونردد كلماته... نذكر الشيخ الفاضل عبد الله النديم... ومفكرنا السابق عبد الرحمن الكواكبي... نذكر فرنسيس مراش... وأديب اسحاق... والزهاوي.. وامين الريحاني. وجبران..

في هذا الاجتماع نقسم لجميع رجالنا الافذاذ، ومفكرينا هؤلاء، وغيرهم ممن رفعوا اسمنا عالياً، اننا سنبقى امناء اوفياء لرسالتهم، رسالة الامة والوطنية والحرية والفكر الرفيع..

فليحيا رجل الفكر والتسامح والإخاء الوطني، فخر لبنان واديب العرب الكبير، حامل المجد التقاليد القومية ومكمل قافلة الاحرار الميامين في لبنان والشرق العربي، الاستاذ عمر فاخوري.

٥ ـ مكانة التيار الديموقراطي الثوري

اسهمت كتابات الديموقراطيين الثوريين في تعريف قراء العربية ببعض جوانب الفكر الاشتراكي، وفي نشر الوعي الوطني والطبقي، وفي الربط بين الفكر التقدمي العالمي والفكر العربي التقدمي قديمه وحديثه. ولكن التيار الديموقراطي الثوري لم يتمكن بالرغم من انجازاته الضخمة ومآثره العظيمة في فترة ما بين الحربين، من نشر أفكاره على نطاق واسع بسبب الأمية السائدة بين الجماهير والظروف الموضوعية التي عاشتها هذه الجماهير وبسبب عدم وضوح الرؤية الفكرية عند القسم الأكبر من انصار التيار الديموقراطي الثوري. كما أن الافكار الاستعمارية والرجعية السائدة قامت بنصيب كبير في مقاومة الأفكار التقدمية وفي ارهاب انصار الفكر التقدمي، مما أدى إلى عرقلة انتشار الفكر التقدمي بين عدد ضخم من المثقفين، وإلى سيطرة الغموض النسبي على المعرفة الحقيقية للأفكار التقدمية العربية والعالمية، رغم المحاولات العديدة لأنصار التيار الديموقراطي الثوري في استجلاء والعالمية، رغم المحاولات العديدة لأنصار التيار الديموقراطي الثوري في استجلاء غوامض هذه الأفكار وفي تعريفها للناس. وقد أدت الصعوبات العديدة التي لاقاها انصار التيار الديموقراطي الثوري قبل الحرب العالمية الثانية إلى ارتداد قسم منهم أو توقفه عن التطور والوقوع في احضان الايديولوجية البرجوازية، التي لم يتخلص منها، او الى انحدار قسم آخر إلى مستنقع الانتهازية والخيانة والتنكر للأفكار التي نادى بها فيما مضى فأصبح خادماً للاستعمار وبوقاً للرجعية ضد مسيرة الفكر التقدمي. كما ان قسماً من انصار التيار الديموقراطي الثوري سقط في منتصف الطريق حائراً بين الأمواج الفكرية المتصارعة ولم يبق لوجوده الفكري أي أثر. ولكن العناصر الواعية داخل التيار الديموقراطي الثوري لم ترم علمَ النضال بل رفعته عالياً وازداد التصاقها بقضية الشعب وبنضاله الوطني والقومي والاجتماعي وتعمقت صلاتها الفكرية مع الثقافة العالمية وسارت إلى نهاية الطريق وانتقلت نهائياً إلى مواقع الماركسية. وازداد وضوحها الفكري. لقد بدأت هذه العملية بالنضج على اعتاب الحرب العالمية الثانية واسهم القضاء على النازية وانتصار الاتحاد السوفياتي في تسارعها، مما ادى إلى رفد

التيار الماركسي في الوطن العربي بعناصر قوية جديدة وإلى احتلاله لمواقع ايديولوجية جديدة في رحاب الوطن الكبير.

لقد مهد التيار الديموقراطي الثوري في سورية ولبنان الطرق الأولى لبداية انتشار الفكر الماركسي وعبّد الطريق امام هذا التيار، ثم لم يلبث ان دعمه ورفده بعناصر جديدة وقدّم له كل عون وسند. وفي الوقت نفسه كان التيار الماركسي يحدب على التيار الديموقراطي الثوري، ويقدم له ايضاً المساعدة اللازمة ويتعهده بالعناية مثل من يعتني بنبع يتفجر من قلب الأرض من أجل ان يروي ظمأه وظمأ الأرض العطشى إلى ماء المعرفة. والواقع ان الجسور المقامة بين التيارين المذكورين كانت، في فترة ما بين الحربين، واسعة وشديدة الحركة والنشاط ذهاباً واياباً.

والتيار الديموقراطي الثوري لم يقتصر في امتداده الفكري على سورية ولبنان فقط، بل انتشر بدرجات مختلفة في الأقطار العربية المتقدمة.

فالشاعر العربي العراقي المعروف محمد مهدي الجواهري ذكر في عام ١٩٧٢ اثناء مقابلة صحفية اسباب انحيازه الانساني المطلق إلى جماهير المسحوقين وانتمائه الشعري إلى «بياض» الناس» كما يحلو له ان يسمي سوادهم. وقد عدد الجواهري بعض الأسباب التي دفعته إلى هذا الانحياز مثل«الضائقة المادية»و«الأزمة الروحية»، ثم انتقل إلى الاشارة إلى المصادر الفكرية التي دفعته في أوائل الثلاثينات إلى الانحياز إلى صف الكادحين. ذكر الجواهري: (١٠٠)

«كنت قد قرأت «ذكرى ابي العلاء» لطه حسين، وكل المترجمات عن الفرنسية خصوصاً، وبقية اللغات عموم. أخص منها بالذكر كتاباً عن نظرية التطور لشبلي شميل. قرأت ايضاً كتاب بندلي جوزي «الامهات عند العرب» وكتابه الآخر «بعض الحركات الفكرية في الاسلام» وجميع كتب سلامة موسى واسماعيل مظهر، والمجلات المصرية الشهيرة كالمقتطف والهلال والمصور والعصور والمجلة الجديدة. ولقد تلقيت الأفكار الثورية لأول مرة عن هذه المصادر، ولكن مصدر المصادر هو آلام شعبي».

---

(١٠٠) انظر المقابلة التي أجراها غالي شكري مع الجواهري في أحد أعداد الطريق لعام ١٩٧٢ وقد سقط رقم العدد من وثائقنا

ان كلام شاهد العيان الجواهري مصداق لما ذكرناه في المقدمة حول المصادر التي استقت منها التيارات الفكرية وهي :

١ ـ الارضية الاجتماعية الاقتصادية .
٢ ـ التراث القومي .
٣ ـ التراث العالمي .

ولعل من المفيد ايضاً لفت الانتباه إلى أثر شبلي شميل المتوفى سنة **١٩١٦** في كتابه نظرية التطور، وبندلي جوزي في كتابه «بعض الحركات الفكرية في الاسلام» المطبوع في القدس سنة **١٩٢٨** في دفع الفكر العربي خطوات إلى الأمام وفي صقل التيار الديموقراطي الثوري وتغذية التيار الماركسي .

وقبل اختتام الحديث عن التيار الديموقراطي الثوري وقبل البدء في الكلام عن التيار الماركسي لا بد من الاشارة إلى أثر القطر المصري في نشر الايديولوجيات المختلفة ومن جملتها الايديولوجية الاشتراكية في سورية . وبما ان الصراع الفكري في مصر كان محتدماً أيضاً بين الاشتراكية وخصومها ، فإن اصداء هذا الصراع كانت تتردد في كثير من الاقطار العربية .

فجريدة «ألف باء» الدمشقية نشرت مثلاً في **٢٣** أيلول **١٩٢٥** ، نقلاً عن الكاتب المصري سلامة موسى ، اخباراً عن الحياة الشخصية لكارل ماركس ، الذي زرع بذور الاشتراكية . وتذكر «ألف باء» أيضاً أن «نشر اخبار ثورة الأمير عبد الكريم (في الريف المغربي سنة **١٩٢٥**) ، وتأييد الشيوعيين (الفرنسيين ع . ح .) كان له أثر لا بأس به ، بالرغم من نشر المقالات المتتالية المعادية للبلشفية والسوفيات .

والواقع ان ردود الفعل ضد بداية انتشار الفكر الاشتراكي كانت كثيرة ولم تقتصر على المقالات التي ذكرتها «ألف باء» . ورد الفعل لا يظهر عادة إلا بعد ظهور الفعل وهو دليل على قوة هذا الفعل .

كان من جملة ردود الفعل المعادية للفكر الاشتراكي والمدافعة عن «رأس المال» كتاب : «الاشتراكية ـ تعوق ارتقاء النوع الانساني» الصادر سنة **١٩٢٧** في مصر لمؤلفه اسماعيل مظهر . ان نشر هذا الكتاب هو احدى ردود فعل القوى الرجعية في

الوطن العربية الخائفة من بداية انتشار الافكار الاشتراكية . هذا مع العلم أن كتابات اسماعيل مظهر السابقة اسهمت في تكوين تيار تقدمي ولكنه في هذا الكتاب ارتد إلى الوراء لاسباب لامجال لذكرها هنا .

الفصل الخامس

التيار الماركسي

ولد التيار الماركسي في سورية ولبنان في نهاية العشرينات وبداية الثلاثينات في احضان التيار الديمقراطي الثوري وترعرع بين جوانبه، ثم سعى بالتدريج للتميز عنه وقيادته. ومعنى ذلك ان الفكر الماركسي لم ينشأ في وسط عمالي - نظرا لجنينية الطبقة العاملة وضعفها - بل نما في وسط بورجوازي صغير ثوري، ذلك الوسط المتأثر بالتراث القومي التقدمي الانساني وباحتدام الصراع الاجتماعي وبافكار الجناح اليساري للثورة الفرنسية، وبمبادىء ثورة اكتوبر الاشتراكية ومنجزاتها الضخمة. وقد أسهم التيار الديمقراطي الثوري بشكل رئيسي في نشر الافكار الماركسية في أوساط بورجوازية صغيرة وعمالية ناشئة على مستوى لابأس به من الوعي، ووضع بذلك اللبنات الاولى لظهور تيار ماركسي مستقل متميز. وخلال عملية تكون التيار الماركسي تطورت عناصر عديدة من التيار الديمقراطي الثوري وازداد وضوحها الفكري وانتقلت بالتدريج منذ بداية الحرب العالمية الثانية ومابعدها إلى المواقع الماركسية. وفي الوقت ذاته انتقلت الى مواقع الماركسية بعض العناصر القومية، على الرغم من وجود أسباب عديدة حدّت من سرعة وعمق هذا الانتقال. كما ظهرت أيضا عناصر ماركسية على اتصال وثيق بالاوساط العمالية واخذت عناصر بورجوازية صغيرة ثورية بفضل الافكار الماركسية تنتقل الى مواقع الطبقات المضطهَدة المظلومة من العمال والفلاحين، كما ان فهمها للانتداب والاستعمار تميز جوهرياً عن فهم العناصر البورجوازية المعادية للاستعمار التي لم تستطع ادراك المحتوى الاقتصادي لظهور الامبريالية.

تميز التيار الماركسي عن الديمقراطي الثوري بالجرأة والاقدام في طرح المشكلات الداخلية والخارجية، كما اتصف بالوضوح الفكري وفي الدخول في صراع مكشوف مع الافكار الاقطاعية البالية والبورجوازية الاستثمارية، على الرغم من ميل بعض

عناصره بعد سنة ١٩٣٦ الى المهادنة مع البورجوازية والى عدم تسليط الاضواء بشكل كاف على الاقطاعية.

قام الماركسيون العرب بنشر الفكر الاشتراكية عن طريق ترجمة بعض المؤلفات الماركسية الصادرة على الغالب في اللغة الافرنسية، أوعن طريق تأليف الكتب والكتيبات ووضع النشرات واصدار وتوزيع المنشورات الشارحة للمبادىء الاشتراكية، أو لطرق الحياة في الدولة الاشتراكية السوفياتية الوحيدة آنذاك.

وليس بين ايدينا إلا كمية ضئيلة من الكتب والمنشورات المؤلفة أو المترجمة، نظراً لأن قسماً منها صدر بشكل سري أيام الصراع ضد الانتداب وتداولته الايدي في الخفاء ولا نعلم ماذا بقي من هذه الكتيبات والمنشورات السرية على قيد الحياة. أما الكتب والمنشورات المطبوعة بشكل علني فإن حالتها أحسن ويمكن الحصول عليها بعد جهود مضنية نظراً لندرتها، اذ ان القسم الاكبر منها التهمته نار «التنانير» والمدافىء أيام العهود الرجعية والارهابية. ولم يبق من هذه المؤلفات والنشرات الموضوعة قبل الحرب العالمية الثانية الا النذر اليسير. وهو يحتاج الى جهود جماعية وأجواء علمية من أجل جمعه وتنسيقه وتحليله وبيان أثره.

وان مانملك، حتى الآن، من المؤلفات الماركسية الصادرة قبل الحرب العالمية الثانية لايتعدى قطرة من اناء مليء بالماء، ومع ذلك فهو يعطينا فكرة عامة عن الموضوعات التي عالجها الفكر العربي التقدمي آنذاك. كما أن هذه المؤلفات أو المقدمات الموضوعة لهذه المؤلفات تلقي الاضواء على مدى فهم الرواد الماركسيين العرب الأوائل للمبادىء الاشتراكية، وتدل على مدى انتشار هذه الافكار وتقبل الفئات الاجتماعية المختلفة لها.

ولابد من الاشارة هنا، الى ان تبني المباديء الماركسية، والاعتراف بصحتها لايعني فهمها جملة واستيعاب سائر مكوناتها وجوانبها المتعددة. فتطبيق مبادىء الاشتراكية العلمية على الواقع العربي، من قبل أناس لايزالون في أول الطريق، لم يكن بالامر السهل. والخطأ والصواب محتمل الوقوع هنا سواء في مجال فهم النظرية أم في ميدان تطبيقاتها العملية. ولذا فإن الخطأ والصواب عند التقييم يجب وضعهما في اطارهما التاريخي، والنظر إليهما بمنظار ذلك العصر انطلاقا من واقع العلاقات

الاجتماعية المتناقضة والظروف العربية والدولية المعقدة والمختلفة.

واذا اكدنا على هذا المقطع فلكي ننبه القارىء وندعوه الى النظر الى التيارات الفكرية عامة، والتيار الماركسي خاصة، من هذه الزاوية، زاوية كون الحياة معقدة تعتمل في احشائها التناقضات المتنوعة وهي في تطور مستمر وتغير لاينتهي. وهذا التطور لاتفصله عن بعضه سدود عالية، بل هو تيار جار متصل الذرات والحلقات. وان التأكيد على هذه الموضوعات ضرورة لامحيد عنها لفهم التيار الماركسي في بلاد العرب بشكل أفضل.

١ ـ مرحلة ماقبل ١٩٣٠

ان مرحلة ماقبل ١٩٣٠ الماركسية هي في الواقع مرحلة التيار الديمقراطي الثوري ذاتها، التي مهدت الطريق أمام التيار الماركسي بعد عام ١٩٣٠. وقد تكلمنا في الفصل الرابع عن التيار الديمقراطي الثوري واطلقنا على سنواته الاولى قبل ١٩٢٨ اسم «مرحلة يزبك»، الذي تأثر بالفكر الاشتراكي عن طريق معرفته للغة الفرنسية. كما ان التيار الديمقراطي الثوري والماركسي في سورية ولبنان تأثر في هذه الفترة تأثراً واضحاً بترجمات وكتابات التقدميين المصريين، الذين كانوا في العشرينات ـ بالمقارنة الى السوريين ـ على مستوى ارفع من النضج الفكري وعلى صلة وثيقة بالفكر الثوري. لهذا فإن تأثيرهم كان ظاهراً في سورية ولبنان وفلسطين والعراق.

كان القطر المصري الموئل الأول للديمقراطيين الثوريين المصريين منهم والسوريين، الذين عبّدوا الطريق امام الفكر الاشتراكي العلمي. ففي مصر حمل في مستهل هذا القرن كل من اللبنانيين فرح انطون والدكتور شبلي شميل لواء الاشتراكية. ودخل الدكتور شميل في معركة كتابية جريئة مع مجلتي الهلال والمقتطف، اللتين كانتا تسفهان اغراض الاشتراكية وتعلنان عن مفاسدها .

وكان سلامة موسى ايضا ـ ورد ذكره في الفصل السابق ـ من أوائل الداعين للافكار الاشتراكية ـ بصرف النظر عن نوعية المفاهيم التي نادى بها. وسلامة موسى هو من الذين اسسوا في مصر الحزب الاشتراكي عام ١٩٢٠. وهو الذي ألف كتاباً عن «الاشتراكية»، اصدرته المطبعة المصرية الاهلية، غرضه «تنوير الرأي العام عن ماهية

الاشتراكية مع بيان اغراض الاشتراكيين في أوروبا وامريكا». وقد طمح سلامة موسى من وراء نشر هذا الكتاب «ان يكون خميرة تختمر بها الافكار الى حين تستعد البلاد للاشتراكية»[١٠١].

دخل ايضا في عداد الرعيل «الاشتراكي الديموقراطي» الأول نقولا حداد صاحب كتاب «الاشتراكية» الصادر سنة ١٩٢٠ عن مطبعة الهلال بمصر. وقد تضمن احد فصول هذا الكتاب بحثاً بعنوان «مصير العالم الى الاشتراكية» دل على مدى ايمان نقولا حداد بالاشتراكية.

جاء في كلمة ادارة الهلال بمناسبة صدور الكتاب مايلي: «قد اصبح للاشتراكية شأن عظيم في حياة الشعوب الغربية ولاسيما بعد الحرب العظمى. فجدير بقراء العربية أن يطلعوا على حقيقة هذا المذهب وقضاياه ومراميه الى غير ذلك من المباحث... ولما كانت اللغة العربية تفتقر الى كتاب في هذا الموضوع طلبنا الى الكاتب...» الكتابة في هذا المجال.

ولكن ادارة الهلال سرعان ماتدفع «التهمة» عنها فتعلن في نهاية كلمتها «وليست غاية الكتاب نشر الدعوة الاشتراكية او الحث على الانخراط في سلك الاحزاب الاشتراكية»[١٠٢].

وقبلا حاول سلامة موسى أيضا دفع «تهمة» تأليف احزاب اشتراكية، اذ قال في فاتحة كتابه «الاشتراكية»: ولست طامحا ان تعد هذه الرسالة دعوة للجمهور الى الاشتراكية ولا ان تكون سبباً في تأليف حزب أو جمعية. ولكني اطرحها أمام الجمهور القارىء عسى أن تكون خميرة تختمر بها الافكار الى حين تستعد البلاد للاشتراكية»[١٠٣].

لم يكن نشاط الديمقراطيين الثوريين لشق الطريق أمام الافكار الاشتراكية محض صدفة، بل أنه كان جزءاً من العملية الثورية التي عاشها العالم في مرحلة بداية

---

(١٠١) جذور الاشتراكية: سلامة موسى ـ نقولا حداد ـ مع مقدمة بقلم كامل أبو جابر. دار الطليعة. طبعة جديدة. بيروت حزيران ١٩٦٤. ص ٩.

(١٠٢) حداد، نقولا: «الاشتراكية». نشرته ادارة مجلة الهلال. مصر مط الهلال ١٩٢٠.

(١٠٣) المصدر نفسه، المقدمة.

غروب شمس الرأسمالية وظهور الثورات الاشتراكية . كما أنه كان ايضا انعكاساً لآلام الطبقات المضطهدة المظلومة ودعوة لتحررها وانعتاها . لقد كان هذا النشاط أيضا صدى لبداية تمايز اليمين واليسار داخل حركة التحرر العربية .

تحت تأثير هذه العوامل وفي مناخ الجو المشبع باخبار ثورة اكتوبر الاشتراكية - بين مؤيد ومعارض - وبالروايات المتعددة المتنوعة حول قائد الثورة لينين، في هذه الظروف صدر سنة ١٩٢٢ في مصر أول كتاب - على مانعتقد - مترجم حرفياً إلى اللغة العربية لاحد كلاسيكيي الاشتراكية العلمية، وهذا الكتاب هو «الدولة والثورة» للينين تعريب احمد رفعت .

صدر كتاب لينين «الدولة والثورة» في مصر سنة ١٩٢٢ بعنوان مغاير للاصل على الشكل التالي :

مذكرات لينين
عن الحروب الاوروبية ماضيها وحاضرها
تأليف
ن . لينين
رئيس الجمهورية الروسية
عربها عن الفرنسية
أحمد رفعت
مصر ١٩٢٢

لماذا لم يصدر الكتاب بعنوانه الاصلي وصدر بهذا العنوان المثير والمغاير لعنوان الكتاب في آن واحد؟

يُعتقد ان الناشر اختار هذا العنوان، في وقت كانت لاتزال احداث الحرب العالمية الأولى طرية في الاذهان، ليثير انتباه القارىء ويدفعه لشراء الكتاب . والمعرب ذاته لم يكن يتحلى بروح طبقية ولم يكن مُعتنقاً للفكر الماركسي، كما لايمكن تصنيفه في عداد التيار الديمقراطي الثوري . ولهذا فإنه وضع عنواناً آخر للكتاب . وكان هدفه

من تعـريب الكتـاب ـ على حد قولـه «وصـل سلسلة المعلومات الاكيدة عن تفاصيل الحرب الكبرى، تلك المعلومات، التي بدأتها بكتاب هندنبرج ثم بكتاب وليم ليكيه عن راسبوتين. . . . »[١٠٤].

فالمعـرب اذن مترجم محترف، قادتـه ظروف مابعـد الحـرب لترجمة هذا السفر الهـام منسـاقـاً في ذلـك وراء رغبته في ترجمة روائع الفكر العالمي، وكذلك انسجاماً مع نزعتـه «الـوطنيـة العثمانية» أو «الجامعة الشرقية»، لأن لينين ـ كما كتب رفعت ـ «العدو الالـد لدول الاستعـمار. فقـد رأيت ان انقل الى جمهورنا هذا الكتاب الذي أودع فيه لينين خلاصة أفكاره التي حملته على قلب كيان دولة الاستبداد القيصري».

اعقب كلمـة المعـرب المؤلفـة من صفحة ونصف كلمة أخرى ـ لعلها للناشر ـ مغفلة من توقيـع كاتبهـا، ولكنها تتصف بالوضوح الفكري. ويظهر ان كاتب الكلمة الثـانيـة، الـذي تعمد اغفال اسمه، كان على وفاق مع الفكر الاشتراكي. ويبدو أنه هو الذي دفع المعرب احمد رفعت لترجمة الكتاب.

جاء في الكلمة المغفلة التوقيع الوصف التالي للينين: [١٠٥]

«لقد خاضت الصحف كثيراً في سيرة لينين واوردت عنه الانباء الجمة لأن من الممكن اعتباره اعظم رجل على وجه الكرة الارضية في الوقت الحاضر».

«لينـين مثـل ماركس ترك المحـامـاة عن الاشخـاص الى مهنتـه الحقيقية وهي المدافعة عن الانسانية المظلومة المضطهدة المعذبة» كما «بدأ الدفاع عن عضو الانسانية المعذب في وطنه وهو الطبقة المستعبَدة من شعبه».

«. . والرجل في مأكله وملبسه ومسكنه ملتزم منتهى البساطة ولا هم له إلا نشر مبـادئـه الحـرة التي ترمي إلى تحريـر العـالم بأسـره من نير الاستعباد وتجعل كل الناس اخواناً متساوين. . ».

---

(١٠٤) مذكـرات لينـين عن الحـروب الاوروبيـة ماضيهـا وحـاضـرهـا. تأليف ن. لينـين رئيس الجمهورية الروسية. عربها عن الفرنسوية أحمد رفعت. مصر ١٩٢٢.

(١٠٥) المصدر نفسه. ص ٤ ـ ٥.

بعـد الانتهـاء من تعـريب كتاب «الدولة والثورة» أفرد المعرب فصلا خاصا من تأليفـه تحت عنـوان «ايضاحات لازمة»[106]. فماذا تحتوي هذه الايضاحات التي كتبها المعرب في ٢٤ يناير ١٩٢٢؟....

١ ـ اذا تركنا الغلاف وعنوانه، الذي ذكرنا اسباب وضعه، فإن المترجم عرّب الكتاب باسم «الحكومة والثورة» بدلا من «الدولة والثورة».

٢ ـ ترجم كلمـة الكـومـونـة بـ «المشـاعيـة». كما ترجم كلمـة الشيـوعيـة بـ «المشـاعية». ومعنى ذلك أن كلمة «الشيوعية» لم تكن متداولة ومستعملة بعد في اللغة العربية. والبولشفية هو الاسم الذي اطلق على الشيوعية آنذاك.

٣ ـ تعـرّض المعـرب لفـريدريك انجلس وكتب اسمه «انجيلس» ومما كتبه عن انجلس أنـه «الصـديق الحميم لماركس واكـبر مؤيدي مذهبه المشاعي».. «وبعد ان مات ماركس تولى انجيلس نشـر آثـار قلمـه واعـاد طبـع مانشـر منهـا». «وقـد ألف انجلس عدة كتب أهمها كتاب «الاسرة النقية».

٤ ـ يتبـين من فصـل «ايضاحات لازمة» ان اصداء ثورة اكتوبر كانت مسموعة في مصـر فـ «المشـارقـة» كما كتب احمد رفعت «اخذوا في كل مكان يترقبون تدفق التيار البولشفي إلى بلادهم لينقذهم من وطأة ذلك الكابوس» أي الدول الاستعمارية.

ولكن هذا الـترقب المشفـوع بالـرجـاء لم يكن عاماً، بل شمل الفئات الوطنية التقدمية في المجتمع، أما القوى الاخرى فلم يكن موقفها موقفاً محبذا، بدليل ماكتبه المعرب: «قامت ضجة في مصر حول البلشفية وتعرض لها بعض كبار المشايخ يعزوها الى أصول لاتنتمي اليها بتاتاً».

ويـرد المعـرب على هؤلاء قائـلا: «غـير أن الـذي يهمنـا الـوقوف عليه هو ان البولشفية ليست ديانة ولا عقيدة وإنما هي مبادىء كمالية ترمي إلى تحسين حالة النوع البشـري فهي ليست سوى المشـاعيـة نفسهـا متجددة في هيئات السوفييت والمجالس التمثيلية الروسية. وباعتبار ان المشاعية أو البولشفية أمنية كمالية يمكننا أن نقول بأنها لاتفسـد الاخـلاق ولا تتعرض للاديان والعقائد مادامت متبعة عند اربابها خاصة أي مادام المسلم يصلي في مسجده والمسيحي في كنيسته والاسرائيلي في كنيسه».

---

(١٠٦) المصدر نفسه، ص ٢٣٨ ـ ٢٥٣.

وفي خاتمة «ايضاحات لازمة» يوضح المعرب هدفه من تعريب كتاب لينين «الدولة والثورة» بالصورة التالية :[107].

«ولنعد إلى ماكنا فيه من أمر هذا الكتاب فنقول أننا أردنا بتعريبه ان يعرف الناس من هو لينين وما هي مبادئه في الوقت الذي تخوض الصحف في امره بخصوص دعوة الدول للحضور في مؤتمر جنوى».

«والذي يهمنا نحن المصريين من محتويات هذا الكتاب هو الوقوف على مختلف الافكار في العالم الراقي حتى لانبقى في مؤخرة الشعوب المستنيرة التي تطلب حقوقها بعقل وعلم فإن أعظم خدمة يمكن تقديمها لابناء الوطن هي تغذية عقولهم بالافكار الحديثة وتركهم يتخيرون الصالح لهم».

ان تعريب كتاب لينين «الدولة والثورة» في مصر سنة **١٩٢٢** يُعد بداية مرحلة جديدة في نشر الفكر الاشتراكي العلمي. فقبل هذا التاريخ كانت تنقل إلى العربية أفكار الاشتراكية الديمقراطية، التي اطلق عليها أيضا البرلمانية. وكانت أفكار الماركسية ترد عرضا كجزء من الافكار الاشتراكية، وأحياناً كثيرة كانت تنقل محرفة مشوشة أو غير مفهومة. وقبل عام **١٩٢٢** لم تكن كتب كلاسيكيي الاشتراكية العلمية معروفة لدى القارى العربي إلا بالسماع[108]. ولهذا فإن تعريب «الدولة والثورة» كان بداية مرحلة جديدة لنشر مبادىء الاشتراكية العلمية وترجمة كتبها ترجمة حرفية.

---

(١٠٧) المصدر نفسه، ص ٢٥٣.

(١٠٨) لعل أول محاولة لعرض مبادىء الماركسية وتاريخها نجدها في كتاب «تاريخ المذاهب الاشتراكية» لمصطفى المنصوري الصادر عام ١٩١٥ في القاهرة. وهو يعرض جوهر الاشتراكية العلمية معتمداً بالكامل على مؤلف انجلز: «تطور الاشتراكية من الطوباوية الى العلم». وعلى الرغم من قيام المنصوري بتعميم الماركسية إلا أنه لم يتخذ هو نفسه مواقف ماركسية. وكان المنصوري يدرك أن ظروف الدعوة للافكار الاشتراكية لم تنضج بعد في مصر. وقد كتب المنصوري عن ماركس عام ١٩١٥ مايلي: «إن كارل ماركس بلا شك هو اعظم دعاة الاشتراكية وأكبر انصارها وهو أول من وضع برنامجاً لحزب اشتراكي، وهو صاحب كتاب رأس المال، وهو الذي وضع قانون الجمعية الدولية» نقلاً عن: ليفين: «الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث في لبنان وسوريا ومصر»، ترجمة بشير السباعي. بيروت ١٩٧٨. ص ٢٧٩.

٢ ـ مرحلة الترجمة (الأولى)

بعد ترجمة الدولة والثورة في مصر، لانعلم، هل عُرّبت خلال العشر سنوات اللاحقة كتب أخرى لكلاسيكيي الاشتراكية العلمية؟ . لأن الكتاب الثاني الموجود بين أيدينا، والذي ترجم بعد «الدولة والثورة» للينين هو «البيان الشيوعي» لكارل ماركس وفريدريك إنجلز المترجم في دمشق سنة **١٩٣٣** من قبل خالد بكداش .

كان تعريب هذا الكتاب سنة **١٩٣٣** نقطة تحول اخرى ذات نوعية جديدة في نشر مبادىء الاشتراكية العلمية في الوطن العربي . لقد تكلمنا مافيه الكفاية عن ظروف نشر كتاب «الدولة والثورة» سنة **١٩٢٢** في مصر وكذلك عن وضع المعرب . ومن خلال دراسة ترجمة الكتابين «الدولة والثورة» و«البيان الشيوعي» تبدو الفروق الجوهرية الشاسعة بين الترجمتين وبين المعربين .

فخالد بكداش كان قد اعلن عن انتمائه الى الماركسية سنة **١٩٣٠** قبل أن يعرب «البيان الشيوعى» بسنتين ونيف . ولاشك أنه استوعب خلال هذه المدة بعض جوانب الماركسية مما مكنه من ترجمة ذلك المؤلف المشهور بامانة تامة في النقل مع تعابير دقيقة مفهومة . وهذه الأمور لم تتسن لمعرب كتاب «الدولة والثورة» في سنة **١٩٢٢** . وبعبارة اخرى ان الفارق الزمني والتطورات الفكرية والاقتصادية والسياسية، التي حدثت خلال احدى عشر سنة جعلت الفرق شاسعاً بين الترجمتين والمعربين .

لقد كانت ترجمة «البيان الشيوعي» بهذه الدقة وهذا الوضوح ثمرة لتطور الافكار الاشتراكية العلمية في الوطن العربي، ودليلاً واضحاً على أن الفكر الماركسي في الوطن العربي قد شق لنفسه طريقاً أصبحت بعض أجزائه معبدة . كما دل على المستوى الفكري الرفيع الذي بلغه رواد الاشتراكية من الرعيل الثاني . (ضمّ الرعيل الأول د. شبلي شميل وسلامة موسى ونقولا حداد وغيرهم) .

إن هذا النضج (النسبي طبعاً) الذي وصل اليه الفكر الماركسي على أرض العروبة سنة **١٩٣٣** يبدو جليا في كون ترجمة خالد بكداش للبيان الشيوعي سنة **١٩٣٣** لاتزال إلى الآن معتمدة من قبل دور النشر العربية، التي أعادت نشر الكتاب أكثر من مرة مع تصحيح طفيف لبعض التعابير والكلمات . أما ترجمة «الدولة

والثـورة» في سنـة ١٩٢٢ فلا يمكن الاعتـماد عليها. ولهذا فإن كتاب «الدولة والثورة» أعيد تعريبه من جديد بعد الحرب العالمية الثانية.

بعد تعريب «البيان الشيوعي» بسنتين صدر في دمشق أيضا كراس لفريدريك انجلس، عبارة عن المادة الخام أو بالاصح التصميم، الذي هيأه انجلس قبل التقائه بماركس لوضـع البيـان الشيـوعي سنـة ١٨٤٧. ولهـذا فيمكننا القول أن اصدار هذا المخطـوط باللغـة العـربية بعد فترة وجيزة من نشر البيان الشيوعي. يعد شرحاً لبعض جوانب البيـان بأفكـار مبسطـة يستطيـع القـارىء العادي فهمها بسهولة. ترجم هذا المخطوط عن الافرنسية مصطفى حسنى (نقولا شاوي) في دمشق سنة ١٩٣٥.

لم يكتب المعـرب مصطفى حسني مقـدمة بقلمه للكتاب، وإنما اكتفى بمقدمة ارسيل أولينه، مترجم الكتاب من اللغة الالمانية الى اللغة الافرنسية. ويذكر المعرب في حاشية الصفحة ١٣ أن «اسم الكتاب الاصلي هو «مبادىء الشيوعية» وقد اسميناه «تعـاليم المـاركسيـة» لاسبـاب فنيـة محضـة تتعلق بمسألتي النشـر والتوزيع»[١٠٩]. لأن الشيوعية كانت لاتزال ممنوعة في سنة ١٩٣٥، ولم يسمح بكتابتها أو التلفظ بها علنا الا بعـد الهبـة الجـماهـير يـة المعـاديـة للاستعمار في شباط ـ آذار من عام ١٩٣٦ والمعروفة بالاضراب الستيني.

٣ ـ سليم خياطة

في النصف الأول من الثـلاثينـات وفي فترة ترجمة «البيان الشيوعي» و«التعاليم الماركسية» برز كاتب عربي لبناني ماركسي الهوى ـ كان من المنادين بالوحدة العربية ـ وعقـد لهذا الغـرض مؤ تمـراً للمثقفين العرب لبحث القضية العربية في معلقة زحلة في اواخـر شتـاء ١٩٣٤. وكـان من الحـاضـرين ميشيل عفلق وصلاح البيطار ومصطفى العريس وكامل عياد ويوسف خطار الحلو. وصدر عن المؤتمر قرار طبع في كراس تحت

---

(١٠٩) انجلس، فريدريك: «تعاليم الماركسية» ـ تعريب مصطفى حسني. دمشق ١٩٣٥. ص ١٣.

عنوان «اتحاد البلدان العربية» كما اقّر فكرة اصدار مجلة[110]. وضع هذا الكاتب عدة مؤلفات تستحق الوقوف عندها طويلاً، لما لها من أهمية تاريخية. . . . هذا الكاتب والمفكر الماركسي هو سليم خياطة.

في سنوات ١٩٣٣ ـ ١٩٣٥ نشر سليم خياطة العربي اللبناني الطرابلسي، الذي قضى ردحا من حياته في أيام الحرب العالمية الاولى مهاجراً في الولايات المتحدة، عدة كتب اسهمت في نشر الافكار الماركسية في المشرق العربي في سنوات العقد الرابع. كان سليم خياطة بعد عودته من المهجر بعيداً عن السياسة قابعاً، كما يذكر عن نفسه ـ في صومعة احلام عاجية، ثم اخذ يُطل على العالم بعين جديدة ولكنه لم يكن يجد قبل سنة ١٩٣٠ «من يقف مع الشعب قائدا ايام المحنة الا شيوخاً ذوي عقلية مستعارة من الحقب الداجية، والا شبابا متدهوراً يتمثل بشيوخ العهد العثماني ويقتبس فكره ـ ان اقتبس فكراً ـ من ثقافة عباسية خليعة أو ثقافة فرنسية تتقاسمها «رومانتيكية» متخنثة و«اكاديمية» يابسة رجعية، والا قبضة من سيدات متبجحات يعتقدون بأنفسهن التقدم وماهن في الحقيقة بأحس حال من اخواتهن الجاهلات المؤودات».

* * *

- ١ -

اطلع سليم خياطة عن طريق معرفته باللغتين الافرنسية والانكليزية وعن طريق نشاط التيار الديموقراطي الثوري وطلائع الماركسيين المحليين على الفكر الاشتراكي. وهذا مادفعه للانحياز الى جانب الطبقات والشعوب المضطهدة والمظلومة. وعندما أتاحت له الظروف القيام بجولة استطلاعية في انحاء اوروبا الغربية والاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الف كتاباً في أواخر عام ١٩٣٣ بعنوان:

---

(١١٠) من مقابلة مع يوسف خطار الحلو في ١٣/ ٤/ ١٩٧٥. وقد نشر الحلو تفاصيل هذا المؤتمر في كتاباته اللاحقة. والمجلة التي تقرر اصدارها في الطليعة.

«حُمَيَّات في الغـرب، جولات، دراسيـة بين صراع الجماعات في العالم الغربي» «رمى من وراء نشـره الى اطـلاع العـرب على قضـايا الغرب نظراً لأهمية الدور الذي يلعبه الغرب على مسرح وجودنا».

في هذا الكتـاب يعلن سليم خيـاطـة صراحة عن تحزبه الفكري فيقول: «فأنا أول مادخلت هذا المسلك اقتحمته بنظرة شرقي يحاول أن يجد في الغرب ذلك الدرس الذي يستفيد منه الشرق ـ الشرق العربي خاصة ـ في عراكه وفي سيره مع الغرب. ان هذه النظـرة بعـين شرقيـة هي التحيـز ـ ان جازت التسميـة ـ الذي لم نستطيع التخلي عنـه. وبعـد هذا، قد لاتكـون اقتنعت مني، فتسألني مرة أخـرى لماذا احشـر نظرات شخصية، وعبارات حارة في ابحاث كان الاجدر بها الا تكون سوى اخبار محض. اما انـا فأجيبـك، بأن عصـر ابن بطـوطـة وابنَ جبـير لم يعـد، بأن العـالم الحاضر شديد التحزب. . ومن لايتحزب، من لايناضل اليوم، قل عليه ألف سلام. أن العالم على مفترق طرق، فاما طريق الى سفر، واما سبيل سوي، نحن ننشد السبيل السوي».

تضمن كتـاب سليم خيـاطـة «حميـات في الغـرب» على مقدمة وعدة فصول: صليبية صهيون، تأملات ومحاورات، فاشستية، فاشستية أيضاً، حطام، مستقبل.

احتلت الابحاث المتعلقة بالصهيونية مكاناً بارزاً من كتاب «حُمَيَّات في الغرب» ومما يسـترعي الانتبـاه في هذا الكتاب التقييم العلمي الواضح للصهيونية ونشاطها. فالصهـاينـة، كما يقـول المؤلـف، غزاة جاؤ وا من كل بقعـة مرتبطون بعروة «فبركتها». شركـة مريبـة، بشبـاك عنكبـوتيـة رميت لتصيـد التـائهـين. والصهيونية ككل حركة استعمارية تنحصر في النقطتين التاليتين:

١ ـ انها آلة بيد الاستعمار لمحاربة نهضة العرب التحررية الوطنية.

٢ ـ آلـة لمحـاربـة أعظم وأقـوى دعـاة ودعـامـة لكـل حركة تحرر وطني تقوم في الشرق، أعني اتحاد الجمهوريات السوفياتية.

ويشـير خيـاطـة الى مقـاومـة الصهيـونيـين لعمليـة اقامة دولة لليهود في اقليم بيرابيجـان في الاتحـاد السوفياتي، فيقول: «بيد أن اليهودية ـ الصهيونية وهي الحركة الرأسمالية، التوسعية، الدينية، المتعصبة ـ لاترى حلما في بيرابيجان، التي يرى اليهود السوفييت في اقامتها مساعدة جلى للعرب في كفاحهم ضد الصهيونية في فلسطين».

ثم يحلل سليم خياطة، بعين ماركسية، طبيعة الصهيونيين اعتماداً على المناقشات التي أجراها سنة ١٩٣٢ مع الضهيونيين وهم «اناس ينطوون على مناحي جمة تجمع بين عجرفة الهوس الوطني Chauvinisme وبين اخلاقية من صميم البورجوازية الاوروبية، أي الطبقة الوسطى، التي تبتدىء بوكيل الدعاوى الصغيرة وكاتب الدواوين وتنتهي بصاحب الملايين. لقد كانوا في اعماقهم وفي واقعهم، من لباب البورجوازية، فكان تخلقهم وتفكيرهم يعبر عن احساس فردي، امتيازي سقيم». وهنا كشف الكاتب العربي الماركسي خياطة عنصرية الصهيونية قائلاً: «كنت اشعر بالاحتقار الذي يبطنون لكل من لايدخل في ملتهم. وكان ازدراؤهم للعرب بليغا، ينظرون إليهم كما تنظر طبقة من الامريكيين إلى العبيد والمهاجرين الذين لايدخلون في العرق الانكلو-سكسوني، أو الأشقر عموماً».

«العربي في مفهومهم شيء بذيء، وحشي، يُشمأز منه. عقيدة شعب الله الخاص عميقة الانغراس في نفوسهم. رؤيا مجد اسرائيل يسكرهم كما أسكر خيال «دوتشلاند فوق كل شيء» وسوبرمان نيتشه أهل المانيا، كما يتهوس لهذه المثالية الممسوخة اليوم محمومو الحركة الهتلرية».

وبعد ذلك يؤكد خياطة على أن الحركة الصهيونية حركة منحرفة ومصطنعة. لأنها تستند إلى اليهودية، وهي دين، ولأن الدين لم يعد باستطاعته ان يكون رابطة في عصرنا العلمي. فالدين، كما يقول عروة قديمة انحلت مع سقوط المقامات الروحية الزمنية، كالبابوية والخلافة.

ويشير خياطة الى الهجمات التي يتعرض لها «الشعب العربي العامل» في سنة ١٩٣٢ وهي ثلاثة:

١ - الاستعمار الانكليزي.

٢ - الرأسمالية الصهيونية.

٣ - الزعامات الاقطاعية، التي تدأب على حفر الهوة تحت اقدام هذا الشعب ونشر غطاء كاذب من القش فوقها.

وتمنى خياطة وجود «شبيبة عربية ثائرة، تدرك واجبها وحقيقة موقف البلاد وتعمل على تحرير شعب فلسطين من نير الاستعمار والرأسمال والاقطاع، يداً بيد مع الفئات التي تناضل لهذا الهدف».

فعلى «الفلاح والعامل وصغار الباعة والشباب المفكر العربي» أن يناضلوا مع «المخلصين لكل الحق، للحق العربي كما للحق اليهودي، للحق الانساني العام».

فمن هم هؤلاء المخلصون؟ هم كما يقول خياطة «الذين وهبوا اليهود مقاطعة بيرابيجان (في الاتحاد السوفياتي - المؤلف) وطناً أكبر من فلسطين جميعاً.. هم الحزب الذي يجمع شتات الطبقات المهضومة والعرب من هذه الطبقة.. ولاشك بأن نجاة العرب الفلسطينيين، في نهاية المرحلة لا تكون إلا بالاشتراك معهم في النضال».

دعا سليم خياطة، كمفكر ماركسي مضطلع في أوائل الثلاثينات على وثائق الحركة الشيوعية، وكإنسان عربي تقدمي زار الاتحاد السوفياتي والغرب، إلى التحالف بين حركة التحرر الوطني العربية والدولة الاشتراكية، ورأى في هذا التحالف الطريق للخلاص من الصهيونية..

هذا اهم ما كتبه سنة **١٩٣٣** المفكر العربي الماركسي اللبناني الطرابلسي في فصلي «صليبية صهيون» و«تأملات ومحاورات» حول الصهيونية. ولكن المؤلف يعود في المقدمة التي كتبها بعد الانتهاء من كتابه «حُمَّيات في الغرب» إلى الحديث مطولاً عن الصهيونية في ضوء ما كتبه وفي ضوء الاحداث وتتبع النتائج المادية للحرب التي شنتها في أوائل الثلاثينات الدوائر الاستعمارية والرأسمالية على فلسطين وسكانها العرب كما يلي:

١ - تفقير الشعب العربي الفلسطيني وتشريد ٤٠,٠٠٠ عائلة من الفلاحين، الذين يبيتون في الطرقات لا مأكل لهم ولا مسكن، بسبب استيلاء المستوطنين اليهود على أراضيهم.

٢ - استخدام الرأسماليين اليهود لعمال يهود دون العرب، واستخدام أصحاب رؤوس الاموال من العرب أنفسهم لليهود بسبب افضليتهم، مما عطل ايضاً، موارد الرزق لعدد يتراوح بين عشرة وخمسة عشر ألف عائلة عربية من سكان المدن.

٣ - استجلاب الاستعمار والرأسمالية اليهودية كميات كبيرة من جماهير اليهود إلى فلسطين بقصد استعمالهم ذريعة لاستعباد الشعب العربي استعباداً مطلقاً يجعل مركزهم في البلاد كمركز اقوام «الهيلوت» من سبارطة، أو كمركز الفلاحين في سوريا من أرباب الاقطاع فيها.

٤ ـ معاندة جماهير العرب لهذا الطغيان وكان رد الفعل شديداً تجسّد في المظاهرات الاخيرة التي عمّت مدن فلسطين، والتي جابهها الاستعمار الانكليزي ـ الصهيوني بفظاعته المعروفة، بحيث انتهت مظاهرات العرب السلمية إلى وقوع عدد كبير منهم قتلى، وإلى وقوع جرحى يعدون بالمئات.

استنادا إلى هذه الوقائع المذكورة في المقدمة أجرى المفكر العربي الماركسي سليم خياطة الداعي إلى «التآخي والاتحاد بين الشعوب والطبقات المهضومة» المضطهدة، بعض التعديلات الطفيفة على آرائه المتعلقة باسلوب مقاومة الصهيونية. ففي فصلّي كتابه:

«صليبية صهيون» و«تأملات ومحاولات» نصح المؤلف جماهير العرب بمشاركة العناصر اليهودية التي تقاوم الاستعمار. أما في المقدمة فقد قلب الآية ودعا الجماهير اليهودية إلى مشاركة العرب في النضال ضد الاستعمار. «لأن اساس المقاومة يجب ان يكون العرب، ولأن العرب هم المستثمَرون استثماراً مطلقاً، بينما الطبقة العاملة من اليهود تكاد تكون، بالنسبة إلى سواد الشعب العربي، من البرجوازية الصغيرة. زد على ذلك ان اليهود ككل، عبارة عن جنود للاستعمار، يقومون بوظيفة آلة له. وكما ان وجود افراد أو فرق في الجيش تقاوم الجيش وتحاربه وتحارب فكرة الحرب نفسها، لا يعني بأن الواجب على الجماعات التي تعتنق وتعمل لنفس الغاية، والتي هي خارج نطاق الجيش، ان تلتحق بعناصر المقاومة في الجيش وتكون تابعاً لها، كذلك وجود عناصر يهودية طيبة تقاوم الصهيونية لا يعني ان المقاومين الاصليين يجب ان ينضموا إليهم. على هذا نجد ان كلمتنا (والكلام لسليم خياطة) تنقلب، الآن، من دعوة جماهير العرب للانضمام إلى صفوف المقاومين من غير العرب، إلى نداء لهم بمعارضة الاستعمار والصهيونية وحلفاء الاستعمار من زعماء العرب مباشرة. أما العمال اليهود الذين تستثمرهم الصهيونية والاستعمار، فإننا ننتظر منهم الدخول في المقاومة العربية، لأن ذلك في صالحهم. يجب ان تعلم العناصر اليهودية العاملة والثائرة والمقاومة للصهيونية، ان تحررها الاجتماعي لا يتم إلا بتحرر وطني تناله فلسطين كبلد عربي أولاً. هذا، ونعتقد بأن الفئات الثائرة بين اليهود، إذا كانت مخلصة حقيقة في مقاومتها للاستعمار والصهيونية، وإذا كانت غير دجالة مفسودة، نعم نعتقد، بأنها يجب عليها، لتحقيق فكرتها البعيدة، ان تنضم تحت لواء المقاومة العربية، بل وجوب

اصطباغها بصبغة عربية خالصة».

لم يكن موقف سليم خياطة من الصهيونية إلا صدى للفكر الماركسي اللينيني، الذي دخل منذ ان ظهرت الصهيونية في صراع عنيف معها. ويبدو واضحاً ان خياطة كان مطلعاً على مختلف جوانب هذا الصراع، وهو يرى في الصهيونية آلة لمحاربة أقوى دعامة لحركة التحرر الوطني وهو الاتحاد السوفيتي. ويروي خياطة أدق التفاصيل عن هذا الصراع مثل قيام دوراً كابلان اليهودية الصهيونية، التي حاولت أن تلعب دور شارلوت كوارداي، قاتلة مارا، باطلاق الرصاص على لينين زعيم الثورة مما عجّل في موته. ولا شك بان خياطة كان قد اطلع على الكتاب المفتوح للجنة التنفيذية للأممية الشيوعية في ٢٦ تشرين الثاني ١٩٣٠، الذي ورد فيه[١١١] «الصهيونية هي التعبير عن الجهود الاستثمارية والاضطهادية القوميةَ للبرجوازية اليهودية، التي تستغل اضطهاد الاقليات القومية اليهودية في شرق أوروبا لفرض السياسة الامبريالية الرامية الى تأمين سيطرتها». ولا بد ان يكون خياطة قد قرأ ايضاً نشرات الحزب الشيوعي الفلسطيني سنة ١٩٣١، التي رأت في الصهيونية الفصيلة النضالية للإمبريالية، التي تقوم بكفاح إبادة استعماري ضد الجماهير الكادحة المحلية. ونشرات الحزب الشيوعي الفلسطيني في سنة ١٩٣١ تشير أيضاً إلى ان الصهيونية المتحالفة مع الامبريالية البريطانية تحولت «إلى اداة للإمبريالية البريطانية تستخدمها للقضاء على حركة التحرر القومية للجماهير العربية. وفي الوقت نفسه، فهي ذاتها تصنع اداة من السكان اليهود في فلسطين، بما في ذلك المراتب شبه ـ البروليتارية والبروليتارية»[١١٢].

من خلال ما تقدم يتبين ان المفكر العربي سليم خياطة استقى معلوماته عن الصهيونية من أدبيات الفكر الماركسي ومن نشرات الأممية الشيوعية واحزابها المحلية، كما ان دراسته العملية للصهيونية عن كثب اعانته في اطلاق الاحكام الصائبة عليها.

---

(١١١) انظر: «الاممية الشيوعية والثورة العربية، وثائق ١٩٣١» ـ ترجمها الياس مرقص. بيروت ١٩٧٠.

(١١٢) انظر النص الكامل لوثيقة ممثلي الحزبين الشيوعيين السوري والفلسطيني في: Internasionale presse Korresbondans, Nr. 1, 1933/1 Yanuar, S.23 ff. الطبعة الالمانية. انظر الطبعة العربية في ترجمة مرقص، المصدر السابق. ص ١٥٩.

وتتمتـع كتـابـات خيـاطـة حول الصهيـونية **باهمية تاريخية** فائقة لكونها فضحت طبيعة الصهيونية ومراميها في وقت مبكر ومن وجهة نظر طبقية وأممية لا يرقى الشك إلى كونها معادية للصهيونية.

وخيـاطـة نفسه يعلن صراحة عداءه للإضطهاد السامي وقد وصفه بأنه «اخبث واسخف ما يمكن ان يوجد في هذا العصر، وهو عمل همجي، وواجب على كل ذي انسانية، وفهم سليم لمصلحة شعوب الدنيا جميعاً، ان يقاومه». ولكن خياطة قام في الـوقت نفسـه بفضح من يحاول من الصهاينة استغلال المشاعر النبيلة المناهضة لشعار العداء للسامية قائلاً: «على أن ذلك لا يعني اننا نرضى لحركة نبيلة كهذه ان تنقلب إلى آلة استعمارية تندس لتحريكها اصابع متلاعبة».

هذا هو المفكـر المـاركسي سليم خيـاطـة، الـذي نشـط فكـريـاً في منتصف الثـلاثينـات وتطرق لجملة قضـايـا كانت تهم العـرب وفي طليعتهـا مسألـة الغـزو الصهيوني. ولكن ما كتبه خياطة عن الصهيونية لم يكن إلا غيضاً من فيض مما كتب. فلنبدأ الآن باستعراض الأمور الاخرى التي تطرق لها خياطة.

مع ان الحـديث عن الصهيـونيـة احتل مكاناً بارزاً من كتاب خياطة «حميات في الغـرب»، إلا ان الحديث عن الفاشية تضمن أيضاً فصلين كاملين بحث فيهما المؤلف مختلف القضايا. ولم يقتصر حديث خياطة في هذين الفصلين على الفاشستية فقط، التي سعى جاهـداً لفضـح مآربهـا ومـراميهـا بكل ماأوتيَ من مقدرة، بل تطرق لأمور هامة كثيرة كان من أهمها الأمور التاية:

١ ـ **السخـريـة من الصحـافـة البورجوازية الاميركية**، التي تزور الأخبار أولا تنقلها على حقيقتها.

٢ ـ **كشف عورات «النظام البورجوازي وهو في الواقع نظام زوجات بحالة الشيوع»**.

٣ ـ **التطورات التي تطـرأ على تفكـير وسلوك بعض الشخصيات البارزة**، التي تبـدأ بدايـة حسنـة وتنتهي نهايـة سيئة. فموسوليني مثلاً الذي عارض في سنة ١٩١١ ارســال حملة إلى طرابلس الغــرب، اصبـح فيـها بعـد مضطهـد طرابلس ومن كبـار المستعمـرين. كتب خيـاطـة تعليقـاً على تطـور موسـوليني العكسي ما يلي: «لم يكن موسوليني الاشتراكي، في الواقع، إلا جاهلاً لتعاليم الماركسية التي كان يدعيها...

وما كان يعرف من المبادىء التي يدعيها ازيد بكثير من حمل رسم ماركس في جيبه. كثيرون ممن عرفوا من الثوريين ابتدأوا على هذا الشكل. ثم ما لبثوا ان انتهوا إلى واحد من امرين: اما إلى تثلج كتثلج الميت، وإما الى حرارة معاكسة، عدوة على طول الخط للحرارة الاولى».

٤ - **الهجوم المكشوف على «الاشتراكية الديموقراطية»**، التي قدمت للفاشستية المادة والزاد للتغرير بالطبقة العاملة.

٥ - **تحليل التطورات، التي طرأت على المسيحية والاسلام**. ولا شك بأن هذه الشروح لم تكن من بنات أفكار خياطة وحصيلة لجهده الفكري، بل هي ثمرة جهد ودراسة مؤرخين عرب تقدميين مختلفين اخذ عنهم خياطة ومنهم بندلي جوزي (من القدس) صاحب كتاب «من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام» المطبوع سنة ١٩٢٨. وسنورد فيما يلي بعض المقاطع التي كتبها خياطة سنة **١٩٣٣** حول المسيحية والاسلام، لنتبين مدى الجرأة التي تمتع بها، ولندرك إلى أي درجة وصل التحليل الطبقي التاريخي لدى المفكرين العرب التقدميين.

كتب خياطة: «ظهرت المسيحية في البدء عند الفقراء، وكانت روحها تمثل ثورتهم بمن فيهم الارقاء والمتشردون و«الجلاد يتوريون» والقيان وبنات الهوى الخ... لكن لما استطار شرها، ولم يعد في متناول الطبقات الرفيعة القضاء عليها بمجرد الركون إلى المذابح و«الآرينات» صادقتها واندست فيها وقلبتها إلى حركة يتقدمها الزعماء والكهان والقياصرة، ويديرونها لمصالحهم فسمموا الثورة بذلك. أما المسيح، هذا الشبح البعيد، فقد جعلوا منه زعيماً مقدساً سكبوا عليه فيضاً من الغيبيات والخزعبلات، فلحقتهم الجموع وهي تظن انها تلحق بعيسى بن مريم».

أما المثل الثاني، فهو حركة الاسلام في بدء نشوئه. ويلاحظ خياطة أن ما اعترى الاسلام هو نفس ما حدث للمسيحية، إلا أن الفترة كانت أقصر وذات ظاهرة غريبة. «فالحركة الثائرة في جزيرة العرب لم تلبث ان انقلبت في بضع سنوات، ضد الطبقات التي خرجت منها وقامت على اكتافها. اعني الارقاء، الأقليات المضطهدة، جماهير الفقراء، النساء، الشبان، المفلسين الخ... وكان ذلك لمّا اعترى العناصر الرجعية الارستقراطية والمالية، وهم سادة وتجار مكة وسواها، تخوف من هذه الحركة اندفعوا إلى الدخول في الاسلام واستلام مقاليد الامور وتوجيهها في مصلحتهم

الطبقية وحدها».

انهى خياطة كتابه «حميات في الغرب» بفصل «مستقبل» المليء بالتفاؤل والتشاؤم في آن واحد. فهو ليس متفائلاً من ان الجزء الثاني من كتابه سيتاح له الظهور، لأن «الوقت يطير والحرب قد تندلع بعد اسبوع اوبعد شهر أو اقل او اكثر»، «وستسود الفوضى ثم تندلع الثورة وتوضع اسس العالم الآتي تحت رماد العالم الحاضر» وعلى الرغم من انتصار الفاشستية في ايطاليا والمانيا فإن خياطة كان متفائلاً بانقراضها فهو يختم كتابه بما يلي: «في ايطاليا، هذا اليوم، رغم الاضطهاد، توجد الجمعيات الانقلابية التي يخبرنا التاريخ ان الثورات دائماً تكون من ثمارها... سجون الفاشستية تمتلىء بالثائرين... ان المستقبل لغير الفاشستية. فلنتوجه شطر غيرها».

* * *

- ٢ -

كان تشاؤم سليم خياطة وخوفه من اندلاع حرب عالمية ثانية في خاتمة كتابه «حُميات في الغرب» الصادر عام ١٩٣٣ في بيروت له ما يبرره في أعقاب الأزمة العامة للرأسمالية وبعد انتصار الفاشستية في المانيا. وهذا ما دفعه إلى تأليف كتاب جديد انتهى من تأليفه في تموز ١٩٣٤ بعنوان ذي مغزى: «**على أبواب الحرب**».

في هذا الكتاب يصور خياطة مشاعر الناس ويعكس احاسيسهم في منتصف عام ١٩٣٤ «.. من الناس من ينتظر الحرب، ومنهم من ينتظر الثورة أو المجاعة، وآخرون يبشرون بالقيامة، أما عن جنون اوعن خبث دفين. في كل مكان أيضاً بطالة وجوع ومنافسة ومعاركة من كل شكل ونوع».

ويتساءل الكاتب العربي التقدمي سليم خياطة عن «القوى الاقتصادية التي تحرك عالم اليوم»، وعن اسباب «الفواجع التي تهدد كل واحد منا بالقضاء عليه، باستعباده، بتحقيره، بامتهانه، بتمزيقه كالخرقة لا أكثر». ويجيب خياطة عن هذا التساؤل بان «المجتمعات، حتى عام ١٩١٧ يوم خليقة أول مجتمع اشتراكي على انقاض روسيا القيصرية، ركبت من افراد يحيون من انتاج افراد آخرين عن طريق

الاستيلاء على ذلك الانتاج بوسيلة من الوسائل **«المشروعة» أوغير المشروعة، ومن** جماعات تحصل على مطاليبها وما فوق مطاليبها بوجودها عالة على **جماعات اخرى** وباغتصابها واستثمارها لمطاليب هذه».

ويتسأنف خياطة قائلاً: «**بأن الانقسامات الطبقية التي كان أول من بينها بوضوح العالمان الالمانيان العظيمان ماركس وانجلز، هي اساس جميع الانقسامات والعداوات الاخرى**». وهذه الانقسامات وريثة العداوات المادية وهي التي تولد النضال بين الطبقات: الاقطاعيين والفلاحين، الرأسماليين والعمال. وبعد انتقال الجمعية الانسانية من الاقطاعية إلى الرأسمالية «لم يتغير شيء... فبعد ان كان السيد سيداً لأنه كان يملك ارضاً وفلاحاً ويستغلهما، أصبح السيد سيداً لأنه صار يملك فبركة وعاملاً ويستغلهما... فالتنافس الفردي بين الاسياد ما يزال موجوداً، والتنافس بين الاسياد كطبقة وبين مأجوريهم ما يزال موجوداً».

في كتابه على ابواب الحرب تبدو واضحة مشاعر عربي تقدمي زار البلدان الرأسمالية في الأشهر الاخيرة من الأزمة العامة للرأسمالية (**١٩٢٩ - ١٩٣٣**) وكتب ما جاش في خاطره مردداً اصداء ازمات النظام الرأسمالي في الغرب. وهذا الوصف الذي كتبه خياطة يثبت ماأكده في مقدمة كتابه «حُمّيات في الغرب» بأنه ينظر إلى الأمور من وجهة نظر شرقية، أي من منطلق المضطهدين والمستثمَرين، وهو لا ينسى طبعاً الحديث عن الشرق المستعمَر المهان الجائع. فكتاب «على أبواب الحرب» الصادر في سنة **١٩٣٤** وصف لحالة الشرق كما هو وصف لحالة الغرب... فلنر ماذا كتب:

«كل سوري مظلوم يشعر بالكثير مما نعد ونصف. وهل سوريا الا ضحية واحدة من ضحايا الرأسمال والاستعمار.

إن كل شرقي لمستعمَرٌ. ان كل شرقي يتعب ويكد ليقدم اللذة والرفاه والسيطرة لغني ينتن دمه في مونتي كارلو أو شواطىء الريفيرا أو فلوريدا.

الشرق الذي يُنهب ويداس على أجداث ملايينه. في هذا الشرق الذي يئن، الذي يُسلَق ابناؤه الصينيون في مراجل قاطرات السكك، الذي يُبصق على جثث هنديه وصيني هنديه بعد ان ينزلوا عن أعواد المشانق، ثم يذروا التراب عبرة لجماهير الناظرين المظلومين، في هذا الشرق الذي يشقى مصريوه كما يشقى الامساخ، الذي يلعب بعربييه كما يلعب بالديكة، لكن لعباً دمويا، بسورييه وعراقييه وفلسطينييه

الذين يربطون إلى نير الاستعمار ليحرثوا أرضهم له ثم يجازون بالرصاص إن أنّوا، الذي تغرق جماهيره من بيروت إلى شانغهاي، في بحور من سموم الاستعمار، في االمخدرات والجرائم والفقر والمجاعة والدم».

رمى خياطة من وراء تأليف كتابه «على أبواب الحرب» في سنة ١٩٣٤ إلى فضح الرأسماليين تجار الحروب، الذين يدفعون بالبشرية إلى اتون حرب عالمية ثانية، كما هدف إلى كشف الظلم الاجتماعي، الذي تعانيه الجماهير العمالية في البلدان الرأسمالية والشعوب في البلدان المستعمَرة. وقد اراد ايضاً تحذير قراء العربية من الحرب المقبلة، التي تسهم الفاشستية اسهاماً قوياً في اشعالها. فهذا موسوليني كتب بقلمه في كراس من كتب الأطفال التي درست في ايطاليا تحضيراً لهم للمجزرة، قائلاً: «يجب ان تعشق البندقية، وان تعبد المتراليوز، وان يكون صديقك الاصدق خنجر الى جانبك!».

وقد كان خياطة في سنة ١٩٣٤ متشائماً ومعتقداً بأن المذبحة على الابواب، وبأن الشعوب ستكون طعاماً للحرب المقبلة. وبعد ان ذكر خياطة احوال الشعوب في شرق الأرض ومغربها انتقل إلى وصف «البؤس الفظيع الذي يدفع الجماهير السورية نحو هاويات الجوع والانتحار، الذي يدخل الانحلال على القبائل ويدفع الألوف من ابناء القرى إلى الهرب منها والهجوم إلى المدن. ان الضائقة الماسكة بخناق الجميع الا فئة ذليلة من اصحاب رؤوس الاموال والاقطاعات، ان الاستيلاء على اموال البلاد وجميع ابواب دخلها ورفع الضرائب المضنكة، ان العمال العاطلين بالألوف وتوقف حركة اشغال الطبقة المتوسطة الصغيرة واصحاب المهن الحرة، ان ازدياد عدد الشحاذين وجميع انواع العاهات الانسانية، كل هذا سببه استعمار الرأسمال الغربي من جهة، والاستعداد الاستعماري للحرب «المقبلة» في هذه الربوع الآمنة من جهة أخرى». وفي رأي خياطة فان اموال الشعب «تذهب إلى بالوعتين: البالوعة الأولى هي جيوب الرأسماليين بوجه عام، والثانية هي جيوب «تجار المدافع» الذين يجنون الربح الطائل من أموال الشعب السوري» ثم يقول: «أليس كل سوري يدرك ان المرافىء ومحطات الطائرات، السكك والطرق، المعاقل والتحصينات

والثكنات تبنى استعداداً» **للحرب المقبلة**».

انتهى خياطة من كتابه «على ابواب الحرب» في تموز **١٩٣٤** أي قبل سنة من انعقاد مؤتمر الأممية الشيوعية (الكومنترن) السابع (تموز - آب **١٩٣٥**)، الذي عدل في خطة الاحزاب الشيوعية ودعا إلى وحدة جميع القوى المعادية للفاشستية ووضع امام الاقطار المستعمرة واجب تأليف جبهة ضد الاستعمار لتناضل نضالاً مستمراً في سبيل استقلالها وحريتها، وفي سبيل تأليف جبهة عالمية للنضال ضد الفاشستية. ومن المعلوم ان خطة الاممية الثالثة أي الكومنترن لم تكن على هذا الشكل قبل مؤتمر عام **١٩٣٥** أي قبل تفاقم خطر الفاشستية والحرب. وكانت المعركة حامية الوطيس بين الامميتين الثانية والثالثة، أي بين الاحزاب الشيوعية والاحزاب الاشتراكية الديموقراطية. ولهذا فان سليم خياطة الماركسي نصير الاممية الثالثة حمل، كما رأينا أيضاً فيما مضى، حملة شعواء ليس فقط على الفاشستية، التي صرح زعيمها موسوليني بأن «التاريخ يعلمنا ان الحرب هي الظاهرة التي ترافق نمو الانسانية»، بل حمل ايضاً وبعنف على «الاشتراكيين الديموقراطيين» «الذين يغررون بالطبقات العاملة وجماهير المظلومين في العالم باسم الاشتراكية. فالاشتراكيون - الديموقراطيون» كما يذكر خياطة في تموز **١٩٣٤** «يقولون انهم للسلام، لكنهم غير صادقين، اليسوا هم الذين مشوا إلى الحرب الكبرى قبل غيرهم؟ ...» وهم الذين تلاعبوا بالجماهير لاستغلالها «في سبيل البرجوازية الرأسمالية».

انطلاقاً من ذلك ومن موقف الأممية الشيوعية المنعزل المنكمش على نفسه، قبل تفاقم خطر الفاشستية والحرب فان نصير الاممية الثالثة المفكر العربي سليم خياطة كتب بأن «الحزب الشيوعي، هو الحزب الذي برهن في كل اطواره وتجاربه انه وأعضاءه ومحبذيه لمن خيرة الادمغة البشرية المصلحة، ويشكلون العناصر الوحيدة المخلصة في قيادة الجماهير لتحقيق امانيها ولمحاربة الحرب».

بالاضافة إلى الشيوعيين اعتقد خياطة بأن «اتحاد الجمهوريات السوفياتية، عامل دولي هائل ضد الحرب». «ان من يوقف الحرب» كما كتب خياطة «ارادة مئة وسبعين مليون انسان هانىء مجد، يعيشون في نظام اشتراكي وعدل اجتماعي. يُضافُ إليها ارادة مئات الملايين من ابناء الطبقات العاملة والشعوب المستعبدة في كل انحاء العمورة». وهنا يعود سليم خياطة متفائلاً مرة اخرى مؤمناً بقدوم «فجر

الاشـتراكيـة» بعـد «تهشيم رأس الحيـة» ثم ينهي كتـابـه قائـلاً : «بيـد ان ذلك العالم الجميل، الذي لا حرب فيه والذي تكلمنا عنه بحب عميق، لا طلوع لفجره الرائع قبل المعركة الفاصلة، قبل النضال الحديدي الذي يحوّل الحرب الاستعمارية الكبرى ثورات تنبثق منها الخطوط الأولى لذلك العالم».

* * *

- ٣ -

في ٢ تشـرين الأول من عام **١٩٣٥** اجتـاحت الجيـوش الفـاشستيـة الايطالية أراضي الحبشـة لاستثـمارهـا واستعبـادهـا. فهب الشعب الاثيوبي للدفاع عن ثرى وطنه، وايدته الانسانية التقدمية في نضاله العادل. ولكن الشعب الاثيوبي الاعزل لم يستطـع الصمـود طويـلاً أمـام جحـافـل الجيوش الفاشستية البالغ عددها مئتي ألف والمسلحـة تسليحـاً حديثـاً، فانهـارت المقاومة بعد ستة اشهر واحتل الغزاة الفاشست اديس أبابا في **٥** أيار **١٩٣٦**.

اثناء الغزو الفاشستي الموسوليني للحبشة كان سليم خياطة المعادي للإمبريالية والرأسمالية والفاشستية مبعداً بسبب نشاطه الفكري والسياسي عن «بلدان الانتداب الفـرنسي» سوريـة ولبنـان، إلى فلسطـين. هناك هزته انباء الغزو الفاشستي للحبشة وأثـارت فيـه الحَمِيَّـة الأممية والشرقية لمقاومة الغزو الفاشستي والاسهام في فضح مرامي الفـاشستيـة، التي كانت تجد لها بعض الأنصـار والمؤيدين من المخدوعين المضللين أو من الـذين باعـوا «أوطـانهم في أسواق المزاد العلني الدولية». فالحوافر الاممية والشرقية مضـافـاً إليهـا الـرغبـة في كشف الحقيقـة امـام قراء العـربية وإزالة الغشاوة عن أعين المخـدوعـين بالفـاشستيـة من العـرب دفعت بسليم خيـاطـة العـربي المكـافـح ضد الامـبريـالية والفاشستية والرأسمالية إلى تأليف كتاب جديد وهو في المنفى في فلسطين انجـزه على عجـل في ١٢ كانـون الأول **١٩٣٥** بعنـوان: «**الحبشة المظلومة، او فاتحة آخر نزاع للاستعمار في دور انهياره**»[١١٣].

---

(١١٣) خياطة سليم: «الحبشة المظلومة، أو فاتحة آخر نزاع للاستعمار في دور انهياره» - بيروت ١٩٣٥.

في مقدمة هذا الكتاب يخاطب خياطة صديقاً له بعبارة «أيها العربي العزيز المناضل مع عصبة الثائرين لتحرير شعبك مع شعوب الأرض بأجمعها»، ثم يقول:

«يا صديقي!

طلبتَ مني أن أسافر إلى بلاد الحبشة لأدرسها وانور شعبي العربي المظلوم عن قضية اخوان لهم . . . وجئتك وجئت شعبي بهذه الصفحات. انها اوراق سوّدت في ليالي أرق العالم في هذه السنة، هبطت عليّ من وحي الاشتراكية ونهضة الشرق العظيمة، من وحي ماركس ونضال الحبشة ضد الرأسمال الغربي».

وقد افصح خياطة عن غرضه من تأليف كتاب «الحبشة المظلومة» وهو الدراسة والفهم العلمي الصحيح فيما «سماه المعلمان الكبيران ماركس وانجلز «بقانون حركة المجتمع»، ثم افهام ما أدركه هو لاخوانه.

لم يكن خياطة في كتابه الجديد «الحبشة المظلومة» متشائماً كما هو الحال في كتبه السابقة المصطبغة بصبغة تشاؤمية. فخياطة مؤلف كتاب «الحبشة المظلومة» في سنة ١٩٣٥ يبدو اكثر تفاؤلا على الرغم من كونه مبعداً عن وطنه لبنان كما هو واضح من المقدمة: «فاعلم أنني فرح رغم عميم الشقاء، فرح لأني أرانا نسير إلى الامام بأسرع مما نتصور ونشعر، بل لأني أتبين «الأمام» وهو يكاد يأتينا من نفسه من شدة ما نبدو له كسالى!».

لقد كان تفاؤل المفكر العربي التقدمي سليم خياطة في محله على اعتاب النهوض الجماهيري المعادي للاستعمار في كل من سورية وفلسطين ومصر وعلى أبواب قيام الجبهات الشعبية في أوروبا الغربية، تلك الجبهات التي دعا إلى تشكيلها المؤتمر السابع للكومنترن (الأممية الثالثة) في تموز ١٩٣٥. واسمع الآن إلى خاتمة مقدمة كتاب «الحبشة المظلومة» المكتوبة في ٢ ديسمبر ١٩٣٥:

«اهدِ ابناء الحبشة في الجنوب والاخوان في الشمال سلامي وصفحاتي! قل لهم ان قلبي وقلوب الملايين ترافقهم وتحارب معهم ضد العدو البربري المشترك. بلّغهم الخبر اليقين من اننا جميعاً نواصل العمل في هذه الجبهة المتحدة التي ستنتهي، آجلاً غير بعيد ان لم يكن عاجلاً، إلى انهيار الرأسماليات الآكلة من بعضها، إلى التئام أول مؤتمر عالمي يضم مندوبي مجالس الشعوب المتحررة إلى تحقيق اعظم حلم لأول مؤرخ متمدن، يوم رأى عصر الاشتراكية محتوم المجيء رؤية نبوية من خلال مخاض

القرن التاسع عشر ودخان آلامه وسواد احتراقه بين دواليب الصناعة الرأسمالية يوم صاح: «يا عمال العالم اتحدوا».

يا عمال الخير والفضيلة الانسانية في كل مكان، اتحدوا! ضموا الصفوف وهبوا إلى الامام نمنع الاشرار من استعمال اسلحتهم الجهنمية! بل نستعملها نحن ضدهم.

لا فُض فوه لآباء وامهات أولادهم اعزاء على قلوبهم فيقولون، اللهم اهلك الكافرين بالكافرين» . . . ولا يخفى ان خياطة يقصد بهم اؤلئك الفرحين بالحرب او المنادين بالحياد من الفئات التي تنظر إلى الامور العامة نظرة دينية منغلقة جامدة بعيدة عن روح الايمان الصحيح بحجة ان الطليان والاحباش لم يكونوا من المسلمين.

عندما راجع سليم خياطة تاريخ بلاد الحبشة وجده شبيهاً في خطوطه العامة بتاريخ كل أمة. واهم نواحي التشابه بين تاريخ الامم هو كثرة النكبات التي تصيبها، سواء كانت من الخارج او من الداخل، من أهوال الطبيعة أو من نظام المجتمع. وهنا ايضاً يؤكد خياطة على ان فهم الاحداث التاريخية لا يتم إلا بفهم الحقائق الاساسية المبنية على «قواعد النضال الطبقي، وعلى المحور الاقتصادي الذي دار ويدور عليه هذا النضال» وهذه الحقائق لا تظهر جلية إلا في «ضوء طريقة المادية التاريخية» في البحث. وهي في رأي خياطة الطريقة الوحيدة السليمة لفهم حوادث المجتمع ومعرفة اسباب تقدمه وتقهقره.

بعد استعراض التاريخ ومآسيه انتقل خياطة إلى بحث شؤون المستقبل وتعليل اسباب تعاطفه مع الحبشة المظلومة فيقول: «اعتقد بانه يحق لي كشرقي متعرض لعبودية الاستعمار، وواقع مع قومي في نفس الفخ المنصوب لاخواننا اهل الحبشة» . . . ان ادراكنا لهذه الأمور ادراك اهالي الحبشة له يعيننا «على نوال الحرية والسير في معارج التمدن الاشتراكي الصادق والتنعم بعدله وبحبوحته». كما ان الرابطة بين الاحباش والعرب في رأي خياطة قوية عن طريق «الدم واللغة والاخلاق والعقلية . . . بل انهما شعبان نبيلان تجمعهما مصائب الماضي والحاجة إلى السلام والتضامن في سبيل تكسير انياب الاستعمار المكشرة».

قبل ان ننتقل إلى تقييم سليم خياطة ووضعه في الاطار التاريخي، لا بد من ايراد رأي خياطة في التغرب، أي موقفه من التقدم العلمي التكنولوجي في الغرب، في

معرض حديثه عن مقاومة العرب للغزو الصهيوني في كتابه «حميات في الغرب». كتب خياطة:

«ان تغرب العرب من نفسهم معضلة لاتنحمل، في رأينا، إلا **بانفكاك وثائق** الاستعمار، كما وان الاستعمار عقبة لا يقضى عليها بغير التغرب. ولأجل التوفيق بين حل المشكلتين والسير بهما نحو الهدف المنشود جنباً إلى جنب، تلزم البلاد العربية فئات قائدة غير التي تعرفها .تلزم (قيادة) **دفتها عناصر جديدة تخرج من قلب الشعب وعقل الغرب**».

* * *

- ٤ -

لا ريب في ان كتب خياطة اسهمت في نقل بعض المفاهيم الماركسية إلى القراء العرب وساعدت بذلك على تنوير عدد من المثقفين اوممن يعنيهم الامر من غير المثقفين، في وقت كانت فيه الكتب الماركسية المترجمة نادرة في العربية، وفي الوقت الذي حرفت فيه الافكار الماركسية عن طريق المؤلفات والكتابات البرجوازية، التي لم يكن لها طبعاً مصلحة في نشر حقيقة الماركسية، حتى لا تستنير بها الجماهير وتتخذها سلاحاً ماضياً في نضالها ضد مستثمريها ومضطهديها.

وبعد فما أهم الامور والقضايا التي ذكرناها قبل قليل والتي تطرق إليها خياطة وعالجها بفكر ماركسي وعين شرقية وعقل غربي وجرأة نادرة؟؟

١ ـ من الامور الهامة، التي غابت عن ذهن خياطة ولم يستطع ادراكها هي **نفيه للصلة بين القديم والجديد**. والصلة بين القديم والجديد تجد تعبيرها في ان الجديد يتمسك بكل ما هو ايجابي في القديم. فقانون «نفي النفي» الديالكتيكي يؤكد ان «القديم في حركته الوالدة للجديد، لا يُرمى بكل بساطة من قبل الجديد بل يُزاح. والمفهوم الفلسفي لكلمة الإزاحة يعني، النفي والحفظ، في وقت واحد، نفي الوضع السابق، وحفظ كل ما هو ايجابي، في الجديد، كل ما حققه التطور السابق». فالفلسفة الماركسية نشأت كنفي للفلسفة السابقة، ولكنها، بعد تغلبها على الخاطىء

الذي لم يتحمل وطأة تجربة الزمن، احتفظت بكل ما تضمنته من حقائق[114].

لقد اغفل خياطة امر هذا القانون الديالكتيكي أحياناً ولاسيما عند موقفه من «الثقافة العباسية الخليعة» و«الثقافة الفرنسية الرومانتيكية والاكاديمية» الجافة الرجعية. ولم تتح له الظروف ليفهم ان الثقافة الاشتراكية تعيد النظر في تقدير الثقافة القديمة ودراستها بشكل انتقادي لتحفظ وتدعم كل ما هو ثمين تقدمي. ولكن خياطة عاد فأعطى لقانون نفي النفي حقه عند حديثه عن كيفية مقاومة العرب للغزو الصهيوني وعن قيادة هذه المقاومة التي عليها ان «تخرج من قلب الشعب وعقل الغرب» وان تقوم بكسر قيود الاستعمار. كما اشار خياطة ان على الشرق ان يتعلم من الغرب في صراعه او في مسيرته معه.

٢ ـ **تظهر الحزبية الفكرية** في كل سطر من كتابات خياطة، وقد اعلن عنها بصراحة متناهية. وهكذا فقد اعلن عن انحيازه إلى جانب الشعوب المستعبدة ضد مستثمريها وغاصبيها.

٣ ـ **الهجوم على الصهيونية** من وجهة نظر طبقية أولا وقومية ثانياً. لقد سلط خياطة الاضواء الماركسية اللينينية على الصهيونية وكشف عن زيفها وعنصريتها وطبيعتها الطبقية الرأسمالية ومطامحها التوسعية في الوطن العربي على حساب شعبه. ونرى ان ماكتبه خياطة عن الصهيونية لايزال يحتفظ الى الآن بجديته وقد اثبتت التجارب صحته. وكانت كتابة خياطة المستفيضة عن الصهيونية تمثل احد أوجه الصراع بين الاشتراكية والرأسمالية، بين حركة التحرر العربية والغزو الصهيوني الامبريالي. فقد دعا العرب بصفتهم مستثمَرين إلى الانضمام إلى حركة مستثمَري العالم سواء كانوا المانأً أم فرنسيين أم يهوداً أم صينيين وسودان.

٤ ـ **كان خياطة في مواقه القومية العربية طبقيّاً** الى أبعد الحدود. لقد هاجم بلا هوادة الزعامات الاقطاعية العربية، ورأى أن مفهوم «**الشعب العربي**» ينحصر في «الفلاح والعامل وصغار الباعة والشباب المفكر». كما أنه الف كتابه «**الحبشة المظلومة**» كما قال من أجل أن «انوّر شعبي العربي المظلوم عن قضية أخوان لهم» في الحبشة.

---

(١١٤) «المادية الديالكتيكية» تأليف جماعة من الاساتذة السوفييت. ترجمة مرعي، سباعي، جاموس. اصدار دار الجماهير. دمشق بلا تاريخ. ص ٣٠١.

فخياطة كان من أوائل الداعين في بلاد العرب الى الربط بين النضالين الاجتماعي الطبقي والقومي، وكذلك بين النضالين الاممي والقومي.

٥ - الوقوف بلا مواربة إلى جانب الاممية الثالثة وإدانة مواقف الاممية الثانية «الاشتراكية الديموقراطية»، والهجوم العنيف على الفاشستية مما يجيز لنا القول أن خياطة كان علماً من اعلام المناضلين (فكرياً) ضد الفاشستية وهي في مراحل صعودها الى الاوج، كما أنه فضح أيضاً الاهداف الحقيقية للحرب التي شنها الرأسماليون.

٦ - النظرة الطبقية الى التاريخ باعتباره تاريخ نضال طبقي بين مستثمِرين ومستثمَرين. لقد اعلن سليم خياطة بصراحة وجرأة اعتناقه لمبادىء «العالمين الالمانيين العظيمين ماركس وانجلز».

٧ - روح أممية عالية تتألم لألم المعذبين في سائر انحاء العالم وتعلن تعاطفها مع المناضلين في اليابان الفاشستية وصين الكومينتانغ والمانيا الهتلرية حيث يعذب تايلمان وفي ايطاليا الموسولينية، في فرنسا وانكلترا وامريكا اللاتينية. ولكن سليم خياطة الماركسي الذي نظر الى العالم بمنظار اممي لم ينس الشرق الذي يئن مقيدا بسلاسل المدافع ولم يهمل الاقطار العربية المسحوقة وسوريا المظلومة ضحية الرأسمال والاستعمار. لقد كان خياطة في الوطن العربي احد المعبرين عن آراء الحركة المعادية للرأسمالية والاستعمار، والتي ضمت بين جناحيها قوى الطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية وقوى الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي وقوى حركة التحرر الوطنية. وقد ازدادت هذه الدعوة وضوحاً عند خياطة بعد مؤتمر الاممية الشيوعية السابع في تموز ١٩٣٥، حيث نادى خياطة: «ياعمال الخير والفضيلة الانسانية في كل مكان، اتحدوا».

لاشك في ان هذه الدراسة المقتضبة لافكار سليم خياطة الماركسية لايمكن أن تحيط بجميع جوانب افكاره. ان من حق العربي الماركسي الجرىء سليم خياطة ان تخصص له الدراسات المطولة. فقد آن الأوان لإزالة الستار وتمزيق مؤامرات الصمت الاقطاعي البرجوازي عن المفكرين العرب المكافحين ضد الرأسمالية والاستعباد، الساعين الى خير الطبقات المضطهدة المظلومة في دنيا العروبة والعالم.... ولابد لذلك اليوم من فجر..

٤ ـ مرحلة أواخر الثلاثينات (شرح وترجمة وتأليف ونضال ضد الفاشية)

قبل ان يبرز سليم خياطة على مسرح الاحداث الفكرية ويبدأ في الكتابة، وقبل أن يترجم البيان الشيوعي الى العربية، ظهر عدة أشخاص عرب كتبوا عن الحركة العمالية العالمية وشرحوا بعض جوانب الماركسية. وكان في طليعة هؤلاء النقابي اللبناني فؤاد الشمالي، الذي استقى افكاره الماركسية الأولى اثناء وجوده في القطر المصري. ثم ابعدته عام ١٩٢٤ السلطات المصرية البورجوازية الاقطاعية الخاضعة آنذاك للاستعمار الانكليزي، عن مصر بسبب نشاطه النقابي العمالي وبتهمة البلشفية. فعاد إلى لبنان واستأنف نشاطه الفكري والسياسي فيه بهمة جبارة وعزيمة لاتلين.

بعد ابعاد فؤاد الشمالي عن مصر وعودته الى لبنان اصدر جريدتي «العمال» و «المريخ» وقام بتأسيس نقابة عمال التبغ في بكفيا، وقاد الحركة النقابية في لبنان في أواخر العشرينات واوائل الثلاثينات، كما أسهم في تأسيس وقيادة الحزب الشيوعي في أيامه الأولى، ويُعد الشمالي من أوائل من أسهموا في نشر الفكر الماركسي في الشرق العربي عن طريق الجرائد والنشاط النقابي والسياسي، أو عن طريق تأليف الكتب. فقد زار الشمالي الاتحاد السوفياتي سنة ١٩٢٨ وكتب عن مشاهداته هناك. ثم الّف كتاب «الانترناسيونال أو الاممية الاشتراكية الثلاث» وبعد ذلك نشر في سنة ١٩٣٦ في بيروت كتاب «الاشتراكية» الذي صدّره بلمحة عن تاريخ حياة «الزعيم الاشتراكي الاممي الاكبر الرفيق كارل ماركس».

اتصف كتاب الاشتراكية لفؤاد الشمالي الصادر سنة ١٩٣٦ بوضوح الافكار التي عالجها مع تبسيطها، حتى يتمكن الانسان العادي من فهمها، كما يتميز الكتاب بغزارة الافكار والمشكلات التي تطرق لها.

تعرض المؤلف لاسباب الانقسام بين الاحزاب الاشتراكية الاصلاحية والثورية. ورغم ادعائه الوقوف على الحياد وانه لم ينشر الدعاية لاحدى الامميتين الاشتراكيتين ضد الاخرى، الا انه قاد القارىء للاقتناع بصحة رأي الاحزاب الشيوعية، التي تجنب ذكر اسمها في جميع صفحات الكتاب واطلق عليها اسم «الاحزاب الاشتراكية الثورية». ويبدو من كتابه هذا انه مطلع على أسباب الخلاف

بين الاممیتین الثانية والثالثة، تلك الاسباب التي شرحها في كتابه «الانترناسيونال أو الامميات الاشتراكية الثلاث».

ثم استعرض الشمالي آراء الاشتراكيين والبورجوازيين في القضايا المختلفة محاولاً وضع افكار وآراء كارل ماركس في المقام اللائق ومحاولة اقناع الآخرين بصحتها تحت ستار عرض مختلف الآراء والمذاهب، ثم قام المؤلف ببحث المواضيع التالية: المجتمع الرأسمالي - الغاء الملكية الخاصة - استثمار الفرد أو القيمة الزائدة - الغاء التجارة الفردية - المرأة والعائلة - الوطن - الدين - الفلاحون - الاحسان - الدولة - التعليم - الطب - الضعيف والشيخ - الضائقة الاقتصادية - الانتاج الاشتراكي - حياة العمال في الاتحاد السوفياتي - دكتاتورية البروليتاريا.

ولابد ان كتاب «الاشتراكية» هذا قد أسهم في أواخر الثلاثينات في نشر الفكر الاشتراكي وأعطى صورة تقريبية عن الحياة في الدولة الاشتراكية، والقضاء على قسم من الاراجيف والدعايات الكاذبة ضد الاشتراكية وبلدها الأول.

بعد انتصار الحركة الوطنية، على اثر الحركة الجماهيرية في أوائل ۱۹۳٦، وبعد حصول سورية على جزء من السيادة الوطنية أثر توقيع مشروع معاهدة ۱۹۳٦، صدر في سنة ۱۹۳۷ كتاب بعنوان: **«انسانية جديدة تبني عالماً جديداً» لمؤلفه فرج الله الحلو** احد قادة الحزب الشيوعي في سورية ولبنان، الذي زار الاتحاد السوفياتي في سنة ١٩٣٤ وتجول في جمهوريات آسيا الوسطى، وضمّن هذا الكتاب مشاهداته وانطباعاته عن بلد الاشتراكية الأول.

ولعل المرء يتساءل عن سبب تأخر صدور كتاب فرج الله الحلو عن زمن الزيارة أكثر من ثلاث سنوات ويرجع السبب الى عدم توفر امكانية نشر كتاب يشرح مبادىء الاشتراكية في الاعوام التي سبقت الموجة الشعبية الجماهيرية المعادية للاستعمار سنة ١٩٣٦، لأن سيف الارهاب والقوانين المكافحة للتقدم حالت دون نشر أي كتيب أو كتاب يلقي الاضواء على الافكار الاشتراكية، التي تؤدي ليس الى وضوح التناقضات داخل المجتمع فقط، بل الى ازدياد اوار النضال ضد الاستعمار ووضوح أهداف هذا النضال. وهكذا فإن الشمالي تمكن من نشر كتابه في سنة ١٩٣٦ بعد انتصار الجبهة الشعبية في فرنسا، واستطاع فرج الله الحلو طبع مشاهداته وآرائه بعد انتصار الحركة الوطنية وتراجع الهجوم الاستعماري.

استهل فرج الله الحلو كتابه، انسانية جديدة تبني عالماً جديداً، بشرح وافٍ للماركسية، التي اطلق عليها اسم «فلسفة التحرير». وقال ان «الماركسية تسعى الى تحرير الانسان من نير الانسان، وأنها تسعى بذلك لتحرير المستعمرات من مستعمريها، ويجب ان لانظن ان هذا التحرير هو منحة». وبعدها شرح تطور الاشتراكية التاريخي «من عهد افلاطون الى عهد الفارابي وتوماس مور الى عهد سان سيمون وروبرت اوين الى عهد ماركس وانجلز الى عهد لينين مرّت الاشتراكية من حلم الى خيال الى رغبة الى علم الى حقيقة». ثم يستطرد فرج الله الحلو قائلا: «**وليست الماركسية بنت لينين ولا ربيبة روسيا القيصرية بل هي بنت التاريخ البشري وربيبة الانسانية بأجمعها**. وليس الاتحاد السوفياتي الا الميدان الأول لتحقيق هذه المبادىء، ولايمكن ان يفهم الاتحاد السوفياتي كل الفهم الا من يفهم الماركسية اولا من جهتها المبدئية»[115].

لقد سعى فرج الله الحلو هنا لتبيان ان الاشتراكية ليست وليدة مجتمع معين او بلد واحد بل هي بنت التاريخ العالمي اسهمت في وضع اسسها جميع الشعوب. وهو يرد بذلك على الدعاية البرجوازية، التي حاولت وتحاول اضفاء صفة الاقليمية والمحلية على الماركسية وحصر صلاحها في فترة معينة وبلد معين. وقد كان فرج الله الحلو على حق عندما اشار الى ان فهم الاتحاد السوفياتي لايمكن ان يتم بدون فهم الماركسية المطبقة هناك.

وبعد ذلك شرح مؤلف الكتاب علاقة الماركسيين بالاتحاد السوفياتي كما يلي: «ولاننظر نحن فقط الى الاتحاد السوفياتي نظرة العطف والاعجاب والامل، بل تنظر اليه كل الطبقات الكادحة وكل الشعوب المضطهدة في كل اطراف الدنيا كذلك. والاتحاد السوفياتي لايمثل أمل الانسانية عند الشعب السوفياتي، بل عند كل الشعوب. وكما استفاد الماركسيون الروس والماركسيون في المستعمرات الروسية القيصرية القديمة من كل الاختبارات الماركسية السابقة في الغرب لاجل تحرير شعوبهم، هكذا يستفيد الماركسيون الآخرون اليوم من كل اختباراتهم لتحرير شعوبهم ايضا. والتحرير كما قلنا لايمكن ان يبنى في أي مكان الا حسب مايمليه تاريخ ذلك

---

(115) الحلو، فرج الله: «مقتطفات من كتاباته» - بيروت 1962، ص 24.

المكان وحسب ماتمليه اوضاعه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الحاضرة. فإذا حولنا نظرنا في هذا الكتاب الى الاتحاد السوفياتي فلكي نعرف كيف ندرج على طريق الحرية بثقة متينة وخطة ثابتة».

اراد فرج الله الحلو من نشر كتيبه «انسانية جديدة تبني عالماً جديداً» اجابة قراء العربية عن اسئلة كثيرة تخالج افكار ابناء البلاد، وفي الوقت نفسه دحض اكاذيب الفاشيست المستعمرين ودعاية المضللين خدمة للحقيقة.

عالج فرج الله الحلو في كتيبه اموراً كثيرة مثل: حق الشعوب في تقرير مصيرها، الاقليات القومية في الاتحاد السوفياتي، ظفر الزراعة الاشتراكية والقضاء النهائي على الجوع وتعميم الآلة في الزراعة ـ الآلة التي ترفع مستوى الفلاح مادياً وفكريا ـ وغيرها من سبل الحياة في الاتحاد السوفياتي.

ثم ركّز المؤلف على ناحية جوهرية تهم الرأي العام في الشرق وهي العائلة السوفياتية، فقال: «يشيع أعداء الاتحاد السوفياتي، اعداء كل الجمهوريات الاشتراكية الحرة، ان لا عائلة في تلك البلاد، . . . ان الاب لايعرف ابنه، والابن لايعرف امه، والاخ لايعرف اخته، والاخت لاتعرف اخاها. . يقولون بأن النظام الشيوعي جلب معه شيوعية النساء فما عليك الا ان تختار أية فتاة كانت على الشارع حتى تكون «حلالك». . . وان اردت نبذها فليس أسهل من نبذها كالنواة. . . الاباحية في بلاد السوفيات. . . الاباحية في الاشتراكية. . كرروا هذه السخافات مدة ٢٠ سنة. . ومع الاسف قد اثرت هذه الدعاية الكاذبة المضللة على قسم كبير من الناس». وهو يرد على هذه الاكاذيب مستخدماً الاحصاءات والمنطق ومشاهداته الشخصية ثم تحدث مطولاً عن «العائلة المسلمة ورفاهها وهي مثال الفضيلة والعفة». ثم برهن على ان المجتمع الاشتراكي حرر المرأة في الاتحاد السوفياتي من الاباحية.

ونحن الآن عندما نقرأ أو نتذكر كيف كان المستعمرون والرجعيون ينشرون الاباطيل حول الحياة في الاتحاد السوفياتي، وبخاصة حول العائلة السوفياتية، وتصديق قسم من الناس لذلك، ندرك كم كانت ظروف النضال في سبيل نشر الفكر الاشتراكي صعبة بل وتُعَرض ناشرها الى مختلف المخاطر والمصاعب. فالطبقة الاقطاعية والبرجوازية حاولت بمختلف الوسائل منع الفكر الاشتراكي من الانتشار من أجل حجب الحقيقة عن أعين الجماهير وابقائها سجينة الافكار الرجعية، أو

الافكار التي لاتسعى الا الى **تحقيق الرفاه لفئة ضئيلة** جداً من المجتمع. لقد كان نشر الافكار الاشتراكية في ذلك الحين مأثرة لاصحابها سوف لن ينساها لهم التاريخ.

كانت فترة الحكم الوطني الأول (١٩٣٦ - ١٩٣٩) كما ذكرنا فترة نشاط ملحوظ في نشر الفكرة الماركسي والآراء التقدمية. وتمتع انصار التيار الديموقراطي الثوري والماركسي بحرية نسبية استطاعوا بفضلها من نشر عدد من المؤلفات والكراريس التي ذكرنا بعضا منها.

بعد مضي سنة ونصف على القاء خطاب **جورج ديمتروف** في مؤتمر الاممية الشيوعية العالمي (٢٥ تموز - ٢٠ آب ١٩٣٥) نشر الخطاب في سنة ١٩٣٧ على شكل كراس بعنوان: «**الفاشستية عدوة الشعوب**» أو «وحدة الطبقة العاملة في النضال ضد الفاشستية» وقد نقل الخطاب الى العربية **نقولا شاوي** - أحد قادة الحزب الشيوعي اللبناني آنذاك - ووضع مقدمته **خالد بكداش** - الشخصية الشيوعي الصاعدة في الفترة المبحوثة.

ذكر مقدم الكتاب أن ديمتروف وضع «امام الاقطار المستعمَرة، ومنها بلادنا العربية، واجب تأليف جبهة ضد الاستعمار لتناضل نضالاً مثمراً في سبيل استقلالها وحريتها»[١١٦]. ومع أن مقدمة الكتاب كانت سياسية، إلا أنها القت الضوء على الاتجاه الفكري لانصار التيار الماركسي. فبعد ان أورد مقدم الكتاب قول ديمتروف: يجب «... ان لانعمل في كل حين وفي كل مكان وفقاً لكليشة معينة. اذ يجب ألا يغرب عن بالنا أن وضعية الشيوعيين لايمكن ان تكون واحدة في ظروف مختلفة». ثم بين خالد بكداش «أن واجب كل شيوعي في الاقطار العربية، اذا كان يريد خدمة شعبه وتطبيق خطط حزبه بنجاح، أن يهتم اهتماماً كلياً بالاطلاع على شؤون بلاده الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، والاحاطة بثقافة العرب وتاريخهم والسعي في الوقت نفسه لتوسيع معارفه النظرية».

ثم عدد بكداش الفئات التي اغتبطت بنقل الخطاب الى العربية وهي: «العمال والفلاحون التقدميون والمتعلمون الثوريون والوطنيون المخلصون الديمقراطيون» كما «يغتبط له كل الذين يحبون وطنهم وشعبهم، كل الذين يريدون

---

(١١٦) ديمتروف جورج: «الفاشستية عدوة الشعب» - ترجمة نقولا شاوي. دمشق ١٩٣٧. ص

أن يروا بلادهم حرة مستقلة متقدمة، لابؤس ولا جوع ولا ارهاب فيها، قوية بكيانها الوطني وبنيانها الاقتصادي والاجتماعي، فخورة بثقافتها وتاريخها جادة في احياء أحسن تقاليدها، محافظة على ارث الماضي خيره وأفضله»، ولايخفى هنا التشابه بين التيارين: الديموقراطي الثوري والماركسي، في الدعوة الى احياء أحسن التقاليد والحفاظ على خير وافضل ما في الماضي من تراث، وفي هذه المقدمة لخالد بكداش تبدو الدعوة واضحة الى دراسة احوال البلاد بمختلف نواحيها والاحاطة بتاريخ العرب وثقافتهم والاهتمام بما هو خير ونير في هذا التراث.

ولم تكن كتابة هذه المقدمة لخطاب ديمتروف عن عبث أو محض صدفة، بل هدفت إلى بيان ان الاهتمام بالتراث العالمي لاينفي الاهتمام بالتراث القومي، وان التراثين العالمي والقومي غير متعارضين أو متناقضين.

في أوائل سنة ١٩٣٩ نشرت في دمشق أربعة أبحاث لستالين وبحث لموريس توريز مغفلة من اسم المعرب. مع مقدمة لخالد بكداش بعنوان «العرب وابحاث ستالين في المسألة الوطنية». وابحاث ستالين هذه حول القومية التي كتبت اثناء الحرب الاولى وبعدها نشرت في العربية تحت عنوان «طريق الاستقلال ـ المسألة الوطنية: نشؤها ـ تطورها ـ حلولها».. (١١٧).

استهل خالد بكداش مقدمته لكتاب ستالين بالعبارة التالية: «.... لانريد سوى الاشارة الى النقاط الرئيسية التي تهم القارىء العربي في كل بحث من هذه الابحاث ساعين جهدنا للوصول الى بعض نتائج عملية تتعلق بنضال العرب الحاضر في سبيل حريتهم الوطنية واستقلالهم».

واشار بكداش في المقدمة الى «الغموض المنتشر انتشاراً هائلاً في بلادنا حول قضية الامة وتعريفها والعلائم التي تميزها. فكثيراً ماتجد كاتباً عربياً واحداً يعطيك تعاريف مختلفة للامة في مقالات مختلفة». ولهذا تأتي أهمية نشر أبحاث ستالين حول الامة. ثم ينتقل بكداش للهجوم على النظريات العرقية والعنصرية عن الامة ويخلص إلى القول أن «مقال ستالين يبرهن فساد النظريات العرقية والعنصرية عن الأمة

---

(١١٧) ستالين: «طريق الاستقلال» «المسألة الوطنية: نشؤها ـ تطورها ـ حلولها» مكتب المطبوعات السياسية والاجتماعية. مقدمة الكتاب بقلم خالد بكداش. دمشق ١٩٣٩.

والقـوميـة ويثبت ان اليهـود لايؤلفـون أمـة وأن النظريات التي يتذرع بها الصهيونيون لتبرير سياستهم المجرمة في فلسطين هي نظريات باطلة . . . » .

وبعـد أن يلخص بكـداش في مقـدمتـه المكتـوبـة عام ١٩٣٩ ابحاث ستالين يستطرد قائلاً : «ان نشوء الامم وتطورها لم يسيرا بسرعة واحدة في كل الدنيا . فبينما ان بعض الامم تكـونت تماماً في الغـرب كانت شعـوب آسيـا وأفـريقيـا لاتـزال في عهد الاقطـاعيـة ولم تتكـون بعـد من أمم . . فامتنا لاتزال في طريق التطور والتكون أي في طريق استتـام العـلائم التي تميـز الأمـة . ويتوقف مستقبل هذا التطور والشكل الذي سينتهي اليه على عدة عوامل خارجية وداخلية . . . » .

بمنـاسبـة الـذكرى المئة والخمسين للثورة الفرنسية اصدرت مجلة «الطليعة» في سنـــة ١٩٣٩ عدداً خاصـاً اشـترك في تحريـره الى جانب الكتـاب العـرب نخبـة من الكتـاب الفـرنسيـين والانكليـز . لقـد كان اصـدار هذا العـدد في الـواقع ثمرة جهود مشتركة لانصار التيارين الديمقراطي الثوري والماركسي . وكنا نوهنا عند بحثنا للتيار الـديمـوقـراطي الثـوري الى القصد من وراء اصدار هذا العدد . ولن نتعرض هنا الا الى المقال الذي كتبه للطليعة الاستاذ فرج الله الحلو سكرتير الحزب الشيوعي اللبناني آنذاك ، بعنوان : «الثورة الفرنسية والثورة الروسية» . اذ كان هذا المقال تعبيراً عن فهم كاتبـه العميق لطبيعة كل من الثورتين ، وصـورة لمستـوى النضج الذي بلغته القيادة الفكرية للتيار الماركسي في سورية ولبنان على أعتاب الحرب العالمية الثانية .

بعـد أن أورد فرج الله الحلو أوجـه التشـابه والخلاف في ظروف نشأة وتطور كل من الثـورتـين وأهدافهما ، خلص الى القول : ان الثورة الفرنسية كانت ثورة برجوازية ديموقراطية ، في حين كانت الثورة الروسية ثورة بروليتارية اشتراكية ، ثم بين ان الثورة الـبر وليتـاريـة الروسية حققت في طريقها كل اغراض الثورة الفرنسية كثورة برجوازية ديمقـراطيـة ، ولكنهـا مضت الى أكثر من ذلك فحقق نظـامـاً جديـداً أرقى وأجمل وأحسن هو النظـام الاشـتراكي الـذي يضمن الحـريـة والاخـاء والمساواة الاشتراكية الصحيحة بقضائه على استثمار الانسان للانسان وبقضائه على الطبقات الاجتماعية المتنافرة ، وبالتدرج الحثيث الثابت نحو الشيوعية .

ثم استطرد فرج الله الحلو قائلا : بأن الثورة الاشتراكية لم تلغ استثمار الانسان للانسـان وسيـادة طبقة على اخرى في المجتمع فحسب ، بل الغت كذلك استثمار امة

لامـة وسيـادة بلد على بلد، فقضت بذلـك على الاستعـمار وجعلت العـلاقـات بين الشعـوب قائمـة على الاخـاء والمسـاواة التـامـة، بصـرف النظر عن الوانها وأجناسها وأوطـانهـا وعن درجـات تقـدمهـا وتطـورهـا، وبـذلك نفذت تنفيذاً صادقاً مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها[118].

ان هدفنـا من وراء نشر هذا المقطع حول اهداف ثورة اكتوبر هو تبيان ان قسماً من قراء العـربيـة اصبحـوا في أواخـر الثـلاثينات على اطلاع بأهداف وغايات الثورة الاشـتراكيـة وذلـك بفضـل النشـاط الـذي بذله انصار التيار الماركسي من أجل ازالة الغشاوة عن العيون وشق الطريق امام الجماهير العربية من أجل ان تسير باتجاه هدفها المنشود.

في ٦ و٧ ايـار ١٩٣٩ عقـد في بيروت «مؤتمـر مكـافحـة الفـاشستيـة السورية اللبناني الأول»[119]. وقـد اشترك في الإعداد لهذا المؤتمر انصار التيارين الديمقراطي الثوري والماركسي، حيث شكلوا لجنـة تحضيريـة دعت أكـبر عدد ممكن من القادة الـوطنيـين المعـادين للاستعـمار من مختلف المشـارب والالـوان. وقد شارك بعضهم في المؤتمـر وارسـل الآخـرون رسـائل وبرقيات التأييد. في هذا المؤتمر القى الاستاذ خالد بكـداش خطـابـاً بعنـوان: «الفـاشستيـة والشعـوب العـربيـة» استهله بتبيـان مخاطر الفـاشستيـة على العـرب وفق الصـورة التـالية: «اذا انتصرت ايطاليا والمانيا، فمعنى انتصارهما ان كل هذه الدول العربية الفتية، من بغداد إلى الرياض الى القاهرة تفقد كيـانهـا الاستقـلالي النـاشيء، وتصبـح مثـل طرابلس الغرب والحبشة أي مقاطعات طليانية أو المانية يحرم سكانها حق التكلم بلغتهم العربية. اذا انتصرت المانيا أو ايطاليا فمعنى انتصـارهما ان كل هذه الحـركـات الوطنية التحررية الفتية في سورية وفلسطين ستغرق في بحر من الدماء وتسحق بفؤوس جلادي روما وبرلين».

حاول بكـداش في خطـابـه هذا تبيـان الاخطار التي تلحق بالبلدان العربية في حال انتصار الفاشستية وخلص الى القول: بأن «النضال ضد الفاشستية هو في الوقت

---

(١١٨) انظر الطليعة، أيار ١٩٣٩. عدد خاص.

(١١٩) بكداش خالد: «الفاشستية والشعوب العربية» في: الطليعة، أيار ١٩٣٩ ص ٣٦٨ - ٣٨١.

الحـاضـر اعظم نضـال وطني وأول واجب قومي على كل العرب المخلصين» . ثم أكد على أن «الوقوف على الحياد أمر مستحيل بعد أن اصبح العالم منقسماً الى جبهتين : جبهة الدولة المعتدية التي تريد الحرب لاجل الاستيلاء على المستعمرات وهذه الدول هي ايطاليا والمانيا واليابان ، ثم جبهة الشعوب التي لاتريد الحرب» . وقد ميّز بكداش بوضـوح بين عمال وفلاحي واحـرار فرنسـا من جهة ، الذين يؤيدون نضال الشعب السوري ، وبين «الرجعية الاستعمارية الافرنسية» التي تمعن في تسليط سيف الارهاب على بلادنـا ودعـا الى «تـوطيـد أواصـر تحالف شريف قوي بين فرنسـا الديموقراطية وسوريا العربية» ، وهذا هو «السبيل الوحيد لسلامة استقلال البلد امام أخطار الفاشستية»[١٢٠] .

كنـا قد أشـرنـا عنـد بحث موقف التيـار الـديموقراطي الثوري من المشكلات العالمية الى استراتيجية وتاكتيك التيار الديموقراطي الثوري ، وهي نفسها استراتيجية وتـاكتيـك التيـار المـاركسي . هذا المـوقف يتلخص من الوجهة الاستراتيجية بمقاومة الاستعـمار الجـاثم على صدر الـوطن العـربي ، اي مقـاومـة الاستعـمار الافـرنسي والانكليـزي والايطـالي وكل استعمار يطمح في السيطرة ، ونعني الاستعمار الالماني . أما من الـوجهـة التـاكتيكيـة فإن الأمـر اختلف كثيراً على أعتاب الحرب العالمية الثانية ، على اثـر تفـاقم خطـر الفـاشستية وضرورة قيام جبهة عالمية معادية للفاشستية . ولهذا السبب فإن التيار الماركسي كان مضطراً لغض الطرف ، خلال فترة محدودة من الزمن ولسبب تاكتيكي محض ، عن السيـاسـة الانكليـزية الافرنسية بهدف تجميع القوى في النضـال ضد الفـاشستيـة والحـرب دون ان ينسى في الـوقت نفسـه تسليط النار على الرجعية في انكلترا وفرنسا التي تضطهد العرب والشعوب الاخرى وتمهد الطريق امام الفاشستية .

إن هذا المـوقف التـاكتيكي للتيـارين المـاركسي والـديمقـراطي الثـوري ، الذي فرضته ظروف تفـاقم خطـر الفـاشستيـة والحـرب ، وخطر استعباد العرب بشكل أكثر شراسة ووحشيـة من قبـل الفـاشستية والنازية ، هذا الموقف التاكتيكي تحاول بعض الأوساط تشويهه بهدف اتهام هذين التيارين «بالعمالة» لانكلترا أو فرنسا . ونكتفي هنا بالاشارة

---

(١٢٠) المصدر نفسه .

إلى ذلك دون ان ندخل في تفصيلات حجج كل من الطرفين، لان مجال بحثنا هنا لن يتعدى نطاق الفكر. ولكن لابد لنا من تكرار ماقلناه عند بحث موقف التيار الديموقراطي الثوري من المشكلات العالمية، من ان تصدي التيار الماركسي للموجة الفكرية الفاشستية العاتية وتعرية الفاشستية من جذورها واظهارها على حقيقتها، قدم للحركة الوطنية والقومية العربية خدمات جلى واسهم في تخليص اقسام عديدة من الحركة الوطنية من الوقوع بين مخالب الوحش الفاشستي والغرق في متاهة العنصرية والشوفينية. ومع ان التيار الماركسي لم يستطع التغلب نهائيا على هذه المساوىء، الا انه استطاع ان يقضي على بعضها، اويخفف على الاقل من آثارها الضارة. كما اغنى الحركة الوطنية ومن ثم القومية في مشرق الوطن العربي بمحتوى ديموقراطي، وانار أمام إقسام منها سبيل الرؤ ية الصحيحة وهذا مما أسهم، بالاضافة الى جملة عوامل اخرى في تسارع التطور اللاحق للحركة الوطنية واغناها بمضامين اجتماعية، الى درجة ان اقساماً مختلفة داخل الحركة القومية العربية اخذت تعترف بالنضال الطبقي، وبالاشتراكية العلمية كطريق وحيد لوصول الامة العربية إلى مبتغاها في إقامة المجتمع العربي الاشتراكي الموحد.

ان البحث في هذا الأمر يطول وهو يدخل في اطار متابعة تطور الحركة الفكرية بعد الحرب العالمية الثانية، بعد القضاء على الفاشستية وضعف النظام الامبريالي العالمي وبدء دخول الرأسمالية في ازمتها العامة الثالثة، حيث اصبح النضال الفكري أقل صعوبة مما كان عليه في فترة ماقبل الحرب الثانية، فترة انتعاش الافكار الفاشستية في العالم ومن ضمنها الاقطار العربية. ومن هنا تأتي أهمية الدور التاريخي للماركسيين العرب وللديموقراطيين الثوريين العرب الذين خاضوا معركة ضارية مع اعتى اعداء البشرية في ذلك الحين ومع اشرس اشكال الاستعمار، الا وهو الفاشستية.

٥ ـ أوائل الاربعينات

في اواخر الثلاثينات وأوائل الاربعينات اخذت حرارة البحث في القضايا الفكرية المتعلقة بتوضيح معالم الامة وتطورها وبالقومية وابعادها وبالعلاقة بين القومية والاممية تحتل مكاناً بارزاً، وحامياً احياناً، في نقاش المفكرين العرب. وهذا مما دفع

خالد بكداش في سنة ١٩٤٤ لتأليف كتيب صغير، بعنوان «الشيوعية والقومية»، رمى من وراء تأليفه الى الرد على السؤال الذي كان يعالجه فريق من الشباب ورجال السياسة والعلم والفكر. وكان هذا السؤال يطرح كالتالي: هل من تنافر بين الشيوعية والقومية؟ أو بعبارة اخرى: هل تتنافى مبادىء الشيوعية المشهورة بصبغتها العالمية الاممية مع الشعور الوطني أولا، أي مع حب الانسان لوطنه وتعلقه به واستعداده للدفاع عن استقلاله وسلامته ومصالحه، ومع الفكرة القومية ثانياً، أي مع طموح كل شعب الى المحافظة على كيانه القومي، وعلى خصائصه القومية وتراثه القومي وثقافته القومية، وعلى تطورها وازدهارها؟.

وقد أجاب خالد بكداش، منطلقاً من وجهة نظره في سنة ١٩٤٤ على هذا السؤال القديم الذي ابرزته الحياة بشكل اقوى وأوضح، ووضعته على كل شفة ولسان، في كتيبه بعنوان: «الشيوعية والقومية». ويقول بكداش معتمداً على تجارب شعوب الاتحاد السوفياتي بأن الوقائع برهنت «أن لاتناقض بين الشيوعية والشعور الوطني، وهي (أي الشيوعية) لاتقضي على كيان القوميات بل تحفظها وترقبها وتدفعها في طريق التطور والازدهار». ثم يورد بكداش خلاصة النزعة الاممية في الشيوعية بما يلي: «مساواة الامم والقوميات والاخاء بينها، وتضامن الجماهير الشعبية في كل الدنيا في النضال من أجل نظام يضمن هذه المساواة وهذا الاخاء». وبديهي كما يقول المؤلف: «أن وضع القومية على هذا الشكل يهمنا نحن العرب ويهم جميع الشعوب الصغيرة والمظلومة».

ثم يستعرض بكداش التطور التاريخي لمسألة القوميات الى ان اصبحت القضية القومية، أي قضية حرية القوميات المضطهَدة المستعبَدة المحرومة من حقوقها، مرتبطة بقضية التخلص من كل النظام الاستعماري العالمي، أي قضية تحرير الانسانية كلها من سيطرة الجماعات الرأسمالية الاستعمارية الضخمة العليا التي تستثمر نفس شعوبها في الغرب وتستعبدُ الشعوبَ والقوميات في الشرق. والحل في نظر الكاتب هو: التحرر من نير الاستعمار والانفصال عن الدول المستعمِرة، وتأليف دولة قومية مستقلة، ومن ثم الاتحاد الاختياري الحر مع جميع الشعوب الاخرى في نظام اقتصادي عالمي موحد على اساس المساواة التامة».

ولهذا فإن بكداش يدعو للتضامن **«مع جميع الشعوب العربية ومع الجماهير الشعبية في كل الاقطار»** من أجل «المحافظة على ما نالته بلادنا من حقوق وطنية استقلالية» وكذلك «مكافحة العقلية الرجعية . . . . التي تمنع انطلاق مواهب الشعب القومية ورقي ثقافته القومية وبناء كيان قومي قوي قائم على الازدهار الاقتصادي والمعنوي . . . . ويساهم في اغناء المدنية الانسانية كما فعل آباؤ نا العرب في عصورهم الزاهية المجيدة» . وختم بكداش كراسه بالعبارة التالية : «وطن حر وكيان قومي وطيد ، وشعب سعيد متقدم : هذا مايريده ، ويعمل له ويناضل في سبيله الشيوعيون العرب» .

في الاشهر الاخيرة من الحرب العالمية الثانية وعلى وجه الدقة في نيسان **١٩٤٥** ، صدر عن «مكتب المطبوعات الشعبية» بيروت ـ دمشق ، كتاب **ستالين «المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية»** الموضوع في ايلول **١٩٣٨** . قام بترجمة هذا الكتاب معرب البيان الشيوعي سنة **١٩٣٣ خالد بكداش**. وقد قام المعرب هنا بكتابة مقدمة اقتصرت على الامور الفلسفية دون الدخول في السياسة اليومية ، كما كانت عادته في مقدماته السابقة»[١٢١] .

عكست ترجمة الكتاب بنظرته الفلسفية العامة لتطور الكون والمجتمع ، وكذلك مقدمة المعرب ، درجة النضج الفكري ، التي وصل اليها المنادون بالفكر الاشتراكي في منتصف الاربعينات ، وقدرتهم على فهم وبالتالي ترجمة القضايا الفلسفية المعقدة ، بغض النظر عن الرأي الحالي في مؤلف ستالين المذكور.

جاء في مقدمة المعرب مايلي :

«حاول الفكر الانساني ، منذ عهود اقدم الفلاسفة الاولين ، تفسير الوجود ، وتكوين فكرة عامة عن الكون وعن المجتمع البشري . وكانت أفكار كل عصر تعكس الظروف السائدة» .

ثم اعطى المعرب فكرة عن تطور الفكر حتى وصل الى ماركس وانجلز ولينين وبين دورهم . واستأنف كلامه قائلا :

---

(١٢١) ستالين «المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية» ـ تعريب خالد بكداش . بيروت ـ دمشق ١٩٤٥ . ص ١ ـ ٤ .

«هكذا نشأت بعد قرن ونصف من الدراسات والابحاث العلمية والفنية والتاريخية، طريقةٌ جديدة حلت محل ماكان الأولون يسمونه «المنطق»، وهذه الطريقة هي «الديالكتيك»، أوعلم التغيرات في الفكر والطبيعة والتاريخ، هذه التغيرات الخاصة بقوانين التناقض، والفعل المتبادل، والرقي بقفزات. وتتمثل في هذه الطريقة خلاصة ماحققه الفكر البشري حتى الآن خلال تطوره الطويل من عهود فلاسفة اليونان القدماء، الى عهود للفلاسفة العرب، الى مفكري اوروبا الحديثة وعلمائها.

وبتطبيق هذه الطريقة على الحياة الاجتماعية، اصبحت السياسة علماً. وماذا كان من نتائجها؟ لقد كانت روسيا حتى عام ١٩١٧، أكثر اقطار اوروبا تأخراً في جميع الميادين، فاستعمل البلاشفة المادية الديالكتيكية كأداة للبحث والعمل، فجعلوا من وطنهم خلال ربع قرن، أكثر بلاد العالم قوة وازدهاراً ورقيّاً وحضارة.

وكما ان الفكر العربي القديم، الذي استمد من الفلسفة اليونانية خصباً فوق خصبه، وقوة فوق قوته، استطاع ان يكون أساس ذلك الجهد المُبدع الذي خلق حضارةً سيبقى ذكرها طويلاً في التاريخ، فإن الفكرَ العربيَّ الحديث، باستنارته بهذه الطريقة العلمية في البحث والتحليل، التي يستنير بها ملايين الناس من مختلف الاقطار والاجناس والاديان، يستطيع أن يساعد عمل الجماهير الشعبية العربية في سبيل حرية اوطانها ورقيها وسعادتها».

* * *

إن تحليل نصوص الفكر السياسي لمرحلة الاربعينات وتقييم الاتجاهات والقاء الاضواء على كثير من النواحي ستتم معالجتها في كتابنا اللاحق: «الاتجاهات الفكرية في المشرق العربي في مراحل الاستقلال» بعد ١٩٤٥. حيث ستتوضح العلاقة بين الفكر السياسي في مرحلتي النضال ضد الاستعمار والاستغلال المتغيرات الجديدة في مرحلة الاستقلال وماعقبها من اصلاح زراعي وتأميم حيث جرت تغييرات هامة على البنى الاقتصادية والاجتماعية. وستكون احدى أهداف الكتاب المقبل تتبُّعْ آثار هذه التبدلات التحتية في البنى الفوقية وأفكار الناس وسلوكهم . . . .

الفهرست

المقدمة ٥

الباب الأول ـ بداية تكّون التيارات الفكرية في أواخر العهد العثماني ١٨

الفصل الأول ـ العوامل الرئيسية المؤثرة في الحياة الفكرية ١٩

الفصل الثاني ـ الفكر الصوفي ٢٢

الفص الثالث ـ تصدع العلاقات القديمة وظهور الأفكار الجديدة ٢٧

الفصل الرابع ـ اعلام رجال التنوير ٣٠

الفصل الخامس ـ برامج الجمعيات والاحزاب السياسية (١٩٠٨ ـ ١٩١٤) ٣٦

الفصل السادس ـ التيار الديمقراطي الثوري ٥٣

الفصل السابع ـ حركة التحرر العربي بين اليمين واليسار ٥٨

الفصل الثامن ـ الثورة العربية في الحجاز ٦١

الفصل التاسع ـ الاتجاهات السائدة في الدولة الوطنية العربية بدمشق (١٩١٨ ـ ١٩٢٠) ٦٤

الباب الثاني ـ التيارات الفكرية في عهد النضال ضد الاحتلال الاجنبي ١٩٢٠ ـ ١٩٤٥ .... ٦٦

الفصل الأول ـ التيار الفكري الاقطاعي «العثملي» وردود الفعل ٦٩

الفصل الثاني ـ التيار الفكري للبرجوازية ٧٥

الفصل الثالث ـ التيارات الفكرية للبرجوازية الصغيرة ٨٠

الفصل الرابع ـ التيار الديمقراطي الثوري ١٠٨

الفصل الخامس ـ التيار الماركسي ١٧٠

هذا الكتاب

يتضمن هذا الكتاب مقدمة في منهجية البحث وبابين: يعالج الأول منهما بداية تكون التيارات الفكرية في مرحلة النهضة العربية، ويتناول الباب الثاني اتجاهات الفكر السياسي في مرحلة النضال المناهض للإمبريالية.

ومع أن المؤلف أولى اهتماماً خاصاً لتتبع تأثير البنية الاجتماعية الطبقية في تكون الأفكار وتبلورها في تيارات إقطاعية وبورجوازية واشتراكية، إلا أنه لم يهمل العوامل الأخرى، التي أسهمت في افراز تلك التيارات وتصفيتها في ثلاثة اتجاهات: دينية وقومية وماركسية.

وهذا التقسيم لايعني أن ثمة حدوداً وسدوداً تفصل بين هذه التيارات بعضها عن البعض الآخر، بل أن هذه التيارات تتداخل وتتشابك تشابك الطبقات والفئات الاجتماعية، التي تفرز هذه التيارات وهي تتمازج تمازج العوامل الداخلية (الاقتصادية - الاجتماعية) والعوامل الخارجية (البورجوازية والاشتراكية) والتراثية بجوانبها المتعددة والمتناقضة تناقض المجتمعات العربية - الإسلامية في عهودها الغابرة.

ولم يكن من السهل تناول التيارات الفكرية في مرحلة تميزت داخلياً بالانتقال من شكل للإقطاعية الشرقية العثمانية (قبل قانون الاراضي لعام ١٨٥٨) إلى شكل آخر للاستثمار الإقطاعي يتوافق مع الانتشار النسبي للعلاقات الرأسمالية ومع بداية تكون طبقة عاملة. وبسبب غياب التخوم التي تفصل طبقات المجتمع العربي بعضها عن البعض الآخر، والكثرة العددية للفئات الوسطى، فإن الفكر الميهمن في معظم التيارات كان فكر البورجوازية الصغيرة المتأرجحة بين يمين ويسار ورجعية وتقدمية ورأسمالية واشتراكية . . . . .

الناشر

٥٥